دعـــــوة من جامع الأحكـــام

«رسالة دكتوراه بامتياز»

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الناشر أو الكاتب مع شرط ذكر المصدر عند أي نقل.

دعوة

من جامع الأحكام

من تفسير الإمام القرطبي

رسالة دكتوراه بامتياز

الشيخ الدكتور

محمد بن حامد حَوَارِيّ

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة من سيرة الكاتب

انطلقت مجموعة من عائلة (حَوَارِيّ) مغادرين الحجاز ليستقروا في مختلف بلاد الشام.

إنها فرع من آل النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ومن نسل ابن عمته صفية بنت عبد المطلب المعروف بالزبير رضي الله تعالى عنهما، ذلك لأنه روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: [ندب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس يوم الخندق (ليأتوا بأخبار عدوهم)، فانتدب الزبير، ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال صلى الله عليه وآله وسلم «إن لكل نبي حوارياً وحواريّي الزبير»] (لأنه الوحيد الذي تكررت منه الاستجابة).

وقد ولد الكاتب صاحب هذه السيرة عام ١٣٥٠ هـ من أبوين حواريّين، وقد استشهد والده حامد وعمه الوحيد فارس في الجهاد ضد الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني.

هذا وقد التحق الكاتب بالجامعة السورية بدمشق ليتخرج منها بإجازة (ليسانس) في الآداب ثم بإجازة (ليسانس) أخرى في التربية وباشر بعدها عمله في الكويت ليقضي ثلاثين عاماً من عمره هناك حتى عام ١٩٩٠ م بين التدريس والإشراف الفني والإداري والدراسات والبحوث والترجمة والنشاط في مختلف المجالات الفكرية والسياسية... ودرس خلالها مقرر درجة الدبلوم العالي في الدراسات الإسلامية العليا في القاهرة.

وقد كتب أكثر من مائة وعشرين دراسة وبحثاً شملت جميع الميادين التربوية والثقافية والعلمية والاتصالات، بالإضافة للعديد من سلاسل المقالات التربوية والثقافية والإدراية التي نشرت في دوريات يومية وأسبوعية كويتية.

وقد شملت مؤلفاته هذين الكتابين:

١ ـ الإيمان يغيّر الإنسان فيبني الفرد والمجتمع، وقد ترجم هذا الكتاب بنفسه إلى اللغة الإنجليزية، وسجل الكتابين بشكل ندوات على أشرطة (الكاسيت)، وجعله القسم الأول من كتاب الإيمان بغيِّر الإنسان.

٢ ـ ... ويفرض الشريعة للحياة، وقد ترجم هذا الكتاب أيضاً بنفسه إلى الإنجليزية، وسجل الكتابين بشكل ندوات كالسابق على أشرطة (الكاسيت)، وجعله القسم الثاني من كتاب الإيمان بغيِّر الإنسان المذكور أعلاه.

بالإضافة إلى الكتب التالية:

١ ـ دعوة من جامع الأحكام، وهو دراسة لتفسير الإمام القرطبي في أربعة أجزاء، بالإضافة لدليل بموضوعات وأهداف السور.

٢ ـ أئمة الشريعة الإسلامية.

٣ ـ لمن كان له عقل.. فليتدبر هذه البحوث الإسلامية الخمسة عشر.

٤ ـ السلام.. إلى أين؟ واشتمل على أربعة أقسام.

٥ ـ ولوج المعرفة.. واشتمل على خمسة أقسام.

٦ ـ الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه إمام المذهب الإباضي.

وقد نال الكاتب درجتي (الماجستير) والدكتوراة في موضوع مقارنة الأديان الستة: الإسلام والنصرانية واليهودية والهندوسية والبوذية والكونفوشية، ثم نال درجة دكتوراة أخرى في مجال دراسة تفسير القرآن الكريم.

وتجدون في هذا الكتاب دعوة لفهم القرآن الكريم والتزام كل ما فيه من عقائد وأحكام، من أوامر ونواه، مما يرجى معه من تحقيق سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا والرضا الرباني في الأخرى..

وختاماً نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يجعل في هذا الكتاب الخير للإسلام ودعوته، وأن يجزي كاتبه خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين

admin@Hawarey.org

تمهيد

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ [الكهف: ١]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أحمده تعالى الذي به وحده أستعين، وعليه أتوكل، وهو رب العرش العظيم..

أحمده تعالى الذي مدَّ في عمري وأعانني على إنجاز هذا الكتاب مع غيره من الكتب..

أحمده تعالى وأرجوه وألحُّ في الرجاء أن يمكنني من نشره باللغة العربية أولا ثم بالإنجليزية ثم باللغات الأخرى التي أطمع أن يتمكن أهل الخبرة من القيام بالترجمة إليها فيما بعد، إنه سميع قريب مجيب.

وبعد.

فقد قضيت من عمري أكثر من الخمسين سنة الماضية أعيش مع كتب العلوم الشرعية، ومجالسها، وحلقاتها دون أن أترك عتباً لنوع منها من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وفكر ولغة، جنباً إلى جنب مع البحوث النفسية والاجتماعية والتربوية.. ولكن مع الحرص على أنها ليست مجرد علوم نظرية بحتة بل للحياة وشئونها.

ولقد رأيت هذا الجهد الصادق الذي رفد المكتبة الإسلامية بزخم مبارك من المؤلفات في مختلف المجالات الشرعية التي تركز على الجوانب النظرية بخاصة وبحياء على التطبيقية بعامة، بغض النظر عما تقدمه القنوات التلفزيونية والإذاعية بخاصة ووسائل الإعلام الأخرى بعامة من دراسات وبحوث لمختلف الجوانب.

وقد علمت مبكراً أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما مصدرا التشريع الإسلامي، وأن أدلة هذا التشريع التفصيلية هي القرآن والسنة، وإجماع الصحابة فقط وليس أي إجماع آخر مع اختلاف الأئمة في ذلك، والقياس الشرعي وليس العقلي.

وقد أدركت يقيناً من خلال مدارسة السيرة النبوية في ضوء النصوص القرآنية والنبوية بأن إعادة التشريع الإسلامي للحياة واجب شرعي وفرض كفاية إذا استطاع ذلك القائمون عليه، وفرض عين إذا عجزوا عن ذلك.

وقد لمست أن القيام بهذا الفرض والواجب، كما تنقصه الأيدي المخلصة الواعية القادرة على ذلك من الناحية العملية ينقصه المزيد من التيسير والتوضيح لتفسير القرآن الكريم الموجود في بيت كل مسلم بشكل يُسهل الكشف عن النواحي الفكرية والعملية لسوره وآياته بحيث يدفع المسلمين للتحول الصادق من استخدامه للتبرك والوعظ والتلاوة في المناسبات والحفلات إلى العيش على أحكامه في حياتهم المجتمعية لا الفردية فقط، مستعينين في ذلك بالسيرة النبوية التي تضبط حمل الدعوة الإسلامية، فكرياً وعملياً، وتنقذ العاملين في هذا المجال من الانحراف عن طريقة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام الواجبة الاتباع، كيف لا والله تعالى يقول: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقد ظهر لي أن بهذا التوضيح والضبط يزداد حامل الدعوة الإسلامية نوراً وضياء في المجالين الفكري والعملي، ولكنه يبقى بحاجة لكتاب هذه «الدعوة . .» الذي لا يكتفي بالوقوف الفكري النظري مع كتاب الله تعالى بل يتعداه إلى العملي ولا سيما في مجال العقائد والأحكام معاً، ويربطه بشحذ الهمم للعمل مع العلم وليس لمجرد العلم فقط.

ومن أجل المزيد من الوضوح والالتزام الفكري والعملي فقد عمدت إلى كتابة كتاب (ملحق مرافق) يبين أبرز ما في كل سورة من السور القرآنية من الموضوعات والأهداف وألحقتها بها عقب الانتهاء من تفسير كل سورة منها وإن بقي الكتاب ممكن الطباعة منفصلا.

وهكذا فقد جاء هذا «التمهيد» بداية لـِ «تقديم الكتاب» التالي الذي قدم التقديم اللّازم، وبالإيجاز المناسب، المفاهيم العملية للعقائد والأحكام الإسلامية.

وأما منهج العمل في هذه «الدعوة . .» فقد جاء كما يلي:

١ - لقد حصرت جهدي إلى حد بعيد لإنجاز هذا الكتاب في دراسة تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - الطبعة الثالثة الصادرة عن دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م، وتصحيح الشيخ أحمد عبد

العليم البردوني، والذي جاء في عشرة مجلدات، وزعت أجزاء القرآن الثلاثين على عشرين جزءاً وبواقع جزئين في كل مجلد، ولكنني لم أتقيد في هذا الكتاب بهذا التوزيع، كما لم أتقيد بالإثني عشر مجلداً التي جاءت من الإمام القرطبي، وإنما جعلته أربعة أجزاء تشمل دراسة تفسير الأجزاء القرآنية الثلاثين في مجلدين اثنين فقط.

٢- لقد سرت في العمل كما يلي: قرأت (الجامع) أربع مرات: في الأولى بمجلداته العشرة جميعاً، ونقلت بهذه القراءة كل ما لفت نظري من معاني كل آية، وكل سورة إلى كراسات عدة، وفي الثانية لكل مجلد على نصفين، وأشّرت فيها بقلم رصاص على الكثير من المعاني والنصوص بالإضافة لما نقل في الأولى، وفي الثالثة لكل نصف مجلد أيضاً كالثانية، ونقلت فيها كل تلك المعاني لتشكل «التقديم» لكل سورة، وفي الرابعة لكل سورة كاملة، ونقلت فيها كل مجموعة مترابطة من الآيات أولاً ثم «التفسير» لهذه المجموعة.

وقد راعيت في كتابة الشكل النهائي لهذا الكتاب ما يلي:

١ ـ كتابة كل مجموعة من الآيات المترابطة حول موضوع واحد أو مجال واحد، وإلحاقها بتفسيرها، وتقديمها بعبارة تشير إلى موضوعها.

٢ ـ جاءت مجموعات الآيات لكل سورة تحت عنوان «التفسير» بينما جاء تقديم السورة تحت عنوان «التقديم»، ثم جاء «دليل السورة» عقب التفسير.

٣ ـ يشتمل هذا (التقديم) على جميع الموضوعات والأهداف والأمور في السورة دون ذكر نصوص إلا نادراً، وأما ذاك (التفسير) فيشمل تلك النصوص التي توضح التفسير الموجز لمجموعات الآيات كل مجموعة حسب موضوعها، وأما (الدليل) فيشير إلى موضوعات وأهداف كل سورة يجد القارئ فيها ما يعينه على الإحاطة بمضمونها بيسر وسهولة.

٤ ـ اعتمدت ما رجحه الإمام القرطبي من أحكام تستنبط من كل آية من الآيات كمجتهد على المذهب المالكي، هذا في الأعم الأغلب، ولا سيما عندما يكون استناده إلى إجماع الصحابة ودون وجود أي دليل مرجح من الكتاب أو السنة.

٥ ـ لم أتقيد بفهم الحركات الإسلامية القديمة، ولا بفهم الإمام القرطبي، في مجال العقائد الإسلامية من حيث مفهوم القضاء والقدر وما يتصل به من مفاهيم علم الله

المطلق ومشيئته تعالى وإذنه وإرادته، وليس من حيث عناصر الإيمان، واستندتُ في ذلك فقط إلى النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة من الكتاب والسنة، وهذا في مجال النقل وأما في مجال العقل فقد استندتُ على الدليل المحسوس الملموس فقط.

٦ ـ طرحتُ جانباً جميع الإسرائيليات المتسربة في الروايات سواء في الحديث أو التفسير بكل ما استطعت، وطرحتُ جانباً التفسيرات العلمية المتأثرة بعلوم العهود السابقة، وتجنبتُ كل التفسيرات هذه إلا ما ندر، لأن القرآن كتاب هداية وتشريع لا كتاب علوم، ولأن إشاراته إلى المظاهر الكونية ليس بأكثر من دلالات على قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته وإن كان في ذلك المزيد من إعجاز الرسالة الإسلامية إلى جميع البشرية وعلى مدى الزمان والمكان.

٧ ـ لقد اقتصرت في التركيز على توضيح آيات العقائد والأحكام وعدم الوقوف عند اللغة والقراءات السبعة أو العشرة للقرآن الكريم إلا ما ندر وذلك لأن الهدف من هذا الكتاب هو عدم إشغال ذهن القارئ الكريم بغير التفكير فيما يطرح عليه من أفكار ومفاهيم ليعمل على تحقيقها في واقع حياته الفردية والمجتمعيّة، وإلا فالكتب في المجالات العلمية والتعليمية واللغوية تشتكي منها رفوف المكتبات الخاصة والعامة على حد سواء.

٨ ـ لقد حرصت على الجمع بين استثارة التدبر والتفكير في مجالات العقيدة وبين استثارة المشاعر والعواطف الإسلامية في مجالاتها ومجالات الأحكام العملية وذلك بقصد تحقيق بناء الشخصية الإسلاميّة بعنصريها الأساسيين: العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية، وفي نفس الوقت بقصد الدعوة للحرص على التزام الأحكام في الحياة الفردية والمجتمعية..

٩ ـ لقد تعمدت ذكر الناسخ والمنسوخ من الأحكام حيث يلزم وذلك لأهمية هذا الأمر في الالتزام والتطبيق الفردي والجماعي.

١٠ ـ لقد وقفت ملياً عند التبني على الفرق الحاسم بين الوحي المنزل في العهد المكّي وذاك في العهد المدني لما لذلك من أهمية شرعية قصوى في مجال حمل الدعوة الإسلامية الذي تتصدى له العديد من الحركات الإسلامية في الحاضر وفي كل وقت.

١١ ـ لقد اضطررت لإدخال الجهد الشخصي أحياناً في طباعة الحاسوب (الكمبيوتر) لهذا المجهود وذلك بقصد إتقان الرسم القرآني بالشكل العثماني المعروف،

مما استدعى المزيد من الاجتهاد واستعمال عدة برامج مستعيناً بالله تعالى ثم من خلال أكثر من خبير من خبراء الطباعة بالحاسوب الذين أدعو لهم بخير الجزاء على تعاونهم الكبير في هذا المجال وفي إخراج وطباعة هذا المجهود ككل مما أرجو معه منه تعالى تحقيق خدمة كتابه الكريم بالشكل السليم.

١٢ ـ ولكنني بالرغم من كل هذا الجهد الحريص على الإتقان أرجو من المولى سبحانه أولاً ثم من إخوتي المسلمين من علماء ومتعلمين أن أجد عذراً لأي خطأ أو تقصير لم يمكن تلافيه بسبب محدودية جهدي البشري، وسأبقى شاكراً بل مديناً لكل من يدلني على الخطأ أو يرشدني إلى الصواب في أي جانب من هذا الكتاب.

١٣ ـ لقد اعتمدت في الرسم القرآني وما يقتضيه من قواعد الضبط والوقف اللازمة لسلامة التلاوة والفهم لكتاب الله تعالى على عون الله تعالى أولاً ومن ثم على مرجع أساسي هو مصحف المدينة المنورة الذي يصدره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف الذي أرجو للقائمين عليه خير الجزاء لهذا الجهد الطيب.

تَقْدِيم

أكرر مع هذا التقديم ما بدأته مع ذاك التمهيد السابق الحمد لله والصلاة والسلام على سيدي رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، ثم استأنف قائلا:

لـمّا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] فلن يستطيع تأدية هذه الشهادة بحقها إلا من تعلم القرآن ليحمل مضمونه دعوة للناس، وذلك بدليل قوله تعالى ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤] وهل نزل للناس بالكلمات والمعاني غير هذا القرآن الكريم، وبالمعاني غير تلك السنة النبوية؟ وهل أنزلا إلا لبيان الحق والدعوة إليه؟

إن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام حين يقول «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه» فإنه عليه وآله وصحبه السلام يدعونا لا لمجرد تعلم القرآن، علماً وفهماً، بل لتعليمه للآخرين، فهماً وعملاً، وبذلك وحده تتحقق الخيرية في المسلم التي أعلنها المولى سبحانه عندما قال ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهو سبحانه يحدد الشروط الثلاثة التي تتوفر بتوفرها الخيرية، والتي لو سقط بعضها، كما هو حال المسلمين اليوم، لسقطت

هذه الخيرية وحلت محلها البليّة، الأمر الذي يفرض على المسلمين الحرص على العودة ليكونوا خير أمة وإلا فالويل من مزيد الضياع والتشتت والظلم..

وليذكر المسلمون أن كتاب الله تعالى يستصرخهم بقوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤]: أن هبّوا أيها المسلمون، وشكلوا منكم جماعة، سواء كانت واحدة أو متعددة، تتصف بتلك الأوصاف وتتلبس بالقيام بحمل الدعوة إلى الخير، أي إلى الإسلام كله لا بعضه، وبالأمر بالمعروف من كل ما أحل الله تعالى في كتابه وسنة رسوله عليه وآله وصحبه السلام، وبالنهي عن المنكر من كل ما حرمه تعالى في الكتاب والسنة.

وكيف يتحقق قيام مثل هذه الجماعة أو الجماعات الإسلامية أو الحزب أو الأحزاب الإسلامية إذا لم يُقبِل المسلمون على كتاب الله تعالى يتدارسونه ويفهمونه ويعملون بما فيه، مسترشدين بالسنة النبوية والسيرة النبوية وما أجمع عليه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين؟

ولكن لماذا التفريق بين السنة النبوية والسيرة النبوية؟ ذلك لأن السنة النبوية تشمل كل ما صدر عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام من قول أو فعل أو تقرير، أي على الجانب العلمي بالذات الواجب الالتزام في الحياة العملية بينما السيرة النبوية تقف عند جانب واحد من السنة النبوية ألا وهو مسيرته العملية كرسول مبلغ لرسالة ربه فقط في العهد المكي، وكرسول وحاكم برسالة ربه معاً في العهد المدني أي على الجانب العملي. وهذا التفريق واضح عند الحديث عن كتب السيرة وكتب السنة، فالسيرة تبين الطريقة التي التزمها عليه وآله وصحبه السلام في سيره منذ أول نزول الوحي عليه في مكة حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى في المدينة. فقد بدأ بإعداد كل فرد يؤمن بدعوته إعداداً مركزاً يجمع بين العلم بالآيات التي تنزل والعمل بها، فكان إعداداً فكرياً، لأنه يعيد صياغة أفكار الفرد لتصبح إسلامية بعد أن كانت جاهلية، وإعداداً سياسياً، لأنه يعيد تشكيل سلوكه كفرد وكعضو في مجتمع إسلامي مقبل، وإعداداً روحياً، لأنه يربط أفكاره وأعماله بأوامر الله ونواهيه، فكانت النتيجة قدرة كبيرة على تحدي الصعاب والتضحية ابتغاء مرضاة الله تعالى..

ومع هذا الإعداد الفردي كان عليه وآله وصحبه السلام يخاطب المجتمع المكي الجاهلي مخاطبة صريحة واضحة بما ينزل عليه من ربه ليقوّم عقائدهم ويصحح بنيانهم

المجتمعي الفاسد بهذا الإعداد الجماعي الفكري وهو يدعوهم للعدل وعدم تطفيف الكيل والميزان مثلاً في تدبير مصالحهم كما ورد في سورة المطففين المشتركة بين العهدين المكي والمدني، كما أخذ يدعو من يأنس فيه القدرة على حمايته وحماية أصحابه أو نصرة دينه وتحكيمه في حياة الناس مما سمي في السيرة بطلب النصرة، وهو طلب كان مفهوماً لدى من يعرض عليه، وقد ظهر ذلك جليّاً مع شيخ بني عامر بن صعصعة عندما قال له الرسول عليه وآله السلام «تؤمن بي وتنصرني» فطلب مقابل ذلك أن يجعل إليه أمر الناس وحكمهم بعده عليه وآله السلام، ولكنه عليه وآله السلام رد عليه «لا، الأمر لله يجعله حيث يشاء».

واستمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام في طريقه بالقيام بالأعمال الأربعة في العهد المكي: التثقيف الفردي الفكري المركز، والتثقيف الجماعي الفكري العام، وبيان مصالح الناس، وتحدي الطغاة المتسلطين على الناس، استمر في ذلك حتى جاءته النصرة من يثرب بعد أن آمن معه منها من آمن، وأخذ منهم بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، بيعة النصرة والقتال، ثم جاءت الهجرة، فانتقل بها الرسول عليه وآله وصحبه السلام من رسول مبلغ رسالة ربه إلى رسول مبلغ وحاكم برسالة ربه معاً.

هذه هي الطريقة التي سار فيها الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتبليغ الفكرة الإسلامية فقط في العهد المكي ولتطبيق كل ما ينبثق ويبنى على تلك الفكرة من أحكام ومفاهيم وحملها للناس والشعوب والأمم الأخرى بالجهاد في العهد المدني من خلال الدولة الإسلامية التي تمثل ذروة وخاتمة الطريقة.

صحيح أن السيرة النبوية تشمل الجانبين العلمي والعملي معاً من حيث واقعها ولكنني عمدتُ إلى التفريق بين الجانب العلمي عندما أسميته بالسنة عن الجانب العملي عندما أسميته بالسيرة بقصد التركيز والتنبيه على المسار العملي اللازم والواجب لاستئناف الحياة الإسلامية بدلاً من ضياعه في خضم المسار العلمي المعروف عادةً..

ومن أنّى للمسلم أن يعي ذلك وييسر عليه ليعيش مجتمعه عليه دون إقبال على كتاب الله، للفهم والعمل، وعلى سيرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام، للفهم والإتباع؟

إن بهذا الفهم والعمل والإتباع للكتاب والسنة الاطمئنان بجانب الله تعالى القائل ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، فتسير الجماعة أو الحزب الإسلامي وهو متأكد من سلامة طريقه باتباع هدى الله تعالى في العقائد والأحكام، فيتجنب

الضلال في المعتقد، والشقاء في الأعمال، لا لشيء إلا لأنه التزم الإسلام في فكرته وطريقته إذ التزام القرآن وما يفرضه من السنة والسيرة معاً وما يقره إجماع الصحابة والقياس الشرعي معاً هو الذي يشمله معنى الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩ ـ ١٠].. ومعنى الآية ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] والعمل بالآية ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] مع كامل القناعة والرضى بالآية ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وانظروا إلى ما ذكره أبو عمر الداني عن عثمان وابن مسعود وأبي رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كان يقرئهم العشر، أي من الآيات، فلا يجاوز منها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل (فيعلمنا القرآن والعمل جميعاً)، فلم يكن همهم الحفظ غيباً لآيات القرآن الكريم، مع ما فيه من الفضل العظيم، ولكن مع معرفة أحكام كل ما يحفظ قبل الانتقال لآيات أخرى.. إنه القرآن للحياة والتطبيق لا للحفظ والتلاوة فقط.

هذا بالنسبة لتعلم القرآن والعمل به، كأفراد وجماعات، وأما بالنسبة لإعجازه كسبب رئيسي من أسباب حمله رسالة لإنقاذ البشرية مما هي فيه من الظلم والفساد فإن المعجزة حتى تعتبر معجزة لابد من أن تتوفر فيها خمسة شروط هي: أن لايقدر على الإتيان بها إلا الله تعالى، وأن تخرق العادة، وأن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله تعالى، وأن تأتي وفق دعوى الرسول المستشهد بها كمعجزة، وأن يعجز عن الإتيان بها أحد بمثل ما أتى بها المستشهد. وهذه الشروط الخمسة متوفرة في القرآن الكريم مما يجزم أنه معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الباقية بعده إلى يوم القيامة، ذلك لأنه لم يدع الإتيان به عن الله تعالى غيره عليه وآله وصحبه السلام، ولأنه لم يدع ذلك عليه وآله السلام لنفسه أو أنه أتى به من ذاته وإنما هو رسول الله المبلغ له عن ربه، مما يفرض من الناحية العقلية إما أن يكون ما يدعيه غير صحيح وأنه قد أتى به من ذاته، وإما أن يكون قد نقله عن غيره، وإما أن لا يكون من لدنه ولا من غيره من البشر وإنما هو من خالق البشر القادر على كل شيء.

أما من ذاته فإنه مستحيل لأنه لم يدعه، ولم يدع ذلك عليه أحد، وأنه إذا فشل كل العرب غيره عنه فكيف يكون هو الأول والآخر من بينهم، فما يستحيل عليهم

يستحيل عليه كبشر، كما لم يدعه أحد غيره وكل ما زعموه أنه عليه وآله وصحبه السلام قد كان يأخذه من غلام نصراني اسمه جبر، ولكن هذا الغلام كان لسوء حظهم وبيان فريتهم لا يجيد العربية فكيف بقمة الإعجاز فيها، ولذلك رد عليهم القرآن كذبهم فقال ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. ولم يكتف القرآن الكريم بهذا الرد بل تحداهم ليأتوا بمثله ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] وقال ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقبلوا التحدي وحاولوا وفشلوا فحسم الأمر معهم بقوله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، مما يجزم أنه من الخالق سبحانه وأنه بالتالي معجزة رسولنا المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الذي بلّغه، وأنه هو بالتالي عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام الرسول المصطفى للخلق أجمعين بهذه الرسالة الرحمة ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولما كانت هذه الرسالة المعجزة قد أرسلت بهذا الوصف والحال فيجب على من أرسلت إليهم أن يحققوا فيهم هدفها ومقصدها وإلا اعتبروا أنفسهم ليسوا المعنيين بها بل ليسوا من الناس أو على الأقل ليسوا ممن يستحقون رحمتها!!

هذا بالنسبة لإعجاز القرآن الكريم، وما يقتضيه في حق البشر أجمعين، بل كل العالمين، وأما بالنسبة لأخطر وأهم جانب من جوانب هذه المعجزة، وكل جوانبها خطرة ومهمة، فهو مضمون آيات العقائد. فإنه لابد من وقفة ولو موجزة ولكنها متأنية توضح تماماً ذلك حتى يتوفر الأساس الإسلامي الصلب في العقول والنفوس، ويكون بشكل لا يعتريه أي شك ولا يلحقه أي خلل، بل يكون من القوة والثبات بحيث يدفع صاحبه إلى الحركة بكل همة ونشاط لتحقيقه حياً في واقع حياته وحياة غيره ما دامت هذه الرسالة رحمة للعالمين، وهي لن تكون كذلك إلا إذا عاش عليها هؤلاء العالمين من إنس وجن، وإذا تركنا عالم الجن لشأنهم فلمن يترك عالم الإنس أيها الإنسان؟!

وإذا أردنا أن نحدد عناصر العقيدة الإسلامية، وقاعدة إثباتها السليمة، فإننا نجد القرآن الكريم يغني عن بذل أي جهد وهو يقول ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] مبيناً أن الإيمان أو العقيدة الإسلامية هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، ولكن أين القضاء

والقدر؟ فقد وردت في آيات عديدة مرة بلفظ القدر مثل ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] ومرة بلفظ القضاء مثل ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١] وكلاهما تعني القضاء والقدر في مصطلح علماء الوحدانية، ففي هذين النصين ونصوص أخرى كثيرة تتأكد عقيدة القضاء والقدر كما تتأكد بقية عناصر العقيدة الإسلامية من الآية السابقة، وكلها آيات قرآنية قطعية الثبوت قطعية الدلالة مما لا يُبقي أي مجال للشك لدى الفرد المسلم في عقيدته بجميع عناصرها.

أما إثبات هذه العناصر الإيمانية فكتب علم الوحدانية ولا أقول التوحيد طافحة بتفصيلات ذلك، ولكن لابد من كلمة تناسب هذا الكتاب بصدد كل منها.

أما الإيمان بالله تعالى فهو الإيمان بوجوده سبحانه لا بذاته، لأن الذات الإلهية لا تدركها العقول ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وأما وجوده تعالى فإنه مدرك بالإدراك العقلي المستند إلى الواقع المادي المحسوس الملموس، الواقع الذي لاشك في وجوده، والذي يدل على أن الإنسان مخلوق لخالق، وأن هذا الخالق خلقه وفق نظام بديع في ذاته وفي علاقته مع الكون المادي من حوله، مما يجزم أن هذا الخالق ليس خالقاً فقط بل مدبراً لما خلق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٣]. فمثلاً: ناطحة السحاب تدل بوجودها المتقن على وجود المهندس الذي وضع مخططها وأشرف على تشييدها، ناهيك عن وجود كل من اشترك في إنجاز أي جانب من جوانبها.

وأما الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقد ثبت لنا من ثبوت رسالته المنزلة عليه من الله تعالى بالدليل العقلي الذي أكد بشكل جازم بأن القرآن الكريم منزل من الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كما ظهر سابقاً من إعجازه. وأما الإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغيرها من المغيبات، من الجن والشياطين والجنة والنار، فإنها كلها مغيبة عن الإدراك العقلي: فوجود الملائكة واليوم الآخر والجن والجنة والنار مغيب عن العقل، ولكن العقل آمن بها لأنها وردت بصورة قطعية في القرآن الكريم الذي ثبت بطريق عقلي قطعي، ووجود الكتب السماوية والرسل المبلغين لها قد ثبت بطريق النقل المتواتر وطريق العقل القطعي معاً، ووجود القضاء والقدر قد ثبت بالبرهان العقلي القاطع وبالنقل القطعي في القرآن الذي ثبت بدوره أيضاً بطريق العقل القطعي. ولكن ما هو القضاء والقدر؟ إنها مسألة تحتاج إلى وقفة خاصة لبيان حقيقتها بعد أن كثر الكلام حولها، وبعد أن وجدنا كتب

تفسير القرآن الكريم تختلف في الحديث عنها وعمَّا يتصل بها في القرآن والسنة من نصوص.

ولتحقيق هذه الوقفة بشكلٍ سليم لابد من حسم أمر أساس بحث هذه المسألة أولاً ثم بيانها في ضوء هذا الأساس ثانياً وأخيراً:

أما أساس بحث مسألة القضاء والقدر فهو: هل فاعل الفعل الإرادي أو غير الإرادي يثاب عليه أو يعاقب عليه أو لا يثاب عليه ولا يعاقب عليه؟ فالموت أو انتهاء الأجل قضاء وقدر ما دام دون تدخلٍ إرادي، فهو فعلٌ يقع على الإنسان دون إرادته، لذلك لا ثواب ولا عقاب عليه لأنه غير مسئول ولا مختار ولا مريد له ولا بأي تدخل لا جلباً ولا منعاً، ولكن لو تدخل في إنهاء أجله بشكل من الأشكال، كالاستشهاد أو الانتحار، فإن الثواب أو العقاب يأتيه أو يحل عليه بقدر تدخله ما دام مسلماً في الأصل، وأما لو كان غير مسلم فليس بعد الكفر ذنب.

وعليه عند تتبع أعمال الإنسان كلها نجدها تنقسم إلى قسمين: قسم خاضع لإرادته وقسم خارج عن إرادته، فما كان خاضعاً لإرادته واختياره فإنه بلا شك يثاب أو يعاقب عليه، لأنه المسئول عنه، وما كان منها ليس خاضعاً لإرادته واختياره، وإنما يقع منه أو عليه دون إرادة ولا اختيار منه، فإنه لا يثاب عليه ولا يعاقب، لأنه ليس مسئولاً عنه، وهذا ما قضى الله تعالى به وحكم بشكل مبرم ويسمى القضاء، أي الحكم الذي قضاه الله تعالى على الإنسان سواء صدر الفعل من الإنسان نفسه أو من غيره ويبقى لا يملك له جلباً ولا دفعاً، كالأجل والرزق وهما أبرز مثالين يمكن التعرف عليهما من القرآن الكريم وإن وردا أحياناً بصيغة القضاء مثل ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر: ٤٢] و﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢]، أو بصيغة القدر، والمقصود به القضاء للاختلاف بينهما، مثل ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] و﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ ـ ٣] و﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٩].. فسواء الأجل أو الرزق فإن الله تعالى قد حكم به على الإنسان وبالمقدار الذي يشاء، وفي الوقت الذي يشاء، وفي المكان الذي يشاء بأمره المبرم، فلا يملك الإنسان معه إلا السعي طلباً للرزق ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وأما الأجل فهو مقدر بالساعات بل باللحظات في حكم الله تعالى المبرم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

والإنسان لا ثواب ولا عقاب عليه في الرزق أو الأجل من حيث وقوعه ولكنه مسئول بالثواب أو العقاب عن مسعاه الإرادي الاختياري في كسبه أو إيقاعه. فأن يسعى

لكسب الرزق بالحلال أو الحرام يكون مسئولاً عن الثواب أو العقاب الذي يجره لنفسه أو على نفسه، وأن يعرض نفسه للهلاك بالانتحار أو بالجهاد بمحض إرادته واختياره يكون مسئولاً عن العقاب أو الثواب الذي يأتي به على نفسه أو لنفسه.

وهكذا جميع الأعمال: فحيث الإرادة والاختيار تكون المسئولية، ويكون الثواب أو العقاب، وحيث فقدان الإرادة والاختيار لا تكون المسئولية، ولا يكون ثم ثواب أو عقاب.

ومتى فقدت الإرادة والاختيار في الأعمال كان هناك القضاء والقدر عند وقوعها من أو على الإنسان، ولكن يبقى هنا فضل الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين إذ يكافئ المؤمن الصابر المحتسب عند وقوع القضاء والقدر منه أو عليه.

هذا بالنسبة للقضاء من مسألة القضاء والقدر، وأما القدر فهو مجموع الخاصيات التي خلقها الله تعالى بقضائه في الأشياء خارج الإنسان، وفي غرائز وأعضاء الإنسان أو الحيوان، كخاصية الإحراق في النار، والاحتراق في الخشب، والسيولة في السوائل، والإرواء في الماء، والقطع في السكين، وأمثالها من الأشياء، والميل الجنسي في غريزة النوع، والميل للدفاع عن النفس في غريزة البقاء، والتقديس في غريزة التدين، وحاسّة الجوع في المعدة، وحاجة التنفس في الرئتين، وإحساس الامتلاء للتبول في المثانة، وأمثالها من الغرائز والحاجات العضوية.

إن الله تعالى قد خلق هذه الخاصيات، وجعلها ملازمة لأشيائها أو غرائزها وأعضائها بحيث لا تتخلف عنها إلا إذا سلبها هو تعالى هذه الخاصية كمعجزة للأنبياء، كما حصل مع نار إبراهيم عليه السلام عندما أمرها عز وجل ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وما حصل مع بحر موسى عليه السلام ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

وانظر في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣] فإنه سبحانه يشير إلى خاصية التمييز التي جاءت مع خلق الإنسان وتسويته في أحسن صورة، والتي خلقها سبحانه في العقل البشري ليعرف به طريقي الخير والشر اللذين ذكرهما سبحانه في الآية ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] بحيث لو لم يخلق بقضائه وقدره تلك الخاصية في العقل الإنساني لما استطاع الإنسان أن يعرف ويميز بين الخير والشر عندما ينزل التعريف بذلك إليه، ولما كان بالتالي من معنى لتنزيل الرسالة على من لا يمكنه أن يعرفها، ولما وجد التكليف والابتلاء للإنسان أصلاً، كيف لا والآية الأخرى تقول ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٩]، أي أنه سبحانه وتعالى، صاحب الخلق والتدبير، قد قدر في

الإنسان الخاصيات اللازمة لكل غريزة وعضو ليقوم كل بمهمته التي خلق من أجلها في حياة الإنسان أو أي حيوان وطير باستثناء خاصية التمييز العقلي القائمة على الإدراك والتي اختص بها الإنسان من بين سائر المخلوقات الطينية الحية (وإن كان الجن كمخلوقات نارية مكلفة تحوزها كالطينية الإنسانية) ولكن الإنسان قد اختص قبل سن التمييز بالإدراك الغريزي الشعوري كبقية المخلوقات الأرضية.

وعندما قدر في كل غريزة ميولها ومظاهرها التي تظهر بها في واقع الحياة فإنه تعالى جعلها واسطة ممارسة هذا الجانب أو ذاك من الحياة حتى ينتهي الأجل. فهذه الخاصيات تدفع الإنسان بما فيها من ميول ورغبات لأعمال الإشباع أو الإرواء، والعقل بما أودع تعالى فيه من خاصية التمييز بين الحق والباطل، وبين الحسن والقبح، يقوم بدفع الإنسان في ضوء ما بين يدي صاحبه من أوامر ونواه من الكتاب والسنة، أو ما دّلا عليه من إجماع الصحابة والقياس الشرعي، إلى ما يرضي الله تعالى ويجنبه ما يسخطه وذلك بالعمل بأمره وتجنب العمل بنهيه..

ومعنى هذا أن تلك الخاصيات لم تقدر في الغرائز والأعضاء بشكل تجبره على العمل بها، وهو نفس الحال بشأن الخاصيات التي قدرها تعالى في الأشياء خارج الإنسان، ولذلك فالإنسان نفسه هو الذي يستخدم هذه الخاصيات بأعماله في حياته اليومية. وهنا يظهر كيف أنه عندما يستخدم خاصية الإحراق التي في النار ليطبخ طعامه ليتقوى به على طاعة ربه فإنه يثاب، وعندما يستخدمها لحرق أملاك الغير بغير حق فإنه يعاقب، وكذلك خاصية الميل الجنسي في غريزة النوع فإنه عندما يستخدمها في اللقاء مع زوجته أو أمته إذا وجدت فإنه يؤجر وعندما يستخدمها مع غيرهما فإنه يؤزر، وكذلك خاصية الميل للتقديس في غريزة التدين فإنه يثاب عندما يقدس ما أمر الله تعالى بتقديسه ويأثم عندما يقدس ما نهى الله تعالى عن تقديسه، وكذلك خاصية الميل للتملك في غريزة البقاء فإنه يؤجر عندما يستخدمها في التملك المشروع ويؤزر عندما يستخدمها في التملك غير المشروع... وهكذا يبقى مسئولاً عن عمله وكسبه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨] و﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] و﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]، يبقى مسئولاً عنه مادام له فيه إرادة واختيار.

واستيفاء لمسألة القضاء والقدر لابد من جلاء مفهوم علم الله تعالى وإرادته وإذنه ومشيئته، وعلاقتها بهذه المسألة ولاسيما أن النصوص الواردة بها توحي وكأنها تفيد

معنى الجبر على القيام بالعمل والإكراه عليه على أساس أن الله تعالى قد علم أن الإنسان سيقوم بالعمل، أو أنه سبحانه قد أراد ذلك العمل، أو أنه تعالى قد أذن به، أو أنه تعالى قد شاءه.

إن هذا الفهم بهذا التعميم على جميع النصوص التي وردت بها هذه الصفات الإلهية لاشك في خطئه، لأن الله تعالى يحيط علمه الأزلي الأبدي، علمه المطلق، بكل عمل قبل وبعد وقوعه، وهذا هو معنى العلم المطلق وليس معناه أن الإنسان يقوم بالعمل بناء على العلم، فعلم الله تعالى المطلق قائم بكون الإنسان يقوم بعمله مختاراً في غالب الأحيان فيثاب أو يعاقب عليه، أو مجبراً في القليل من الأوقات فلا يثاب ولا يعاقب عليه. وكذلك الشأن بالنسبة لإرادة الله تعالى وإذنه ومشيئته، فإنها في الغالب من النصوص لا تجبر الإنسان على العمل إلّا حيث القضاء والقدر فيكون الجبر والإكراه، وأما حيث الإرادة والاختيار البشري فإنها تعني أن عملاً أو شيئاً لا يجري أو يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريده أو يأذن به أو يشاؤه، بمعنى لا يجري ولا يقع جبراً عن الله تعالى، لأنه سبحانه قادر على التدخل في أي لحظة ومنع الوقوع كما هو تعالى قادر على التدخل وإيقاع عمل لم يكن متوقعاً. وهكذا كان الفعل من الإنسان باختياره وفي نفس الوقت بإرادة الله تعالى وإذنه ومشيئته وعلمه، ولذلك يحاسبه عليه، ولو كان بقضاء الله تعالى وقدره فإنه لا يحاسبه عليه اللهم إلا إذا كان مؤمناً وصبر على الابتلاء أو التكليف واحتسب، أو لم يصبر ولم يحتسب، وعندها له الأجر أو عليه الوزر. فالعلم والإذن والإرادة والمشيئة لا تجبر على العمل وإن كانت قد ترد في بعض النصوص بمعنى القضاء والقدر، وعندها لا تأخذ معناها العام وإنما تخرج عنه وتدخل في إطار القضاء والقدر. ويمكن ملاحظة ذلك عند ورود مثل هذه النصوص في ثنايا هذا «الكتاب».

وباختصار يمكن القول بأن القضاء والقدر هو الأمر الإلهي الخارج عن إرادة الإنسان واختياره، وهو الذي يقع من الإنسان أو عليه دون إرادة ولا اختيار منه، وأنه بذلك يكون جزءاً من عقيدة المسلم الذي يؤمن بأنه لا ثواب ولا عقاب عند نزول القضاء والقدر إلا عند الصبر والاحتساب، مما يجعل هذه العقيدة دافعة للمزيد من عمل الخير وتجنب الشر وليس مقعدة عن العمل، كما يتوهم خطأ بعض الجاهلين.. فالمؤمن يجب عليه أن يستحضر دائماً في ذهنه وأعماله أن الله تعالى يعلم بكل أعماله ويراقبه ويحاسبه بعد أن أناط به مسئولية اختيار القيام بالعمل أو تركه، وبعد أن وهبه نعمة العقل المميز والمدرك، وبعد أن وضع بين يديه بيان مواضع الخير والشر في نصوص الكتاب والسنة وما دلّا عليه من إجماع الصحابة والقياس الشرعي.

وهكذا يظهر لنا أن طريق الإيمان السليم في الإسلام هو طريق العقل، إذ بالعقل يتأكد لنا بصورة قطعية لا ظنية أن القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى إلى رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأن محمداً عليه وآله السلام هو رسول الله تعالى بلا ريب، وأن المغيبات من الملائكة والكتب والرسل والجنة والنار واليوم الآخر وغيرها قد ثبتت بالقرآن الذي ثبت بالعقل، وأن عقيدة القضاء والقدر قد ثبتت بطريق العقل كما ثبتت بالنقل القطعي الثبوت القطعي الدلالة. وعليه فلا يجوز استخدام أي طريق آخر للإيمان ما دام الخلل يلحق بكل تأكيد غير العقل وغير النقل القطعي الثبوت والدلالة. فالوجدان والإحساس والشعور وإن كانت من الفطرة التي يشعر بها الإنسان أنه محتاج وعاجز وناقص إلا أنها لا تصلح طريقاً للإيمان، لأنها تقود صاحبها إلى الكفر والضلال، كما هو مشاهد في حق أصحاب جميع الأديان الأخرى غير الإسلام الذين يرفضون استخدام العقل لمناقشة معتقداتهم ويصرون على أنها في أصولها عقائد وجدانية لا تناقش بالعقل، أو أنهم يجرؤون على تأويلات لها توقعهم في التناقض، أو أنهم يرفضون مناقشتها لأنها تقاليد آبائهم..

ونعود فنقول أنه لا بد من النقل القطعي، ثبوتاً ودلالة، كالحديث المتواتر والقرآن الكريم، في العقائد، وأما الأحاديث الظنية الثبوت فإنها لا تصلح للعقيدة مهما كانت قطعية الدلالة، وكذلك الحال في النصوص القرآنية الظنية الدلالة، كنصوص عذاب القبر، فهذه الأحاديث والآيات الظنية الدلالة لا تحقق اليقين في العقيدة بل تحقق الظن، والظن لا يجوز أن تبنى عليه العقائد، وإن قال بذلك بعض العلماء. والقرآن يؤكد رفض الظن في العقائد عندما يقول ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] و﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] وعندما يقول ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣] و﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] و﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ [النجم: ٢٣].

هذا بالنسبة لثبوت العقيدة والأدلة القطعية الثبوت والدلالة اللازمة لها، وأما بالنسبة لتبليغ الرسالة وحمل الدعوة فيجوز الاستدلال بالظن في ذلك إذ يجوز أن يقوم الفرد المسلم بحمل الدعوة للآخرين سواء في عقائدها أو أحكامها كما يجوز أن تقوم بذلك الجماعة التي يستحيل معها الكذب، مما يجعل صفة عملها التواتر لا الظن، وشتان بين أن يرسل الرسول عليه وآله الصلاة والسلام رسله إلى القبائل والملوك وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام إيماناً واحتكاماً وبين أن يعتنق أي من المدعوين شيئاً من

العقيدة التي طرحت عليه بعضها أو كلها، سواء كان اعتناقه من باب التصديق الأولي المبني على الثقة بالمبلغ ثم بعدها يأتي دور التثبت العقلي اليقيني باستخدام المزيد من الحجج والبراهين والدلائل العقلية التي نجد القرآن الكريم طافحاً بها عند دعوته للكافرين للإيمان، أو كان اعتناقه قد بني على التصديق الجازم الناتج عن أدلة لديه أو أخذها من المبلغ له، الأمر الذي يفرض عدم الاستشهاد بالظن في العقائد حتى في التبليغ.

وقبل الانتقال في هذا التقديم إلى موضع أساس آخر لابد من التأكيد على ما ذكر آنفاً من توضيح أهم وأخطر ما يبهم على المسلم في طريقه وسيره في قراءة تفسير كتاب ربه تعالى، مع ترك بقية علوم القرآن الأخرى جانباً مادام القصد من هذا (الكتاب) ليس إضافة تفسير جديد لكتاب الله تعالى وإنما فقط تسليط الضوء على الجانب العلمي/ العملي لنقل هذا القرآن الكريم والسنة والسيرة النبويتين من العقول والصدور إلى واقع الحياة المجتمعية ومعالجة شئونها.

والموضوع المهم الآخر والأخير الذي لابد من وقفة قصيرة جادة معه قبل المباشرة في كتابة هذا الكتاب، والذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالتفسير من جهة وبنقل هذا التفسير لواقع الحياة من جهة أخرى، هو ما تسميه كتب السيرة النبوية بالعهد المكي والعهد المدني، وهو الذي يجري في ضوئه توزيع سور القرآن الكريم إلى سور مكية وأخرى مدنية، وإن كان من الملاحظ أن هذا التوزيع ليس بدقيق لأن هناك الكثير من السور تشتمل على آيات نزلت في مكة وأخرى في المدينة وأخرى بين مكة والمدينة. صحيح أنه من الممكن نسبة كل السور التي نزلت قبل الهجرة إلى مكة، فيقال لها مكية، سواء نزلت في مكة أو خارجها، ونسبة كل السور الأخرى التي نزلت بعد الهجرة إلى المدينة، فيقال لها مدنية، سواء نزلت في المدينة أو خارجها، ولكن الأهم من هذا التوزيع، على ما فيه من أهمية بالغة بشأن الأحكام وما تعرضت له من نسخ، هو مضمون ما اشتملت عليه السور المكية والسور المدنية، وثبت دون نسخ، وبيان الفرق بين المضمونين، وربط ذلك بالسيرة النبوية التي كما أسلفنا تمثل بحق الطريق الذي سار فيه الرسول عليه وآله السلام، برسم وتخطيط من ربه تعالى، منذ بدء نزول الوحي عليه حتى انتقاله للرفيق الأعلى، وهو الطريق الواجب الاتباع بمنتهى الدقة والأمانة عند التلبس في حمل الدعوة الإسلامية مع أي حزب أو جماعة إسلامية تريد أن تعيد للإسلام حياته بتطبيقه في واقع حياة الأمة الإسلامية.

لقد تركزت السور المكية في الأكثر الأغلب من نصوصها على العقيدة الإسلامية، وما يتعلق بها لبناء الشخصية الإسلامية لدى الفرد المسلم بحيث تكون شخصيته متميزة وهي تجمع بين العقلية الإسلامية والنفسية الإسلامية وذلك من خلال الحرص على توفير العناصر الأربعة اللازمة لذلك وهي: العقيدة الإسلامية، والعبادات الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، والمعاملات الإسلامية، بحيث إذا اجتمعت لدى الفرد المسلم العقيدة والعبادات الإسلامية يكون قد بنيت علاقته مع ربه تعالى بشكل قوي سليم، وإذا اجتمعت لديه الأخلاق الإسلامية مع المطعومات والملبوسات يكون قد بنيت علاقته مع نفسه بشكل صلب قويم، وإذا اجتمعت لديه المعاملات الإسلامية اللازمة له كفرد والمعدّة له ليكون عضواً في المجتمع الإسلامي المنشود يكون قد بنيت علاقته مع غيره من الناس بشكل واضح محدد، ومن خلال اجتماع بناء هذه العلاقات الثلاث بهذا الشكل يتحقق بناء شخصية الفرد الإسلامية.

ولكن هل كان هدف السور المكية هو إعداد الشخصية الإسلامية الفردية وبناؤها، أي اللازمة لحياة الفرد دون اعتبار لنوعية مجتمعه الذي سيعيش فيه مهما كانت علاقاته وأنظمته؟

لا، لقد كان واضحاً أن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام حرص على بناء المجتمع الإسلامي المنشود في مكة من أول يوم بدأ بدعوته وليس على بناء الفرد المسلم فقط، فكان لا يخاطب المسلم كفرد يعيش بنفسه ولنفسه وإنما يخاطبه كإنسان يلتقي في إنسانيته مع غيره ولا تفصله فروقه الفردية عن غيره، فكان يدعوه ليعتنق العقيدة الإسلامية بجميع عناصرها لا كعقيدة فرد يبني عليها عباداته وأخلاقه ومعاملاته الخاصة فحسب، ودون أن يعنيه ما عليه الناس الآخرون، بل كان يريده أن يجعل من أفكار تلك العقيدة قائداً يقوده في سلوكه لإصلاح نفسه وإصلاح الآخرين في آن واحد، وذلك ببناء جميع الأنظمة الموجودة في المجتمع عليها جنباً إلى جنب مع ما تنبثق عنها، ثم بحملها بعد ذلك لبناء العالم أجمع وفقاً لها.. وما إقراره عليه وآله وصحبه السلام لحلف الفضول مع أنه عقد في الجاهلية إلا إشارة واضحة لنوع المجتمع الذي يسعى لإيجاده لأن ذاك الحلف كان متفقاً في كل بنوده مع الإسلام.

وانظر إليه عليه وآله وصحبه السلام وهو يدعو مكة ومن يفد إليها إلى الإيمان بالإسلام عقيدة وعبادة وطاعة، ويتبع في ذلك الصراحة في الفكر، والقوة في العمل، ولا يسمح للمجاملة أو المداهنة أن يكون لها أدنى نصيب على حساب دعوته ورسالته.

وانظر إليه عليه وآله وصحبه السلام وهو يبادئ قريشاً بذكر آلهتها، وبيان زيفها، وهو لا يملك من السلاح غير إيمانه بالإسلام الذي يدعو إليه مع الرجاء إلى الله تعالى أن يؤيده وينصره.. ولكن ماذا أضاف عليه وآله وصحبه السلام لبناء الشخصية الإسلامية الفردية بما يتناسب مع بناء المجتمع الإسلامي المنشود في مكة؟

لقد خاطب عليه وآله وصحبه السلام، كما سبقت الإشارة، الإنسان المسلم بصفته إنساناً يلتقي مع أخيه المسلم في حاجاته الإنسانية الضرورية من مأكل وملبس ومسكن، كما يلتقي معه في قيمه المادية والأخلاقية والروحية والإنسانية، كما يلتقي معه في مثله العليا وهي الحفاظ على العقل، والدين، والنفس، والمال، والعِرض، فكان كما يدعوه للإيمان بمقومات عقيدته يدعوه للحرص على أداء الحقوق من مثل عدم تطفيف الكيل والميزان، فينبهه بذلك لنوعية المجتمع المطلوب منه تحقيقه والعيش فيه، وأن يلتزم بأداء الواجبات فيه كما يريد أن تتوفر له كافة الحقوق، وأن يحرص على أن يكون نظامه عدلاً لا ظلم فيه لأحد، وأن يستند بناء هذا المجتمع وبقاؤه على تقوى الفرد المؤمن أولاً، وعلى تغذية وحماية هذه التقوى بمتابعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث تجري المحاسبة الفردية والجماعية تبعاً لما عرف من أوامر الله تعالى ونواهيه ولما أنكرته، وأن يحرص على إبراز عدالة التشريع الإسلامي عند تطبيقه لتكون خير دعوة وأقوى مغناطيس جذب للآخرين، وأن يسوي بين الناس مهما كانت مراتبهم في العقوبات من قصاص وحدود وتعازير بحيث يلمس القاصي والداني معنى قوله عليه وآله وصحبه السلام «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

إنه بذلك لايقف البناء عند الفرد وإنما يتعداه إلى المجتمع بمقوماته التي تستوعب مقومات الفرد المذكورة آنفاً وتتجاوزها إلى العلاقة السليمة بينه وبين غيره من أعضاء المجتمع، وصلة هذا المجتمع مع المجتمعات الأخرى غير الإسلامية، مما يجعل عناصر بنائه هي: الإنسان، والأفكار الإسلامية، والمشاعر الإسلامية، والأنظمة الإسلامية، وبكلمة مختصرة هي الإنسان والعلاقات، هذه العلاقات التي لا تنشأ ولا تتوطد بين أعضاء المجتمع الإسلامي إلا باللقاء على فكر إسلامي يشمل العقيدة والأحكام، هذا الفكر مهما تنوع ينبع من العقيدة الإسلامية أو يبنى عليها، وباللقاء على مشاعر إسلامية لا تتحرك بالرضى والسخط إلا لما يرضي الله تعالى من حلال وما يسخطه من حرام، وباللقاء على أنظمة إسلامية لا تترك جانباً من جوانب الحياة إلا عالجته علاجاً سليماً وعلى أساس قوله عليه وآله وصحبه السلام «الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى».

هذا ما كان يتطلع إليه العهد المكي، فهل تحقق كاملاً في العهد المدني؟ صحيح أن النقلة من عهد الدعوة في مكة إلى عهد الدولة في المدينة قد صاحبها تغيير في نوعية الآيات القرآنية المنزلة بحيث غلب عليها آيات الأحكام لما يقتضيه بناء الدولة والمجتمع في المدينة، ولكنه لم يبتر ذلك عن مقومات الإيمان في الجزء ولا في الكل بل بقيت عمليات التشديد والتأكيد على الربط بين العقيدة والمعاملات الفردية جنباً إلى جنب مع المجتمعية في تصاعد مستمر، ناهيك عن التركيز في ربط هذا بالإنذار من عقاب يوم القيامة والتبشير بثوابها وما ينتظر فيها من نار وجنة، وفي الوقت نفسه دفع المسلمين إلى الجهاد والاستشهاد لحمل هذا الدين للناس كافة ليحتكموا إلى أحكامه في حياتهم وإن قصرت عقولهم عن الإيمان به والدخول في حظيرته الإيمانية.

لقد كان عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام في العهد المدني حريصاً على تنفيذ أحكام الإسلام تنفيذاً كاملاً حتى أنه لم يقبل من وفد ثقيف ترك صنمهم اللات لثلاث سنين ولا لسنتين ولا لشهر واحد بناء على طلبهم، ولم يتردد في هذا الرفض قيد شعرة، لأن الإنسان إما أن يؤمن أو لا يؤمن، لأن النتيجة إما الجنة وإما النار، ولكنه من ناحية أخرى قبل أن يهدمه غيرهم بدلاً منهم، أيْ قبل الوسيلة التي تنفذ العقيدة ولا تخالفها ولم يقبل أيَّ مخالفة للعقيدة وتنفيذها.

انظروا إليه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ماذا فعل بأمر من ربه بعد أن لمس جمود المجتمع المكي على الكفر، ورفضه جعل الإسلام نظاماً له؟

لقد هاجر إلى المدينة بعد أن هيَّأها للتحول إلى مجتمع إسلامي، وباشر بمجرد دخولها بإيجاد الدولة التي أخذت في تطبيق الإسلام وحمل رسالته بالجهاد والدعوة معاً.. فكان من البارز على يديه عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام حرصه على تصحيح العقائد وتقوية الصلة بالله تعالى جنباً إلى جنب مع بيان كيفية حلِّ الإسلام لمشاكل الحياة، وذلك ليروا أنه رسالة حية في جميع مجالات حياتهم وليس مجرد أفكار وشعارات يرددونها في مجالسهم وعلى منابرهم. فكان عليه وآله وصحبه السلام في الوقت الذي يتلو عليهم في مكة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١] يتلو ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤١] ويتلو ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١ ـ ٣] ويتلو ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ

جَنَّتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [البروج: ١١] ويتلو ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۞ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۞﴾ [الإخلاص].. مشيراً بذلك كله إلى ضرورة إعداد الشخصية الإسلامية الصلبة التي ستحمل على كاهلها العبء الثقيل، والثقيل جداً، في التصدي للمجتمع الجاهلي في مكة، وذلك في محاولة تحويله إلى مجتمع إسلامي، وإلا فالبحث عن مجتمع آخر فيه قابلية مثل هذا التحول.

وبعد أن تحقق للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وصحبه ذلك في مجتمع المدينة الذي استجاب بسرعة باهرة لهذا التحول انتقل بحمل العبء إلى الضعفين بالتصدي للمنافقين من أهل المدينة من جهة، ومن جهة أخرى ليهود قريظة والنضير وقينقاع المحيطين بالمدينة عن قرب، ويهود خيبر وما جاورها عن بعد، وبالتصدي لتطبيق أحكام الإسلام في الحياة وحمل رسالته تحت رايات الجهاد للشعوب القريبة والبعيدة، فأصبح العبء في الحقيقة أضعافاً كثيرة لا ضعفين عما كان عليه في مكة بغضِّ النظر عن الاضطهاد فيها.

فماذا حصل من تحول في الخطاب القرآني في المدينة؟

لقد أخذ الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يتلو عليهم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المجادلة: ١٣] كما يتلو ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] ويتلو ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] ويتلو ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧] ويتلو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].. مبيناً بذلك جوانب من الأنظمة التي عليهم أن يعالجوا بها مشاكل حياتهم، ومحققاً نقل الإسلام ليكون حياً معهم في كل حركاتهم وسكناتهم، في ليلهم ونهارهم، كواجب كلَّفهم به ربهم مبتغين به رضاه سبحانه وحده، ومؤكداً بذلك أن مكونات المجتمع الإسلامي من السعة والشمول بحيث تستوعب كما أسلفنا مكونات الفرد وتتجاوزها.

فماذا نجد في هذه السيرة النبوية في العهدين المكي والمدني؟

نجد فيها الطريق الواجب الاتباع لكل جماعة أو حزب إسلامي وذلك بالتركيز في العهد المكي على التثقيف الفكري المركز لإعداد رجال ونساء قادة للمجتمع، وعلى التثقيف الجماعي لإيجاد الرأي العام للإسلام، وعلى بيان الأحكام التي تحافظ على مصالحهم وتحل مشاكلهم، وعلى التصدي للطغاة بالصراع الفكري والكفاح السياسي

البعيد عن أيِّ عمل مادي.. وأما في العهد المدني، عهد ارتكاز الدعوة في دولة، فبعد أن كانت مجرد دعوة فكرية في دوري البداية والانطلاق في العهد المكي، فقد تولت الدولة التثقيف الفردي والجماعي بالدعوة والدعاية، كما تولت تطبيق الإسلام في الداخل وحمله رسالة للخارج، مضيفة بذلك العمل المادي للفكري.

هذا بالنسبة لعمل كل جماعة أو حزب إسلامي وأما بالنسبة لعمل الفرد المسلم فإنه ملزم بالأخذ والعمل بكل ما نزل من العقائد والأحكام المنظمة لعلاقته بنفسه وبغيره وبربه من كل ما يتصل به كفرد مسلم . .

فالمرجو من العلي القدير بعد هذا التقديم الذي اختتم به هذه الوقفة السريعة مع القرآن الكريم المكي والمدني، مع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام في طريق سيره بالإسلام من دعوة إلى دولة، والذي أرجو أن يستثير هذا كله العقول الواعية والهمم الواعدة للسير في هذا الطريق حتى نهايته، ولا يقعدها عن ذلك مقعد.. كيف لا وهي تجد في التذكير بخلاصة ما جاء في هذا التقديم خير معين:

١-يجب العمل بقوله تعالى ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بتشكيل جماعة أو حزب إسلامي، أو جماعات أو أحزاب إسلامية تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير وهو الإسلام والأمر بما عرف من الشريعة والنهي عما تنكره الشريعة، هذا إذا لم يكن مثل ذلك موجوداً وأما إذا وجد فيجب العمل معه دون تردد.

٢-يجب العمل بقوله عليه وآله وصحبه السلام لكل إمام «الأمر لله، يضعه حيث يشاء» وبقوله عليه وآله وصحبه السلام «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» وبقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي أجمع عليه الصحابة: وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.

٣-يجب فهم نصوص القرآن والسنة اللازمة لتوضيح السيرة النبوية كطريق لحمل الدعوة الإسلامية لا للعلم والتعليم فقط وإنما للعمل والتنفيذ للوصول بالدعوة إلى الدولة كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام وكما يجب فعله على حملة الدعوة.

٤-يجب تذكر ما كان يقوم به الرسول عليه وآله وصحبه السلام مع صحابته: فيعلمنا القرآن والعمل معاً، ليلاحظ دائماً في حمل الدعوة.

٥-يجب استحضار معنى الإيمان في حياة حامل الدعوة ليكون حياً في تفكيره وأعماله باستمرار.

٦-يجب وضوح معنى القضاء والقدر بالذات كجزء من الإيمان مع معنى الإرادة

والإذن والمشيئة والعلم الإلهي بعيداً عن المعنى المتوارث لكل ذلك واعتماداً على النصوص القرآنية والنبوية القطعية.

٧-يجب التقيد بطريق العقل والنقل القطعي للإيمان السليم.

٨-يجب الوقوف على السيرة النبوية في حمل الدعوة في عهديها المكي والمدني، والتقيد بالفرق بينهما ليكون واضحاً معنى الانتقال من رجل دعوة بفكره إلى رجل دولة بتنفيذه.

٩-يجب حصر عمل رجل الدعوة قبل قيام الدولة بالفكر بشقيه: الصراع الفكري والكفاح السياسي، وعدم تخطيه إلى العمل المادي بشقيه: التطبيق التشريعي والجهاد الحربي إلا بعد قيام الدولة مهما تعرض في ذلك من محن وإغراءات..

١٠-يجب الحرص على السعي لتحقيق إنقاذ البشرية كلها كغاية مستهدفة من حمل الدعوة وليس شعباً معيناً أو أمة بعينها، وبغضِّ النظر عمّا تعيشه الأمة الإسلامية من تقصير في تطبيق الإسلام في حياتها أو عمّا تتعرض له من فتن جسام بأيدي أبنائها أكثر من أعدائها..

١١-يجب الحذر كل الحذر من المكائد والفخاخ الدولية التي تحاول أن تشغل حملة الدعوة عن هدفهم النهائي بقضايا فرعية ومشاكل جزئية..

١٢-يجب التمسك بالفروض الشرعية وتجنب المحظورات القطعية، وعدم الانشغال عن ذلك بالنوافل مهما كانت المبررات.. والخير كل الخير في العمل بها جميعا وليس في حصر العمل ببعضها على حساب البعض..

١٣- يجب الاستحضار الدائم بأن هذا الإسلام هو دين الله تعالى الذي تكفل بتأييد المؤمنين به ونصرهم برفع رايته مهما اشتدت الخطوب وطال الزمن لأن النصر مع الصبر واليسر مع العسر. .﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾..

١٤- يجب التنبه الشديد للفرق بين الالتزام الفردي بالأحكام الشرعية والالتزام الجماعي أو الحزبي، فالأول عام بكل ما يليق بالفرد والآخر خاص بكل ما يليق بالجماعة والحزب ﴿لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

الإستعاذة

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل:

٩٨] آمراً بالاستعاذة عند كل قراءة في القرآن الكريم، وفي أولها وليس آخرها، وهو أمر على الندب في قول الجمهور في غير الصلاة وإن فعله في الصلاة بعضهم في كل ركعة، وبعضهم في الركعة الأولى فقط.

وقد أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه.

وأما نصُّ التعوذ فقد روي عن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأنه «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وإن روي بصيغة أخرى هي: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

وروي أن القراء إلا حمزة قد أجمعوا على إظهار الاستعاذة في أول قراءة سورة الفاتحة.

وحكى الزهراوي فقال: نزلت الآية في الصلاة وندبنا إلى الاستعاذة في غير الصلاة وليس بفرض.

وقال غير الزهراوي: كانت الاستعاذة فرضاً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحده، ثم تأسينا به.

وفي فضل التعوذ أن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام قال عندما رأى رجلاً اشتد غضبه واحمر وجهه وانتفخت أوداجه في تشاتم مع آخر «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

والفائدة من الاستعاذة هي امتثال أمر الله تعالى.

ومعناها: ألجأ إلى الله تعالى من الشيطان الرجيم.

والشيطان: هو كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب.

والرجيم: هو المبعد من الخير المهان، وأصل الرجم هو الرمي بالحجارة، وقد ورد في قول أبي ابراهيم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦].

وما دام هو هذا معنى الشيطان الرجيم فإليك يا قوي يا عزيز نلجأ من كل عتاة الجن والإنس فإنهم لا يعجزونك.

البسملة

قال العلماء بأن ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قسم أنزله تعالى عند رأس كل سورة

يقسم به لعباده أن ما ورد في السورة حق، وأنه سبحانه سيفي لهم بجميع ما تضمنته من وعد ولطف وبرٍّ.

وقال بعض العلماء: إن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾ تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وعقَّب الإمام القرطبي على ذلك قائلاً: وهذا صحيح. وقد روي أن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لم يكتبها بهذا النص إلا بعد نزول سورة النمل. وقد روي في حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها» أي آيات سورة الفاتحة عندما قال «إذا قرأتم الحمد لله رب العالمين فاقرأوا بسم الله الرحمن الرحيم، إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم أحد آياتها». ولكن الإمام مالك لا يراها آية لا من الفاتحة ولا غيرها وإن رآها عبد الله بن المبارك آية من كل سورة، ورآها الشافعي آية في الفاتحة وتردد في غيرها، وسبب هذا الاختلاف ظنية الأحاديث الواردة بذلك مما لا يجعل لها القطع إلا في سورة النمل وحدها.

وقد اختلف الصحابة في كتابتها في المصحف بين كونها قرآناً أو فاصلة بين السور، وترجح ما نقل مع ما جرى من الصلاة في المسجد النبوي على مرِّ الأزمنة والعصور من عهد الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى زمان مالك بعدم قراءتها مع الفاتحة وإن جازت قراءتها في النوافل. وقال بإسرارها مع الفاتحة جمع من العلماء منهم أبو حنيفة والثوري وابن حنبل والأوزاعي وغيرهم كثير.

وقد ندب الشرع ذكرها في أول كل فعل وإلا كان أبترَ.

والمعنى أن المولى عز وجل قد أقسم باسمه أو ذاته، بقدرته وخلقه وتقديره وتدبيره، أن يجعل العون والتوفيق والبركة في عمل من أقسم به وبدأ بذكره تعالى إجلالاً له وتعظيماً. والاسم مشتق من السمو والرفعة كما قد يشتق من السمة والعلامة المميزة لصاحبها، ولفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ اسم للمنفرد بالوجود الحقيقي الذي يستحق أن يعبد بحق دون غيره، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مشتق من الرحمة للمبالغة، وهو من الأسماء الخاصة به سبحانه وتعالى، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾ اسم عام في جميع أنواع الرحمة، ويختص بالله تعالى، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إنما هو في جهة المؤمنين، وقيل في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إنه اسم الله الأعظم و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ صفة مطلقة للمخلوقين.

وروي عن الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن تفسير «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: «أما الباء فبلاء الله وروحه ونضرته وبهاؤه، وأما السين فسناء الله، وأما الميم فملك الله، وأما الله فلا إله غيره، وأما الرحمن

فالعاطف على البر والفاجر من خلقه، وأما الرحيم فالرفيق بالمؤمنين خاصة». وعند القراءة يمكن تسكين الميم في ﴿ٱلرَّحِيـمِ﴾ والوقوف عليها ثم البدء بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ويمكن على قراءة الجمهور إعراب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالكسر والوصل بألف ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

سورة الفاتحة (١)

التقديم

أورد الإمام القرطبي رحمه الله تعالى تفسير هذه السورة في أربعة أبواب هي: الأول في فضائلها وأسمائها، والثاني في نزولها وأحكامها، والثالث في التأمين، والرابع فيما تضمنته من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين.

أما ما يتصل بفضائلها وأسمائها فقد رأى جماعة من الفقهاء خطأ تفضيل بعض القرآن على بعض، وأن معنى قوله عليه وآله وصحبه السلام «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن» في الثواب، وكذلك معنى قوله عليه وآله وصحبه السلام «أعظم سورة» أيْ في الأجر. ولكن رأى غيرهم التفضيل لما في بعض السور كالإخلاص، والآيات كآية الكرسي، من المعاني الدالة على وحدانية الله تعالى وصفاته ما ليس موجوداً في سور أخرى مثل تبت. وفي الفاتحة من الصفات ما ليس في غيرها حتى قيل إن جميع القرآن فيها. وسميت أم الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني وغيرها من الأسماء.

وأما بشأن نزولها وأحكامها، فالراجح أنها نزلت بمكة في سبع آيات، وأنه يجب قراءتها في كل ركعة من الصلاة، سواء في صلاة السرِّ أو الجهر، وأنه من المندوب قراءتها مع سورة أخرى أو بعض السورة في كل ركعة من الركعتين الأوليين وقراءة الفاتحة فقط في الباقي، وأنه إن تعذر على شخص تعلمها أو تعلم شيء من القرآن فيجزئه ما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه إن عجز عن العربية فبترجمة هذا الدعاء للغته غير العربية.

وأما بخصوص التأمين، فيسن قول (آمين) بعد هنيهة من ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ليفصل القرآن عن غيره، كما يسن ختم أي دعاء بها. ومعناها: اللهم استجب لنا. كما يسن للإمام أن يجهر بها وإن قال بعضهم بالإخفاء دفعاً للرياء. وأما فيما يتعلق بما فيها من معاني وقراءات وإعراب وفضل للحامدين:

فبالحمد يرضي الله تعالى عنه، إذ شكره وأثنى عليه لنعمه الكثيرة، ويجوز فيها الرفع على الابتداء والنصب على إضمار فعل.

ورب العالمين هو مالكهم، والعالمين جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، والرحمن الرحيم ترغيب بعد ترهيب رب العالمين ليقرن بينهما، ومالك يوم الدين أو ملك يوم الدين هو القادر المتصرف بكل شيء يوم الدين، ويوم الدين يوم الجزاء والحساب، وإياك نعبد بالطاعة والتذلل، وإياك نستعين بطلب العون والتوفيق، واهدنا الصراط المستقيم أيْ دُلَّنا على طريق هدايتك القويم، وصراط الذين أنعمت عليهم على قراءات (عليهم) العشرة، وهم المؤمنون، وغير المغضوب عليهم وهم اليهود، ولا الضالين، وهم النصارى وإن شملت كل ضال.

التفسير

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

روى الترمذي عن أبيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل» مؤكداً فضل هذه السورة.

وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم سيعلمه (سورة هي أعظم السور في القرآن) وهي «الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وهذا ما قال به بعض العلماء الذين رأوا التفضيل بالمعاني الكثيرة، ومن بينهم ابن العربي وابن الحصار. وأما أسماء الفاتحة فكثيرة هي: الصلاة، والحمد، وفاتحة الكتاب، وأم القرآن، وأم الكتاب، والقرآن العظيم، والشفاء، والرقية، والأساس، والوافية، والكافية.

هذا بالنسبة للفضل والأسماء، وأما النزول والأحكام فقد نزلت بمكة لارتباطها بالصلاة، والصلاة نزلت بمكة، والرسول عليه وآله وصحبه السلام قال «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب». وتعيَّن على الإمام والمنفرد قراءتها في كل ركعة كما قال الأئمة مالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم للحديث السابق ولحديث آخر «من صلى صلاة لم يقرأ

فيها بأم القرآن فهي خداج» ولقوله عليه وآله وصحبه السلام لمن علمه الصلاة وبأنها في كل ركعة «وافعل ذلك في صلاتك كلها».

وأما حديث «مالي أنازع القرآن» فمعناه لا تجهروا إذا جهرت لأن ذلك تنازع واقرأوا في أنفسكم. وأما حديث «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» فضعيف أسنده الحسن بن عمارة وهو متروك.

وأجمع العلماء على أن لا صلاة إلا بقراءتها، وأن ما زاد عليها فليس بواجب. وعلّم النبي عليه وآله وصحبه السلام من جاءه يشتكي عدم قدرته على حفظ القرآن فقال له «قل سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، و لا حول و لا قوة إلا بالله» فقال: هذا لله، فما لي؟ فقال له عليه وآله وصحبه السلام: «قل اللهم ارحمني وعافني واهدني وارزقني».

وبالنسبة للتأمين، فالرسول عليه وآله وصحبه السلام قال «إذا أمّن الإمام فأمّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». وقال صلى الله عليه وآله وسلم عن رجل سمعه «أوجب إن ختم» فسئل: بأيِّ شيء يختم؟ فقال «بآمين، فإنه إن ختم بآمين فقد أوجب» أيْ وجبت له الجنة. وسئل عليه وآله وصحبه السلام عن معنى (آمين) فقال «رب افعل» وكان الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يقولها عقب ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ ويرفع بها صوته، وإن قال أبو حنيفة بأن الإخفاء أولى من الجهر بها لأنه دعاء. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين».

وبخصوص ما اشتملت عليه السورة من المعاني والقراءات، فقد روي أن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال «إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدي الحمد لي»، وقال «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ». و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعني الثناء الكامل لله تعالى، فهو المستحق للحمد كله. والحمد أعم من الشكر، فهو يصيب ما يحب وما يكره بينما الشكر ثناء المعروف مما يحب فقط. فقد حمد الله تعالى نفسه لعلمه بعجز عباده عن حمده، وظهر ذلك العجز بقوله عليه وآله وصحبه السلام «لا أحصي ثناء عليك»، فحمده تعالى لنفسه لكثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب الحمد فأسقط بذلك عنهم ثقل المنة، ولما في ذلك من تعليم لعباده. فعلى المسلم أن يحرص على الحمد لله تعالى طلباً لعفوه ومغفرته، وتعظيماً له تعالى وتمجيداً، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يعلمنا في الحديث القدسي «من شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وأما معنى ﴿...رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو تعالى مالكهم وسيدهم والمدبر لأمورهم والمصلح لشؤونهم، حتى قال بعض العلماء إنه اسم الله الأعظم. فالرب هو الله تعالى، وأما رب فتشترك بين الله وعباده، والعالمين هم أهل كل زمان وإن أطلقت على كل ما سوى الله تعالى من مخلوقات الإنس والجن، وقد تشمل الملائكة والشياطين.

ووصفه تعالى لنفسه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد ﴿...رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه ترغيب بعد ترهيب وذلك للجمع بين الأمرين في صفاته تعالى، فيرغب العباد إليه كما يرهبون عذابه. والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد».

وأما ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ فهي بين مالك وَملِك وَملْك ومليك، ورأى بعض العلماء أن مَلِك أبلغ من مالك لأنها تشملها في جوانبها وأكثر، ولكن البعض الآخر قال العكس. ولما كان المقصود في الآية هو التملك غلبت مالك على مَلِك في القراءة، بالإضافة لما فيها من زيادة حرف ولقارئها عشر حسنات زيادة، والدين هو الجزاء والحساب على الأعمال ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] أي حسابهم، ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أي مجزيون محاسبون.

وأما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فتعني بأننا نطيعك ونتذلل إليك أنت وحدك، كما نطلب العون والتأييد والتوفيق منك وحدك يا رب العالمين، فلا معين لنا أحدٌ سواك.

وأما ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ فتعني دُلَّنا يا ربنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، والصراط المستقيم هو كل فرض ونافلة، بل قد يعني دين الله تعالى الذي لا يقبل غيره، وهو السبيل الذي لا انحراف فيه ولا اعوجاج.. إنه ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وأما ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فالجمهور يرون أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين هم النصارى.

يرى الإمام القرطبي رحمه الله بأن في الدعاء بطلب الهداية للصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم يا رب العالمين، وليس صراط أولئك المغضوب عليهم، ولا صراط الضالين، ردّاً على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم كما يرى يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية، أي أن الإنسان هو الذي يوجد أفعاله دون حاجة إلى ربه في ذلك، وأن الدعاء لطلب الهداية تكذيب لهذا الفهم والرأي كما يقول.

وللتعقيب على هذا القول: إن خلق الهداية ابتداء لاشك أنه من الله تعالى، فقد نزل بها القرآن والسنة، وفيهما الهداية والبيان لكل خير وشر، كما أن قدرة التمييز التي خلقها الله تعالى في العقل البشري بين الخير والشر لابد منها لمعرفتهما والتمييز بينهما، وبإنزال الهداية وخلق قدرة التمييز كانت الهداية ابتداء من الله تعالى، ولكن أن يختار الإنسان ما ميزه بإرادته وتصميمه سواء كانت الهداية أو الضلالة فهذه هي مسؤووليته، وله أو عليه الثواب أو العقاب لاختياره.. فالدعاء في السورة ليس لخلق الهداية وإنما للتوفيق الدائم إليها والعون على التزامها.

فالله تعالى حينما يقول ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٧] فإنه تعالى يكشف عن نوعين من الهدى: الأول ما يهتدي الناس إليه من البيان الرباني والرسالة المنزلة، وهي هنا الإسلام، والثاني ما يزيده تعالى من الهداية والتوفيق إلى الأولى منها ناهيك عن التفضل منه تعالى بتيسير المزيد من التقوى ومخافة الله..

دليل سورة الفاتحة ـ ١

- إنها سورة مكية، وأنزلت في سبع آيات بما فيها البسملة.

- في السورة من الصفات الربانية ما ليس موجوداً في غيرها مما رأى معه بعض العلماء أن لها تفضيلاً خاصاً.

- يجب قراءتها في كل ركعة من الصلاة إلا إذا تعذر ذلك على المصلي فيجزئه ما أمكنه من التحميد أو التهليل أو التكبير.. وإن عجز عن العربية فيترجم هذا الذكر إلى لغته..

- التأمين ليس من القرآن، ولكن من السنة ختم أيِّ دعاء به بمعنى: اللهم استجب لنا، فيجهر به الإمام ويشترك معه المأمونون على الرأي الراجح.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ بدأت السورة بالحمد والثناء على الله تعالى الخالق المدبر لعالمي الإنس والجن ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ تعليماً لهما.

٢ ـ ورغبت بعدها بـ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ أيْ الذي يتولى مخلوقاته برحمته، فليطمعوا بها بالإيمان والطاعات.

٣ ـ وذكرت من ثم ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ مخوفة للخلق بالحساب بعد التبشير بالرحمة..

٤ـ وبعدها جاء دور التوجه بالدعاء لله تعالى ممهداً له بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي أن المتوجه يعلن بأنه لا يعبد غيره تعالى ولا يستعين بأحد غير الله تعالى.

٥ ـ فحدد الدعاء بطلب الهداية للصراط المستقيم أي الإسلام وهو طريق المسلمين المنعم عليهم بفضل الله تعالى وليس طريق المغضوب عليهم من اليهود ولا الضالين من النصارى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

سورة البقرة (٢)

التقديم

لقد نزلت هذه السورة في مُدَدٍ شتى، وقيل بأنها أول ما نزل في المدينة باستثناء بعض الآيات منها آيات الربا، وذلك أن عمر رضي الله عنه قد تعلمها بفقهها في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في ثماني سنوات. وقيل في حفظها ولا سيما آية الكرسي وخواتيمها الشيء الكثير من الفضل العظيم.

تشتمل العشرون آية الأولى على أربع آيات في وصف المؤمنين، ثم آيتين في ذكر الكافرين، ثم البقية في المنافقين، كما رجَّح ابن جريج ومجاهد. فبعد افتتاحية السورة بالحروف ﴿الٓمٓ﴾ تصف الآيات الأربع المؤمنين المتقين، وما في القرآن من هداية لهم، وأنهم المصدقون بكل ما غُيِّبَ عن إدراك الإنسان، والمصلون، والمنفقون في طاعة الله تعالى، والمؤمنون بالقرآن والكتب السابقة، وبالآخرة، وأنهم لذلك هم المفلحون. وأما الآيتان التاليتان فتتحدثان بالمقابل عن الكافرين، وأنهم الذين لاينتفعون بالإنذار من العذاب والعقاب على كفرهم، ويصرُّون على رفض الإيمان بالله تعالى ورسوله وكتابه، وأنهم بسبب ذلك كمن أقفل أذنه عن سماع الحق، وعينيه عن رؤيته، وعقله عن الإيمان به، ورفض تدبر الحجج والبراهين والدلالات المعروضة عليه. وأما باقي الآيات فإنها تفضح المنافقين بدعواهم الكاذبة بأنهم يؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر، وأنهم يظنون أنهم يخدعون الله تعالى وما هم في الحقيقة إلا خادعون لأنفسهم بما يوقعونها في وهم النجاة في الدنيا والآخرة ودون أن يدركوا أن ذلك وبال واقع بهم، وأن قلوبهم المريضة بالنفاق تزداد مرضاً على مرض بتماديهم فيه وهم بانتظار العذاب الأليم جزاء كذبهم، وأنهم عندما يدعون لترك الكفر الذي يبطنونه والتخلي عن محاولاتهم لحمل الناس بعيداً عن الإيمان فإنهم يزعمون أنهم مصلحون.. وأيُّ صلاح وأيُّ كذب هذا؟! وكأن مجرد

الظن بأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لا يعلم حقيقتهم يجعلهم صالحين! وهم الذين إذا دعوا إلى الإيمان بالله ورسوله وكتابه يسخرون من المؤمنين ويعتبرونهم سفهاء، مع أنهم بنفاقهم يوقعون أنفسهم في السفاهة دون أن يعرفوا ذلك.

وانظر إليهم وهم يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين ويكشفون عن وجوههم الملونة مع أسيادهم وهم يعلنون بأن كل ذلك منهم مجرد سخرية من المؤمنين، فيعلمهم المولى عز وجل بأنه سينتقم منهم ويعاقبهم على ذلك، وإن أملى لهم، لأنهم ارتضوا بل أصروا على الضلال فكانوا كمن استضاء بنار في ظلمة الليل، فأصبح لا يرى إلا نفسه والقليل مما حوله، لأنهم رفضوا سماع القرآن ورؤية ما فيه من الحجة والبيان، ورفضوا الرجوع إلى ما فيه من الحق، أو كانوا كمن وجد نفسه في ليلة ظلماء شديدة المطر والبرق والرعد، فظن أن وضع أصابعه في أذنيه يحميه من ذلك كله، فكان كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال أمام الصياد.. إنهم يظنون أن السير في نور البرق ينجيهم من ظلمة الليل ومن صواعق البرق وصلصلة الرعد، ونسوا أن الله تعالى محيط بهم وقادر على طمس أسماعهم وأبصارهم!

ثم تخاطب السورة الكافرين وتدعوهم لعبادة الله تعالى وحده بعد أن أقرُّوا بأنه خالقهم وخالق من قبلهم، وأنه سخَّر لهم الأرض والسماء وما فيهما من ثمار ومياه، وأن عليهم أن يوحِّدوه ويقرّوا برسوله وكتابه وقد عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله.. ثم تبشِّر السورة المؤمنين بالجنات وما فيها من نعيم الأرزاق والأزواج.. ثم يضرب عز وجل مثلاً للكافرين بالبعوضة، للتدليل على عجزهم عن خلق شيء مما خلقه تعالى ليعملوا عقولهم ويتخلوا عن رفض التصديق والطاعة.. ثم يوبخهم عز وجل لكفرهم بنعمه عليهم وقدرته على إحيائهم وإماتتهم ثم إحيائهم وحشرهم للحساب، وأن لهم في خلقه السموات والأرض والإحياء والإماتة أكبر دليل ملموس يردعهم عن كفرهم.

ففي هذه الآيات مقارنة بين الإيمان وأهله والكفر والنفاق وأهلهما ليستثير المولى عز وجل العقول المميزة للتفكير والإدراك وهو يرسم لهم الخط الأعوج بجانب الخط المستقيم، ويرغبهم ويرهبهم ويلزمهم الحجة.

ثم تتحدث السورة عن خلقه تعالى لآدم عليه السلام ليكون خليفة في الأرض بعد أن يقضي فترة اختبار في الجنة، وبعد أن يجري هذا الحوار بين المولى عز وجل والملائكة وآدم، وما انتهى إليه استكبار إبليس عن الخضوع لأمر الله تعالى من طرده من الجنة، ثم إنزال آدم وحواء إلى الأرض بعد أن لمسا فشلهما في الاختبار أمام غواية الشيطان بعدما أزلهما فأخطآ الاجتهاد في الأكل من الشجرة المحرمة، وبعد أن تابا،

وبعد أن جرى التنبيه عليهم هما وذريتهما من بعدهما بأن الفلاح لمن يتبع ما أمر به الله تعالى من الهدى، وأن الفشل والعذاب لمن يعرض عن ذلك.

وبعد هذا التقديم التذكيري يخاطب المولى عز وجل بني إسرائيل مطولاً لتستعرض السورة جميع جوانب كفرهم وعنادهم ومكرهم وخداعهم سواء مما يخفونه في صدورهم أو مما يعلنونه في أقوالهم وأفعالهم.. ويدعوهم عز وجل لشكر نعمه عليهم عندما أنجاهم من آل فرعون، وجعل منهم الكثير من الأنبياء، ويدعوهم للوفاء بالعهد باتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام، وعدم الخلط بين الإسلام وقرآنه البعيد عن التحريف وبين ديانتيهم اليهودية والنصرانية المحرفتين، ويأمرهم بإقامة الصلاة وأداء الزكاة، وبالعمل بما يدعون غيرهم له من طاعة الله تعالى والصبر على ذلك.

وفي هذا الخطاب عموم يشمل المسلمين أيضاً لأنه يمدح المستعينين بالصلاة وخشوعهم فيها ويقينهم بلقاء الله تعالى وجزيل ثوابه لهم يوم القيامة.

ثم يحصر الخطاب باليهود فيذكّرهم بالتفضيل على عالمي زمانهم ليقروا بنعمة ذلك عليهم، وإلا فلينتظروا شديد العذاب يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا شفاعة فيه لكافر ولا فدية ولا معونة من أحد.. ويذكّرهم بشكل آخر من جديد بإنقاذهم من آل فرعون، وما كانوا يفعلونه بهم من ذبح أبنائهم واستعباد نسائهم، ولكنهم بدلاً من البقاء على الإيمان خذلوا موسى عليه السلام عندما عاد بعد تلقي التوراة ليجدهم قد عبدوا العجل من دون الله تعالى، فكلفهم ذلك الكثير من قتلهم لأنفسهم عقوبة لهم لتحسن توبتهم ويعفو تعالى عنهم.. ويذكّرهم بأن ما أنزله عليهم في التوراة هو الهدى لهم ولكنهم هم الذين رفضوه وعبدوا العجل فظلموا أنفسهم، فاستحقوا ما عاقبهم به من قتلهم لأنفسهم، وأنه من فضله تعالى عليهم أن قبل توبتهم.. ويذكّرهم بالكثير من نعمه الأخرى عليهم من التظليل بالغمام من حرِّ الشمس أثناء التيه، ومن إنزال المنِّ والسلوى، ولكنهم بدلاً من شكر تلك النعم بدلوا كلمة ﴿حِطَّةٌ﴾، أي مغفرة للذنوب، بكلمة حنطة عندما أمروا بدخول بيت المقدس على هيئة السجود، مما استحقوا عليه العقاب.. ويذكّرهم بنعمة العيون الاثنتي عشرة التي تفجرت من الحجر بعدد أسباطهم ليجدوا منها الخير الكثير، ويذكّرهم بالطعام الطيب الذي أنزله عليهم ولكنهم يطلبون الأدنى منه مما اعتادوه في مصر من البقل والبصل والثوم والعدس.. ويذكّرهم برفع جبل الطور عليهم ليهلكهم إن رفضوا الإذعان، وكيف أنهم سجدوا توبة لله تعالى عندما رأوا ذلك، ولكن ما أسرع ما عادوا بعدها للرفض والكفر.. ويذكّرهم بعدوانهم يوم السبت واحتيالهم في صيد السمك بحجزه يوم السبت، وهو محرم عليهم، وجمعه يوم الأحد،

فاستحق من فعل ذلك عقوبة المسخ إلى القردة والخنازير.. ويذكّرهم بقتلهم شخصاً وإنكارهم فعلتهم، وأمره تعالى لهم بذبح بقرة، وكيف أنهم تعنتوا في تحديدها، ولكنهم ذبحوها أخيراً لضرب جثة القتيل بعضو منها ليبعثه الله تعالى فيذكر قاتله ثم يعود للموت.. ويذكّرهم بشدة قسوة قلوبهم وبعدهم عن الطاعة لله تعالى..

بعد هذه القائمة من التذكير لبني إسرائيل بسوء مواقفهم وأحوالهم، ودعوتهم للشكر والإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وكتابه، تعود السورة لتذكير أصحاب الرسول عليه وآله وصحبه السلام لكيلا يطمعوا بإيمانهم بعد أن كان علماؤهم يحرفون كلام الله تعالى، وكان منهم المنافقون، والأميون الجاهلون بكتابهم والمسخرونه لرغباتهم وأهوائهم.. فتذكر بذلك المؤمنين وتؤكد لهم بأن أولئك المصرِّين على الباطل ينتظرهم العذاب الشديد، وأن زعمهم بأن عذابهم في النار لن يدوم إلا أياماً معدودة لن ينفعهم عند الله تعالى في شيء وهم يرون الخلود في النار بينما يرون للمؤمنين الخلود في الجنة..

ولكن هل انتهت السورة بهذا من تذكيرهم؟

ها هي تعود لتذكيرهم بالميثاق الذي أخذه الله تعالى عليهم من توحيده في العبادة، والإحسان للوالدين، ولذي القربى واليتامى والمساكين وحسن الخطاب للناس عامة، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. فماذا فعلوا؟ لقد أعرضوا عن ذلك إلا القليل منهم من أمثال عبد الله بن سلام وأصحابه الذين استجابوا وأحسنوا.. ثم تذكرهم بأن الميثاق قد أخذ عليهم بأن لا يقتلَ بعضهم بعضاً، ولا يخرجَ بعضهم من ديارهم، ولكنهم فعلوا ذلك وأكثر منه عندما افتدوا الأسرى، وهو محرم عليهم، فكفروا ببعض ما أمروا به وآمنوا ببعضه، طلباً لمغانم الدنيا، وهم يدرون ما ينتظرهم جزاء ذلك من شديد العذاب في الآخرة والخزي في الدنيا..

ثم تذكّرهم السورة بأعظم جرائمهم وهم يجمعون الاستكبار عن الإيمان مع قتل من قتلوه من أنبيائهم من مثل يحيى وزكريا عليهما السلام مع زعمهم بأن قلوبهم مقفلة دون الحق الذي يدعون إليه من الإيمان بالقرآن وبالرسول عليه وآله وصحبه السلام مع أنهم كانوا يبشرون به وبمجيئه ويستنصرون به، وزعمهم بأنهم يؤمنون فقط بما أنزل عليهم ويكفرون بغيره مع أن التوراة تؤكد مجيء محمد عليه وآله وصحبه السلام، وأنهم لوكانوا صادقين في شيء من زعمهم لما قتلوا أنبياء الله تعالى.

ثم يأمر المولى عز وجل رسوله عليه وآله وصحبه السلام ليدعوهم لتمني الموت إن كانوا صادقين في دعواهم، ولكنهم كانوا يعلمون سوء أعمالهم وقلوبهم وعقولهم،

فرفضوا تمني الموت، ولو فعلوا ذلك لجاءهم عن آخرهم، وكيف يفعلونه وهم أشد الخلق حرصاً حتى من المشركين على الحياة؟!

وانظروا إليهم وهم يزعمون العداء لجبريل عليه السلام الذي أنزل القرآن على محمد عليه وآله وصحبه السلام من باب ردِّ ما أنزله، وما دَرَوْا أنهم بذلك يعادون الله تعالى، ويقعون في أشد الكفر بعداوتهم لرسول الله! إنهم في حقيقتهم ليسوا بأكثر من نقضة للعهود، فها هو فريق منهم يرفض الإيمان بالقرآن الذي يعلمون أنه مصدق لنزول التوراة، و هاهم يزعمون أن سليمان عليه السلام كان ساحراً، وكذبوا، وما هو إلا عبث الشياطين، ومما لدى هاروت وماروت اللذين كانا ينبهان كل من يعرف شيئاً مما يخبران به الناس أنه فتنة وكفر، ولكنهم كانوا هم يصرّون على تعلمه واستخدامه في الأذى والتفريق بين الأزواج.. وهنا ينبههم سبحانه بأنه عالم بأفعالهم وقادر على منعهم، وأنهم لا يفعلون شيئاً من ذلك رغماً عنه سبحانه ولكنه تعالى يكلهم لإرادتهم واختيارهم ليكون حسابهم عدلاً وقد لزمتهم الحجة ولاسيما أنهم كانوا يعلمون حق العلم أن من يفعل من ذلك السحر شيئاً له العذاب الشديد يوم القيامة.

وتأمر السورة بعدها المؤمنين بأن يكفوا عن استخدام كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ التي كان يستخدمها اليهود بشتم الرسول عليه وآله وصحبه السلام بمعنى: اسمع لاسمعت، وإنما ليقولوا بدلاً منها ﴿ٱنظُرْنَا﴾ أيْ انتظرنا وبيّن لنا، مما يوضح ضرورة التنبه للكلمات والذرائع والأساليب المؤدية بالضرورة إلى الحرام والوقوع فيه.

وتنبه المؤمنين على أثرها بأن اليهود والنصارى والمشركين معهم لا يتمنون نزول أي خير عليهم من الله تعالى، وإن كانوا يعلمون أن الله تعالى وحده هو الذي ينزل ما يشاء كما يصطفي من يشاء، وأنه تعالى العالم بالخير لعباده عندما ينسخ آية بذاتها أو بحكمها فيأتيهم بمثلها أو بديلاً عنها، وأن على أولئك الزاعمين بعدم وجود النسخ أن يكفوا عن ذلك ويؤمنوا بأن القرآن قد نسخ كل ما لديهم واستبدله بما فيه من الخير للبشر أجمعين بعد أن أنزله رب العالمين، خالق السموات والأرض وما فيهما، وأن أحداً لن يملك أن يدفع عن نفسه عقابه ولا ينال ثوابه إلا إذا آمن وأطاع، وأتمر وانتهى.

وتلتفت السورة بعدها لمشركي العرب وتنذرهم من قبح فعلتهم المشابهة لما فعله قبلهم اليهود عندما سألوا موسى أن يريهم الله تعالى جهرة فسألوا هم محمداً عليه وآله وصحبه السلام أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ويجعل لهم الصفا ذهباً، وتحذرهم مما في ذلك من العنت والضلال.

ثم تخبر المؤمنين بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتمنون لو يستطيعوا

إعادتهم إلى الكفر بعد الإيمان، وذلك من باب الحسد البغيض، وتدعوهم للعفو والصفح عن ذلك ريثما يأتيهم أمر آخر، وفي نفس الوقت لمواصلة إقامة الصلاة وأداء الزكاة دون شح ولا تقصير لأن ما يقدمه المؤمن هو الأفضل له مما يؤخره.

ثم تعود السورة لتنقل جانباً آخر من أقوال اليهود والنصارى المنكرة وهم يزعمون بأنه لن يدخل الجنة إلا اليهود أو النصارى، فترد عليهم بل المسلم الخاضع لأمر الله تعالى ونهيه هو الذي يدخل الجنة.. ثم تذكر بأنهم يشتم بعضهم بعضاً وهم ينفون الحق والهدى عن بعضهم البعض، فترد عليهم بأن الله تعالى وحده الذي سيحكم بينهم بالحق يوم القيامة في شأن اختلافهم مع أن ما أنزله بين أيديهم واضح بيّن في ذلك..

ثم تذكّرهم بفداحة الظلم الذي وقعوا فيه عندما تواطأ النصارى مع نبوخذ نصَّر البابلي المجوسي لتخريب بيت المقدس، ومنع المصلين من الصلاة فيه، وذلك من باب عداوتهم لليهود.. وأن ذلك ينطبق على المشركين العرب عندما منعوا المؤمنين والرسول عليه وآله وصحبه السلام من الصلاة وصدّوهم عن المسجد الحرام عام الحديبية..

ثم تذكّرهم بأنهم إن استحسنوا صلاة النبي عليه وآله وصحبه السلام أولاً لبيت المقدس ثم كرهوا تحولها للكعبة فإن الله تعالى وحده هو الذي يتعبّد عباده بما شاء، وكيفما يشاء، وإلى أيِّ جهة يشاء..

ثم تذكّرهم بافترائهم على الله سبحانه بأن له ولداً، وكيف يحتاج لولد من خلق السموات والأرض وما فيهما، ودبَّر ذلك كله، وهو سبحانه الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وهو الغني عن الخلق والخلق كلهم محتاج إليه؟!

ثم تذكّرهم بأنهم ومشركو العرب قد رغبوا أن يكلمهم الله تعالى لتأكيد نبوة محمد عليه وآله وصحبه السلام أو أن يرسل إليهم آية تدل على ذلك ليؤمنوا به، فترد عليهم بأن هذا من العنت والإصرار على الكبر والكفر مما يشبه ما صدر عمن قبلهم من الكفار.

وتؤكد السورة للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأنه قد أرسل بشيراً للمؤمنين الصالحين بالجنة ونعيمها، ونذيراً للكافرين بالنار وعذابها، وأنه عليه وآله وصحبه السلام غير مسؤول عمن مات على كفره مهما كان قريباً أو بعيداً منه. ثم تؤكد له عليه وآله وصحبه السلام بأن اليهود والنصارى مهما تظاهروا بحرصهم على إتباعه بما يقولونه أو يقترحونه فهم كاذبون لأنهم لن يرضوا عنه إلا بعد أن يترك دينه ويتبع دينهم، وأن ما عليه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالمقابل إلا أن يؤكد لهم أن هدى الله تعالى الذي أنزله عليه هو الهدى وغيره هو الضلال، وأن أصحابه الذين يتبعونه ويؤمنون معه هم المؤمنون حقاً، والفائزون حقاً، وغيرهم هم الكافرون الخاسرون حقاً، وأن

على بني إسرائيل أن يتذكروا ما أنعم الله تعالى عليهم من النعم وأن يخشوا ما ينتظرهم من عذاب الله يوم الحساب إن أصرّوا على رفض الإيمان بالإسلام ورسوله عليه وآله وصحبه السلام.

وتذكّرنا السورة إذ تذكّر بني إسرائيل والناس كافة بما جرى مع إبراهيم عليه السلام عندما اختبره ربه تعبداً بما أمره من تكاليف، وكيف أنه التزم بها كاملة، وأنه تعالى عندما أخبره بأنه جاعله للناس قدوة سأل تعالى عن أحفاده بصدد ذلك فأخبره المولى عز وجل بأن منهم من سيكون ظالماً ولا يستحق الإمامة والقدوة لغيره لا لخير الدنيا ولا للآخرة ولا لهما معاً.

وتتحدث السورة بعدها عن مكانة البيت الحرام، وأمره تعالى لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يطهِّراه استعداداً لاستقبال عباد الله من الطائعين والعاكفين، وطلب إبراهيم من ربه أن يجعله بلداً آمناً ويرزق أهله من المؤمنين وغير المؤمنين، فلبيا الأمر ورفع إبراهيم قواعد البيت مع ابنه إسماعيل عليهما السلام ليصبح جاهزاً للعبادة، ودعا إبراهيم ربه أن يأتي منه ذرية مسلمة، فكانت هي أمة محمد عليه وآله وصحبه السلام، وأن يريهم مناسك الحج، ويبعث فيهم رسولاً منهم يتبع ملة إبراهيم في عقيدة التوحيد ويعيش على الخضوع والطاعة لله تعالى التي وصّى بها إبراهيم ويعقوب أبناءهم، والتزما بذلك لا بما زعمه بنو إسرائيل من أن الهداية في اليهودية أو النصرانية، وهما منحرفتان بعيدتان عما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى عليهم السلام من الإيمان والتوحيد الخالص لله، مما هي فطرة الله تعالى ودينه الحق القويم لا المنحرف الضال.

وتعيدنا السورة إلى سفاهة بني إسرائيل، واليهود منهم بالذات، عندما سخروا من تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة، وظنوا بكفرهم بأن ذلك بداية لعودة محمد إلى دين أهل مكة، فأكَّد المولى عز وجل وطمأن أمة محمد عليه وآله وصحبه السلام بأنهم سيكونون بذلك على الحق، وأنهم سيشهدون على الأمم السابقة باتباع رسلها على الحق لمن اتبع وخروج من خرج عنه ولم يتبع، وأن أهل الكتاب لن يتبعوا الإسلام مهما عرض عليهم من بينات ودلالات لأنهم عن علم وعناد يفسقون ويكفرون وينكرون، وما على محمد عليه وآله وصحبه السلام وأمته إلا التوجه في صلاتهم إلى المسجد الحرام بمكة لأنه الحق رغماً عن أولئك المكذبين المكابرين، وأن ما عليهم إلا ذكر الله تعالى وشكره والاستعانة بالصبر والصلاة على طاعته وعن معصيته مهما حل بهم من ابتلاء سواء في الأنفس أو الأموال، لأن في ذلك لهم الأجر العظيم.

واستكمالاً لذكر المسجد الحرام أوردت السورة شيئاً من مناسك الحج، فذكرت أن الصفا والمروة والسعي بينهما هي من شعائر الحج والعمرة.

وعادت السورة بعدها لتشنع على اليهود إخفاء أمر محمد عليه وآله وصحبه السلام، وغيره مما أخفوه من التوراة تبعاً لأهوائهم، وتوعدت بأشد العذاب من يستمر على ذلك منهم ولا يباشر بما يجب إعلانه للناس من وحدانية الله تعالى الذي له في خلق السموات والأرض وما فيهما الآيات الدالات على عظمته وقدرته ووحدانيته.. فكيف يعظّم هؤلاء ويحبون نداً لله سبحانه وتعالى؟! وانظر إليهم وهم يوم الحساب يتبرأ رؤساؤهم من أتباعهم في الدنيا وقد رأوا العذاب بانتظارهم، فيتمنى الأتباع لو أن لهم عودة للدنيا ليتبروا منهم.. ولكن هيهات؟!

وهنا تأتي السورة للتذكير بأنه لا يجوز أن يحرِّم المؤمن على نفسه شيئاً من طيبات الأرض، لأن ذلك من الشيطان الذي يحرِّم الحلال ويدعو للمعاصي والفواحش والافتراء على الله، بدلالة رفض أتباعه لطاعة الله واتباعهم ما وجدوا عليه آباءهم من العقائد الباطلة والعبادات الزائفة، مما يجعلهم كالراعي الذي ينادي غنمه وإبله فلا تسمع منه إلا النداء ولا تفهم منه شيئاً.. فاحرصوا أيها المؤمنون على الأكل من طيبات ما رزقكم الله تعالى، وأن تشكروه على نعمه بالطاعة والعبادة، وأن تعلموا أنه سبحانه لم يحرم عليكم هنا إلا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح لغير الله، مما لايجوز أكله إلا للمضطر، وأن ذلك لابد من إظهاره ليلتزم به جميع المؤمنين في حياتهم ولا يكونوا كاليهود الذين كتموا الحق عن أهله ابتغاء الدنيا فباؤوا بغضب من الله تعالى وبانتظارهم عذابه الشديد يوم القيامة، وهم كمن باع الهدى بالضلال، وأن عليهم أن يعلموا أن القرآن ينطق بالحق، وأنه الحاسم في ذلك وقد نسخ غيرَه من الشرائع، وأنه وحده الذي يحكم على اختلافاتهم البعيدة كل البعد عن الهدى والصواب.

وتذكّر السورة بعدها اليهود بأن البِرَّ ليس كما زعموا هم والنصارى بأنه في التوجه إلى بيت المقدس وإنما بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر والملائكة والقرآن والنبيين، وأنفق المال الفرض والمندوب لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأقام الصلاة وأدى الزكاة ووفّى بعهده وصبر في الشدة والمرض والحرب؛ وأن في هذا الخطاب تذكيراً للمسلمين جميعاً ليكونوا بالعمل بذلك كاملاً من المتقين.

وتواصل السورة تنبيه المؤمنين إلى ما فرض عليهم من القصاص في القتلى، وأنه عند العفو قبول الدية في العمد، مما يختلف عما كان مفروضاً على بني إسرائيل، إذ لم

يكن هناك دية مع القصاص مطلقاً، وفي هذا تخفيف ورحمة بالمؤمنين ولا سيما مع حصر القصاص بالقاتل، وتنفيذه من الحاكم، مما يوفر حياة الكثيرين الذين كانوا يقتلون في السابق ظلماً.

وتأتي السورة مع الحديث عن القصاص والموت إلى آية الوصية (آية ١٨٠) التي ندبت لمن ترك مالاً كثيراً أن يوصي لوالديه الكافرين اللذين لا يرثانه، ولأقاربه غير الورثة، وأن يحرص الوارث أو الولي على تنفيذ الوصية بكل صدق وأمانة في الإطار الشرعي المسموح به وبشرط الإصلاح بين الموصي إذا مال عن الحق وبين ورثته قبل موته.

وأتبعت السورة ذكر القصاص والوصية بذكر فرض الصيام على المؤمنين، وأنه مخصص لشهر رمضان باستثناء المريض والمسافر فله أن يفطر ويقضي، وإن قدر على الصوم فهو أفضل، فكل مسلم بالغ عاقل مقيم يأتي عليه شهر رمضان عليه بهذا الصوم ما دام غير مريض، وعليه أن يكمل صومه ثلاثين يوماً إذا لم يظهر الهلال بسبب الغيوم، وليطمئن أن الله تعالى قريب يجيب دعاء الداعي وصلاة المصلي وصوم الصائم بشرط التزام أسباب القبول، وليعلم أن الله تعالى قد أحل للمسلمين إتيان نسائهم في ليل رمضان بعد أن كان ممنوعاً، وأن الصيام من طلوع فجر اليوم الصادق إلى غروب شمسه فقط، وأن إتيان النساء ممنوع أثناء الاعتكاف الذي أقله لحظة ولا حدَّ لأكثره وأنه جازت عيادة المريض وشهود الجنائز وغيرها من الحوائج أثناءه، وليحذر المسلم فعل ما يدمِّر طاعاته من أكل المال بالباطل سواء لغير حقه أو لدفعه رشوة للحاكم ليأكل مال غيره، فإن ذلك أعظم مفسدة للصوم بإضاعة ثوابه.

وتأتي السورة بعدها للحديث عن الحج فتبدأ بذكر الأهلة، وأنها تحدد أوقات معاملات الناس وعباداتهم بما فيها الحج، وأنه ليس من الحج في شيء دخول البيوت من ظهورها.

وتشير بعدها إلى القتال في سبيل الله كأول أمر نزل في ذلك بعد الهجرة إذ بدأ محصوراً في الدفاع فقط دون الهجوم، ثم نزل الأمر ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ليعم الدفاع والهجوم، ثم أمرت السورة في باب القتل والقتال بوجوب أن يقاتَل الكفار حيثما وجدوا إلا عند المسجد الحرام فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، مع لزوم القتال لدفع الفتنة وحماية سيادة الإسلام ورد الاعتداء والإنفاق في سبيل الله.

وبالنظر لأن القتال قد يحصر الحجاج عن أداء الحج فقد أوجب المولى عز وجل إتمام الحج والعمرة لمن شرع بهما، وإن حصر فيحل بالهدي حيث حصر، وله أن

يشترط عند النية ذلك. والجدير بالذكر هنا أن عمرة الحديبية سميت عمرة القضاء والقضية لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قاضى قريشاً وصالحهم وليس لأنه قال بقضائها في العام التالي، وأنه إذا لم يجد هدياً للإحلال من الإحصار فعليه الإطعام أو الصيام، ولا يحلق رأسه إلا بعد نحر الهدي، وله عند المرض أن يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين أو يهدي شاة فدية للحلق، ويجوز الإطعام والذبح حيث يشاء، وعند الأمن من المرض أو العدو يهدي للتمتع بين العمرة والحج، ويجوز الإفراد والقران والتمتع في أداء الحج والعمرة، وإن كان الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد قرن بينهما لأنه كان يعلم أنه ليس بحاج بعدها، والرجل متمتع إن حل من عمرته في الأشهر الحرم ثم حج من سنته، وله أن يدخل الحج على عمرته قبل الطواف بالبيت لها ويكون بذلك قارناً، وكذلك له أن يدخل العمرة على حجته قبل الطواف للحج، ونحر الهدي للمتمتع يوم النحر لا بعد انتهائه من العمرة وإلا كان عليه هدي آخر، وعلى المتمتع دم المتعة إذا مات بعد أن يحرم بالحج، وإذا لم يجد الهدي من حيث الحيوان أو المال فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج آخرها يوم عرفة وسبعة إذا رجع إلى بلده، وإن كان يجوز أن يصوم أيام التشريق، وإذا وجد الهدي أثناء الصيام فيكمل الصيام ولا يرجع للهدي، وإذا كان من غير أهل مكة، وهذا معنى عدم حضور أهله المسجد الحرام، أيْ إقامتهم هناك، فعليه دم التمتع، بمعنى أن يعتمر أولاً ثم يحل ثم يحج ويذبح، وأما غير الحضري فهو البعيد عن مكة البعد الذي تقصر فيه الصلاة.

وتحصر السورة فترة الحج في شوال وذي القعدة وعشرة من ذي الحجة، وإن قيل ذي الحجة كله، فلا إحرام بالحج إلا فيها وإلا كانت عمرة. ويلتزم من نوى بالحج ألا يرفث ولا يفسق لا بشأن النساء ولا غيرهن، ولا يجادل مشاتماً، وأن يتخذ زاداً لا أن يتكل على غيره، وله ممارسة التجارة في الحج مع أداء العبادة مع مراعاة الإخلاص لله في الحج، وعليه الوقوف بعرفة، لأن الحج عرفة، ثم يفيض إلى مزدلفة بعد الغروب حيث يجمع المغرب والعشاء تأخيراً بعد أن جمع بعرفة الظهر والعصر تقديماً، ولا يستحب صوم عرفة لمن بعرفة، والوقوف والمبيت بمزدلفة سنة مؤكدة يلزم بدم من لم يقف بها ولو بعد منتصف الليل، وتجب الإفاضة من عرفة وليس من المزدلفة، كما كان يفعل الحُمس، ومتى رميت الحصيات السبع في جمرة العقبة بمنى فقد أُحل للحاج كل شيء إلا النساء، وتقطع التلبية عند رمي الحصيات، وإذا انتهت مناسك الحج لزم ذكر الله تعالى وتعظيمه والذب عن محارمه والغضب لمعصيته، ولا يقف الدعاء عند طلب مغانم الدنيا بل وخير الآخرة معاً بترديد ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] ففي ذلك جماع الخير كله، كما أن من يحج عن غيره له ثواب بدنه وعمله وللمحجوج عنه ثواب ماله وإنفاقه.

ومع الانتهاء من ذكر مناسك الحج تلفت السورة نظر الحجاج ليكثروا من ذكر الله تعالى مع الدعاء والعبادة طيلة أيام وجودهم في منى، وهي يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة، وتبين لهم جواز التعجل في يومين فقط من أيام التشريق ثم النزول إلى مكة لطواف الوداع وإنهاء الحج.

وتعود السورة وتنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأمته لما يقوله المنافقون استكمالاً لما ذكرته عن الكافرين والمؤمنين، وأن الأمر يصل بالواحد من هؤلاء المنافقين إلى درجة أن يُشْهِدَ الله على صدقه فيما يقول، مما يثير سخرية من يعلم كذبه وإفساده، إفساده بالسعي لتنفير الناس من الإيمان والتآمر على الإسلام وأهله وإتلاف الزرع وقتل الدواب، ويزهو بإثمه على الآخرين، بينما نجد بالمقابل من المؤمنين من أمثال صهيب بن سنان من يتنازل عن ماله لأهل مكة ليلحق بالرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه في دار الإسلام بالمدينة، فيبيع دنياه برضى الله تعالى، وشتان بين هذا وذاك!

ثم تدعو السورة الناس جميعاً ليكونوا على ملة الإسلام الواحدة، ولا يتفرقوا تبعاً لعبث الشيطان وطرقه الشريرة، وطلباً لمتع الدنيا، لأن من يخرج عن طريق الإسلام القويم أو يعرض عن دخول حظيرته بعد كل تلك البراهين والمعجزات فلينتظر عذاب الله الشديد، وهو كمن يريد أن يرى الله جهرة وهو يعلم أن ذلك ليس بمقدور البشر.. فاسأل يا محمد بني إسرائيل كم جاءهم في بيان أمرك من آية معرفة دالة، فماذا فعلوا غير تحريف كلام الله تعالى وتغييره طمساً للحقيقة وإنكاراً للنعمة، نعمة الإسلام، التي دعاهم تعالى لاتباعها متى جاءت.

وتنقلنا السورة بعدها لذكر ما كان يفعله رؤساء قريش من السخرية والهزء هم وأتباعهم بالمسلمين رغبة في متاع الدنيا الذي كانوا يخشون ضياعه منهم بانتصار المسلمين عليهم، فيؤكد المولى عز وجل بأن مصيرهم إلى النار بينما مصير المؤمنين إلى الجنة ناهيك عما يرزقهم تعالى في الدنيا من النصر وفي الآخرة من عُلُوِّ الدرجات. ثم تذكّر السورة المؤمنين بما حصل في تاريخ البشرية الطويل من اجتماع الناس أولاً على دين التوحيد الواحد ثم تنكبهم عن ذلك بما شاع بينهم من الشرك والكفر مما بادرهم المولى بإرسال الأنبياء إليهم برسالات الله تعالى التي كانت تعيدهم إلى التوحيد والطاعة لله تعالى..

وهكذا ما كانت الأمم تخرج عن الهدى وترفض ما يرسله تعالى إليها من بينات وبراهين إلا عندما يستبد بها الكبر والعناد والبغي في الباطل، ولكن بالرغم من ذلك لم تترك أمة على مدى تاريخ البشرية دون إنزال الهدى إليهم ودعوتهم لاتباعه والالتزام به، ولكن ليس بدون الابتلاء بالشدائد من فقر وقحط ومرض وغيرها، بل كان ومازال طريق الجنة محفوفاً بالمخاطر والمكاره، وطريق النار محفوف بالمغريات والشهوات، ويصل الابتلاء أحياناً إلى درجة أن يقول الرسول، كما حصل مع محمد عليه وآله وصحبه السلام والمسلمين أن قالوا متى نصر الله، ولم تأخر علينا؟ لشدة الضيق، ولكن نصر الله تعالى ما كان يطول انتظاره عندما يأتيهم الرد بأن نصر الله قريب، وأن ما عليهم إلا الصبر والمصابرة والثبات والتضحية.

وتجيب السورة بعدها على مجموعة من الأسئلة: أولها عن أوجه الإنفاق لما يملكونه من خير كثير، وأن الأولى بذلك هم الوالدان و الأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل، وثانيها عن القتال في الشهر الحرام، فتمهد للإجابة بفرض الجهاد على المسلمين الذين أمروا به بعد أن كان محرماً عليهم في مكة ثم جاء جواز القتال في الشهر الحرام، وخاصة أن الكفر بالله وبالمسجد الحرام وطرد المسلمين منه، كل ذلك أكبر عند الله تعالى وأشد جرماً ولا سيما مع فتنة المسلمين عن دينهم من أيِّ قتال، وثالثها عن تحريم الخمر والقمار، وأن فيهما كتهيئة للتحريم إثماً كبيراً ومنافع للناس وإن كانت أقل قيمة من الإثم، ولذلك عليهم أن يحذروهما، ورابعها عن مقدار ما ينفقه المسلم من ماله، وأن ذلك مسلط على مال العفو الزائد عن الحاجة، وخامسها عن اليتامى والتعامل معهم، وأن للمسلمين أن يشاركوهم في استثمار أموالهم بقصد الإصلاح والنماء والكسب فقط لاغير، ثم عطف الحديث إلى جواز مناكحة اليتامى وأن مناكحة المشركين منهم لاتجوز حتى يؤمنوا، فلا يتزوج المسلم مشركة ولا تزوج المسلمة إلى مشرك، وسادسها عن المحيض وصلته بالنكاح، وأنه لايجوز إتيان الزوجات أثناءه حتى يطهرن منه ويغتسلن، وأن يكون الإتيان في الفروج لا في الأدبار، وأنه لايجوز استخدام الأيمان لمنع حسن الصحبة للأيتام وحسن العشرة للزوجات، وإن كان لا شيء على لغو اليمين في ذلك كله.

وتبعاً للإشارة إلى النساء ونكاحهن فقد وقفت السورة عند ما يتصل بذلك من مشاكل، وبينت أحكامها بشيء من التفصيل:

فذكرت الإيلاء، وهو الحلف على تجنب الزوجات تأديباً، وأن مهلته أربعة أشهر، وللزوج الرجوع لزوجته أثناءها أو أن يطلقها طلقة رجعية.

ثم ذكرت عدة المطلقات، وأن مدتها ثلاثة قروء تلزم المطلقة أثناءها بالتصريح عن حملها إذا ظهر فيها، وأن زوجها هو الأحق بردها إذا أراد، وأن لها عليه من حقوق الزوجية من التزين الذي يقره الشرع مثل ما له عليها، وإن كانت زينته مما يليق به.

ثم ذكرت عدد التطليقات، وأنها اثنتان رجعيتان والثالثة بائنة.

ثم ذكرت الفدية، وذلك أن تفتدي الزوجة نفسها بأن تدفع لزوجها ما دفعه لها من المهر مقابل الخلع وإنهاء عقد الزوجية. ثم ذكرت الطلاق بعد المخالعة أو التطليقة الثالثة، وأنه لايجوز له أن يرجع إليها إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره نكاحاً كاملاً لامجرد تحليل.

ثم ذكرت ما على الزوج المطلق عند قرب انتهاء عدة مطلقته: فهو إما أن يعيدها أو يطلقها فيتركها تتزوج غيره ولا يلجأ للإمساك بها والإعادة الشكلية لإيقاع الأذى بها، فذلك من العبث المردود المرفوض شرعاً.

ثم ذكرت أن على ولي أمرها بعد انتهاء عدتها أن لا يمنعها من أن تعود لزوجها إن تفاهما معاً بعقد جديد لأن ذلك أزكى وأطهر لهما.

ثم ذكرت الولد الذي قد يأتي من النكاح قبل الطلاق أو بعده، وأن الزوجة أحق بإرضاعه من الأجنبية، وأن مدة ذلك حولان كاملان لمن يريد أن يكمل الرضاعة، وأن على الزوج المطلق الإطعام والكسوة بقدر وسعه المالي للولد وأمه، ولو مات فعلى الوارث مثل ذلك، وأن لهما أن ينقصا مدة الرضاعة عن السنتين بالاتفاق بينهما وحسب مصلحة الرضيع، كما لهما أن يدفعا الرضيع لمرضعة أخرى ويدفع الأب الأجرة حسب الاتفاق والسعة.

ثم ذكرت عدة المتوفى عنها زوجها، وأنها أربعة أشهر وعشرة أيام بلياليهن، وأن للأرامل بعدها التعرض لخطبة الرجال بالشكل المشروع، وأنه لابد عند تعرض الأرملة أو المطلقة للخطبة أثناء العدة أن يكون بالتلميح لا بالتصريح وبشرط عدم المواعدة سراً ليكون التصريح والعقد بعد انتهاء العدة.

ثم ذكرت ما للمطلقات من حقوق مالية على مطلقيهن : فإن طلقها دون وطء ولا تحديد مهر فعليه أن يعطيها شيئاً يكون متاعاً لها وذلك حسب قدرته المالية، وهذا حق لها وواجب عليه، ولكن إن طلقها دون وطء وبعد تحديد المهر فعليها أن تعيد إليه نصف ما أعطاها من مهر أو تترك نصفه إذا لم يكن قد دفعه لها، أو يعفو ولي أمرها إذا كانت ممن لا عفو لها لصغرها أو لأنه محجور عليها، والعفو هو الأفضل عند الله تعالى.

وتنتقل السورة بعد هذه الأمور إلى الأمر بالمحافظة على أداء الصلوات الخمس بشروطها وفي أوقاتها، وتخص من بينها الصلاة الوسطى دون أن تحددها، وتلزم بذلك

طاعة لله تعالى، وذلك في حال الأمن وأما في حال الخوف الطارئ فقد رخَّص سبحانه الصلاة وقوفاً على الأقدام أو ركوباً على الخيل وغيرها، إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه طلباً للنجاة، وأما عند زوال هذا الخوف فلا بدَّ من إتمام أركان الصلاة. وذكرت الصلاة هنا قبل استكمال ذكر المشاكل الزوجية لبيان أهميتها مهما كانت المشاكل معقدة، وفي الأمن والخوف، الحال الذي ينبِّه على الحرص عليها في جميع الأحوال.

وتعود السورة لذكر ما للزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، وأن لهن التمتع بالإنفاق عليهن من التركة لسنة كاملة ما دامت لم تخرج من المنزل، وإن خرجت فللورثة الحق في قطع النفقة عنها. وهذا الحول نسخ بالأربعة أشهر وعشرة أيام كما نسخت النفقة بالربع من التركة عند عدم الأولاد وبالثمن عند وجودهم. وتواصل السورة ذكر ما للمطلقات عموماً من متاع وإن كان لهذا العموم تخصيص آخر حسب كل حالة من حالات المطلقات.

وترجع السورة لتستأنف ذكر الجهاد والقتال في سبيل الله، فتذكر أولئك الناس الذين خرجوا من ديارهم هرباً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم ومن خلفهم من البشر أن الإماتة بيد الله تعالى وحده، وأنه لا حاجة للخوف من الموت ولا للاغترار بالنصر، منبهة بذلك للرسول عليه وآله وصحبه السلام ومطمئنة بين يدي أمره تعالى له وللمؤمنين بالجهاد. ويدعوهم المولى عز وجل مع الإعداد للجهاد للإنفاق في سبيله إذ جعل من يدفع شيئاً للجهاد كأنه دفعه قرضاً لله تعالى الذي ينميه له أضعافاً مضاعفة في الأجر يوم القيامة.

وتعود لتربط التحريض على القتال بقصة أخرى جرت في بني إسرائيل عندما طلبوا من نبيّهم (شمعون) الذي خلف موسى أن يحدد عليهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله، فسألهم فيما إذا كانوا بحق سيقاتلون إذا فرض عليهم القتال، فأكدوا له ذلك بحجة أنهم طردوا من ديارهم وفرق بينهم وبين ذراريهم، ولكنهم كعادتهم نكثوا العهد فلم يقاتل منهم إلا القليل، وفي ذلك تنبيه للرسول عليه وآله وصحبه السلام ومن معه من المسلمين حتى لا يكونوا مثلهم، ذلك أنهم استنكروا تحديد طالوت ملكاً عليهم لقلة ماله ولأنه ليس من بيت ملك سابق، فأكد لهم أنه اختيار الله تعالى وليس لهم إلا التسليم وقد ميّزه عليهم بسعة العلم وقوة الجسم، وذكر لهم علامة ملكه بأن يأتي التابوت المتوارث في بني إسرائيل ومعه الطمأنينة لهم وفيه ما ترك آل موسى وآل هارون من العصا ورضاض الألواح والثياب، ويرونه بالفعل قادماً محمولاً دون أن يروا الملائكة التي جاءت تحمله..

وتواصل السورة سرد هذه القصة فتقول بأن طالوت عندما خرج بالجند ليقابل

جالوت ملك العمالقة قال لجنده بأن نهراً أمامهم لا يجوز الشرب منه رغم العطش الشديد إلا بقدر ما يبل الواحد منهم عطشه فقط، ولكنهم خالفوا أمره وشربوا منه إلا القليل منهم، وأنهم لم يكتفوا بهذه المخالفة بل أظهروا جزعهم من مقاتلة جالوت وجنوده ولم يظهر الصبر إلا القليل منهم وهم الذين دعوا الله تعالى أن يثبت أقدامهم وينصرهم فاستجاب تعالى دعاءهم وتمكن داود من قتل جالوت بمقلاعه بعد أن انتدبه طالوت لذلك، وتحقق له الملك والنبوة من بعده. وتنهي السورة هذه القصة لتؤكد للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن هذه هي أخبار الله تعالى إليهم بكل صدق وحق، وأنه عليه وآله وصحبه السلام مرسل من الله لأنه لا يعلم مثل هذا إلا الرسول.

وهنا تشير السورة إلى ما فضَّل به تعالى الرسل بعضهم على بعض، لا في النبوة المشتركين فيها وإنما في منحه تعالى لكل منهم الخصال الأخرى الزائدة على النبوة: فمنهم من كلمه الله تعالى، ومنهم أولو العزم، ومنهم من اتخذه خليلاً.. ثم تشير إلى ما يقع من اقتتال بين أتباع الرسل فتقول بأن ذلك بسبب اختلاف الناس في أفكارهم بين مؤمنين وكافرين، وتبعاً لبغيهم وتحاسدهم وتنازعهم حطام الدنيا، وأن ذلك بسبب غلبة دوافع الشر في نفوسهم وعدم احتكامهم لتقوى الله تعالى ومخافته وبسبب مخالفة أمره ونهيه.. وتعقب السورة على هذا الواقع بدعوة المؤمنين لالتزام طاعة الله تعالى مهما كانت المغريات، وأن يقبلوا على الإنفاق في سبيله بالفروض والنوافل ولا يبخلوا في ذلك قبل أن يوافيهم الأجل فتضيع الفرصة على البخيل الذي لن يجد مجالاً لبيع ولا صداقة ولا شفاعة يوم القيامة فيكون قد ظلم نفسه.

وهنا تنقلنا السورة لأعظم آية في القرآن، آية الكرسي، التي توضح من صفات الربوبية ودلائل الوحدانية ما يجعل المؤمن شديد التعلق بالله تعالى، إذ هو سبحانه الحي المدبر لخلقه، والذي لا يلحقه نعاس ولا نوم، والذي لا يملك الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه، والذي لا يعلم أحد من غيبه شيئاً إلا ما علمه، والذي تحيط كرسي سلطته وقدرته وعظمته وعلمه بكل السموات والأرض.. هذه الآية لها أعظم المكانة عند الله تعالى فليحرص كل مؤمن على تلاوتها سواء عقب الصلوات أو في غير ذلك من الأماكن والأوقات.

وتأتي بعدها السورة للحديث عن أثر من آثار الجهاد في سبيل الله تعالى وفتح البلاد الأخرى وضمها للديار الإسلامية، ألا وهو الدخول في الإسلام: فلا يكره أحد على ترك عقيدته واعتناق عقيدة الإسلام، ولكن هذا يختلف عن تطبيق الشريعة التي من أجلها فرض الجهاد. وإذا أعتنق أحد الإسلام وآمن بالله ورسوله وكتابه، وتخلى عن الإيمان بغيره مما يسمى بالطاغوت فإنه يكون قد التزم الإيمان الحق والإسلام الحق

مختاراً لا مكرهاً، وأنه بهذا يخرج من ظلمة الكفر والجهل ويلج إلى نور الإيمان والعلم، فينتهي بنفسه إلى الخلود في الجنة بدلاً من الخلود في النار.

وهنا يلفت المولى عز وجل نظر رسوله عليه وآله وصحبه السلام للجانب الإيماني من قصة إبراهيم عليه السلام وحواره مع النمرود طاغية بل طاغوت زمانه وملك عصره الذي ادعى بأنه يحيي ويميت ليشبه نفسه بالله تعالى بأن أبقى على حياة بعض من أتي بهم إليه وقتل آخرين، ولكنه فشل في إدعاء الألوهية عندما طلب منه إبراهيم أن يفعل عكس ما أمر به تعالى بأن يأتي بالشمس من المغرب بدلاً من المشرق.. كما لفت المولى سبحانه نظر رسوله عليه وآله وصحبه السلام إلى هذا الجانب من قصة (عزير) الذي مر بقرية خربة بلا عمران ولا سكان، فظن بأن الله تعالى لا يقدر على إعمارها من جديد فأعطاه المولى عز وجل الدليل الحسي من نفسه وحماره بأن أماتهما عام ثم بعثه ليريه بأم عينيه قدرته تعالى على الإحياء له ولحماره مما جعله يقر بأن الله تعالى على كل شيء قدير.. وفي ذلك تذكير وتنبيه لأمة محمد عليه وآله وصحبه السلام وللبشرية كلها إلى قيام الساعة.

ثم تعود السورة لتعرض تتمة الجانب الإيماني مع إبراهيم عليه السلام في نفسه هو لا مع النمرود عندما طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيى الموتى لتطمئن نفسه اطمئنان رؤية العيان لا شك الوجدان الذي أعلن نفيه عن نفسه، فأمره تعالى أن يقطّع أربعة طيور بعد ذبحها، ويخلط قطعها، ويضع مجموعة قطع مخلوطة من كل منها فوق جبل ثم يدعوها ليرى كيف تعود إليه وقد وقف ممسكاً بالرؤوس الأربعة في يديه، فتعود كل مجموعة قطع لتلتحق برأسها الخاص ثم تطير في الهواء كأن شيئاً لم يصبها، فسبحان القادر على كل شيء!

وتقف بعدها السورة وقفة طويلة مع الإنفاق، إنفاق الأموال، وما يتعلق بذلك من قيود وحدود: فتبدأ بالإنفاق في سبيل الله بالذات في الجهاد، وتذكر أن مثوبة من يفعل ذلك مضاعفة الثواب أضعافاً كثيرة وأكثر من أجر الإنفاق في أوجه الخير الأخرى بسبب أهمية الجهاد، وأنه سنام الإسلام، ولكن بشرط عدم المنِّ والأذى وجعله خالصاً لوجه الله تعالى، لأن المنَّ والأذى يمحوان الثواب، ولأن القول المعروف من دعاء وأمثاله أفضل من الصدقة مع الأذى.. فليحذر المتصدق ذلك وليتجنب الرياء الماحق للثواب وليذكر أن الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى كالإنتاج المضاعف بينما لا إنتاج مع الرياء، وأن البركة تزداد بذاك الإنفاق له ولأحفاده بينما لا يخلف الرياء إلا الضياع في البركة والفقر في الذرية، وأن الإنفاق من المال الطيب لا الخبيث هو المطلوب وإلا لما كان له من خير ولا أجر، وأن في البخل عن

الإنفاق دعوة شيطانية للخوف من الفقر وفعل المنكر بينما لا يجد المؤمن إلا فضل الله تعالى ورزقه الطيب وأجره العظيم.. وشتان بين الأمرين!

وأن أيَّ نفقة ينفقها المرء أو نذر ينذره فالله تعالى يعلمه ويحاسبه عليه، فإن أحسن فبالإحسان وإن أساء فبالعقوبة، ولن يجد له ناصراً ولا معيناً وقد ظلم نفسه أو غيره، وأن إظهار الصدقة في الإنفاق لتشجيع الآخرين فيه خير، وإن كان إخفاؤها عند إعطاء الفقراء لمراعاة نفوسهم فيه خير أكثر، وأن الصدقة جائزة على فقراء أهل الذمة ما فاضت عن فقراء المسلمين، كما هي أشد ندباً للفقراء الذين منعوا من التصرف في أملاكهم خوف العدو وإن تعففوا حتى ظُنَّ بهم الغنى، وأن من ينفق من أمواله ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، دون أن يخشى فقراً فإن له أجراً عظيماً من رب كريم، وأن الإنفاق بقصد الربا محرم قطعاً سواء سمي معونة لقضاء الحاجة أو غيرها من التسميات.

وأن الربا ليس من البيع الحلال مهما تشبه به، وأنه لا ثواب عليه بل أشد العقاب لمن زعم المساعدة به لأن الله تعالى يمحق ثواب الربا ويضاعف ثواب الصدقة، وأن آكل الربا محارب لله ورسوله حرباً خاسرة لا شك في ذلك، وأن على من يتجوز لنفسه الربا بحجة طول مدة السداد أن ينتظر إلى الميسرة ليأخذ رأس ماله فقط ويكسب معه أعظم الأجر بدلاً من أشنع الوزر، ويكون له الأجر الأعظم من ذلك لو سامح المعسر تماماً دون أن ينتظر ميسرته.

وليذكر المؤمن أيضاً أنه عند دفع المال ديناً إلى أجل محدود أنه مندوب إلى كتابة ذلك بشكل يحفظ الحقوق ولا يضيعها على أحد، وليشهد على ذلك شاهدا عدل، وأن لا يستثنى من الكتابة إلا البيوع الحاضرة السريعة بين الناس مما اعتادوا عليه في حياتهم اليومية، وليذكر أن التداين أثناء السفر أو الحضر يمكن من الاطمئنان لحفظ الحقوق فيه إذا لم يوجد كاتب بأن يدفع رهناً لصاحب المال المدفوع ليعاد إليه عندما يرجع المال ويسدد الدين.

وتنتهي السورة مع الآيات الثلاثة الباقية بالتنبيه على ما تطويه النفوس البشرية أو يظهره أصحابها، سواء في مجال الشهادة على الأموال أو غيرها، وأن الإنسان محاسب على ذلك، وأن لله تعالى وحده الأمر في أن يغفر أو يعاقب عليها، وأن الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم والمؤمنين معه ومن بعده إلى يوم القيامة قد شملهم أمره ونهيه، وأنهم يبقون سامعين مطيعين في ذلك كله، كيف لا وأن الله تعالى لا يكلف نفساً من البشر إلا ما في وسعها القيام به، وأنه تعالى قد خلق عباده على قدرة من القيام بما كلفهم وهو سبحانه العالم بخلقه.. وأنه سبحانه وتعالى يعلم عباده بهذه الآيات الدعاء إليه لما في ذلك من القربى وجزيل المثوبة.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ
يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ
عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ
غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ
(٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ
فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ (١٣)
وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (١٤)
ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت
تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ
ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ (١٧) صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (١٨) أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ
بِٱلۡكَٰفِرِينَ (١٩) يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ
ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٢٠)﴾

اُختلف في حروف أوائل السور، فمن قائلين بأنها سر الله في القرآن، فلا كلام فيها، ومن قائلين بتلمس الفوائد والمعاني، فقيل بأنها اسم الله الأعظم أو أنها إشارة إلى حروف الهجاء العربية التي تحدى القرآن بلغتها العرب كمعجزة، أو أنها أول أسماء أُخذت منها: فالألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، أو أنها أسماء السور، أو أنها أقسام وأيمان أقسم الله تعالى بها وحلف.. إلى غير ذلك.

فالمولى عز وجل بدأ السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن لا ريب ولا شك في كل ما يورده فيه، وأنه هدى وبيان ودلالة للمؤمنين المتقين، وأن من يؤمن به ويلتزم به فقد تحققت له الهداية التي تجعله من المتقين إن أحسن السير عليها ولم يسمح للأهواء والشهوات أن تعبث به، وأن المتقين هم الذين يظهر إيمانهم أول ما يظهر بالإيمان بالقرآن والرسول عليه وآله وصحبه السلام ثم بالغيب مما يشمل كل ما ورد في القرآن من مغيبات عن العقل، وهي ما أشار إليه حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي عليه وآله وصحبه السلام عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». بالإضافة لما ورد في القرآن من الجنة والنار والجن والشياطين وغيرها، كما أنهم أول ما يظهر التزامهم به منها إقامة الصلاة، سواء كانت بمعنى الدعاء «الدعاء هو العبادة» أو بالمعنى الشرعي، فرضها ونفلها، بعددها وأوقاتها، بأركانها وشروطها «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم» و«الصلاة عماد الدين، من أقامها أقام الدين ومن هدمها هدم الدين»، كما يظهر إيمانهم بإنفاقهم دون بخل مما رزقهم الله تعالى في الفرض والتطوع، وبإيمانهم الجازم بالقرآن والكتب السابقة التي نزلت بغير ما لحقها من تحريف وتبديل، وبإيمانهم بالبعث والنشور، وأنهم بهذا الإيمان بكل مقوماته يتحقق لهم اليقين ويتوفر لهم الهدى الذي أمرهم به ربهم، وأنهم بذلك فائزون مفلحون في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالطمأنينة وفي الآخرة بالجنة والرضوان.

هذا بالنسبة للمؤمنين، وأما الكافرين فالله تعالى محيط علمه بهم، وأنه يخبر رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأنهم لن ينفعهم إنذاره لهم مهما تكرر ما داموا على إصرارهم وعنادهم في الكفر والضلال، في إقفال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم عن التدبر والتفكر بكل ما يعرض عليهم من الحجج والبراهين والدلائل، وهي شاخصة أمامهم ومقنعة لكل عاقل متدبر، وأما أن يختم منافذ إدراكه كلها فيمنع تسرب نور الهداية إليها فإنه يعاند في الباطل ويستحق بعدل العذاب الشديد جزاء إصراره على الباطل واختياره الشرير.

والله تعالى عندما يصف قلوب الكفار، والقلوب بوابات العقول، بعشرة أوصاف هي: الختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار فإنه سبحانه يبين في كل نصٍّ يشتمل على وصف منها أن ذلك فعلهم واختيارهم وإرادتهم ليستحقوا بذلك الحكم العادل في حقهم.

فانظر في قوله تعالى ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢] فإنه يوضح أن

قلوبهم هي المنكرة وأنهم هم المتكبرون عن الإيمان، وفي قوله ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦] فإنه يبين أنهم هم الذين فعلوا ذلك لقلوبهم، وفي قوله ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧] فإنه يبين أنهم هم الذين اختاروا البعد عن الإيمان مما كان في إطار إرادة الله تعالى لا رغماً عنه إذ تركهم لاختيارهم، وفي قوله ﴿...فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فإنه تعالى يبين أن القسوة ملك إرادتهم، ويؤكد هذا المعنى في قوله الآخر ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]، وفي قوله ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فإنه تعالى يبين أن اختياره الكفر قد أماته فأمات قلبه، وأنه بإيمانه قد عاد إلى الحياة فأحيا قلبه، ذلك لأنه تعالى قد أنزل الهدى والإيمان وبيّنهما ليختار من يختار عن إيمان ويكفر من يكفر عن ضلال، وفي قوله ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤] فإنه تعالى يوضح بأن كسبهم وعملهم واختيارهم هو الذي سبَّب الرين على عقولهم، وفي قوله ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] فإنه تعالى يبين أن إدخالهم الكفر في عقولهم وقلوبهم جلب لها هذا المرض فبعدت عن الصحة والسلامة ووقعت في العلة والمرض، وفي قوله ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فإنه تعالى يؤكد قدرته على ذلك لو قضى بذلك ولكنه سبحانه قد جعل للإنسان الإرادة والاختيار بين الإيمان والكفر لينتهي حقاً وعدلاً إلى الجنة أو النار، وفي قوله ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧] ومثلها ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥] ويشبهها ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] فإنه تعالى يبين أن الطبع والختم والإقفال لتلك القلوب بوابات العقول قد جاءت تبعاً لإرادتهم واختيارهم الكفر والضلال.

ومن هذا كله يظهر بوضوح أن التحلي بالإيمان والكفر من صنع الإنسان واختياره وإرادته وليس قهراً له ولا جبراً عنه ولا فرضاً عليه، وأنه تبعاً لمسؤوليته الكاملة هذه ينال الثواب ويقع تحت العقاب عدلاً وحقاً..

وفي الآيات التالية من (٨-٢٠) تنقلنا السورة للحديث عن المنافقين مبينة أنهم يتظاهرون كذباً بالإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، وأنهم نسوا أن مجرد القول لا يكفي لأن «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان» كما قال عليه وآله وصحبه السلام، وأنه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣]، وأنهم ظنوا عندما يخفون حقيقة كفرهم بأنهم يخدعون الله سبحانه والمؤمنين، وهم في الحقيقة لا يخدعون إلا أنفسهم، إذ يفسدون أعمالهم بهذا الكفر المبطن بغض النظر عن عدم إدراكهم ذلك، وأنهم بهذا الرياء والنفاق يلحقون المرض بقلوبهم فتفقد سلامتها

ونقاءها، وأن ذلك يؤدي إلى المزيد من المرض تبعاً للمزيد من الكفر والكذب، وأن جزاءهم العذاب الأليم وفاقاً.

وانظر إليهم وهم يدعون للإفساد في الأرض بالنفاق والكفر وموالاة أهلهما، وتفريق الناس عن الإيمان، فإنهم يسرعون للزعم بأنهم مصلحون بحجة أنهم يدعون للتوفيق بين الكفار والمؤمنين، ولكن الله تعالى يكذب زعمهم بأنهم مفسدون وإن أخفوا نفاقهم وكفرهم عن النبي عليه وآله وصحبه السلام وصحبه.

وانظر إليهم وهم يدّعون الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وكتابه، تشبهاً بالمهاجرين والأنصار، ولكنهم يسارعون برفض ذلك لأنه كما يقولون صفة السفهاء من أمثال عبد الله بن سلام وصحبه وأمثال المهاجرين والأنصار، فيردّ عليهم سبحانه مبيناً حقيقة أمرهم من الخرق والخفة لكفرهم ونفاقهم دون تدبر عقل ولا روية تفكير.

وانظر إليهم وهم يزعمون أنهم مؤمنون كلما التقوا بالمؤمنين، ولكنهم يكشفون عن حقيقة نفاقهم عندما يصرحون لرؤسائهم ببعدهم عن الإيمان وسخريتهم بالمسلمين، فيتوعدهم المولى عز وجل بالعقاب على ذلك مهما طال استدراجهم وإمهاله لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فتراهم مترددين في حيرتهم وكفرهم، فاقدين لكل شعور بالأمن والطمأنينة، وما ذلك إلا لأنهم بفعلهم هذا كمن باع الهدى بالضلال، فيا ويلهم لخسارة تجارتهم! وهم بهذا كمن أشعل ناراً طلباً للنور في ليل بهيم، ولكنه وأمثاله بدلاً من البقاء في النور والسير على الإيمان تركوا النور وارتكسوا في النفاق فعادوا للظلام، فهم صُمٌّ عن سماع الحق، وبُكْمٌ عن النطق بالحق، وعُمْيٌ عن رؤية الحق لإصرارهم على عدم الرجوع عن الباطل إلى الحق، وهم أيضاً كمن تعرض لمطر نازل منهمر من السماء في ليل حالك، وقد صحبه البرق والرعد، فظن الخلاص من ذلك بوضع أصبعيه في أذنيه، وما درى أن الله تعالى يعلم السر وأخفى.

وانظر إليهم وهم يمشون في تلك الليلة المطيرة كلما أضاء لهم البرق، كمن يسير مع المؤمنين لتظاهرهم بالإيمان، ولكنهم يتوقفون عن هذا السير عند ذهاب البرق وعودة الظلام.. فهل يظنون أن الله تعالى غير قادر على إزالة سمعهم وبصرهم فلا يسمعون الرعد ولا يرون البرق؟! إن عليهم أن يعلموا أن الله على كل شيء قدير، ولكنه الإمهال لا الإهمال، فليرعووا هم وأمثالهم، وهم كثر في أيامنا هذه وفي كل الأيام، لأنهم إن نجوا في الدنيا فلن ينجوا في الآخرة من العذاب الشديد!

وتعود السورة وتخاطب جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، مذكرة بالكثير من نعم الله تعالى، ومطالبة بتوحيده سبحانه عن يقين.. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ
أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا
ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ
مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ
مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ
بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن
يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا
فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ
جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾

فالمولى عز وجل يخاطب جميع الناس، مسلمين وكفار، ليثبت المسلم على إسلامه ويعود الكافر عن كفره، فيقبلوا على دوام العبادة لخالقهم الذي خلقهم وخلق من سبقهم من الخلق، وهذا هو ما يعترفون به، وأن في ذلك لهم من الرجاء برحمة الله تعالى ما فيه للمؤمن الصالح منهم عندما يؤمن، كيف لا وأن خالقهم سبحانه له عليهم من النعم ما يعترفون بها، من تيسيره الأرض لسعيهم عليها، ومن بنائه السماء وإنزال المطر منها، ومن إخراجه لثمرات الأرض والعيش فوقها.. له الشيء الكثير عليهم، فكيف يشركون معه سبحانه من يعبد من دونه وهم يعلمون أنه الواحد في قدرته، وأن كل معبوداتهم لا تغني عنهم من الله شيئاً حتى ولو استخدموها للتقرب والزلفى.

وانظر إلى الكفار منهم وقد أنكروا أن القرآن كلام الله تعالى فجاء المولى عز وجل يتحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة تماثل سور القرآن، وأن لهم أن يحضروا معهم من يشهد لهم على ذلك إن قدروا، وأما إذا لم يقدروا، وهم بالفعل لم ولن يقدروا، فعليهم أن يحموا أنفسهم من النار التي أُعدَّت لكل مشرك كافر عندما يكون هو ومعبوداته من أصنام وغيرها وقوداً لها.

وانظر إلى المؤمنين، بالمقابل، وهم يتمتعون بجزائهم الطيب في جنة تجري أنهارها، وتتشابه مع ثمار الدنيا ثمارها، وإن اختلفت في الطعم طعومها، وتطهر من الحيض والأقذار نساؤها.

وبعد أن تفند السورة زعم المنافقين باستبعاد ضرب الله تعالى الأمثال بما ضربه من ذاك الذي استوقد ناراً، وبذاك الذي مَرَّ تحت صيِّب من السماء، يضرب المولى عز وجل مثلاً ثالثاً بالبعوضة منبهاً المشركين بأنه تعالى يضرب المثل بها وبما دونها ليوضح الحق لكل ذي عقل مكلف ليلزمه الحجة فتظهر سلامة إيمان المؤمن أمام هذا المثل وهو يزداد به إيماناً، كما تظهر حيرة الكافر عندما يتساءل عن القصد منه بالرغم من وضوحه التام، وأما الفاسق الخارج عن الحق فإنه لا يصل بهذا المثل إلى الحق لأنه يصرُّ على عدم الوفاء بعهد الله وميثاقه بضرورة استخدام هذا العقل الذي منحه له للتدبر والتفكر وإنما يسير في طريق الفصل بين القول والعمل، بين النظر والتطبيق، ويتبع سبيل الفساد في الأرض بعبادة غير الله تعالى، وظلم الآخرين وظلم نفسه بما يتبعه من الأهواء الباطلة والشهوات الزائفة.

وانظر إلى هؤلاء المفسدين في الأرض والمولى عز وجل يذكّرهم بأنه قد أحياهم من نطفة ميتة، وأنه يميتهم فيخرجهم من هذه الدنيا رغماً عنهم، وأنه تعالى يحييهم من جديد عندما يبعثهم من قبورهم ثم يجمعهم للحساب.. فبماذا يجيبون؟ إنهم بدلاً من شكر نعمه تعالى الكثيرة عليهم بتسخيره كل ما في الأرض لهم فإنهم يستخدمونها في طرق المعصية.

وتنقلنا السورة بعدها للوقوف على هذا الحوار الذي عقده المولى عز وجل مع ملائكته بشأن جعل آدم في الأرض خليفة، وكيف أنه انتهى إلى اعترافهم بعجزهم أمام علم الله تعالى الذي علمه آدم، وسجودهم لآدم طاعة لله تعالى واستكبار إبليس عن ذلك، وما انتهى إليه موقف أبي البشر كلهم عندما أسكنه تعالى وزوجه الجنة، وكلفهما بالأمر الواضح أن لا يأكلا من شجرة المحنة ولكنهما تحت إغراء إبليس اجتهدا فأكلا فأخطآ فأهبطا إلى الأرض بعد أن أقرّا بالمخالفة وبعد أن قبلت توبتهما، وعلى الأرض جعله تعالى لتبليغ رسالته إلى بنيه.. فنجد السورة في ذلك كله تقول:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ

لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ
أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ
أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾
فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ
وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا
جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ففي الآيات العشر هذه يعقد المولى عز وجل هذا الحوار مع ملائكته بشأن جعله آدم خليفة في الأرض، وفي ذلك تعليم للبشر بأن الحوار هو طريق الوصول للإيمان الحق تبعاً للقناعة بالحجة والبرهان، وأما طريق تطبيق مقتضى هذا الإيمان وشريعة الحق المنبثقة عنه والمبنية عليه فلا شك أن لذلك طريقاً آخر يجمع بين العمل الفكري هذا والعمل المادي في تنفيذه وحمله رسالة في الأرض، لذلك كانت طريق الدعوة ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، بينما نجده عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يضيف لعمل الدولة الإسلامية التي أنشأها في المدينة أعمالاً مادية تتصل بالدعوة عندما دعاهم للتحول إلى الإسلام أولاً وهو يسير إليهم الجيوش في الجهاد، فإن قبلوا طبّق عليهم شريعة الإسلام وأصبحوا وديارهم جزءاً من الأمة الإسلامية وديار الإسلام، وإن رفضوا عرض عليهم دفع الجزية مقابل بقائهم على دينهم واحتكامهم لشريعة الإسلام، فيصبحون جزءاً من أمة الإسلام وديار الإسلام، وإن رفضوا لم يبق إلا الأمر الثالث والأخير وهو القتال، القتال لا لإكراه أحد على اعتناق الإسلام لأنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وإنما لإزالة الحواجز المادية التي تقف ضد تطبيق شريعة الإسلام عليهم لإزالة ظلم الكفر وشرائعه عنهم وتوفير عدل الله تعالى فيما بينهم.

نعود مع السورة فنجدها تتحدث عن الحوار بين المولى عز وجل وملائكته، وأنه تعالى عندما أخبرهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة يخلقه من الطين استفسروا عمّا لديهم من علم سابق بأن مثل هذا المخلوق قد يفسد في الأرض وقد يصلح، لأن هذه هي جبلته التي خلق عليها، وقد يسفك الدماء وقد يحافظ عليها، بينما هم لا يفعلون من

ذلك شيئاً لأنهم خلقوا للتسبيح والتحميد والتعظيم والتمجيد ليس غير، فيرد المولى عز وجل عليهم بأنه أعلم بما يخلق منهم، وأعطاهم مثالاً عملياً عندما علّم آدم أسماء الأشياء كلها وطلب من الملائكة أن يذكروها إن كان لديهم علم سابق بذلك دون تعليم منه لهم، فردوا دون اجتهاد ولا نقاش بكلمة: سبحانك، منزهين له تعالى عن أن يعلم الغيب أحد سواه، فيأمر المولى عز وجل آدم ليعلمهم بها، ثم يقول لهم تعالى بأنه قد كان أعلمهم بأنه سبحانه يعلم غيب السموات والأرض، ويعلم ما يبدون وما يخفون، سواء بحق آدم وإمكان إفساد نسله أو سفكهم الدماء أو غير ذلك، فكيف يستفسرون منه تعالى عن آدم وهم يعلمون بما أعلمهم به من احتمال إفساد نسله، كما أنه هو سبحانه الذي سيخلقه يعلم شأنه وشأنهم وشأن كل شيء؟!

إن في هذا تعليماً للخلق بوجوب التزام طاعته تعالى في كل أمر ونهي لأنه سبحانه يعلم بكل صلاح وفساد، وأن في طاعته الصلاح وفي معصيته الفساد.

وانظر إلى الملائكة وهم يؤمرون بالسجود لآدم، لا عبادة له وإنما خضوعاً لله تعالى وباتجاه آدم، وتقديراً واحتراماً بجعله في موضع هذا الاتجاه، كما هو الحال في التوجه إلى الكعبة عند الصلاة لله تعالى.. انظر إليهم وهم يمتثلون أمر الله تعالى دون أن يتخلف منهم أحد. وأما إبليس الذي أمر أن يسجد معهم لله تعالى باتجاه آدم فقد رفض هذا التوجه لأنه مخلوق من نار لا من نور كالملائكة، والنار كالتراب وفي جبلة المخلوق منها احتمال الفجور والتقوى معاً، وكان من الجن الذين عمروا الأرض قبل البشر وأفسدوا فيها وحاربتهم الملائكة وأخذوه صغيراً وتعبّد مع الملائكة وخوطب معهم، كما ذكر الطبري عن ابن مسعود.

فانظر إلى إبليس هذا وهو يأبى السجود باتجاه آدم من باب الحسد على ما أعطاه الله تعالى من الكرامة، ولأنه يرى حسب ظنه أن كونه من النار يجعله أفضل من آدم لكونه من الطين لأنه يرى أفضلية النار على الطين.

فماذا من دروس في قصة آدم هذه للبشر؟

إن فيها دروساً عديدة منها درس عام، إذ علمنا المولى عز وجل بها أن الحوار طريق المعرفة الحق، وخاصة في مجال العقيدة، ما دام يتسم بالتجرد والنزاهة، ومنها دروس فرعية مع كل جانب من القصة، ويمكن عرضها كما يلي:

١- إن آدم وذريته الذين بدأ خلقهم من الأرض قد قضى الخالق سبحانه بعلمه بجبلتهم وأعمالهم التي سيقعون فيها بأنهم سيعيشون على هذه الأرض وليس في الجنة حيث بدأ وجودهم.

٢- إن في جبلة آدم القدرة على الفجور والتقوى، وإن ذلك إليه وحده في مجال التكليف والحساب.

٣- إن علم آدم وذريته بالأسماء كلها، إن لم يكن بمعرفة شيء من خصائصها ومنافعها ومضارها، قد بدأ من الله تعالى خالق كل شيء.

٤- إن في جبلة الملائكة الخضوع التام لله تعالى بلا أدنى عصيان، فلا قدرة على الفجور والتقوى كالإنس والجن وإنما التقوى فقط.

٥- إن في جبلة إبليس وكل ما خلق من نار من الجن والشياطين القدرة كالإنس على الفجور والتقوى.

٦- إن سبب رفض إبليس السجود باتجاه آدم هو الحسد والكبر المبنيان على الظن الخاطئ بأن النار أفضل من الطين.

٧- إن التكليف قد بدأ من باب الاختبار والجزاء لآدم وحواء وهما في الجنة عندما أمرا بالسكن فيها والأكل من كل أشجارها ونهيا عن الأكل من شجرة معينة من بين كل أشجارها، فكان هناك الأمر والنهي أولاً.

٨- إن من في جبلته القدرة على الفجور والتقوى معرض دائماً للوقوع في أحدهما حتماً عند الاجتهاد، فليحذر التسرع فيه.

٩- إنه لا يجوز الاجتهاد مع وجود النص الصريح وإنما لابد من التقيد به، فاجتهاد آدم وحواء بعلة الخلود العقلية لا الشرعية لأنها جاءت من وسوسة إبليس لا من الله تعالى، هذا الاجتهاد أبعدهما عن الطاعة وأوقعهما في المعصية وظلم النفس.

١٠- إنه لابد من الاطمئنان لصحة الاجتهاد عند جوازه، ولا بد من تبني الحكم الراجح منه وإلا وقع الزلل والخلل.

١١- أن المولى عز وجل قد أعلم آدم وذريته بعداوة إبليس لهم، وأنه قد أمهل لحين الساعة ليحاول فتنة من يستجيب له في وسوسته وتزيينه للشر والمنكر، وأنه فاشل لدى عباد الله المخلصين وناجح لدى الضعفاء في التزام الأمر والنهي.

١٢- إن المولى عز وجل قد لقَّن آدم كلمات التوبة لمعصيته، وطلب العفو لذنبه، فرددها صادقاً مخلصاً فقبلت توبته كما تقبل من كل صادق محسن في توبته.

١٣- إن جبلة الإنس والجن المميزة بخاصية القدرة على عمل الفجور أو التقوى بحاجة حتمية للهدى لتلتزم التقوى، وأن هذا الهدى لا بد أن يكون من الله تعالى خالق هذه الجبلة وعالم صلاحها وفسادها.

١٤- إن أمر اتباع هدى الله تعالى أو الإعراض عنه منوط باختيار كل من الإنس والجن دون جبر ولا إكراه ليتم الحساب والجزاء.

ونعود إلى السورة فنجد أن في رفض إبليس عن السجود باتجاه آدم توبيخَ كل من يفعل ذلك أو غيره من رفض الامتثال لأوامر الله تعالى ونواهيه، وأن كل من يكفر بالإسلام في كتابه ورسوله من مشركين وأهل كتاب موجه له ذلك التوبيخ ولا سيما أهل الكتاب الذين يكفرون بمحمد عليه وآله وصحبه السلام كرسول مع علمهم بنبوته.

ولو تابعنا القصة مع السورة لوجدنا خلفية تلك الدروس التي أوردناها سلفاً مما لا بد منه لكل طالب الدليل، فالمولى عز وجل يأمر آدم وزوجه حواء بالسكنى في الجنة والتمتع فيها بالعيش الرغيد، وينهاهما عن الأكل من شجرة معينة هي إما العنب أو الحنطة أو التين، وإلا ظلما نفسيهما وتعرضا للعقوبة. وتشير السورة إلى أن إبليس قد نجح في صرفهما عن طاعة أمر الله تعالى بوسوسته، فأكلا منها، ونسيا واجتهدا في الشجرة نفسها أو نوعها أو أثرها، فأخرجا من الجنة وأهبطوا إلى الأرض هما وإبليس ليعيشوا لانقضاء الأجل. وأوحى الله تعالى لآدم بكلمات التوبة فرددها مخلصاً صادقاً فتاب تعالى عليه كما قبل توبة زوجه معه كتابعة له. وأوحى المولى عز وجل لآدم أيضاً بأنه متى أنزل إليه أو لأحد من نسله الهدى فإن من يتبعه يعش ويمت ويبعث دون خوف ولا حزن، لأنه اختار بإرادته الهدى فاستحق جزاء الأمن، وأما من يكفر بذاك الهدى ويكذب بآيات الله تعالى ومعجزاته فلا جزاء له إلا الخلود في النار.

وتذكّر السورة بعدها بني إسرائيل بكثير من التفاصيل، مشيرة إلى العدد من النعم التي أنعمها المولى عز وجل عليهم ليلتزموا بطاعة الله تعالى والإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام المذكور عندهم في التوراة وبكتابه القرآن.. فتقول:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾
وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ
فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ
﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ
وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ

﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ
تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا
عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟
أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن
نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا
رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى
هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟
يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ
فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ
بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا

فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا
لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن
لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ
تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ
كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ
ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

فتذكّرهم السورة بشكر نعم الله عليهم في إنجائهم من آل فرعون، وإنزال الكتاب والمنّ والسلوى عليهم، وتفجر الماء من الحجر لهم..

ثم يأمرهم المولى عز وجل بالوفاء بالعهد باتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام وإلا فلينتظروا عقابه تعالى لهم.. ثم بالإيمان بالقرآن المصدق بنزول التوراة، وبعدم تغيير صفة محمد عليه وآله وصحبه السلام المعروفة لديهم، وبعدم الخلط بين الحق، وهو الإسلام، والباطل، وهو اليهودية والنصرانية المحرفة المبدلة، وبعدم كتمان أمر النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهم يعرفونه، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مما يلزمهم بالإيمان أولاً، وبأمر الناس بطاعة الله وعدم مخالفة ذلك ولاسيما بالإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وكتابه، مما ينسحب على كل مماثل لهم من المسلمين الذين يدعون للمعروف ويخالفونه ليقعوا تحت وعيد رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»..

وهذا مما يذكرنا بقول سعيد بن جبير رضي الله عنه: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن المنكر، مما عقب عليه الإمام مالك رضي الله عنه قائلاً: وصدق، من ذا الذي ليس فيه شيء؟! فالله تعالى يوبّخ من يدعون للخير ويتجنبون عمله.

وهنا يتحدث الإمام القرطبي عن العقل وماهيته، مستعيناً بأقوال عديدة، لينتهي إلى أنه ليس بصورة ولا نور ولكن تستفاد به الأنوار والبصائر، وهذا هو الصحيح لأن العقل والإدراك والفهم للأشياء، سواء كانت مادية أو معنوية يصدر عن الدماغ البشري بقوة التمييز التي أودعت فيه بناء على ما أودع فيه من معلومات سابقة حول الشيء

موضوع الإدراك، وبنقل هذا الشيء إلى الدماغ بواسطة الحواس عن طريق عضو أو أكثر من أعضاء الحس، وإجراء عملية الربط بين هذا الشيء وبين ما في الدماغ من معلومات سابقة عنه، فيصدر الدماغ حكمه عن الشيء أو أيٍّ أمر مطلوب عنه، وهذا الحكم هو العقل له والإدراك له والفهم له.

وبعد التوبيخ، بسبب الدعوة للبِرِّ وعدم عمله، تأمر السورة بالاستعانة بالصبر على الطاعة وعن المخالفة، وبالصلاة بالذات من بين سائر العبادات لقوة صلتها بين العبد والرب سبحانه، ولما فيها من ترغيب وترهيب والتزام لا يقدم عليه إلا الخاشعون الصادقون في خضوعهم لله وتذللهم له، والمتيقنون من لقائه تعالى يوم القيامة، يوم يحشرون للحساب.. وهذا الأمر ينسحب على المسلمين بصورة خاصة وإن كان لا يفلت منه غيرهم من أهل الكتاب المأمورين بالأحكام الفرعية كلها قبل الإيمان وبعده.

وتواصل السورة تذكير بني إسرائيل بنعمه تعالى عليهم وأبرزها تفضيلهم على عالمي زمانهم، لأن أهل كل زمان عالم مستقل عن غيرهم، وتأمرهم بالخوف من عذاب الله تعالى الذي يلحق كل فرد بذاته، ولا يحاسب فيه أحد عن غيره، ولا شفاعة فيه لكافر ولا تقبل منه أية فدية ولو ملء الأرض ذهباً، ولا يجد من يعينه وينصره وينقذه من عذاب الله تعالى.

انظر إليهم وهم يزعمون أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه وأبناء أنبيائه وأن آباءهم سيشفعون لهم، وفي الوقت نفسه يرتكبون كل المعاصي غير مقدرين نعمة الله تعالى بإنجائهم من آل فرعون بعد تعذيبه لهم وذبح أبنائهم والإبقاء على نسائهم فقط، ولا بإنجائهم من الغرق مع آل فرعون، وإلا فماذا دهاهم حتى يُقبلوا على عبادة العجل عندما تركهم موسى وذهب لوعد ربه أربعين ليلة.. فأيُّ إيمان هذا وأيُّ تقدير لنعم الله تعالى عليهم؟!

انظر إليهم وهم يعملون سيوفهم في رقاب بعضهم بعضاً بحكم الله تعالى عليهم بقتل بعضهم بعضاً عقوبة لهم جزاء لكفرهم بعبادة العجل، وأن من رحمة الله تعالى بهم أن رفع عنهم القتل عندما دعا موسى ربه ليبقي على من بقي منهم ويتوب عليهم، فهل شكروا هذا الفضل والرحمة؟!

وانظر إليهم وهم يعبثون بالتوراة وأحكامها بعد أن أنزلت عليهم بأحكام تدلهم على الحق من الباطل وتهديهم إلى طاعة الله تعالى الحق، ولكنهم أصرّوا على أن يروا الله تعالى بأعينهم كدليل على صدق موسى في توراته! وقد جاءهم الرد بصاعقة نزلت بهم فماتوا جميعاً ثم أحياهم تعالى ليروا قدرته وعظمته ويقبلوا على طاعته.

وانظر إليهم والسحاب يظللهم من حرِّ الشمس في التيه، والمنِّ، ذلك الطعام الحلو اللذيذ، والسلوى، ذلك الطائر اللذيذ بلحمه السهل بصيده، تتوفر بين أيديهم لطعامهم، فماذا فعلوا شكراً لهذه النعم؟

قد قابلوها بإنكار النعمة ورفض الطاعة! فهاهم يؤمرون بدخول بيت المقدس سجداً فيدخلونها زحفاً، وهاهم يؤمرون بقول حطة، أيْ حط ذنوبنا عنا، فيقولون حنطة! هاهم يطلبون الماء فيفجر موسى بعون الله تعالى اثنتي عشرة عيناً بضربة عصا للحجر، ليشرب كل سبط منهم من عين خاصة به، فيرفضون كل الطيبات التي توفرت لديهم ويطلبون من موسى طعاماً آخر من بقل وقثاء وثوم وبصل وعدس بدلاً من المنِّ والسلوى وغيرهما! وهاهم يعطون ما طلبوه من ثمار الأرض فيعودون للتمرد والمعصية فيحل عليهم غضب الله تعالى لهذا الكفر وقتل أنبياء الله تعالى!

وتعود السورة لتذكّر بالفرق بين المؤمنين المصدقين بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبين اليهود والنصارى والصابئين الخارجين عن دين أهل الكتاب، فتؤكد بأن الثواب العظيم للمؤمنين منهم والخوف والحزن لمنكري الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام ورسالته.

وانظر إلى جبل الطور وهو يرفع من فوق رؤوس بني إسرائيل عندما رفضوا بعد إحيائهم من موتهم بسبب الصاعقة التزام أحكام التوراة والتهديد بإهلاكهم يلاحقهم، فماذا فعلوا؟ لقد بادروا للسجود توبة لله تعالى وأخذوا التوراة بميثاق الالتزام الذي لاتراجع عنه، ولكنهم عادوا وأخلفوا العهد والميثاق فما أنقذهم إلا فضل الله تعالى ورحمته بهم إذ أمهلهم..

وانظر إليهم وهم يعتدون يوم السبت فيحجزون السمك فيه وهو محرم عليهم، ليجمعوه يوم الأحد، فماذا حل بهم؟ لقد عاقبهم تعالى بأن مسخ من فعل ذلك منهم إلى قردة ومسخ رؤساءهم إلى خنازير، وكلها انقرضت دون تناسل لأنها كانت مسخاً، ولكنها جعلت عقاباً زاجراً لمن رأوها ولمن تلاهم وعظة لكل من يخشى الله تعالى ويتقي عذابه وسخطه.

ثم تأتي السورة إلى قصة البقرة التي حملت بسببها هذا الاسم، وذلك أنهم قتلوا شخصاً وأنكروا القاتل، فأمروا بذبح بقرة، من نوع ما عبدوا، ليضربوا الميت بجزء منها، فظنوا أن ذلك من باب السخرية بهم، فأكد لهم موسى أمر الله تعالى لهم، وبعد تعنت في تحديد البقرة، تهرباً من الطاعة، ذبحوها، فأمرهم تعالى بضرب جثة الميت بجزء منها فعادت إليه الحياة بقدرة الله تعالى، وأعلن قاتله، وعاد إلى الموت، وهم

يرون ويسمعون في معجزة لا تترك كلاماً لمتكلم ولا إنكاراً لمنكر.. فهل استمروا على إيمانهم بقدرة الله تعالى وطاعته؟

ها هي السورة تقرر أن قلوبهم قد عادت إلى القسوة وأصبحت كالحجارة أو أشد منها قسوة.. محذرة منذرة لهم ولكل من يقع في مثل ذلك من المؤمنين.

وتأتي السورة من ثم إلى تنبيه المؤمنين المسلمين من الطمع بإيمان أولئك القساة العتاة فتقول:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فتدعو أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن ينفضوا أيديهم من إيمان تلك الفرقة من اليهود ولا يطمعوا بذلك بعد أن عرف عنهم، وخاصة أولئك السبعين الذين اختارهم موسى عليه السلام ليرافقوه عند ذهابه لسماع كلام ربه، فقد عرف عنهم ليس فقط رفض الامتثال لأمر الله تعالى بل أيضاً اللجوء لتحريف التوراة بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم، وهم يعلمون ذلك، وكان منهم من أسلم ونافق ولكنهم كانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آباؤهم، فنهتهم اليهود عن ذلك حتى لايُعيَّروا به، ولكي لايؤخذ الكلام حجة عليهم، وكأن الله تعالى لا يعلم ما يقولون! وكان منهم الأمي الجاهل بكتابهم وعلمه مجرد ظن، فكانوا يفترون على الله تعالى بأهوائهم.

وها هو وعيد الله تعالى بالعذاب الشديد يلاحقهم لتحريف كلامه تعالى طمعاً في الدنيا ومتاعها ومراكزها، ولافترائهم عليه تعالى بالزعم بأنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه،

وأنه لن يعذبهم إلا أربعين يوماً بعدد أيام عبادتهم العجل، وكأن لديهم عهداً من الله، فما أجرأهم على الكذب؟!

وتواصل السورة بيان مخازي بني إسرائيل فتقول:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

مذكرة لهم بأن الله تعالى قد أخذ عليهم العهد بأن يعبدوه وحده، وأن يحسنوا للوالدين والأقارب والأيتام والمساكين، وأن يصدقوا مع الناس أمر محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولا يغيروا صفته، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ولكنهم تولوا عن تنفيذ هذا العهد إلا القليل منهم من أمثال عبد الله بن سلام وصحبه.

ثم تذكّرهم بأن الله تعالى قد أخذ عليهم عهداً آخر ألا وهو ألّا يسفكوا دماءهم ولا يخرجوا بعضهم بعضاً من ديارهم، لا بنفي ولا استرقاق، ولكنهم نكلوا عن العهد ودعوا غيرهم لهذا النكولّ! وها هو نكولهم يظهر مع عداء بني قينقاع لبني قريظة، وافتراق قريظة عن النضير بعد أن كانوا إخواناً، واقتتلوا فيما بينهم، وافتدائهم الأسرى مع أنه محرم عليهم..

وها هم بذلك قد نقضوا العهود الأربعة التي أخذت عليهم: من ترك القتل، وترك الإخراج، وترك المظاهرة، وترك فداء الأسرى، مما جعل سبحانه يوبخهم على ذلك فيقول لهم: ﴿...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو التوراة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟ مما ينبه به المسلمين على الخشية من الوقوع بمثل ذلك في أيِّ زمن من الأزمان.. والتحذير من جراء ذلك بالخزي في الحياة الدنيا، وهو ما يعيشه المسلمون اليوم، والعذاب الشديد في الآخرة.. اللهم سلّم!! إنه جزاء من يبيع آخرته بدنياه.

وتأتي إلى نمط آخر من مساءات بني إسرائيل في استكبارهم عن الإيمان فتقول السورة:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ
(٨٧) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ
ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟
كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ
بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
(٩١) ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ (٩٢)﴾

ولكنهم بدلاً من الاستجابة لتلك البراهين التي لا توافق أهواءهم استكبروا عن الإجابة محتقرين رسل الله تعالى ورافضين رسالته، فكذبوا بعضهم، كما فعلوا مع عيسى ومحمد عليهما السلام، وقتلوا بعضهم، كما فعلوا مع يحيى وزكريا عليهما السلام، ولم يكتفوا بذلك عناداً وإنما زعموا أن قلوبهم وعقولهم مقفلة فلا تسمع ولا تفهم ما يبلغ لهم، وما هم في الحقيقة إلا كاذبين وهم يرون محمداً عليه وآله وصحبه السلام بمعجزاته بين ظهرانيهم.. لقد طردهم الله تعالى من رحمته جزاء ذلك وإن دخل القليل منهم الإسلام.

انظر إليهم وهم يُدعون للإيمان بالقرآن الذي يخبرهم بما في التوراة والإنجيل ولكنهم يكفرون به مع أنهم بالأمس كانوا يستنصرون بمحمد عليه وآله وصحبه السلام.. فاستحقوا الطرد من رحمة الله تعالى وغضبه.. إنهم يوالون الكفر بعناد: فمن عبادة للعجل إلى كفر بعيسى إلى كفر بمحمد..

فماذا ينتظرون وهم يداومون على تحريف التوراة والزعم بأنهم يؤمنون بها وكأنها لا تأمرهم بالإيمان بالقرآن وبمحمد عليه وآله وصحبه السلام! وأيُّ إيمان بالتوراة هذا وهم يقتلون أنبياء الله تعالى؟! وأيُّ إيمان بالتوراة وهم يعبدون العجل وحجج وبينات موسى ما زالت ماثلة أمام أعينهم؟!

وتكرر السورة تذكيرهم بالميثاق وتحذيرهم من نقضه والركض وراء الدنيا ومتاعها .. فتقول:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (٩٣) قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ
مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦) قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ
قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ
وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ
بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ
مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى
ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ
ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ
وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ (١٠٣)﴾

مذكرة لهم ثانية بالعهد ومهددة بإسقاط جبل الطور عليهم إن لم يلتزموه بقوة ويطيعوا رسول الله موسى إليهم.. وها هم يردون ظاهراً بالموافقة على ذلك لأنهم ما أسرع ما يعودون للعصيان، وعبادة العجل ما زالت تلاحقهم.. فقل لهم يا محمد بأن مزاعمهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم أهل الجنة من دون الناس، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، بأن ذلك كله من أكاذيبهم وافتراءاتهم، وأنهم إن كانوا صادقين في دعواهم فليتمنوا الموت.. وإنهم لن يفعلوا ذلك لأنهم يعلمون مدى كذبهم وشركهم،

ولكن لتعلم يا محمد بذلك مدى حرصهم الشديد على هذه الحياة وأكثر من كل البشر، وأن الواحد منهم يتمنى لو يعيش ألف سنة مع أن ذلك لن يبعده بكفره عن النار قيد أنملة.

وقل لهم يا محمد بأن عداءهم لجبريل عليه السلام بحجة أنه ينزل بالحرب والقتال يوقعهم بالكفر لأنه عليه السلام ينزل بالقرآن بأمر من الله تعالى ليؤكد نزول التوراة وغيرها من الكتب، ويهدي ويبشر من يؤمن به أيْ القرآن بخير الدنيا والآخرة، وأن من يعادي الله تعالى وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله تعالى عدوه، ومن كان الله عدوه فلا يرجى له خير لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقل لهم يا محمد بأن الله تعالى قد أنزل عليك آيات بينات معروفات لديهم، وأن قول ابن صويا لك بأنه لايعرف ما تقول له هو مجرد كذب وافتراء وفسق، فلا تعرْه اهتماماً، واذكر أنهم كلما عاهدوا عهداً من مثل قولهم: لئن خرج محمد لنؤمنن به، ولنكونن معه على مشركي العرب، فإنهم ينقضونه، لأنهم كما ترى قد كفروا بك عندما بعثت، وهذا هو ديدنهم في كل عهودهم.

وانظر إليهم كيف أنهم رفضوا الإيمان بك وبرسالتك التي جاءت تؤكد نزول كتابهم، وكأنهم لا يعرفون ذلك!

وانظر إليهم كيف أنهم بدلاً من أن يتبعوك ذهبوا إلى السحر فاتبعوه ممثلاً بكتاب آصف وبسحر هاروت وماروت، وزعم بعض أحبارهم بأن سليمان عليه السلام كان ساحراً ولم يكن نبياً فبرأه الله تعالى من كفرهم، وأكد لرسوله عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه المسلمين نبوة سليمان عليه السلام وأن اليهود اتبعوا آصف كاتب سليمان في كتاب نسب إليه مع أن الشياطين هم الذين كتبوه وأخفوه حتى مات سليمان، فأنكر ذلك علماؤهم وأقره سفلتهم الأكثرية مما جعلهم يرفضون الإيمان بالإسلام والإنجيل من قبله.

وقد روى الإمام علي رضي الله عنه أن الملكين هاروت وماروت كانا يعلمان الناس تعليم إنذار من السحر لا تعليم دعاء إليه، فينهونهم عن الاحتيال بذلك على الناس وتفريق المرء وزوجه بذلك، بدليل ما كان يقولانه لكل من يتعلم عنهما بأنهما فتنة، وعليه ألا يكفر بالسحر تعلماً وعملاً، وعليه أن يعلم بأن ضرره لن يقع إلا والله تعالى قادر على رده، ولكنه الابتلاء، فيضر المتعلم نفسه إذ يضيع عليه آخرته.. وكم كان حرّياً بهم لو آمنوا بك يا محمد وتجنبوا السحر لينالوا الأجر العظيم.

وتواصل السورة ذكر ألاعيب بني إسرائيل وحسدهم .. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن
رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ
أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ
مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ
رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ
كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ
بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٠٩﴾
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ﴿١١٠﴾﴾

فانظروا أيها المؤمنون إلى تحايل اليهود بالكلمات لشتم الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهم يقولون له ﴿...رَٰعِنَا﴾ بمعنى اسمع لا سمعت، مما جعل سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان يعرف لغتهم، يلعنهم ويتهدد من يقولها بضرب عنقه، ولذلك دعت السورة المؤمنين لعدم استخدامها للرسول عليه وآله وصحبه السلام وإنما ليقولوا له ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ أي أقبل علينا وانظر إلينا، كما دعتهم للطاعة في الأمر والنهي وعدم الوقوع في الكفر كما وقع اليهود.

إن في الآية أمر بتجنب استخدام أيِّ وسيلة توصل إلى الحرام بشكل قطعي.

وانظر يا محمد إلى تمني اليهود والنصارى والمشركين أن لا ينزل أيُّ خير من الله تعالى على المسلمين مع أن الخير والرحمة في ذلك إلى الله تعالى وحده، وأنه هو سبحانه الذي يصطفي رسله، ولكنه الكبر والكفر اللذان يدعوانهم لمثل هذا التمني الكافر!

وانظر إلى اليهود وهم يطعنون بالرسول عليه وآله وصحبه السلام بزعمهم بأنه يأمر أصحابه بالتوجه إلى الكعبة بعد أن كان يوجههم للقدس، مما يرونه بكفرهم تناقضاً، ولكنه النسخ بما فيه من إزالة حكم بحكم، كما هو هنا، وأنه هو سبحانه أعلم بأن في ذلك الخير كل الخير، سواء نسخ الحكم أو لم ينسخ، ذلك لأنه عز وجل صاحب الأمر والملك، وأنه لا أحد يملك رد أمره وقضائه.

واذكروا أيها المؤمنون أنكم على الخير المبين، وإياكم أن تقعوا في خطيئة اليهود عندما طلبوا من موسى أن يروا الله سبحانه جهرة، لأن في ذلك التعنت استبدال الكفر بالإيمان والضلال بالهدى.

واذكروا أن الكثير من اليهود والنصارى قد تمنوا أن تتخلوا عن دينكم وتعودوا للكفر على شاكلتهم، وكل ذلك حسداً منهم لكم، ولكن عليكم أن تعفوا عن ذلك وتعرضوا عنهم حتى يأتي الأمر بقتالهم. وتأكدوا أن الله تعالى قادر على نصركم عليهم، والتزموا بإقامة الصلاة ودعوة الآخرين لذلك، وأداء الزكاة، واعلموا أن ما تنفقونه هو الذي ستربحونه، وما تخلفونه هو الذي تخسرونه.

وتشير السورة بعدها لما يقوله اليهود والنصارى في حق أنفسهم وما يفعلونه ضد بعضهم.. فتقول:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾.

مبينة أنهم زعموا كذباً وافتراء بأنهم، أي اليهود والنصارى فقط، هم الذين يدخلون الجنة، وأن عليهم أن يعلموا أن الخاضع لأمر الله، المحسن في طاعته، هو وحده صاحب الثواب والأمن والرضى لدى الله تعالى.

وانظروا إليهم وهم يكفّر بعضهم بعضاً، وعلى النقيض مما بين أيديهم من التوراة والإنجيل وبالاتفاق مع قول المشركين ومجاراة لهم.. عليهم أن ينتظروا حكم الله تعالى الفاصل في خلافاتهم يوم القيامة، وأن يعلموا أن أكثر الناس ظلماً هو من يمنع ذكر الله تعالى في المساجد، عندما أعان النصارى بخت نصَّر المجوسي البابلي على تخريب بيت المقدس بدافع كرههم لليهود.

إن في هذا التحذير حكماً ينطبق على كل من يمنع ذكر الله في مساجد الله تعالى إلى يوم القيامة، وأن له الخزي بالقتل أو الجزية في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

وأعلمهم يا محمد بأن المشارق والمغارب كلها لله تعالى، وهو سبحانه الذي يتعبد عباده إلى أيٍّ منها كيف يشاء، وبما يشاء، سواء بالتوجه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وتشير السورة إلى المزيد من تجديفهم وسخطهم على رسول الله عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه.. فتقول:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا
يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ
بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ
ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ
ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ
ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ
شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

فانظروا إلى أفظع أشكال كفرهم وهم يزعمون أن لله تعالى ولداً، سواء بقول اليهود عزير ابن الله، سبحانه، أو بقول النصارى المسيح ابن الله، سبحانه، أو بقول مشركي العرب تبعاً لهم الملائكة بنات الله، سبحانه.. وكيف يكون لله تعالى ولد وهو يملك كل ما في السموات والأرض، ملكية خلق وإيجاد، وملكية أمر وتدبير؟!

وهل لهذه المخلوقات من دور غير الطاعة له سبحانه والخضوع لأمره ونهيه؟ ويكفي إقرارهم بأنه تعالى خالق كل شيء، فبمجرد الأمر يكون الشيء أو لا يكون، فكيف ينسب له سبحانه الولد وهو نسبة مخلوق إلى مخلوق يحتاج إليه وليس إلى خالق لايحتاج إلى شي؟!

وانظر إليهم وهم بعنادهم واستكبارهم يريدون أن يكلمهم الله تعالى وأن يرسل

إليهم دليلاً على نبوة محمد عليه وآله وصحبه السلام، وهل كان هذا إلا شأن من سبقوهم من الكافرين المعاندين لرسل الله تعالى إليهم؟!

واطمئن يا محمد بأن الله تعالى قد أرسلك برسالة الحق والهدى لتبشر المؤمنين الصالحين بكل خير في الدنيا والآخرة، وتنذر الكافرين المتكبرين بكل عقاب في الدنيا والآخرة..

وتأكد أنك غير مسؤول عن كل من مات على كفره مهما كان قريباً لك، وأن اليهود والنصارى الذين يقترحون عليك إنزال آيات ليؤمنوا بك لن يؤمنوا ولن يتبعوك حتى تتخلى لهم عن دينك وتتبع دينهم، وأن عليك أن تؤكد لهم وللبشرية جمعاء بأن ما أنزله تعالى عليك من الإسلام هو الهدى الخاتم، وأن اتباع غيره هو الهوى والضلال الذي يجلب الخزي والعذاب لفاعله.

وذكّرهم يا محمد بأن من يؤمن منهم، عرباً أو غير عرب، هو الذي يلتزم معه بطاعة الله ويعيش عليها، وأن من يكفر منهم هو البعيد عن ذلك، فلينظر كل منهم إلى تحديد موقفه.

وانظر إلى بني اسرائيل وهم يعرضون عن شكر نعم الله تعالى عليهم، وتفضيله لهم على عالمي زمانهم، فلا طاعة لله، ولا إيمان بمحمد ورسالته، ولا استعداد ليوم الحساب وهم يعلمون أن أحداً لن يحاسب عن أحد فيه، وأن فداء أو شفاعة أو عوناً لن يجدوا منها شيئاً.

وكم يقرع المولى عز وجل بهذا التذكير آذانهم لعلها تفتح بعد صمم وتعي بعد عمه.. ولكن هيهات!!

وتنقلنا السورة بعدها للحديث عن أب الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام وجعله إماماً للناس.. فتقول:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ
عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ
إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ
هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ
أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا
تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ
أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ
ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ
مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ
مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

مبينة لبني اسرائيل وللناس كافة أن الله تعالى قد كلف إبراهيم عليه السلام بمهمات الهداية والطاعة، من فروض ونوافل، وأنه قد قام بها كاملة غير منقوصة، وأنه لذلك قد جعله قدوة للناس ليقتدوا به، وأنه تعالى لايجعل ذلك للعصاة الكافرين من ذريته، وأنه تعالى قد أمر إبراهيم وابنه إسماعيل أن يقوما بتطهير البيت الحرام بمكة وإعداده لعبادة من يطوف به ويعكف على العبادة فيه ويصلي فيه، وأن هؤلاء سيكونون كثيرين بعد أن جعل من هذا البيت مقر الأمان والاطمئنان لمن يلجأ إليه، وأنه تعالى قد جعل من مقام ابراهيم عليه السلام المجاور للبيت مصلى يصلي فيه الحاج ما استطاع إلى الصلاة سبيلاً ولو ركعتين..

وأنه تعالى قد استجاب لدعاء إبراهيم عليه السلام بذلك ووفر لأهله الرزق الوفير سواء بإنفاق الحجيج أو من تحت الأرض أو فوقها، وأن من كفر من أهله لن يطول أو يدوم رزقهم إذ سيمنعون من البقاء أو الدخول إلى الحرم إذا استمروا على كفرهم، وأن العذاب الخالد في النار بانتظارهم، وأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد قاما بمهمة إعداد البيت للحجيج فرفعا قواعده وبنياه وهما يدعوان الله تعالى أن يتقبل منهما ذلك، وأنه تعالى قد استجاب دعاءهما بأن جعل من ذريتهما أمة مسلمة خاضعة لأمره ونهيه، عارفة بمناسك الحج ومشاعره، وهي أمة محمد عليه وآله وصحبه السلام..

وأنه تعالى قد حقق لهما دعاءهما فبعث محمداً عليه وآله وصحبه السلام من ذريتهما يتلو القرآن ويعلم تشريعاته لخير الدنيا والآخرة، ويطهر الناس المؤمنين من الأرجاس، وأن في اتباع هذا التوحيد الحق الذي أتى به إبراهيم عليه السلام الحق القويم والعقل السليم لا السفه السقيم وقد اختاره عز وجل لذلك في الدنيا ووعد بجزيل

الثواب كل صالح مصلح في الآخرة، لأنه عليه السلام لم يتردد في طاعة ربه ووصى بذلك هو وحفيده يعقوب ذريته ليعيشوا مسلمين ويموتوا مسلمين.

وانظر يا محمد في ذلك كله، وأنه كان شأن تلك الأمة السابقة التي يتحمل كل فرد مسؤولية كسبه واختياره منها، وأن أحداً من أمتك لن يتحمل عن أحد منهم وزر كسبه واختياره.

وتشير السورة إلى شيء من مقولات بني إسرائيل المزعومة في الهدى وترد عليها قائلة:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾
قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ
ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى
ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا
كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

موضحة بأن قولهم بأن الهدى أن تكون يهودياً أو نصرانياً فرية كبيرة، وأن الهدى هو في اتباع ملة ابراهيم في توحيد الله تعالى والتزام طاعته والبعد عن الشرك وأهله، وداعية الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليعلن لهم وللبشر جميعاً أنه والمسلمون معه مؤمنون بالله تعالى وحده، وبما أنزله في الإسلام إليهم، مؤمنون بالتوحيد الذي أنزله تعالى على إبراهيم وذريته من الأنبياء، وأنهم لا يفرقون في ذلك بين الأنبياء كلهم، ويخضعون لكل أمر ونهي من الله تعالى، وأن من يؤمن بمثل ما آمنوا به فقد تحققت له الهداية ومن يرفض فهو على خلاف ذلك، وأن من يتآمر عليه منهم سيرد الله تعالى كيده إلى نحره..

وها هي قريظة تقتل، وقينقاع والنضير تطردان من حول المدينة وتهزمان في خيبر وما حولها.

وأعلمهم يا محمد بأن هذه هي سنة الله تعالى في خلقه، فهم الخاضعون له المحتاجون إليه، وأن أيَّ بعد عن ذلك يوقع في الضلال، وأن أيَّ زعم بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأولى به تعالى من المسلمين افتراء يجب التوقف عنه، لأن الرب هو الله تعالى الواحد الأحد، وأنه تعالى سيجازي الكل بأعمالهم ولا علاقة لذلك بقدم الدين أو جدته..

وليعلموا أن الافتراء على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط بأنهم كانوا هوداً أو نصارى عاقبته وخيمة عليهم، وأن أولئك الآباء بريئون من أقوالهم وانحرافاتهم، والله تعالى هو العالم بذلك، وأن عليهم أن يكفوا عن ذلك لما فيه من ظلم لأنفسهم ولا سيما وهم يكتمون صفتك يا محمد الواردة في كتبهم.

وتكرر السورة الإشارة إلى مقولات بني إسرائيل الكاذبة وهم يطعنون بالرسول والرسالة.. فتقول:

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

وانظر إليهم يا محمد وهم يقولون بسفههم وحمقهم لماذا ترك محمد قبلة بيت المقدس إلى مكة، مستهزئين ساخرين كعادتهم بكل من يخالفهم، وأعلمهم بأنك تحولت في قبلتك بعد ستة عشر شهراً ونيف بأمر من ربك وليس بهوى من نفسك كما يفعلون هم

عندما يحتكمون للهوى فيستحقون الوصف بالسفهاء، وأن عليهم أن يعلموا بأن ذلك التحول إلى الله تعالى فقط لأنه وحده سبحانه مالك كل الجهات والهادي إلى سواء السبيل وليس لأحد بعد قوله قول..

وليعلموا أنه تعالى قد جعل محمداً وأمته شهداء على الناس بتبليغ رسالات الله تعالى إليهم، وأن قبلة بيت المقدس ما كانت إلا بقصد أن يكشف للعيان أصحاب النفوس الضعيفة بشأن طاعة الله تعالى وإن كان مثل هذا التحول ليس سهلاً إلا على المهتدين الذين يبادرون لطاعة الله تعالى في كل أمر ونهي، والذين لا تضيع طاعاتهم هذه عند ربهم برأفته الكبيرة ورحمته الواسعة سواء ماتوا قبل تحويل القبلة أو بعدها.

واعلم يا محمد بأن ربك يعلم رغبتك عندما كنت تريد التحول إلى الكعبة، وأنه أنزل إليك هذا التحول وجعله دائماً سواء كنت في المدينة أو في أي مكان آخر من العالم، وأن هذا الأمر بالتحول معلوم لدى اليهود والنصارى من قبل لعلمهم أن محمداً عليه وآله وصحبه السلام نبي ولا يقول إلا صدقاً وحقاً، وأن مثل هذا التحول ماهو إلا نسخ يأمر به الله تعالى بالرغم من انكار وجوده لديهم..

وتأكد يا محمد بأن كفر من كفر من أهل الكتاب بك وبكتابك لن تجدي معه كل الآيات والحجج لأنهم قد عزموا الإصرار على كفرهم واستكبارهم عن الإيمان واتباع قبلتك إلى مكة، وأنهم ماضون في خلافاتهم فيما بينهم وعنادهم في إنكار نبوتك، وأنك والمسلمون معك على حذر من الاستجابة لهم في شيء وإلا ظلمتم أنفسكم. .

وتيقن يا محمد بأنهم يعرفونك حق المعرفة، كما يعرفون أبناءهم وأكثر وإن أخفى الكثير منهم ذلك من باب الحسد والحقد، وأن عليك ألا تبالي بموقفهم وأنت على الحق بكل صدق وأنهم على الباطل مهما زعموا وافتروا، وأن قبلتك إلى الكعبة هي القبلة الحقة لك ولأمتك إلى يوم الدين، وأن عليك ألا تنظر إلى قبلة أخرى، وأن لك ولأمتك في اتباع ذلك عظيم الثواب يوم القيامة، ولهم على كفرهم وإنكارهم شديد العذاب يوم الحساب.. فلينتظروا ويروا.

وتشير السورة إلى تحويل القبلة بمزيد من التركيز والدعوة للطاعة مهما حصل من ابتلاءات.. فتقول:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى

عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا
تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن
يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ
وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

فعليكم أيها المسلمون أن تولوا وجوهكم في الصلاة باتجاه المسجد الحرام حيثما كنتم في سفر أو حضر لأن هذا هو الحق الذي يأمركم به ربكم العالم بكل أعمالكم، ولاتقيموا وزناً لطعن الآخرين بذلك، وضعوا تقوى الله نصب أعينكم ولا تخافوا الآخرين في قول ولا عمل، وفي ذلك تمام الفضل والنعمة عليكم والهدى لكم، واعلموا أن من تمام هذه النعمة أن أرسل تعالى رسولاً منكم هو محمد عليه وآله وصحبه السلام لينقل إليكم آيات ربكم من دلائل ومعجزات وتشريعات تطهركم بالسير والعيش عليها من الأدناس وتوفر بالعلم بها الحق من ربكم والعلم بما غاب من قبل عنكم. .

فتذكروا ذلك دائماً والتزموه في جميع أقوالكم وأعمالكم، واشكروا الله تعالى نعمه عليكم، واستعينوا بالصبر على ابتلاءاتكم، واحرصوا على الصلاة كأقوى صلة بينكم وبين ربكم، واعلموا بأن الله تعالى يبتلي عباده الطائعين المخلصين بالذات ببعض الخوف من العدو والفزع في القتال، وبالجوع بجدب أو قحط، وبنقص في الأموال بسبب الانشغال في الجهاد أو بقلة الإنبات والبركات، فعليكم بالصبر عند كل ابتلاء من هذا وترديد: إنا لله وإنا إليه راجعون لتنالوا رحمة الله وعفوه وتكريمه.

وتربط السورة الحديث عن التوجه إلى المسجد الحرام بالحديث عن فريضة الحج فتقول:

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ
بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟
وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ
عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن
مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ
كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا
كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

مبينة بأن السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج والعمرة، وأن لا علاقة لذلك بما فعلته الجاهلية من مسح على صنمي إساف على الصفا، ونائلة على المروة، ومحذرة من فعل أحبار اليهود ورهبان النصارى من كتم أمر رسول الله عليه وآله وصحبه السلام أو أي علم شرعي بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» مما يحرم معه كتم أو منع بيان علوم الشريعة والعقيدة والدعوة لهما، لأن ذلك يستوجب لعنة الله والملائكة وجميع المؤمنين إلا من تاب عن ذلك وأصلح ما أفسده..

فهيا يا زعماء البلاد الإسلامية، كفوا أيديكم عن ذلك وأطلقوا العنان لدعوة الإسلام وتذكروا أن في كتم العلم أو المنع من بيانه دون تحريف ولا تزوير ولا إكراه تلك اللعنات ناهيك عن الخلود في عذاب الجحيم.. ومن يتحمل ذلك منكم؟!

اذكروا أيها الرؤساء أن أول ما يجب إظهاره هو أمر التوحيد والدعوة إليه، وأمر الاحتكام إلى شريعة الله والدعوة إليها، رضي الكفار أو سخطوا، لأن في ذلك خير الدنيا والآخرة لكم ولأتباعكم بل للناس في الأرض أجمعين..

افعلوا ذلك ولكم في دلائل قدرة الله تعالى وعظمته ووحدانيته في خلق الليل والنهار والسموات والأرض وغيرها ما يطمئنكم على صحة ابتغاء رضى الله ربكم من دون غيره..

افعلوا ذلك وانتهوا من الوقوف في طريق العلم ودعاته المخلصين ليعود الناس إلى شريعة ربهم ويعيشوا عليها بدلاً من شرائع الطاغوت المفروضة عليهم..

افعلوا ذلك ولا تبالوا بكثرة الأتباع المتزلفين لكم والذين يعميهم الركض وراء منافع التبعية لكم عن قول الحق واتباعه والتزام أحكامه..

افعلوا ذلك وانبذوا حب الاتباع المزيف لكم واحرصوا على الحب السليم في طاعة الله الذي تحصدون ثماره الطيبة في الدنيا والآخرة، ولا تقبلوا منهم إلا الحب في الله تعالى..

افعلوا ذلك وأنتم على اطمئنان أن الحب في الله هو الباقي وجزاؤه الثواب الجزيل في الآخرة والناتج الوفير في الدنيا..

افعلوا ذلك وأنتم تتذكرون كيف يتبرأ الرؤساء يوم القيامة من الأتباع على الباطل والظلم والاحتكام لشريعة الطاغوت، وأن الأتباع يتمنون لو يعودون إلى الدنيا ليتبرؤوا من رؤسائهم الذين أضلوهم وأغروهم واضطهدوهم.. ولكن أنى لهم الرجوع؟!

وتأتي السورة بعدها للتحذير من السير على خطوات الشيطان باتباع الآباء والأجداد على باطلهم .. فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ
﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ
ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ
ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ
وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾.

مبينة أن الناس، كل الناس، مأمورون بالأكل مما في الأرض دون استثناء شيء إلا ما استثنى الشرع، وأنه كله حلال طيب إلا ما حرم الشرع، مما يؤكد قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد دليل شرعي لغير ذلك، وأن على كل الناس أن يتجنبوا

عمل الشيطان من تحريم الحلال وتحليل الحرام لأنه عدو بائن العداوة ولأنه لا يأمر إلا بالسوء من المعاصي، وبالفحشاء من المنكرات، مما يؤكد قاعدة الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع، ما دام لا يجوز أن يقول البشر مالا يعلمونه عن الله، فهو تعالى الذي يحدد الحسن والقبح والسوء والفحشاء.

وتذكر السورة بأن من يُدعى لاتباع ما حدده الله تعالى وفقاً لأمره ونهيه ويرفض ذلك بدعوى اتباعه لآبائه فإنه قد يقع بهذا التقليد الأعمى في الكفر والشطط، إذ المفروض أن يتفحص ما خلفه الآباء ليتأكد من شرعيته وصحته في الفهم والتطبيق..

كما تذكِّر المؤمنين بأن مثل الكفار والرسول عليه وآله وصحبه السلام يدعوهم للإيمان والإسلام مثل الغنم التي لا تسمع من راعيها غير دعائه وندائه لها ودون فهم لكل ما يقوله لها، فهم كالغنم صُمٌّ عن سماع نداء الحق، وبُكْمٌ عن التكلم بالحق، وعُمْيٌ عن رؤية دلائل وبراهين الحق، ومن أين لهم بعد ذلك من إدراك الحق وسلامة العقل؟!

وتعود السورة وتذكّر المؤمنين بأن يقبلوا على الأكل من الرزق الطيب لا الخبيث، وأن يشكروا الرزاق الكريم ما داموا عابدين طائعين له.. وما دام المحرم عليهم من المأكولات هو الميتة مما مات من الحيوانات والطيور الحلال دون ذكاة، والدم مهما كان مصدره باستثناء ما خصصه الرسول عليه وآله وصحبه السلام من هذا العموم بقوله «أحلت لنا ميتتان الحوت والجراد، ودمان الكبد والطحال» فيما أخرجه الدارقطني، وما ذكرته آية ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [المائدة: ٩٦] بما فيه العنبر، ومن المحرمات أيضاً لحم الخنزير وكل ما يتعلق به باستثناء شعره، وكل ما ذبح على غير اسم الله تعالى من ذبيحة المجوسي والوثني والملحد، ولا يستحل من ذلك شيء لأحد إلا لمن اضطره الجوع الشديد فيأكل قدر حاجته..

ثم تؤكد السورة بأن من يكتم من كتاب الله شيئاً كما فعل اليهود مقابل أي ثمن فإنه يضع النار في بطنه مما يشير إلى ما يتعلق بالطعام الحرام، وإن مثل هؤلاء اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وأنى لهم الصبر على عذاب الله بالنار؟وأن مثل هذا الحكم العادل هو الحق من الله الذي أنزله في القرآن بينما الاختلاف على التوراة وما تصف به محمد وقبله عيسى عليهما السلام لمما يجزم بتحريفهم وعبثهم بنصوصها.

ثم تعود السورة وتؤكد مواضع البر والخير فتقول:

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ
وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى
ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ .

مجيبة على سؤال عن البر، ومبينة لليهود والنصارى ما اختلفوا فيه بالنسبة للتوجه للقبلة فأكدت لهم أن البر هو الإيمان بالله واليوم الآخر والقرآن الناسخ للكتب المنزلة السابقة وجميع الأنبياء، وأنه أيضاً الإنفاق للمال في الفروض والنوافل على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، وأنه إقامة الصلاة للفرد والأمر بإقامتها للحاكم وإيتاء الزكاة من الفرد وجمعها من مصادرها وإنفاقها في أوجهها الثمانية من الحاكم، وأنه في الوفاء بالعهد فلا نقض ولا خيانة، وأنه في الصبر في الشدة والمرض ووقت الحروب، وأن من يتصف بذلك فهو صاحب البر الذي صدق في إيمانه واتقى عذاب الله وانتظر رحمته.

وتخاطب السورة بعدها المؤمنين الملتزمين لهذا البر فتخبرهم بما كتب الله عليهم من القصاص والوصية والصيام وما يتصل بكل منها من الأحكام فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ
لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ
مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ
فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ
مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ
مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ

بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ
فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ
هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا
عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ
ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ
حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟
أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

مبينة أن الله تعالى قد فرض القصاص عند القتل العمد، فيقتل القاتل إلا إذا عفا وليّ الدم فالدية، وقد كان القصاص في بني اسرائيل دون الدية، لأن العفو في أمة الإسلام هو قبول الدية في العمد، ولذلك قيل ليس القصاص بلازم إنما اللازم ألّا يتجاوز القصاص وغيره من الحدود إلى الاعتداء، وأما إذا وقع الرضا بدون القصاص من دية أو عفو فذلك مباح، فالقصاص هو الواجب عند التشاح ولكن عند الرضا يسقط هذا الواجب.

وروي عن أبي شريح الخزاعي عن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال: «من قُتل له قتيل فله أن يقتل أو يعفو أو يأخذ الدية»، وحدث ابن أبي ذئب لأبي حنيفة عن المقبري عن أبي شريح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال عام الفتح: «من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود»، وأن في تنفيذ هذا القصاص حياة إذ يمنع القتل الكثير الذي كان يحصل فيهم كما أنه يمنع ويزجر الآخرين.

كما تبين السورة للمؤمنين حق الوصية على كل مسلم قبل أن يوافيه الأجل إذا كان عنده من المال الشيء الكثير الزائد عن عياله وورثته، وقد نزل هذا البيان قبل نزول الفرائض والمواريث، وإن كانت الوصية كما يرى كثير من العلماء بأنها غير واجبة على من لم يخلف مالاً كثيراً، وهنا قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». .

وهي ليست بواجبة لأنها تركت لإرادة الموصي، والرسول عليه وآله وصحبه

السلام مات ولم يوصِ بينما أوصى أبو بكر بالخمس وأوصى عمر بالربع وجعل علي الكثير أولى من القليل، والجمهور ليس بأكثر من الثلث..

وللموصي أن يغيّر وصيته ما شاء إلا العتاقة، وإن كان قد قيل إن الآية محكمة والوالدان هنا هما الكافران غير الوارثين، والقرابة هم غير الورثة. والوصية غير نافذة في مرض الموت ولا تجوز لأكثرمن الثلث إلا أن يجيزها الورثة والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة»، وقيل بجواز الرجوع فيها بعد الوفاة إذا كانت لوارث إذا لم ينفذها المريض، وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «من حضرته الوفاة فأوصى فكانت وصيته على كتاب الله كانت كفارة لما ترك من زكاته» فعلى الموصي عدم الإضرار بالورثة لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «الإضرار في الوصية من الكبائر» و«إن الرجل أو المرأة ليعمل بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضارّان في الوصية فتجب لهما النار».

وتحذر السورة من يبدل الوصية عند تنفيذها عما أوصى به الوصي عدلاً أنه آثم وإن كانت تنبه إلى الصلح بين الموصي وورثته إذا لوحظ منه الإضرار، وأن في ذلك الأجر والثواب. والملاحظ أن الوصية في واقعها الاقتصادي نوع من أنواع التوازن الاقتصادي في المجتمع.

ثم تنتقل السورة لإخبار المؤمنين بما فرض عليهم من الصيام، وأنه أيام معدودات كانت ثلاثة من كل شهر أولاً ثم نسخت برمضان، وأن للصائم عند المرض أن يفطر ويصوم بدلاً في غير رمضان، وإن كان على قدرة من الصيام فالأفضل له أن يصوم ولا يفطر لا في المرض ولا في السفر، وأما إذا كان من كبار السن والزمنى ولا يستطيع الصوم فعليه إطعام مسكين لكل يوم أفطره من أوسط ما يأكل، وإذا استطاع هو أو المسافر والمريض والحامل والمرضع أو أي من أصحاب الأعذار أن يصوم فليصم وهو خير له وإلا فعليه أن يقضيه قبل أن يحل رمضان التالي إلا إذا عذر، وإذا مات دون أن يقضيه فليس عليه شي وإن قيل بالصوم عنه.

ورؤية هلال رمضان تجوز بشاهد أو بشاهدين على الأسلم بشرط عدالة الشهود، وقيل بجواز اختلاف المطالع وإن رجح وحدة الصيام تبعاً لسهولة نقل الخبر إلى جميع أرجاء الأرض اليوم بينما كان يصعب ذلك وكان هو علة مراعاة اختلاف المطالع، وعليه ينطبق حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غمّ عليكم فأكملوا العدة» بإلزام المسلمين جميعاً بالصوم لمجرد رؤية الهلال في أي بقعة من العالم الإسلامي. وفي ذلك مزيد من وحدة المسلمين التي يحرص عليها الإسلام.

وأما صلاة العيد فلا تصلى إلا يوم العيد قبل الزوال ولا تقضى كغيرها من السنن، وأما عيد الأضحى فتصلى حتى اليوم الثالث لأنها كلها عيد، وما رواه النسائي عن ابن عباس قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لامرأة من الأنصار: «إذا كان رمضان فاعتمري فإن عمرة فيه تعدل حجة» مما يدل على فضل رمضان وعظيم الأجر على العبادة فيه.

وأما التكبير في العيد فيبدأ من رؤية هلال شوال حتى يخرج الإمام وتنتهي الصلاة.

ثم تذكّر السورة بجواب السائلين: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ بأن الله تعالى أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فيسمع دعاءه وعبادته ويجيبه ويقبل منه، والرسول عليه وآله وصحبه السلام قال فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها» قالوا: إذن نكثر؟ قال «الله أكثر»..

وقال عليه وآله وصحبه السلام «يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي» رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة. وذكر أن لاستجابة الدعاء سبعة شروط: التضرع، والخوف، والرجاء، والمداومة، والخشوع، والعموم، وأكل الحلال. فما على المؤمن إلا أن يراعي ذلك ويقبل على الله بالدعاء طالباً الإجابة ولا يستثني وعندها يجد القبول بإحدى الثلاث المارِّ ذكرها.

ثم تذكّر السورة المؤمنين بما أحل الله لهم في ليالي الصيام من جواز إتيان نسائهم ليلاً بعد أن كان ممنوعاً عليهم، وكانوا يخونون أنفسهم في ذلك ولكن الله تعالى عفا عنهم ذلك وأحل لهم مباشرة نسائهم ابتغاء الولد والعفة، كما أحل لهم في ليالي رمضان الأكل والشرب حتى الفجر الصادق، ومنه إلى الليل ليلتزموا الصيام، وأما أثناء الاعتكاف في المساجد فلا يجوز العودة للبيوت ومباشرة النساء.

وأما الأكل في النهار من رمضان أو الشرب ناسياً فلا شيء عليه «فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه ولا قضاء عليه وليتم صومه فإن الله أطعمه وسقاه» كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأخرجه الدارقطني.

وأما مباشرة زوجته في نهار رمضان بالتقبيل أو غيره دون الجماع فذلك جائز ما دام يأمن على نفسه مما يفسد صومه كالجماع أو الإنزال. والصوم صحيح لمن طلع عليه الفجر وهو جنب سواء من جماع أو احتلام.

هذا وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن الوصال في الصوم فقال: «إياكم والوصال إياكم والوصال» فيما أخرجه البخاري.

ويستحب أن يفطر الصائم على رطبات أو تمرات أو حسوات من الماء ويقول: «لك صمنا وعلى رزقك أفطرنا فتقبل منا إنك أنت السميع العليم» مما رواه ابن عباس عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وأما ابن عمر فروى عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام أنه كان يقول إذا أفطر «ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله»، وروى أنه عليه وآله وصحبه السلام قال عندما أفطر عند سعد بن معاذ: «أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة» فيما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن الزبير.

والاعتكاف أقله لحظة ولاحد لأكثره كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه، وللمعتكف أن يخرج من المسجد للضرورة من مرض وتبوّل وحيض، ويجوز له أن يخرج لعيادة المريض وحضور الجنائز وحضور صلاة الجمعة إذا لم تكن في مسجد اعتكافه، ويبدأ يوم الاعتكاف من غروب شمس ذلك اليوم.

ومع انتهاء بيان أحكام الصيام والاعتكاف، تأتي السورة إلى تحذير المؤمنين من التعامل الباطل فيما بينهم بصدد الأموال سواء كان ذلك بالقمار أو الخداع أو الغصب وغيرها مما حرمته الشريعة، وعليهم ألا يصانعوا الحكام بأموالهم ويرشوهم ليقضوا لهم بأكثر منها، وأما إذا كان المسلم لايستطيع الوصول لحقه بغير ذلك، ولا يستطيع دفع الضرر عن نفسه أو ماله إلا بذلك، فالآخذ كما يقول بعضهم هو الآثم وليس المعطي.

فأين نحن في هذه الأيام وقد أصبحت الرشوة بحق وغير حق كأنها من لزوم إنجاز أية معاملة في دوائر الدولة؟! فأين «الراشي والمرتشي والرائش بينهما في النار»؟!

وتبعاً لتفاوت الأهلة مع أيام الشهر فقد أجابت السورة عن ذلك فقالت:

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

جواباً على سؤال اليهود عن ذلك، وسؤال بعض المسلمين أيضاً عنه، فأبانت السورة بأن في ذلك بياناً لمصالح العباد في الآجال والمعاملات والأيمان والحج والعدد والصوم والفطر ومدة الحمل والإجارات والأكرية وغيرها، كما بينت أن البر ليس كما كان يفعل الأنصار عندما كانوا يعودون من الحج فلا يدخلون بيوتهم من أبوابها بحجة

ألا يحول بينهم وبين السماء شيء وإنما يدخلونها من ظهورها بالصعود على الجدران ونقب الظهور، واستثنى من ذلك الحُمس غير الأنصار من قريش وكنانة وخزاعة وغيرهم، فكان ذلك في الجاهلية وألغاه الإسلام وأظهر أن البر في طاعة الله وامتثال أمره وهو بإتيان البيوت من أبوابها لا من ظهورها.

ثم تنقلنا السورة إلى الأمر بالقتال وتدرجه من الدفاع إلى المبادرة خشية الفتنة ولو في الشهر الحرام والحرص على الإنفاق في سبيل الله وإلا كانت التهلكة فتقول:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ
بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

فقد كان القتال محظوراً قبل الهجرة لأمره تعالى ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وقوله ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] وقوله ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠] وقوله ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢] وأمثال هذه الآيات المكية، وبعد الهجرة نزلت الآية (١٩٠) كأول آية تأمر بالقتال عندما خاف المسلمون أن تمنعهم قريش وتقاتلهم عندما يذهبون للعمرة في السنة التالية من صلح الحديبية، واستمر بعدها عليه وآله وصحبه السلام يقاتل من قاتله ويكف عمن كفّ عنه حتى نزلت ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] فنسخت إذ ﴿...وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] أمر بقتال جميع الكفار، وإن قال آخرون بأنها لم تنسخ لأنها أمر بقتال من يقاتلونكم دون اعتداء على النساء والصبيان والرهبان وأمثالهم إذا لم يقاتلوا مع جيشهم وأما لو قاتلوا فيقتلون كغيرهم، وأما قوله تعالى: ﴿...قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣] فكان بالبدء بأهل مكة ثم من يليهم ممن كان يؤذي الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمسلمين حتى تعم الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق، والمهم ألا يحصل اعتداء بالقتال لغير وجه الله كالحمية وكسب الذكر.

ثم تذكّر السورة المسلمين بأن محاولة الكفار حملهم على ترك الإسلام أشد من

القتل الذي عيروهم به في الحرم، فيجب قتال المشركين حيثما كان إلا في الحرم إذ أحلت للرسول عليه وآله وصحبه السلام ساعة من نهار عند الفتح فقط فتبقى محرمة اللهم إلا عند البغي أو الاحتلال أو المبادأة بالقتال فيه.

ثم تأمر السورة بقتال كل مشرك حيثما وجد دون شرط البدء منهم بالقتال لأن هذا مقتضى ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ وحديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...».

ثم يذكّرهم المولى تعالى بأنه قد قضى للرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه لعمرة القضاء في السنة السابعة من الهجرة بعد أن منعوهم منها في السنة السابقة يوم الحديبية، مما يدل على جواز الوصول للحق كيفما كان دون ارتكاب محرم ولقول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» والمولى تعالى يقول ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ محدداً مدى الحلال والحرام في وسائل الوصول إلى الحق لأنه إما أن يأخذ حقه بنفسه إن أمكن أو بالحكام، ويمكن استبدال القيمة في الحيوان والعروض بمثلها، وأما في القتل فيقتل بالسيف من قَتَلَ باللوطية أو الخمر أو النار أو السم أو الرمي بالحجارة لأن في ذلك عذاب، والمعصية لا تقابل بمعصية، والقصاص من عمل الحاكم أو بإذنه.

وتحدد السورة بأن التهلكة تكون بالإمساك عن الإنفاق في سبيل الله، كما تشمل اليأس من كثرة الذنوب والشعور بعدم فائدة التوبة والانغماس بالتالي في المعاصي وغيرها. والشهيد الصادق منفرداً ليس من التهلكة ما دام في ذلك أي نفع للمسلمين وإعزاز الإسلام.

وتعود السورة وتقف عند أداء مناسك الحج والعمرة فتقول:

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن
كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ
إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ
ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ
أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟
مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾
ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا
قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن
يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا
فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟
وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

مبينة أنه لابد من الإخلاص لله وحده في إكمال الحج والعمرة لكل من بدأ بهما أو أي منهما سواء كان البدء من بلده قبل الميقات أو من الميقات، وقد روى أبو داود والدارقطني عن أم سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من أحرم من بيت المقدس بحج أو عُمرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أمه» وفي رواية «غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر» وإن حرص الرسول عليه وآله وصحبه السلام على الإحرام من الميقات(١) تيسيراً على أمته.

ومن حيث الحكم فقد قال الجمهور بأن الحج والعمرة واجبتان لقوله عليه وآله وصحبه السلام «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت» وإن روي عن جابر ابن عبد الله أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن العمرة: أواجبة هي؟ فقال «لا وأن تعتمر خير لك» مما يرجح أنها ليست فرضاً لمن يريد أن يؤديها وإنما هي سنة ثابتة أو مؤكدة، وأن وجوبها فقط لمن بدأ بها كالحج وغيره من الفروض، ثم لأن عماد الحج الوقوف بعرفة وليس في العمرة وقوف. هذا وإن من الإتمام النية لقوله عليه وآله وصحبه السلام في الحديث المشهور المروي عن عمر رضي الله عنه: «إنما الأعمال بالنيات..». ورأى الشافعي عدم الحاجة لتجديد النية لصبي إذا احتلم قبل الوقوف بعرفة وإلا لم تسقط عنه حجة الفرض، ولكن رأى غيره تجديد النية.

وأما الإحصار فإنه المنع بأيِّ عائق من عدو أو مرض أو ظلم حاكم، والجمهور على أن الإحصار بعدو يحل حيث هو وينحر الهدي ثم يحلق رأسه، وله أن يبعث هديه للحرم إن أمكنه إذا كان معه هدي وإلا فيحل دونه، وأما الإحصار بمرض فلا يحله إلا

(١) فقد روى الأئمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقّت أيْ حدد لأهل المدينة موقع ذي الحُليفة، ولأهل الشام الجُحفة، ولأهل نجد قَرْن، ولأهل اليمن يلملم، ولأهل العراق ذات عِرق، والأحوط لكل عراقي أو مشرقي من العقيق.

الطواف بالبيت سواء استطاع أن يتم حجه أو فاته الحج وأتم العمرة فقط، وهذا بالطبع إذا أمكنه الوصول للبيت وإلا فينحر مالديه من هدي من محله وبذلك يحل من الإحرام.

وللحاج أن يشترط عند النية لحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام لضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب جواباً على سؤالها بأنها إن أرادت الحج أتشترط فقال لها: «نعم قولي لبيك اللهم لبيك ومحلّي من الأرض حيث حبستني» أخرجه أبو داود والدارقطني وغيرهما، وفي رواية أخرى عن ابن عباس «أهلّي واشترطي أن محلّي حيث حبستني».

ولا قضاء على المحصر لحجته وعمرته إلا إذا كان لأول مرة، كما قال مالك والشافعي، وعليه القضاء كما قال أبو حنيفة الذي استدل بعمرة القضاء فرد عليه الآخرون بأنها سميت عمرة القضاء والقضية لا لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قضاها في السنة التالية ولكن لأنه قاضى قريشاً وصالحهم في ذلك العام بالرجوع والعودة فيما بعد فسميت عمرة القضية بمعنى القضاء.

وأما قتال الحاصر فلا يجوز سواء كان مسلماً أو كافراً لما في ذلك من سفك الدماء الواضح في قوله تعالى: ﴿...وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩١]، ولا يجوز إعطاء الكافر الحاصر مالاً ليرفع الحصار ويجوز إعطاء الحاصر المسلم. وإذا حصر عن الحج بعدو فلا يحل حتى يوم النحر لأن في ذلك يأساً من التخلص منه لأن هذا مقتضى ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ ومحله البيت العتيق. ومن حيث نوع الهدي فأفضله بدنة أيْ جمل أو ناقة، وأوسطه بقرة، وأدناه شاة.

وبالنسبة لحلق الرأس فيجري بعد أن بلغ الهدي البيت العتيق إذا كان الحاج آمناً وأما المحصر فالراجح محله حيث حُصر اقتداء بفعله عليه وآله وصحبه السلام يوم الحديبية، والحلق للرجال دون النساء لما روي عن ابن عباس وخرجه أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «ليس على النساء حلق إنما عليهن التقصير»، والأفضل أن يشمل التقصير جميع أطراف الشعر.

ويجوز من ناحية أخرى التقديم والتأخير بين الذبح والحلق والرمي لحديث ابن عباس أن الرسول عليه السلام سئل عن ذلك فقال «لا حرج» رواه مسلم، كما خرجه بن ماجه عن ابن عمر.

وأما مقدار فدية المريض أو من برأسه أذى فهو إطعام ستة مساكين أو هدي شاة أو صيام ثلاثة أيام على من خالف المناسك فحلق قبل وقته، وقد طلبه صلى الله عليه وآله وسلم من كعب بن عجرة يوم الحديبية عندما رأى القمل يتساقط من على رأسه.

وإفراد الحج أو قرانه مع العمرة دون فاصل أو التمتع بينهما بفاصل يحل فيه

الإحرام كل ذلك جائز وإن جرى التفضيل بينها وكره عمر رضي الله عنه أن يزار البيت مرتين للحج والعمرة. وعدد الطواف والسعي للمتمتع اثنان من كل منهما وللقارن والمفرد واحد لكل منهما في رأي واثنان للقارن في رأي. ومن مقتضى الإتمام يرجح أن العمرة للشهر الذي أهل فيه وليس للذي يدخل فيه الحرم.

وأما صوم الأيام الثلاثة في الحج لمن لم يجد الهدي في التمتع والقران فآخرها يوم عرفة وإن جاز في العشرة من ذي الحجة أو حتى أيام منى وعندها تعتبر قضاء لا أداء، وأما إذا وجد الهدي فلا صوم لثلاثة في الحج ولا سبعة في موطنه بعد الحج. .

والمهم أن ذلك الدم للمتمتع أو القارن الغريب عن المسجد الحرام كما كان حال المهاجرين والأنصار وآل النبي عليه وآله وصحبه السلام في حجة الوداع، وليس ذلك لأهل المسجد المقيمين بجواره كأهل مكة وما جاورها بحدود المواقيت أو مسافة القصر عنها إذ اعتبر المقيم حضرياً ومنه الحضارة وغير المقيم بدوياً من البداوة كما قال بعض العلماء.

وأما أشهر الحج المعلومة فهي تشمل شوال وذي القعدة وكل ذي الحجة، أو العشرة الأولى منه، والقرآن لم يحددها والسنة أشارت للاثنين، ويترتب على ذلك الدم لمن أتى بنسك من الحج بعد العشرة، ويكون عمرة لمن أهل قبلها كالدخول في الصلاة قبل وقتها.

وحكم الجماع في الحج أنه مفسد له إذا حصل قبل الوقوف، ويلزمه حج وهدي من قابل. وأما الفسوق فهو إتيان المعاصي أثناء الإحرام، كقتل الصيد وقصّ الأظافر وأخذ الشعر وأشباهها، وأما الجدال فالمحرم منه المماحكة والسباب وأما مذاكرة العلم فهو خير محرض عليه، وأما خير الزاد فهو زاد السفر الذي يتقى به الحاجة فيكون من المتوكلين لا من المتكلين على غيرهم.

ومع تنزيه الحج من الرفث وهو الجماع، والفسوق وهو المعاصي عامة، والجدال وهو السباب، فإنه تعالى رخّص بالتجارة في موسم الحج مما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يجيب على سؤال من سأله عن ذلك «إن لك حجاً». وأما عرفات فقد سمي بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون في ذلك الموضع، على قول، ولأن آدم وحواء عليهما السلام تعارفا هناك على قول آخر.

والمعتبر بالوقوف بعرفه أن يكون يوم عرفة قبل الزوال ويفيض بعد الزوال وقبل الليل مع وجوب أخذ شيء من الليل لدى مالك وبذلك تتم الحجة، ولو أفاض قبل

الغروب ولم يرجع فحجه صحيح ولكن عليه دم ولكن لو رجع وأفاض بعد المغيب فلا شيء عليه، وأما إن رجع بعد الغروب فلا يسقط عنه الدم.

وأما شكل الوقوف بعرفة فالأفضل راكباً، كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام، تعظيماً للحج، وأما الإفاضة فبالسير السريع راكباً أو ماشياً ليتمكن من صلاة المغرب مع العشاء جمعاً بمزدلفة. وأما مكان الوقوف فمن حديث جابر وغيره قال صلى الله عليه وآله وسلم «عرفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن عُرنة، والمزدلفة كلها موقف، وارتفعوا عن بطن مُحسِّر».

وأما فضل يوم عرفة فهو عظيم إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والباقية» أخرجه أصحاب الصحاح، ويستحب صومه إلا بعرفة تقوية على العبادة، وهذا ما فعله المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه.

وأما المزدلفة فقد سميت جمعاً لجمع صلاتي المغرب والعشاء هناك، على قول، ولاقتراب آدم من حواء هناك، على قول آخر، ولاقتراب الناس هناك من الله تعالى، على قول ثالث، وسميت بالمشعر لأنه علامة للحج والصلاة والمبيت هناك. وتجري الصلاة هناك بعد غياب الشفق بالجمع للمغرب مع العشاء بأذان وإقامتين، أو بأذانين وإقامتين، أو بأذان وإقامة واحدة. وحكم المبيت بمزدلفة أنه ليس بركن في الحج عند الجمهور، وقال آخرون بأنه فرض فمن فاته فليتحلل بعمرة أو عليه دم ويتم حجه إن غادرها قبل منتصف الليل ولا شيء عليه بعده في قول الشافعي، وأن الآية تدل على وجوب الوقوف لا المبيت.

وقد أمرت السورة بالإفاضة من عرفات كما يفيض الحجيج وليس من مزدلفة وهي من الحرم كما كان يفيض الحُمس بحجة التعظيم الزائد للحرم، فكانت قريش ومن على دينها وهم الحمُس يقفون بمزدلفة وغيرهم يقفون بعرفة فأمروا كما ذكرت عائشة رضي الله عنها بالإفاضة مع الناس من عرفة. وروي أن الإفاضة من عرفة بعد الغروب وأما من مزدلفة فقبل الشروق مخالفة للمشركين، ومتى وصل الحاج منى يبدأ برمي جمرة العقبة سبع حصيات وذلك راكباً إن قدر، وبهذا الرمي يتحلل التحلل الأصغر أي يحل له كل شيء إلا النساء كما روي عن ابن عباس، ويستمر في التلبية حتى ينتهي من رمي العقبة.

وتذكّر السورة المؤمنين بأن يحرصوا بعد الانتهاء من منسك الذبح وإراقة الدماء أن يكثروا من ذكر الله بدلاً من التفاخر بالآباء الذي كانت عليه الجاهلية، ويعظموه تعالى ويذبوا عن حرمه ويغضبوا لعصيانه أشد من غضبهم لوالديهم إن شتما، ولا يقفوا عند دعاء الجاهلية في مصالح الدنيا فقط بل يطلبوا خير الدنيا والآخرة معاً كما يطلبوا

أن يجنبهم المولى تعالى عذاب النار، وفي ذلك دعاء جامع لخيري الدنيا والآخرة.. فهلّا حرصنا على ذلك لينقذ الله عز وجل هذه الأمة المكروبة مما هي فيه من الذل والهوان في الدنيا ويجمعنا برسوله عليه وآله وصحبه السلام في علّيين في الآخرة؟.

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

ومع نهاية أداء مناسك الحج تخاطب السورة جموع الحجيج ليكثروا من ذكر الله تعالى بالدعاء والعبادة طيلة أيام منى المعدودة، وهي أيام التشريق الثلاثة التالية ليوم النحر والتي يمكن للحاج أن يتعجل منها في يومين بحيث يصير رميه كله بتسع وأربعين حصاة: سبع ليوم النحر وإحدى وعشرين في كل من اليومين التاليين ويسقط عنه رمي يوم الثالث والذي أبيح له تركه والتعجل عنه، كما على الحاج أن يكبّر عند كل صلاة فيها بدءاً من صلاة صبح يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق بتكبيرات ثلاث هي: لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر الله أكبر، ولا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

وأما وقت رمي جمرة العقبة الوحيدة يوم النحر فهو من طلوع الشمس إلى الزوال بينما وقت جمرات أيام التشريق فهو من بعد الزوال أي الظهر إلى الغروب، وإن جاز رمي جمرة العقبة قبل الفجر، كما يجوز الرمي متى نسي في أية ساعة ذكر من ليل أو نهار كأنه ذكر صلاة نسيها، ولا رمي بعد مضي أيام الرمي، وإن ترك الجمار كلها فعليه دم وإن ترك واحدة فيطعم مسكيناً نصف صاع، ولا تجوز البيتوتة بمكة عن منى ليالي التشريق إلا للرعاء والسقاة وإلا لزم الدم كترك المبيت بمزدلفة.

ويستحب الرمي راكباً كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام إن أمكن، فيبدأ بالرمي من الكبرى ثم الوسطى ثم الصغرى مع الدعاء عند الأوليين، ويرمى عن المريض والصبي، ثم ينفر المتعجل في شيء من نهار اليوم الثاني، وأن في ذلك المغفرة للمتقين كالنفرة في اليوم الثالث وإن كانت الآية تشدد مكرراً على تقوى الله تعالى في نهايتها مع التذكير بالحشر والوقوف بين يدي الله تعالى للحساب في ذلك اليوم، وشتان بين وقوفه ذاك ووقوف الحج كله.. فليذكر ذلك كل مسلم وتقي، ويستعد لذلك الوقوف الرهيب!.

وتعود السورة بعدها للحديث عن المنافقين في جانب من جوانب نفاقهم فتقول:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

فسواء نزلت هذه الآيات في الأخنس بن شريق أو في منافقين تكلموا على شهداء يوم الرجيع: عامر بن ثابت وخبيب وغيرهما، أو في كل منافق يبطن الكفر ويظهر الإسلام، فهي عامة تكشف هذه النوعية من أصحاب الألسن الحلوة والقلوب المرة، مما ينبه على ضرورة الاحتياط لأمور الدين والدنيا، وخاصة مع كثرة الفساد، وإن كان العمل في الشريعة على الظاهر حتى يتبين خلافه..

والرسول عليه وآله وصحبه السلام يؤكد هذا المعنى عندما يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» مشيراً للثبوت برؤية العين مما يؤكد العمل بالظاهر وليس الباطن، والفساد كله مبغوض عند الله وهو كل ما يتعلق من ذلك بالعرض أو النفس أو العقل أو المال أو الدين، فليحذر المسلم، وليذكر حرصه على الاستجابة الفورية للتذكير بتقوى الله، كما فعل أمير المؤمنين هارون الرشيد عندما نزل عن دابته وخرَّ ساجداً لتذكيره بذلك من يهودي ذمِّي جاء يطلب حاجته، ولا تأخذه عزة النفس وكبرها فيرد على مذكره: عليك بنفسك، مثلك يوصيني!!

وبعدها تقابل ذكر صنيع المنافقين بذكر صنيع المؤمنين فتقول في هذه الآية:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

وهي الآية التي نزلت في صهيب عندما جاء مهاجراً من مكة إلى المدينة بعد أن انخلع من ماله لتخلي قريش سبيله مما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول له «ربح البيع أبا يحيى»، كما أن هذه الآية تعم كل من يضحي بنفسه في سبيل الله سواء كان في الجهاد أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو في المنافحة عن الاسلام ودعوته.. وكل ذلك يعتبر من الاستشهاد..

وبعد هذا البيان للناس، وأنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر ومنافق، تدعوهم السورة ليكونوا على ملة الإسلام الواحدة فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ
عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾
هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ
ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ
ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ
إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ
ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا
يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾.

فقد أمرت السورة كل المؤمنين ومدعي الإيمان من المنافقين وأهل الكتاب المؤمنين بموسى وعيسى عليهما السلام، والكفار المرتدين عن الإسلام مثل كندة قوم الأشعث بن قيس الذين ارتدوا بعد وفاة النبي عليه وآله وصحبه السلام، أن يكونوا على ملة واحدة هي الاسلام، ولا يتبعوا شيئاً من الكفر وغواية الشيطان كاتباع شيء من التوراة بعد نزول الاسلام..

وليعلموا أنهم لو زلّوا بالبعد عن طريق الاستقامة هذه بعد أن نزلت المعجزات وآيات القرآن فإن عقوبتهم ستكون أشد لعلمهم بالحق، وليذكروا أن من يرفض الدخول في الاسلام بدعوى أن ينتظر معجزة مجيء الله تعالى وملائكته إليهم في الغمام، أو يأتيهم عقاب الله وعذابه جزاء رفضهم، فلا حاجة بهذا الرافض للانتظار لأن أمر الله تعالى وحكمه في ذلك قد حسم فلا يظهر تعالى عليهم ولا ينزل عقوبة ماحقة لأي أمة بعد بعثة محمد عليه وآله وصحبه السلام..

واسأل يا محمد بني إسرائيل عما أنزل عليهم من الآيات المعرفة به الدالة عليه قبل بعثه، كما اسألهم عن المعجزات التي نزلت على موسى عليه السلام ودعوته لهم لاتبّاع محمد من بعده، ولكنهم غيّروا وبدلوا نعمة الله المفروض التزامها بالسير على الإسلام، وأن لهم ولأفعالهم أشد العقاب.

واعلموا يا محمد وأتباعه بأن من يكفر بالله ورسوله واليوم الآخر تستهويه الحياة الدنيا بزينتها بما غرس فيه من شهوات، وأنه يندفع بالسخرية من المؤمنين منكم، وأن ذلك هو شأن كفار قريش الذين سينتهون إلى قعر جهنم بينما أنتم في الجنة، وهي المنزلة العالية التي يرزق الله تعالى المؤمنين بها من فضله ورحمته.

واذكروا أيها المؤمنون أن الناس كانوا في أول عهدهم من بعد آدم عليه السلام، سواء مباشرة أو بعده بقرون، على دين واحد ثم انقسموا بين مؤمن وكافر فبعث الله النبيين بالهدى يبشرون بالجنة لمن سار عليه وينذرون بالنار لمن تنكب طريقه، وبينوا ذلك فيما أنزل عليهم من الكتب السماوية التي حملت الحق للناس ليحتكموا إليه في حسم الخلافات فيما بينهم، وهي تلك التي وقعت نتيجة بغي بعضهم على بعض، مما يدل على السفه فيما فعلوا، وكما كذبت الأمم السابقة بعضهم كتاب بعض، وهدى الله أمة محمد للتصديق بجميع تلك الكتب فإنه تعالى بما بينه في القرآن لأمة محمد هدى المؤمنين من هذه الأمة للحق فيما اختلف فيه اليهود والنصارى سواء برد زعمهم أن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً، أو من حيث قبلتهم إذ اتجه اليهود إلى بيت المقدس والنصارى إلى الشرق، أو من حيث يوم الجمعة فهدى المسلمين إليه وغده لليهود وبعد غده للنصارى..

واذكروا أنه لولا قضاء الله وإذنه في نزول هدى القرآن بذلك كله لما توفرت هذه الهداية لأحد، ولولا اتباعهم لهذه الهداية لما تحقق لهم أن يكونوا مؤمنين حقاً، ونزول الهدى واتباعه كان بإذن الله ومشيئته بمعنى أن شيئاً من ذلك لايقع رغماً عنه تعالى، وليس معناه أنه تعالى يرغم المؤمن على الإيمان ويترك الكافر للكفر، تعالى سبحانه عن ظلم أحد أو التحيز لأحد.

واذكروا أيها المؤمنون أخيراً أن ظنكم بإمكانية دخول الجنة دون ابتلاء بالبأساء والضراء لن يكون لو اشتد الحال بكم كما كان يقع بالأمم السابقة إلى درجة أن رسولهم كان يقول هو والمؤمنون معه متى يأتيهم نصر الله والخلاص مما هم فيه من الشدة والكرب، ثم يأتيهم قريباً فيخلصهم..

فسواء كان هذا إشارة للكرب الذي أصاب المسلمين في غزوة الخندق أو في حرب أُحُد أو لتطييب نفوس المهاجرين وتسليتهم بعد أن تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله، أو لما يقع مع كل رسول وأمته وأتباعه، فإن على المؤمنين من أتباع محمد أن يستعدوا لوقوع مثل هذا الابتلاء بهم.

ثم تجيب السورة على مجموعة من الأسئلة يوجهها أشخاص مختلفون إلى الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام مبتدئة بالإنفاق فتقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾.

وقد سأل عن ذلك عمرو بن الجموح، وكان لديه مال كثير، وإن قيل إن السائل هم المؤمنون، وذلك لمعرفة مصارف صدقة التطوع، فينفق الغني على أبويه المحتاجين، ويزوج أباه إن كان محتاجاً لذلك، ولكن لا ينفق على حجه أو غزوه، ويخرج عنه صدقة الفطر، كما ينفق على امرأة أبيه إن احتاجت.

وقبل أن تنتقل للإجابة عن السؤال التالي بشأن القتال في الشهر الحرام تذكر السورة فرض القتال على المسلمين فتقول:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

مبيّنة أن قتال الكفار الذي لم يؤذن للنبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم به بمكة قد فرض أولاً على أصحاب النبي عليه وآله وصحبه السلام خاصة كفرض عين ثم بعد أن استقر الشرع صار على الكفاية إلا أن يجتاح بلاد الاسلام عدد لايكفي لرده إلا جماعة المسلمين بلداً بعد بلد حتى يشملهم جميعاً.

فالقتال مكروه في طباع البشر لما فيه من مشقة وتكلفة ولكنه خير للمسلمين لما فيه من نصر وأجر، وبالمقابل فقد يحب الإنسان شيئاً كالدعة والقعود عن الجهاد وفيه شر كثير لما تتعرض له البلاد والعباد من الذل والهوان من أعدائها. وهذا بالضبط ما حصل وما يحصل في تاريخ المسلمين منذ أن قعدوا عن الجهاد، فمتى يهبون لذلك؟!

ثم تأتي السورة إلى الإجابة عن القتال في الشهر الحرام فتقول:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾.

فسواء نزلت بمناسبة قتل ابن الحضرمي في رجب من قبل بعث عبد الله بن جحش، واتهام قريش لهم بأنهم قتلوا في الشهر الحرام مع أنهم لم يكونوا يعلمون أن ذلك اليوم من رجب، أو بأي مناسبة أخرى، فقد أقر الله ورسوله ذلك وبقي كذلك حتى قيام الساعة وإن قيل بنسخها من الجمهور وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام لم يقاتل في الشهر الحرام إلا عندما كان يغزى أو يغزو، والأشهر الحرم هي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم..

وإقرار القتال جاء هنا بعلة ما كانت تفعله قريش بالمسلمين ولذلك قال الجمهور إن معنى الآية أنكم يا كفار قريش تستعظمون على المسلمين القتال في الشهر الحرام ولكن ما تفعلونه من الصدِّ عن سبيل الله لمن أراد الاسلام، ومن الكفر بالله وإخراج أهل المسجد منه، كما فعلتم بالرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه، فإنها أكبر جرماً عند الله، ثم إن فتنتكم المسلمين عن دينهم أشد جرماً، فلتحذروا يا مسلمون من ذلك ولتثبتوا على دينكم.

والمرتد يستتاب لما يراه الحاكم من مدة، فإن تاب وإلا قتل «من بدّل دينه فاقتلوه»، وميراثه في بيت المال على الراجح إلا أن يرى الإمام غير ذلك، ومن يرتد فقد أفسد كل أعماله إلا أن يرجع، وأما المهاجرون فلهم البشارة بالرحمة والمغفرة.

وتنقلنا السورة بعدها للسؤال الآخر عما في الخمر والميسر، وعن الإنفاق، فتقول:

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾.

فقد سأل المؤمنون الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن الخمر فكانت هذه أول آية في أمر الخمر ثم نزلت ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]

وبعدها ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

كما سألوه عليه وآله وصحبه السلام عن الميسر وهو قمار العرب بالأزلام، فبين تعالى لهم أن فيهما إثماً كبيراً من مخاصمة ومشاتمة وزور وزوال العقل وتعطيل الصلوات وغير ذلك من المنكرات، كما أن فيهما منافع للناس من ربح التجارة والمقامرة، ولكن الإثم أكبر من النفع حتى لعن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم الخمر ولعن عشرة لهم علاقة بها وقال: «حرمت الخمر لعينها».

وأما السؤال عن قدر الإنفاق هنا بعد أن سئل عمن تصرف إليه فقد جاء هنا الجواب بأن ينفق ما زاد عن الحاجة للنفس والعيال «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى»، وأن في ذلك ما يصلح دنياكم وينفعكم في آخرتكم، ولذلك جاء بدء الآية التالية مكملاً لهذه الآية فهي تقول إذ تجيب عما عليهم من التعامل مع اليتامى بعدها في المال والنكاح:

﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

مبينة لهم بأنه لا حاجة لعزل طعامهم وشرابهم خوفاً مما كان قد نزل ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ونزول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] وإنما يمكنهم أن يخلطوا ذلك بما لديهم منه مع قصد الإصلاح، كما يمكن بهذا القصد التجارة بأموالهم بشرط التوثيق حيث يلزم، وأن عليهم أن يطمئنوا من باب الوعد والوعيد أن الله يعلم المصلح في ذلك من المفسد، فيجازي كلاً بعمله، وأنه تعالى قد أجاز ذلك دفعاً للعسر والضيق وتوفيراً لليسر والخير وهو سبحانه الذي لايمتنع عليه شيء لأنه «عزيز» ويتصرف في ملكه بما يريد لأنه «حكيم».

وأما بشأن النكاح فقد أجاز تعالى النكاح من اليتامى المؤمنين والمؤمنات، وحرم نكاح المشركات إلا نساء أهل الكتاب إذ أحلهن في سورة المائدة نسخاً من هذه الآية وبقي تحريمهن إذا كانوا حرباً لقوله تعالى ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ

ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وإن كره الإمام مالك ذلك مجرد كراهية، وأما نساء المجوس فالجمهور على تحريم نكاحهن «غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم».

وأما إتمام النكاح فلا بد فيه من إذن الولي «لانكاح إلا بولي» والسلطان ولي من لا ولي له، كما لابد من شاهدي عدل «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل، وما كان من نكاح على غير ذلك فهو باطل، فإن تشاجرا فالسلطان ولي من لا ولي له» وإن رأى الإمام مالك أن شهرة النكاح والإعلان به تكفي عن الشهادة (أعلنوا النكاح)، ورأى أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما أن لاسر في النكاح مع الشاهدين وأنه يفسخ بدون الشهادة، وأن التقيد بالنكاح بين المؤمنين هوالمؤدي لرضا الله تعالى لأنه عمل أهل الجنة وأما نكاح المشركين والمشركات فهو من عمل أهل النار ومجلبة لسخط العزيز الجبار.

وتنقلنا السورة بعدها للإجابة عن السؤال المتعلق بالمحيض وما يتصل به من إتيان النساء ومعاشرتهن فتقول:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

وسواء كان السائل ثابت بن الدحداح أو أسيد بن حضير أو غيرهما فقد كان عرب المدينة يتجنبون مؤاكلة الحائض ومساكنتها عملاً بسنة اليهود، ويتجنبون النساء مدة الحيض ويأتوهن في أدبارهن، فنزلت، وقال صلى الله عليه وآله وسلم «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»..

ودم الحيض أسود تعلوه حمرة، تترك من أجله الصلاة والصوم، ويقضى الصوم ولا تقضى الصلاة، والغالب أن مدته خمسة عشرة يوماً في الشهر الواحد، وما زاد فهو استحاضة، وهو أذى برائحته وقذره..

والجمهور أن المستحاضة تصوم وتصلي وتطوف وتقرأ القرآن ويأتيها زوجها، فلا اعتزال لها إلا في الحيض الذي له أن يأتيها فيه إلا في موضع الدم فهو حرام، وإذا أتاها فيه فعليه التصدق بدينار إذا أتاها أثناء الدم ونصف دينار في انقطاعه، ولا يأتيها

إلا بعد الطهر وانتهاء الحيض والتطهر بالغسل بالماء كطهر الجنابة، ولا يكون ذلك إلا في القبل لا في الدبر، لأن ذلك موضع الولد، وله أن يأتيها في القبل بأي شكل ومن أي مكان سواء كن مقبلات أو مدبرات أو مستلقيات، وأما الإتيان في الدبر فحرام لقوله عليه وآله وصحبه السلام «من أتى امرأة في دبرها لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة» وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «تلك اللوطية الصغرى».

وأنه متى تقيد المسلم بذلك فقد قدم الأعمال الطيبة لغده فجاءه الخير من الولد في الدنيا ومن الأعمال الصالحة في الآخرة حين يجري الحساب والجزاء على البر والإثم.

ثم يدعوهم سبحانه وتعالى لدوام التزام المكارم من الإنفاق وصحبة الأيتام والنساء بأكرم الأخلاق، وأن لايمتنعوا عن شيء من ذلك بحجة الحلف ألا يفعلوا شيئاً منها، وليحرصوا على البر والتقوى والإصلاح، وليعلموا أن الله تعالى سميع لأقوالهم وعليم بنياتهم فليحذروه، وليذكروا أنه تعالى لا يؤاخذهم على لغو اليمين كالهزل والمزاح وغيرهما ولكنه سبحانه يؤاخذهم على ما عزمت عليه قلوبهم وصممت عليه وقامت بفعله لأنه سبحانه غفور حليم.

وربطاً بالحلف واليمين تبدأ السورة بالحديث عن جوانب من مشاكل الحياة الزوجية وما فيها من إيلاء وطلاق، وما يداخل ذلك من عدة ورجعة وبينونة ومهر مع الحياة والوفاة، فتقول عن الإيلاء:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾.

وأن كل من يحلف بالله على ألا يقرب زوجته بقصد إيذائها ليوم أو أكثر فإنها تبين منه بالإيلاء إذا لم يطأها لأربعة أشهر، وتعتبر طلقة رجعية إذا لم يطأها في العدة المذكورة إلا لعذر مقبول..

والإيلاء لا يكون إلا مع الغضب بخلاف الظهار والطلاق، ومدة الشهور الأربعة من باب تأديب المرأة بالهجر، وهي المدة التي لا تستطيع ذات الزوج أن تصبر عنه أكثر منها..

والفيء هنا هو الجماع لمن لا عذر له من مرض أو سجن أو غيرها بحيث إذا ذهب العذر لزمه الوطء وإلا فرق بينهما إذا انقضت المدة، وذلك بأن عزم على عدم الفيء بعد المدة وتخلية سبيلها وتطليقها، فالله تعالى سميع لكل ما يقوله أثناء المدة وبعدها وعليم بعزمه ونيته على الطلاق وعدم الفيء لا أثناءها ولا بعدها.

ثم تقول عن المطلقات، سواء كان بعدم الفيء من الإيلاء أو بغيره:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

مبيّنة حكم المرأة بعد التطليق، إذا كانت ممن تحيض كما هو حال معظمهن، وأن عليها أن تعتد ثلاثة قروء، والقروء هي الحيض، في قول، والأطهار، في قول آخر، فتمر المرأة في ثلاثة أدوار أو انتقالات، والمطلقة تتصف بحالتين منها فقط، فهي تنتقل من طهر إلى حيض، ومن حيض إلى طهر، فعدتهن الانتقال من الطهر الذي وقع فيه الطلاق إلى الحيض التالي، حتى تستوفي ثلاثة قروء كاملة لأن الطلاق المعتبر لايكون إلا وقت الطهر وليس أثناء الحيض، والعودة لا تكون إلا في العدة، ولا يعتد بالحيض الذي طلق فيه ولكن يعتد بالطهر، ومتى رأت أول نقطة دم من الحيضة الثالثة تخرج من العصمة بحيث إذا طلق في طهر لم يطأ فيه تستقبل حيضة ثم حيضة ثم حيضة، وتخرج من العدة فور الاغتسال، وأما الأمة فطلاقها تطليقتان وعدتها حيضتان. .

ولا يجوز للمطلقة أن تكتم ما في رحمها من الحيض والحمل معاً، وزوجها أحق بمراجعتها مالم تنقضِ العدة وإلا فهي أحق بنفسها وتصير أجنبية منه، فلا تحل له إلا بخطبة ونكاح جديدين بولي وإشهاد، وتتم المراجعة أثناء العدة بالوطء أو التقبيل مع الإشهاد وفق السنة، ولا يسافر بها قبل الإرجاع، ولا يدخل عليها ويرى شيئاً من محاسنها إلا للمراجعة، وهو مندوب للمراجعة بقصد الإصلاح لا الإضرار. .

ومن ناحية أخرى فالزوجة لها من حقوق الزوجية من النظافة والزينة التي تليق بالرجال مثل مالهم وإن كان لهم درجة ومنزلة أعلى منهن وبالذات في حقوق النكاح إذ له رفع العقد دونها، كما يلزمها إجابته للفراش ولا تلزمه ذلك.

ثم تذكر عدد الطلقات وما يترتب على التسريح فتقول:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلْكَ

حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)﴾ .

فبعد أن كان لا عدد للطلاق في الجاهلية فقد تم هنا التحديد بمرتين وللزوج أن يرتجع فيهما دون تجديد مهر وولي، وأما الثالثة فلا رجوع فيها حتى تتزوج غيره، ويقع العدد في كلمة واحدة كما يقع متفرقاً، فقد أكثروا أيام عمر رضي الله عنه من إيقاع الثلاث في كلمة فألزمهم بها. .

وطلاق السنة هو طلاق المرة وفي طهر لم يطأها فيه، وطلاق البدعة هو طلاق الثلاث أو في حيض أو نفاس. .

والطلاق يكون بلفظ صريح ويكون بالكناية المفتقرة للنية، والمهم أن الزوج متى أوقع الطلاق مرتين عليه بعدها إما أن يتجنب الوقوع في الثالثة فيبقي على حياته الزوجية بما عرف من الشرع من حقوق للطرفين أو أن يطلقها الثالثة وهذا معنى التسريح على أن يكون وفقاً للسنة بإحسان.

وفي حالة التسريح يحرم أن يأخذ شيئاً مما أعطى المطلقة إلا بعد الخوف من عدم إقامة حدود الله أي بعد إقامة حق النكاح لصاحبه، وعندها لا حرج أن تفتدي المرأة نفسها وأن يأخذ الزوج ما تفتدي به، كما فعلت امرأة ثابت بن قيس، إذ كانت تبغضه لشدة سواده وقصر قامته وقبح وجهه، فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم «أتردين عليه حديقته؟» ـ أي المهر ـ فقالت نعم، فحصل الخلع بينهما، وسواء كان الخلع بسبب الضرر أو الكراهية دون ضرر فلا حرج فيه ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ﴾، وإن جاز أن تفتدي نفسها بأكثر مما أعطاها أو أقل والمهم أن يتراضيا على ذلك، والخلع يقع طلاقاً حسب النية ويقع فرقة نهائية وفسخ عقد، وله عدة المطلقة عندما يقع طلاقاً، وتكون مختلعة عندما تخلع من كل الذي لها، ومفتدية إذا تنازلت عن بعضه فقط، ومبارئة عند التنازل عن كل ما لها قبل أن يدخل بها، ومصالحة مثل المبارئة.

ومتى وقع الطلاق الثالث فلا رجوع إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره نكاحاً كاملاً فيه الوطء ودون قصد التحليل وإنما بقصد الزواج المؤبد، والمهم أن مدار جواز نكاح التحليل مرتبط بالزوج الناكح، فإن كان نكاحه فاسداً لم يحلها لزوجها الأول، وإن كان صحيحاً أحلها إن ظن كل منهما الصلاح في هذا النكاح الثاني بالعزم على حسن العشرة وإعطاء الحقوق كاملة من أحدهما للآخر، سواء كان من ذلك الخدمة حسب المعروف أو بعضها.

وعندما تقترب العدة في الطلاق من نهايتها فلا بد من الإمساك بالزوجة بالمعروف بإعطائها حقوقها الزوجية سواء الإنفاق أو غيره، أو بترك العدة تنتهي وينفذ الطلاق، ولا يجوز أن يمسك بها بقصد إيقاع الضرر بها، كما كانوا يفعلون بالجاهلية، والحذر الحذر من العبث في ذلك لأن في هذا هزواً بأحكام الله والعياذ بالله! وليذكر الهازل أن الطلاق يلزمه لأنه لا هزل في النكاح والطلاق والعتاق، وليذكر نعمة الإسلام عليه وبيان أحكامه في الكتاب والسنة مما يكفي تخويفاً لكل تقي يعلم أن الله على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

وأما عندما ينتهي أجل عدة المطلقة فلا يجوز لولي الأمر أن يمنعها من التراضي مع زوجها وعودة الحياة الزوجية بينهما لأن في ذلك العضل المحرم، وفي ذلك تحذير مشدد للمؤمنين لما فيه من تطهير النفوس وتزكيتها.

وبعد ذكر النكاح والطلاق جاء دور ذكر الولد من الزوج المطلق فتقول السورة في ذلك:

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾.

فقد بينت الآية أن المطلقات أحق برضاع أولادهن من الأجنبيات، وأنهن أحق بالحضانة إذا لم يتزوجن، وأن المطلقة البائنة لها الأجرة وأما الرجعية فلها النفقة والكسوة، وهذا هو حال الزوجة مع بقاء النكاح أرضعت أو لم ترضع لأن ذلك مقابل التمكين، وكل ذلك حسب الوسع والقدرة المالية، ويستمر الإرضاع سنتين كاملتين لمن

أراد الإتمام والكمال، وفيهما فقط يدفع الزوج الأجرة للبائنة، وفيهما تحصل فقط الرضاعة المحرمة والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «لا رضاع إلا ما كان في الحولين» ولا قيمة لرضاع الكبير، ويبقى الأب مطالباً بنفقة الولد ولا سيما إذا كان لا مال له.

وأما الحضانة فهي في الغلام إلى البلوغ وفي البنت إلى النكاح، ويخيّر الصبي عند سن الثامنة، سن التمييز، بين أبويه، إذا لم تتزوج الأم وكانا متساويين في الصلاح، وليس للأم أن تأبى أن ترضعه إضراراً بأبيه أو تطلب أكثر من أجر مثلها، كما لا يحل للأب أن يمنع الأم من ذلك مع رغبتها في الإرضاع وما على الأب ينطبق على وارث الصبي لو مات، فينفق على إرضاعه مثله ولا سيما إذا كان رحماً محرماً إلا إذا كان للصبي مال فينفق على رضاعه منه، وهذا هو الأصل. وإذا أراد الوالدان فطام الطفل وفصاله عن الغذاء بتراض بينهما قبل الحولين فلا حرج في ذلك، وأما إذا أرادا استئجار مرضعة له لتتفرغ الأم للمتعة فيجوز ذلك مع دفعه الأجرة للمرضعة الأجنبية طيلة فترة الإرضاع من قبل الأب.

ثم تذكر السورة ما يحصل للزوجات عند وفاة أزواجهن فتقول:

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

فأوردت السورة هنا عدة الوفاة بعد عدة الطلاق وما اتصل بها من الإرضاع حتى يظهر أن عدة الوفاة تختلف عن عدة الطلاق، وهي ناسخة لوصية النفقة والسكنى سنة مالم تخرج فتتزوج، وحصر عدة المتوفى عنها زوجها بأربعة أشهر وعشر، وبالميراث، وأما الحامل المتوفى عنها زوجها فعدتها وضع حملها ولها أن تتزوج ويدخل بها زوجها فور انقطاع دم النفاس عنها..

وهذا هو أجل كل حامل مطلقة رجعية أو بائنة فعليها أن تصبر عن النكاح ولا تفارق مسكن الزوجية ليلاً طيلة فترة العدة أو الحمل والنفاس، ولا سيما إذا كان الزوج السابق يملك رقبة المسكن أو يدفع إيجاره، وإن كان لهاأن تخرج في حوائجها في

النهار، ولا إحداد على الزوجة الذمية في قول مالك وأبي حنيفة، وعليها الإحداد كالمسلمة لأنه حكم من أحكام العدة في قول الشافعي والليث وغيرهما، و هذا الإحداد شامل لجميع الزوجات صغيرة أو كبيرة أمة أو حرة، والإحداد يشمل جميع أنواع الزينة من الخضاب وغيره، وهو واجب على المتوفى عنها زوجها، والإحداد يشمل المطلقة وغير المطلقة، وإن كان في الرجعية أشد، وأما في البائنة ثلاثاً فعدتها عدة الطلاق لا الوفاة لأنه غير زوج لها، هذا وتبدأ العدة في الطلاق أو الوفاة من يوم الموت أو الطلاق، وتلزم عدة الوفاة كل زوجة إلا الحامل بأربعة أشهر وعشرة أيام إلا الأمة فنصف المدة تماماً.

ونفقة المطلقة ثلاثاً وهي حامل أو نفقة الرجعية وهي حامل واجبة، وكذلك نفقة المتوفى عنها زوجها وهي حامل واجبة، وإن قيل بغير ذلك.

ولا بد في الغالب من الحيض ولو حيضة في الأربعة أشهر وعشرة أيام، وأما بعد انقضاء العدة فلا حرج عليها بطرح الإحداد والتزين للزواج، وأما الرجال فلا حرج عليهم بالتعريض لا بالتصريح لخطبة النساء وهن في العدة من الوفاة، والمهم أن الخطبة تكون بعد العدة سواء كانت سراً أو علناً، ولا يعقد القران إلا بعد مرور مدة العدة مهما كان نوع التعريض أو التلميح أثناءها، ولو نكحها في العدة فالنكاح فاسد، ويفرق بينهما وتعتد عدتين: بقية العدة من الأول وعدة أخرى من الآخر، ويعاقب إذا كان لا يجهل تحريم ذلك كما تعاقب هي أيضاً وذلك عقوبة جرأة على محرم لا عقوبة حد.

وتعود السورة وتذكر متعة المطلقات فتقول:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾.

مشيرة إلى رفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع، فرض مهراً أو لم يفرض، مما يجعل المطلقات أربع:

(١) مدخول بها مفروض مهر لها - وعدتها ثلاثة قروء ولا يسترد من مهرها شيئاً،

(٢) غير مدخول بها ولا مفروض مهر لها - لا عدة عليها ولها المتعة،

(٣) غير مدخول بها ومفروض مهر لها - لا عدة عليها ولها نصف المهر،

(٤) مدخول بها وغير مفروض لها مهر - عليها العدة ولها مهر مثلها، وهذا يدل على جواز نكاح التفويض أي دون فرض مهر سابق للدخول.

ولا بد أن تكون المتعة حسب الوسع المالي دون تحديد في قليل أو كثير لأنه ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ أي بما يعرف لمثل هذه الزوجة، وتبقى هذه المتعة واجبة في ذمة الزوج وإن تزوجت، وإلى ورثتها إن ماتت، كيف لا وهي ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لا مجال للتخلص منه إلا بدفعه.

وعليه فنصف المهر يكون لمطلقات أخريات تذكرهن السورة هنا فتقول:

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾.

مبينة أن المطلقة عند الدخول ودون فرض مهر لها لا تدخل في حكم التمتع وإن قيل إن المتعة لكل مطلقة عموماً أخذاً من قوله تعالى ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ [البقرة: ٢٤١]، وتكون المتعة بالإضافة للمهر كله أو نصفه.

والواجب من هذه الآية نصف المهر تدفعه أو ترجعه المطلقة إذا لم يدخل بها ويحدد لها مهراً معيناً قبل الطلاق، ولها أن تسامح مطلقها عن النصف الثاني فتعطيه كامل المهر كما لولي أمرها أن يفعل ذلك، كما أن للرجل أن يسامحها بنصفه أو بكل المهر، وهذا مقتضى عفو كل منهما والدعوة لعدم نسيان هذا الفضل وهو إتمام المهر كله منه لها أو منها له.

وفي دوّامة مشاكل الحياة الزوجية يخشى التفريط في المحافظة على الصلاة ولذلك جاءت هاتان الآيتان أثناء عرضها كما يلي:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾.

مخاطبة المسلمين جميعاً وآمرة لهم بالمحافظة على إقامة الصلوات في أوقاتها وبجميع شروطها..

وأما الصلاة الوسطى فقد ورد فيها عشرة أقوال بأنها الظهر، لتوسطها النهار،

وأنها العصر، لأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل، وأنها المغرب، لتوسطها في عدد الركعات، وأنها العشاء، لأنها بين صلاتين لا تقصران، وأنها الصبح، لأن قبلها صلاتي ليل يجهر فيهما وبعدها صلاتي نهار يُسر فيهما، وأنها الجمعة، لأنها خصت بالجمع والخطبة وجعلت عيداً، وأنها الصبح أو العصر معاً، لأنهما يشدد عليهما في القرآن والسنة أكثر من غيرهما، وأنها العشاء والصبح، للتشديد عليهما أيضاً، وأنها الصلوات الخمس كلها، لأنها يؤمر بالمحافظة عليها كلها، وأنها غير معينة ليهتم بها كلها، فعلى المسلمين أن يقوموا فيها جميعاً خاشعين طائعين لرب العالمين..

والقنوت هو الخشوع وطول الركوع لقوله عليه وآله وصحبه السلام «أفضل الصلاة طول القنوت» ـ خرجه مسلم وغيره.

ولا يصح قطع الصلاة إلا لفضل إحياء نفس، أو مال، وبعدها يستأنف صلاته دون بناء، ولا يفسد الصلاة الكلام سهواً، وأما عمداً فيفسدها إلا إذا كان لإصلاحها، وحديث ذي اليدين مشهور معروف في ذلك عندما سأل الرسول عليه وآله وصحبه السلام عما إذا كانت قصرت الصلاة أو نسي لأنه صلى ركعتين بدلاً من أربع، فقام الرسول عليه وآله وصحبه السلام للركعتين الباقيتين وسجد للسهو دون أن يبني من جديد.

هذا بالنسبة للصلاة، وما يمكن أن يذكر عنها هنا، وذلك في حالة الأمن وأما في حالة الخوف الطارئة فعلى من يتعرضون لذلك أن يصلوا رجالاً على الأقدام وركباناً على الخيل والمركبات المتنوعة، وإيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه عندما يشتد على الفرد الخوف من عدو أو سيل أو وحش.

وأما صلاة الخوف التي وردت في أحاديث عديدة فهي ليست هنا حكمها، وهي هنا ركعة كما هي في السفر ركعتان، وفي الحضر أربعاً، وإذا لم يقدر لشدة الخوف على الركعة فليكبّر تكبيرتين وإلا فتكبيرة واحدة تجزئه. وأما مع زوال الخوف الطارئ فيرجع المسلمون إلى إتمام الأركان كلها ويشكرون الله تعالى تعليمه لهم ذلك حتى لا تفوتهم صلاة واحدة مهما كانت الحالة قاسية، وهذا كله مما يدل على معنى المحافظة على الصلوات والقنوت والخشوع والطاعة فيها.

وتعود السورة لذكر المتوفى عنها زوجها ومالها من وصية فتقول:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

مبينة أن المتوفى عنها زوجها كانت تلازم بيت المتوفى عنها لمدة سنة كاملة، ويُنفق عليها من ماله إلا إذا خرجت من المنزل وتزوجت وعندها للورثة قطع النفقة عنها، ثم نسخ الحول بالأربعة الأشهر والعشر، ونسخت النفقة بالربع والثمن في توزيع الميراث كما نسخت الوصية بالسكنى للزوجات في الحول.

ومع نهاية ذكر أحكام الطلاق تقول السورة في حكم عام:

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

فبين قائل إنها محكمة، والمتعة لكل مطلقة، كما مرّت الإشارة إليه، وبين قائل إنها منسوخة إذ لا متعة بعد الدخول وفرض المهر، ورأى الشافعي المهر مقابل الوطء والمتعة بسبب ابتذال العقد أي إنهاؤه. فهذا هو بيان أحكام الله تعالى في ذلك ليلتزمها المؤمنون العاقلون.

وقبل هذه الاستفاضة في الحديث عن النساء والحياة الزوجية، وما فيها من نكاح وطلاق وأولاد، وقفت السورة بسرعة مع فرض القتال في سبيل الله، وما يجوز منه في الشهر الحرام، والآن عادت لتهيئ لأمر المؤمنين بالجهاد بهذه القصة التي يدعو المولى سبحانه رسوله فيها إلى معرفة ما حصل مع أولئك القوم من بني إسرائيل الذين اجتاحهم الوباء فهربوا من قريتهم طلباً للنجاة فأماتهم الله تعالى، فمر بهم نبي فدعا تعالى فأحياهم ليكملوا بقية آجالهم بعد أن أماتهم عقوبة لهم وعبرة لهم ولغيرهم..

ويروى أنهم فروا من الجهاد، فسواء فرّوا من الموت بسب الوباء أو الجهاد فقد أراهم الله تعالى أن الموت بيده تعالى وليس في الهرب نجاة، فالمولى سبحانه قد نبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ومن بعده من البشر بأن الموت بيد الله، وأن لا حاجة للخوف من الجهاد في سبيل الله، وأما الخوف من الوباء، سواء كان طاعوناً وكوليرا أو غيرهما فلا يدخل الإنسان إلى مكان انتشارها، ولا يخرج منه من باب الحجر الصحي إلا بالتطعيم الواقي بعون الله تنفيذاً لأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»..

ومع نهاية هذه القصة تأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه بالقتال في سبيل الله وتعلمهم بأنه تعالى سامع لما يقولون وعليم بما يضمرون فلا يكونوا مثل أولئك القوم، ولذلك نجد السورة تقول:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾.

ثم تدعو السورة المؤمنين للإنفاق في سبيل الله فتقول:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

محرضة على هذا الإنفاق في القتال كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راض»، وكما فعل أبو الدحداح رضي الله عنه في التبرع بإحدى حديقتيه اللتين لا يملك غيرهما وفيها ست مئة نخلة حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذاً يجزيك الله به الجنة»، مما يجعل الآية تحث على الصدقة وإنفاق المال في الحرب والسلم على المجهود الحربي وعلى الفقراء والمحتاجين، في آن واحد، ولكن الفرق بين الأمرين عظيم إذ ما كان منها في سبيل الله في القتال لأجره أعظم بكثير من تلك لأهميتها لنصرة الاسلام والمسلمين حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم: «النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبع مئة ضعف وأكثر» وكما تشير الآيات فيما بعد ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] و﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ﴾ دون حدود.

وأما بالنسبة للقرض، وهو ما يجب رده بمثله في موعده، فثوابه عظيم أيضاً «ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة» ـ عن ابن مسعود ـ، ويرده بمثله وإن جاز أن يرده بأفضل منه إذا لم يشترط ذلك «إن خياركم أحسنكم قضاء» ـ رواه البخاري ومسلم وغيرهما ـ، ولكن لا يجوز إهداء المقرض هدية إلا أن يكون ذلك عادة بينهما من قبل.

وتعود السورة وتضرب مثلاً آخر في التحريض على القتال بإيراد قصة أخرى جرت في بني إسرائيل فتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ

وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ
بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ
وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ
وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ
ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ
مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ
﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ
مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ
فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ
ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ
ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا
صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ
ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ
فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ
ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا
جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾.

مبينة أن أشراف بني إسرائيل قد طلبوا من نبيهم (شمعون) بعد ما نالهم من الذلة وغلبة العدو أن يؤذن لهم بالجهاد، ويؤمروا به، ولكنهم عندما أمروا به تراجع أكثرهم وصبر القليل منهم فنصرهم الله، وأن الله تعالى قد أماتهم ثم أحياهم، كما ذكر في آية سابقة، وهذا تنبيه للنبي عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين معه ألا يكونوا مثلهم فيهربوا من القتال عندما يفرض عليهم، وتفصيل القصة ينبه المسلمين ويحذرهم من تفاصيل قد

يواجهونها في حياتهم مع أمرائهم في السلم والحرب إذ تقول: انظروا ماذا فعلوا عندما استجاب لهم الله تعالى طلب ودعاء نبيهم فبعث لهم طالوت ليكون ملكاً عليهم..

لقد احتجوا على ذلك ورأوا أنه ليس أهلاً للملك عليهم لأنه لم يكن من سبط النبوة ولا سبط الملك ولا مال له، فأفهمهم نبيهم أن تلك مشيئة الله وحكمه واختياره، وقد منحه المزيد من العلم والفهم للأمور والقوة والضخامة في الجسم للتصدي للقتال، فليس لهم الاحتجاج على ذلك ورفضه..

وأكد لهم صدق قوله بعلامة ضربها لهم نبيهم بأن التابوت الذي ورثه يعقوب عليه السلام ممن قبله في بني إسرائيل والذي أخذه العمالقة منهم لعصيانهم لله، هذا التابوت سيأتيهم مرسلاً من العمالقة بعد أن حل بهم ما حل من المصائب لاحتفاظهم به..

وبالفعل جاءهم فدبّت الطمأنينة والثقة في نفوسهم وقد رأوا ما احتواه من عصا موسى ورضاض الألواح وثياب كل من موسى وهارون عليهما السلام، فاندفع طالوت بالجند نحو جالوت وجنوده، ونبههم أن نهراً سيلقاهم في الطريق يقال إنه نهر الأردن، وطلب منهم ألا يرتووا منه وإنما هي مجرد بلعة من الماء تذهب شدة العطش، ولكنهم في أكثرهم شربوا حتى ارتووا، فقل جنده كثيراً بعد أن فصل من شربوا وبعد أن تقاعس الأكثرون من الخوف من جالوت وجنوده الذين يفوقونهم أضعافاً مضاعفة، ولكن الأقلية المؤمنة المطمئنة بنصر الله نصروا بعد أن ثبتوا ووقفوا في وجه جالوت وجنوده ودعوا الله بصدق وإخلاص النصر، وقتل داود بعون الله وإتقانه للرمي بالمقلاع جالوت بحجر قذفه به فتشتت جنده بعد مقتله وانتصرت الفئة المؤمنة القليلة بإذن الله وتأييده، وآل الملك كله لداود مع النبوة سوياً، فتحقق بنصر الله لهم ذلك لتقول القصة للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وصحبه ومن خلفهم أنه لولا هذا الدفع المحقق من الله للناس إذ يدفع بعضهم بعضاً لعمّ الفساد في الأرض..

فذكر المولى سبحانه لهم أنه لا يترك عباده في عهد من العهود دون وجود أولئك الأبدال الذين يعدون أربعين رجلاً كلما مات واحد بدل الله آخر حتى يوم القيامة، وهم في بلاد الشام، كما روي عن الإمام علي رضي الله عنه، والذين لايفضلون الناس بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بحسن الخلق وصدق الورع وحسن النية وسلامة القلوب وإخلاص النصيحة، فهم خلفاء الأنبياء ولهم دور إحياء الثبات على الحق والسير عليه، ولذلك لولا دفع الله العدو بجنود الصدق والإيمان لانتصر المشركون وقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد، فلا بد من الدفع بما شرع الله

على ألسنة رسله من الشرائع والتي نسخت بشريعة الاسلام فألزم الخلق كلهم بها ليتحقق لهم النصر على المشركين وإلا أصبحوا نهباً لهم.

وتنتهي القصة ليقول سبحانه وتعالى لرسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن هذه هي أخباره تعالى الحق إليه، وأنه هو من المرسلين لأن مثل هذه الآيات لا يعلمها إلا نبي مرسل..

ثم يقول سبحانه لرسوله بأنه قد فضل الرسل بعضهم على بعض لا من جهة النبوة لأن الكل أنبياء وإنما من جهة الخصال والأحوال التي خُصَّ بها بعضهم على بعض، فمنهم رسل أولوا عزم، ومنهم من اتُّخِذَ خليلاً، ومنهم من كلّم الله، ورفع بعضهم درجات ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]، وها هي بينات عيسى، وها هو الكليم موسى، وها هو وها هو..، وأن ذلك كله لم يمنع من اقتتال أقوام أولئك الرسل فيما بينهم بسبب اختلافهم بين كافر ومؤمن، وبسبب حسدهم لبعضهم البعض وركضهم وراء حطام الدنيا، وما ذلك إلا نتيجة قضاء الله وقدره عندما فطرهم على الخير والشر ككل البشر﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨].

ولو شاء الله بقضائه وقدره أن يبعدهم عن ذلك فيجعلهم للخير كالملائكة لجعلهم ولكن لا رادَّ لقضائه سبحانه وقدره..

فانظروا يا مسلمون إلى ما أنتم فاعلون مع إسلامكم وأمتكم وقد فرطتم به وتركتم البلاد والعباد نهباً لأراذل البشر وعتاة المشركين والمنافقين!!

ثم تعود السورة وتستأنف الحديث عن الإنفاق فتقول بعد أن هيأت النفوس للتضحية بالمال والنفس:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

سواء كان الإنفاق في الزكاة المفروضة أو فيها وفي التطوع فهو يشملهما ويشمل الإنفاق في سبيل الله في الجهاد بشكل خاص، كيف لا وقد سبق ذلك ذكر القتال وأن الله تعالى يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين، وبحسب تعين الجهاد من فرض عين إلى فرض كفاية يتعين الإنفاق فيه بين واجب ومندوب.

وهكذا فقد دعا سبحانه وتعالى عباده من المؤمنين للإنفاق مما رزقهم وأنعم عليهم قبل أن يوافي أحدهم الأجل ويحين الحساب وهناك لاتكليف ولابيع ولاصداقة

ولاشفاعة، إنه لا معاملة يجري فيها كسب المثوبة، وعندها يقع من كفر بنعمة الله ولم يخرج حقها في الظلم لنفسه إذ ضيع عليها مثوبة ذلك.

وفي هذا الجو من الدعوة إلى الإنفاق في طاعة الله بأنواعها والجهاد والقتال في سبيله تعالى في رأسها، وقبل مواصلة ذكر ما يترتب على القتال في سبيل الله، تأتي آية الكرسي التي تقول:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾.

هذه الآية التي تعتبر سيدة آي القرآن وأعظم آياته، والتي نزلت ليلاً فخرت كل أصنام الدنيا وسقطت تيجان الملوك عن رؤوسهم، وهربت الشياطين يضرب بعضهم بعضاً ليجدوا السبب في نزول آية الكرسي، والتي قال الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام من أجل العلم بمكانتها لأبيّ بن كعب «ليهنك العلم يا أبا المنذر» ـ رواه الأئمة ـ. .

والتي تسمى الحارسة لمن قرأها حتى كان عبد الرحمن بن عوف يقرأها في زوايا بيته الأربع إذا دخله يلتمس حراستها وطرد الشياطين منه، والتي يروى أن عمر رضي الله عنه قد صرع جنياً فطلب الجني منه أن يخلي سبيله مقابل أن يعلمه ما يمنع البشر من الجن فأخبره فقال: إنكم تمتنعون منا بآية الكرسي. .

والتي يروي علي رضي الله عنه أنه سمع الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام يقول عنها وهو على المنبر «من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت، ولا يواظب عليها إلا صدّيق أو عابد، ومن قرأها إذا أخذ مضجعه آمنه الله على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله». .

والتي تعد خمسين كلمة، في كل منها بركة، والتي تعدل ثلث القرآن في ثوابها لما تشتمل عليه من التوحيد والصفات العلى، والتي قال عنها ابن عباس: أشرف آية في القرآن آية الكرسي. .

والتي يتكرر فيها اسم الله تعالى بين مضمر وظاهر ثماني عشرة مرة، والتي تبدأ باسم الخالق المدبر الله جل وعز لتنبه القارئ إلى الإخبار عنه فتخبر بأنه المعبود بحق بين كل معبودات الأرض الباطلة، وأنه سبحانه الحي القيوم، هذا الاسم الذي قيل إنه

الاسم الأعظم بين أسماء الله الحسنى، ومعناه أنه سبحانه الحي الباقي الذي يحيي كل حي، والقيوم أي القائم بتدبير من وما خلق والقائم على كل نفس بما كسبت ليجازيها بعملها إذ لا يخفى عليه شيء منها فهو لا يحول ولا يزول، كما قال ابن عباس، وهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، فلا نعاس يلحقه ولا نوم بل يدبر خلقه دون تحديد بزمان ولا يلحقه أي فتور كما يعتري الإنسان ولا يدركه خلل ولا يلحقه ملل في كل حال وهو سبحانه مالك كل ما في السموات والأرض ورب كل شيء ومدبره بما وضع من نظم كونية وبشرية، ولا يملك أحد الشفاعة لأحد إلا بإذنه تعالى..

هذا وقد أعطى سبحانه وتعالى الشفاعة للأنبياء والعلماء والمجاهدين والملائكة وغيرهم ممن شرفهم الله بكرمه، وهم لا يشفعون لأحد إلا لمن ارتضاه سبحانه، والشفاعة كما تصيب المؤمنين فيمن لم يصل إلى النار منهم تصيب من وصل إليها ودخلها..

وهو سبحانه يحيط علماً بكل أعمال المخلوقات في الدنيا وفي الآخرة فيحاسبهم عليها، وأما المخلوقات العالمة فإنهم لا يعلمون شيئاً من علمه إلا ما يعلمهم هو سبحانه، وعلمه وقدرته المكنى عنهما بالكرسي يحيطان بالسموات والأرض وما فيهما..

وهو سبحانه لا يعجزه ولا يثقل عليه فيهما شيء فهو سبحانه الحافظ لهما بقاء وسيراً إلى ماشاء هو سبحانه، كيف لا وهو العلي بقدره ومنزلته فلا يشبه في ذلك شيئاً من خلقه، والعظيم بذاته لا بالنسبة لغيره.

وبعدها تواصل السورة ذكر القتال وأثره الإيماني فتقول:

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾.

فسواء نزلت هذه الآية عامة وعندها فقد نسختها آية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]، أو نزلت خاصة في أهل الكتاب فلا يكرهون على الإيمان إذا دفعوا الجزية كأهل ذمة، أو نزلت في الأنصار عندما منعوا من إكراه أولادهم الذين تهودوا أن يعودوا للإسلام، أو في غير ذلك فلا يكره أحد على اعتناق الاسلام عند الفتوحات للبلاد غير الإسلامية، وبقيت ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَۖ﴾ [الفتح: ١٦] مخصصة لها

بالعرب بينما هي بقيت عامة في كل ما هو ليس بعربي وثني ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم «لايجتمع في هذه الجزيرة دينان»، فلا وثنية في جزيرة العرب ولا دين غير دين الاسلام، وأما في غيرها فلا إكراه لأحد على ترك دينه، مهما كان نوعه، ما دفع الجزية.

ثم أعلمهم سبحانه أن من يكفر بكل عبادة لغير الله، ومعبود غير الله، المعبر عنه بالطاغوت، ويؤمن بالله تعالى وحده الخالق المدبر فقد صار على الإيمان السليم والدين القويم الذي لا يتغير ولا يتبدل وهو في إيمانه ملتزم بالقول والعمل، والله تعالى سميع لكل ما يصدر عنه من نطق وعليم بكل ما يضمره من معتقد، وأنه سبحانه ناصر عباده المؤمنين الذين يجدون في هداه الخروج من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والإيمان بينما تجد الكفار يوالون الطاغوت الذي يخرجهم من نور العقل واليقين إلى الجهل بالحق المبين فيزجهم في النار والخلود فيها، وشتان بين الفريقين!!

وقبل استئناف الحديث عن الإنفاق في سبيل الله دعا سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لمعرفة ما حصل مع إبراهيم عليه السلام من حجاج أولاً مع النمرود بن كوش الذي حاجه في ربه، زاعماً لنفسه الإحياء والإماتة، فتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

مؤكدة عجز هذا الملك الطاغية عن أن يحيي ويميت ولو مجازاً لأن الحياة والموت حقيقة شيء غير المجاز والتلاعب على الألفاظ فيهما، ويكفي النمرود عبرة ما انتهت إليه النار التي ألقى فيها إبراهيم لتعود عليه برداً وسلاماً، وما انتهت إليه حياته مع البعوضة التي دخلت في أنفه حتى لم يجد معها متعة في أكثر من الضرب بالنعال على رأسه، متذوقاً الذل والهوان التي تليق بكل طاغية طيلة أربعين يوماً بقية عمره، يكفيانه عبرة ليتوقف عن هذا الطغيان والتجبر والادعاء للألوهية والربوبية، ولم يكن بحاجة لأن يحجه إبراهيم بدعوته لإتيان الشمس من المغرب بدلاً من المشرق كما يأتي بها الله تعالى وبالتالي عجزه وفشله في ذلك، كيف لا وهو الظالم لنفسه وغيره ولن يجد من الله أي عون وإرشاد وهداية..

ثم ما حصل معه عليه السلام ثانياً من طلب من ربه ليريه كيف يحيى الموتى،

وبين الأمرين أوردت السورة قصة أخرى لتأكيد أن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى وحده فقالت:

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾.

مبينة أن هذا الذي مرَّ على قرية، وقال ما قال، يشبه ذلك المنكر بأن الإحياء والإماتة لله وحده، فهذا هو (عُزير) الذي مرّ على بيت المقدس بعد أن خربها بختنصر البابلي، ملك العراق، أو واليها عن كسرى فارس، فاستولى عليه العجب لما رأى فيها من دمار فتساءل عن إمكانية إعادتها للحياة بإحياء سكانها وإعمار بنيانها وهو يستعظم قدرة من يفعل ذلك..

فماذا حصل؟ لقد أماته الله مئة عام ثم أحياه، فسئل عن مدة موته، فقال حسب ظنه بأنها يوماً أو بعض يوم، فقيل له بأنه قد لبث في الموت مئة عام، وطلب منه أن يأخذ الدليل القاطع على قدرة من أماته ومن أحياه، وهو الله وحده، من النظر إلى طعامه وشرابه التي كانت معه والتي لم تتغير ولم تتعفن بل ما زالت على طراوتها وجدتها، كما دعي إلى النظر إلى حماره الذي كان قد استحال إلى كومة من العظام، وأن في إحيائه وإحياء حماره المعجزة الدالة على قدرة الله على الإماتة والإحياء، كما طلب منه النظر إلى العظام سواء كانت عظامه هو وقد عادت الحياة إليه من رأسه أولاً فأخذ يرى عظامه الباقية وهي تُكسى لحماً أو كانت عظام حماره أيضاً عندما أخذت تكسى باللحم وتعود إلى الحياة رويداً رويداً حتى قال وقد تحقق بالعين من قدرة الله بأنه يعلم بأن الله قادر على ذلك وعلى كل شيء.

وهنا نعود مع السورة فتحدثنا عما حصل مع إبراهيم عليه السلام وهو يطلب العلم العيني من الله في الإحياء فتقول:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ
فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ
وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ .

ها هو إبراهيم يطلب المعاينة لاستشراف نفسه في رؤية ما أخبر به من قدرة الله على إحياء الموتى لا شكاً وإنما لمشاهدة الكيفية فيحصل لديه اطمئنان القلب بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً والمعلوم عياناً . .

وهنا دعاه المولى سبحانه معلماً لخلقه كيف أن الحجة تكون قاطعة عندما تبنى على الدليل المحسوس الملموس، وهذا هو شأن جميع جوانب الإيمان في الإسلام . .

دعاه سبحانه ليرى الدليل بعينه بأن يأخذ أربعة من الطير هي الديك والطاووس والحمام والغراب، ويذبحها تذكية، ويقطعها قطعاً، ويخلط قطعها خلطاً تاماً، ثم يضع كل مجموعة من القطع المخلوطة فوق جبل من جبال أربعة متجاورة ويبقي معه رؤوسهن ثم يدعهن ليرى كيف تعود لهن الحياة، فكان، فرأى تجمع القطع المتناسبة من بين المخلوطة ولحاق كل مجموعة بالرأس الذي يحمله . .

وهنا قال له سبحانه بأن عليه أن يعلم أن شيئاً من ذلك لا يمتنع عن الله القادر على كل شيء والحكيم في تدبيره وخلقه لكل شيء .

والآن جاء عود السورة إلى فيض من الحديث عن الإنفاق بجميع أشكاله بدءاً من سبيل الله وماله من أجر عظيم فتقول :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ
حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا
يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾
۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا
مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ

فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ
فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ
وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ
وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن
يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ
أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن
تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم
مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن
يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ
يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ
لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

وقبل استكمال جوانب الإنفاق الأخرى في الحديث عن الربا والدين والرهن التي تأتي مع نهاية السورة تقف مع هذه الجوانب من الإنفاق التي بدأت معه في سبيل الله بعد أن أوردت البراهين القصصية، وحثت على الجهاد، وبينت ما لمن جاهد من الثواب العظيم، فقد جاءت هنا لتحرض على الإنفاق في الجهاد وتقول للمنفق أن نفقته مثل حبة أنبتت سبع سنابل وفي كل سنبلة مئة حبة مما يعطيه بكل صدقة سبع مئة حسنة، وليس هذا فقط بل ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ على السبع مئة ولاسيما إذا كان لا يتبع نفقته بالمنّ والأذى وإنما يجعلها خالصة لوجه الله تعالى، وعندها يجزل المولى الكريم ثوابه ويحقق له الأمن والطمأنينة في دنياه وآخرته.

ولابد للمنفق على محتاج آخر أن يتجنب المنّ والأذى ويحرص إذا لم يستطع

الصدقة أو كانت قليلة على الكلمة الطيبة مع المحتاج من دعاء وتأنيس ورجاء بما عند الله فذلك خير عند الله من الصدقة مهما كانت كثيرة ولكنها مصحوبة بالأذى ليعلم أن الله تعالى غني عن صدقته لعبده وإنما هو لثوابه هو، وأنه حليم به لأذاه في الصدقة فليتق الله فيها لينال جزيل ثوابها، وليعلم أن ثوابها سيضيع مع المنّ والأذى، لأنه سيكون كمن ينفق رياء وسمعة وليس إخلاصاً لله، ويكون بذلك كالصخر الأملس الذي جاءه المطر الغزير فاكتسح ما عليه من تراب فأصبح لا نماء عليه، فكان لا يتحقق له أيّ ثواب من نفقته، وشتّان بين هؤلاء وبين من ينفق ابتغاء وجه الله وطلباً لرضاه واطمئناناً لما عنده تعالى من مثوبة فإنه يشبه التلة الخصبة وعليها بستان يتضاعف ثماره بالمطر الغزير، أو القليل..

وليعلم المنفق المؤمن أن ذلك المرائي في نفقته يشبه في الحقيقة ذاك الرجل الذي تقدمت به السن وله بستان وأطفال صغار فنزل بها إعصار مصحوب بالنار فاحترقت في وقت هو بأمس الحاجة إليها، أو يشبه حال الرجل الغني الذي قضى عمره المديد يعمل في طاعة الله ولكنه استجاب للشيطان عند كبره فأحرق عمله الذي يحتاجه أيما حاجة مع وجود الأطفال الصغار العاجزين عن جلب النفع لأبيهم.

إلّا أنه في مثل هذه الأمثال يستثير المولى سبحانه تفكير البشر في زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها.. الأمر الذي يستدعي من المؤمنين الإنفاق، والإنفاق المخصوص من أحسن ما جنوه في أعمالهم، وحصلوه من انتاج الأرض، ولا يعمدون إلى شيء وضيع مما لديهم لينفقوا منه وهم لا يقبلونه لأنفسهم لو أعطي إليهم بسبب من الأسباب..

وأن عليهم أن يعلموا ألا حاجة لله تعالى في صدقاتهم، فمن قدم منها شيئاً إنما قدمه لنفسه..

كما ليعلموا أن ترددهم في الإنفاق ما هو إلا نتيجة لتخويف الشيطان لهم بالفقر ليبخلوا عن الخير لأنفسهم وينسوا ما يعدهم به ربُّهم من المغفرة والرزق الواسع في الدنيا والنعيم في الآخرة، وليذكروا أن في الاستجابة لدعوة ربهم للإنفاق الحكمة والتصرف السليم والخير العميم والفضل الكثير في الدنيا والآخرة مما يعلمه أصحاب العقول السليمة.

وهذا الإنفاق بأشكاله مما يفعله المرء متبرعاً، وأما ما يفعله بإلزام نفسه بنذر فهو إنفاق من نوع آخر ولكنه يحتاج أيضاً النية الخالصة، ولذلك على المنفق أن يعلم ذلك

مدركاً أن الله تعالى يحيط علماً بذلك كله ليحرص على أن يجعله لوجهه الكريم ولا يوقع نفسه بالبخل فيظلم نفسه وغيره فتضيع عليه مثوبة ذلك.

وليذكر أنه سواء أظهر الصدقة، لما في ذلك من خير التشجيع عليها للآخرين، أو أخفاها، ولا سيما مع تقديمها للفقراء، أن في الأمرين خيراً كثيراً. والمهم صدق النية وتجنب الرياء، فيتحقق من ذلك الخير من جهة والتكفير عن السيئات من جهة أخرى، كيف لا والكل في إطار وعده تعالى ووعيده.

وتواصل السورة الحث على الإنفاق ولكن هذه المرة بإباحة الصدقة على فقراء أهل الذمة، وبالذات صدقة التطوع لأن صدقة الفرض حصرتها الآية الأخرى في أبوابها الثمانية ولا يعطى منها لغير المسلمين لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم». .

فالسورة تنبه كل مسلم أنه غير مسؤول عن دخول الذمي في الإسلام بأكثر من الدعوة والحث، وألا يبخل في الإنفاق عليه من صدقة التطوع، ومنها زكاة الفطر كما يرى أبو حنيفة رضي الله عنه، ابتغاء رضوان الله تعالى الذي لا يظلمكم بل يرده عليكم بأفضل مما قدمتم.

ومع آخر مشوار السورة في الدعوة إلى الإنفاق الخالص لوجه الله تذكر نوعية أُخرى من الفقراء الذين يجب التنبه لإعطائهم، ألا وهم فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ممن كانوا يطلق عليهم أهل الصفة، وكانوا قرابة أربع مئة رجل ممن لم يكن لهم مال ولا أهل في المدينة. فبنيت لهم صُفَّة في مسجد الرسول عليه وآله وصحبه السلام فقيل لهم أهل الصُّفَّة، وهم الذين كانوا ينامون في المسجد بعد أن يتناولوا عشاءهم مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام، فهؤلاء وأمثالهم ممن حبسهم الجهاد عن التصرف في معايشهم، ويظهر عليهم من ترك المسألة كأنهم أغنياء، وإن كانت صفرة ألوانهم تدل عليهم، فقد أمر الله تعالى بإعطائهم دون حرج، وإذا سأل أحدهم فلا يسأل إلا الصالحين، وإن جاءه شيء دون سؤال فله أن يقبله ولا يرده عملاً بحديثه عليه وآله وصحبه السلام «إذا أعطيت شيئاً من غير أن تسأل فكُلْ وتصدّق».

هذا من جهة، ومن جهة أخرى تذكر السورة نوعية أخيرة من الإنفاق ألا وهي فيما يسمونه بالمجهود الحربي بما كان من الإنفاق على علف الخيل المربوطة في سبيل الله للجهاد مما يشمل اليوم كل آلة الحرب مما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يحث على ذلك بقوله «المنفق على الخيل كباسط يده بالصدقة لا يقبضها، وأبوالها وأرواثها يوم القيامة كذكيّ المسك» عند الله تعالى.. فمن ينفق في ذلك في السر

والعلانية له الثواب العظيم عند الله وله الطمأنينة والمسرة في الدنيا والآخرة بما يسهم فيه من نصرة الإسلام والمسلمين.

وبعد هذا الحديث المستفيض عن أوجه الإنفاق، والتحريض عليها، تنتقل السورة لجانب آخر من التعامل المالي ألا وهو الربا فتقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ
قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا
سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ
وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ (٢٧٧) يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو
عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٢٨٠) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا
تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ (٢٨١)﴾.

فتبين بهذه الآيات أحكام الربا وجواز عقود المبايعات والوعيد لمن استحل الربا وأقام عليه، فالذي يتعامل بالربا يعاقب يوم القيامة بالبعث كالمجنون لأنه ادعى أن الربا كالبيع وشتّان بين الربا الذي ينمي فيه المال نفسه وبين البيع الذي ينمو فيه المال بالمعاملة، فهناك لا خسارة وهنا ربح وخسارة.

وقد حدد الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام إمكانية وقوع الربا في اثنين من المعادن هما الذهب والفضة، واثنين من الحبوب هما البرُّ والشعير، واثنين أحدهما حلو هو التمر والآخر مالح هو الملح فقال: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُرّ بالبرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء»، رواه الأئمة واللفظ لمسلم عن أبي سعيد الخدري، وفي حديث عُبادة بن الصامت «فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد»، وروى الأئمة واللفظ للدارقطني عن علي رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الدينار بالدينار والدرهم بالدرهم لا فضل بينهما، من كانت له حاجة بورق فليصرفها بذهب وإن كانت له حاجة بذهب فليصرفها بورق هاء وهاء» أي

يداً بيد. ولا يجوز التفاوت في هذه الأصناف مهما اختلفت نوعيتها، فالذهب بالتبر مثلاً بمثل يداً بيد، والتمر الجيد وغير الجيد مثلاً بمثل يداً بيد، ولكن يجوز دفع زيادة ما يسمونه اليوم بالمصنعية أي مقابل صناعته وتحويله من شكل إلى شكل.

والخلاف بين العلماء والأئمة في مسائل الربا تابع لعلة الربا التي يختلفون فيها، فأبو حنيفة يراها كونه مكيلاً أو موزوناً، فكل ما يدخله الكيل أو الوزن عنده من جنس واحد لا يجوز بيعه متفاضلاً أو نسيئة ما دام بعضه ببعض، وأما الشافعي فيراها في كونه مطعوماً (في الجديد) ومكيلاً أو موزوناً كأبي حنيفة (في القديم)، وأما المالكية فيرونها في كونه مقتاتاً مدخراً كالحنطة والأرز والفول واللحوم والزيوت والزيتون.

وعقوبة المرابي أن يبعث كالمجنون تحقيقاً عند جمع أهل المحشر يوم القيامة ما دام كافراً بالتحريم مستحلاً له ومساوياً له بالبيع ذلك أنهم كانوا لا يعرفون من الربا إلا إذا كان أجل الدين قالوا للغريم: إما أن تقضي وإما أن تربي، أي تزيد في الدين، فقال لهم تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾.

وأما من لم يستطع السداد للعسر فينظر لليسر، ذلك لأن البيع دفع عوض وأخذ معوض أي مقابل، فإن كان في مقابلة الرقبة أخذ معنى البيع، وإن كان في مقابلة منفعة رقبة سمي نكاحاً إن كانت منفعة بُضع، وسمي إجارة إن كانت منفعة غيره، وإن كان عيناً بعين سمي بيع النقد وهو الصرف، وإن كان عيناً بدين مؤجل فهو السَّلم.

ولما كان عقد الربا مفسوخاً بكل حال فيجب رد السلعة بعينها إلا إذا تلفت في يده فيجب أن يرد القيمة فيما له قيمة، كالعقار والعروض والحيوان، ويرد المثل فيما له مثل من موزون أو مكيل.

وقال جعفر الصادق بن محمد الباقر رضي الله عنهما: حرم الله الربا ليتقارض الناس، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «قرض مرتين يعدل صدقة مرة» ـ أخرجه البزار عن ابن مسعود.

والله تعالى يذهب بركة معاملة الربا مهما كثر ولا سيما في الآخرة إذ لا يقبل من صاحبه صدقة ولا حجاً ولا جهاداً ولا صلة كما قال ابن عباس رضي الله عنه، بينما تنمو بركة البيع في الدنيا والآخرة. وعندما نزلت آية تحريم الربا هذه فسخت عقوده القائمة ومنع قيام غيرها.

وأما بالنسبة لعقوبة من يقدم على ذلك فهي الحرب والقتل إن كان مستحلاً وبالاستتابة أولاً إن كان غير ذلك ثم يعاقب إن عاد بالقتل أو بالتعزير كما يرى الإمام إن

لم يعد. واعتبر الاسلام الربا ومعاملته من الكبائر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الربا تسعة وتسعون باباً أدناها كإتيان الرجل أمه». ـ رواية الدارقطني ـ.

وليس للتائب عنه إلا رأس ماله دون ربا، وأما إذا كان معسراً ولم يستطع المستدين دفع الدين في رأس المال فقط فلا بد للتائب أن ينظره ويمهله إلى الوقت الذي يتوفر لديه اللهم إلا من أحاطت به الديون فأفلس فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضروراته ويوزعه على الغرماء بنسب أموالهم إذ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك». وللإمام أن يحبس هذا المفلس حتى يظهر حقيقة إفلاسه وعُدمه، فقد يكون محتالاً، وإن كان قد ندبت الآية إلى الصدقة على المعسر بالإنظار ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْۖ﴾ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله» وإن في ذلك تقوى الله والرجاء بمثوبته وعفوه يوم القيامة.

ثم تنقلنا السورة إلى الجانب الآخر الثاني من التعامل المالي قبل النقلة إلى نهايتها ألا وهو الدين فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾.

متناولة جميع المداينات في ثلاثين حكماً منها الإشهاد إذا كان ديناً مؤجلاً مما يدل على جواز تأجيل الدين أو وقوع امتناعه، ذلك أن الدين معاملة نقد بنسيئة «إلى أجل مسمى»، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «من أسلف في تمر فليسلف في

كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ـ.

وأما بيع السَّلَم فهو بيع معلوم في الذمة (محدد بالصفة)، بنقد أو ما في حكمه، إلى أجل معلوم. والسلم والسلف بمعنى واحد، وقد سماه الفقهاء بيع المحاويج لحاجة كل من العوضين للعوض الآخر، وشروطه تسعة، ستة منها في السلعة وثلاثة في رأس المال، أما الستة فهي: أن تكون السلعة في الذمة، وموصوفة، ومقدّرة، ومؤجلة، ومعلومة الأجل، وتوجد عند محل الأجل، وأما الثلاثة فهي: أن يكون رأس المال معلوم الجنس، ومقدراً، ونقداً. هذا وليس من شرط السلم إذن أن تكون السلعة مملوكة عند العقد، وإذا لم يستطع الوفاء عند حلول الأجل فلا يجوز تسليم سلعة بديلة لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «من أسلف في شيء فلا يصرفه إلى غيره» ـ رواه أبو سعيد الخدري ـ.

والأمر بالكتابة ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ يقصد بها الدين والأجل معاً بما فيها الإشهاد، وذلك بقصد عدم النسيان وضياع الحقوق، وهو أمر على الندب لا الوجوب، والواجب أن يكتب الكاتب المدعو لذلك إذا لم يوجد سواه، وأن تكون الكتابة بالعدل والحق لازيادة ولا نقصان، ولكن ينتفي الوجوب عن الكاتب إذا وجد غيره أو لم يتعين بذاته مما يجيز الاستئجار على الكتابة، ويجعل الأمر للإرشاد لا للوجوب.

والمهم أن يملي الكتابة المديون المُقِرُّ على نفسه بالدين إلا إذا كان سفيهاً من صغر أو خلل في الإدراك، أو كان ضعيفاً لقصور في عقله، أو كان لايستطيع أن يملي لعدم درايته في العقود أو لخرسه، وعندها على وليه أن يملي بدلاً منه بالعدل والحق، مما يدل على أن من عليه الحق أو وليه مؤتمن فيما يورده ويصدره، كما أن فيه دليلاً على جواز إقرار الولي على يتيمه، ولكن تصرّف السفيه المحجور عليه دون إذن وليه فاسد مفسوخ لا أثر له.

وأما الإشهاد فهو أيضاً على الندب، وقوامه شاهدان من الرجال المسلمين في جميع الحقوق المالية والبدنية والحدود إلا في الزنا، وإذا تعذر وجود الرجلين فيكفي في الشهادة رجل وامرأتان، وإن جازت شهادة النساء فقط فيما لا يطّلع عليه أحد غيرهن، كما جازت شهادة الصبيان في الجراح فيما بينهم أيضاً.

كما يجوز القضاء باليمين مع الشاهد كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام ورواه أبو داود عن ابن عباس، كما أن هناك من الشهود من لا يرضى عن شهادته فلا بد أن يكون ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لجرح في العدالة بسبب من الأسباب، مما يستدعي

ملاحظة أن العدالة في المسلم صفة إضافية على كونه مسلماً إذ لا يقتضي كونه مسلماً أن يكون عدلاً، والعدل يجتنب الكبائر ويحافظ على مروءته وترك الصغائر ومعروف بالأمانة والوعي على الأمور، وهذه قد تجتمع في المسلم كلها أو بعضها.

ومن ناحية أخرى حتى يتحقق في الشاهد العدالة والرضا لابد من الاجتهاد والاستدلال على ذلك بالأمارات والعلامات، وتحقق ذلك في النكاح أولى من الأموال لما يتصل بذلك من الحل والحرمة والحد والنسب..

ومن ناحية العلة في استشهاد امرأتين بدلاً من الرجل ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي أن تنسى بدليل ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تبعاً لكثرة متاعبها بالحمل وشجونه والوضع وشؤونه والحياة الزوجية ومشاكلها، فكيف إذا أضيف إلى ذلك شؤون خارج البيت بالعمل ومتاعبه. ومن ناحية إلزام الشهود بأداء الشهادة حفظاً للحقوق فقد استدل منه على جواز أن ينصب الإمام شهوداً كموظفين مأجورين لذلك، فتجب الشهادة أداء عند الدعاء إليها وتندب عند عدم الدعاء لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادة قبل أن يسألها» ـ رواه الأئمة، وذلك إذا كان عنده شهادة يؤدي عدم الإتيان بها إلى ضياع الحقوق، وأما غير ذلك فمندوب لعدم الإتيان بها.

وقد ندبت الآية الكتابة للدين مهما قلّ أو كثر لأن ذلك أعدل عند الله وأحفظ للشهادة وأقرب لنفي الشك في المعاملة اللهم إلا إذا كانت المعاملة تخص تجارة البيع والشراء العاديين في الحياة اليومية. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ فتستثنى من الندب للكتابة إذ يكفي فيها دفع الثمن وأخذ السلعة المقابلة لأن التنازع في ذلك معدوم إلى حد بعيد إن لم يكن كلياً، كما أنه قد ندب حتى في كل معاملة بيع إلى الشهادة وذلك على سبيل الإرشاد، لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام باع ولم يشهد، واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد مما يدل على الندب لا الوجوب. هذا وقد جعل الإشهاد كله للطمأنينة كالكتابة تماماً مثل الرهن، والرهن مشروع للندب للطمأنينة أيضاً لا للوجوب.

وأما ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فلا يكتب الكاتب إلا ما يملى عليه، ولا يزيد الشاهد في شهادته ولا ينقص منها،كما لا يتسبب لهما في دعوتهما للكتابة والشهادة بالضرر لأيِّ سبب من الأسباب كالانشغال في أمور تضرهما في معاشهما، فأيُّ ضرر من ذلك يعتبر خروج عن طاعة الله الواجب الخوف منه والتزام أمره وتجنب نهيه وفقاً لما بيّن لكم ووضح وهو سبحانه المحيط بعلمه بكل أعمالكم ومقاصدكم فاحذروه.

وأخيراً تنقلنا السورة إلى المعاملة المالية الثالثة والأخيرة قبل الاقتراب من نهايتها، ألا وهي الرهن فتقول:

﴿۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

فبعد أن بيّنت السورة ما ندب إليه المتعاملون في المجال المالي من الإشهاد والكتابة لحفظ الحقوق، وأوردت الأعذار المانعة من الكتابة، ذكرت الرهن وبالذات في حال السفر أو في الغزو أو طلب العيش والذي يصعب أو قد يتعذر معه وجود الكتبة مع الخوف من الغرماء وفساد ذممهم.

والرهن ثابت في الحضر بسنة الرسول عليه وآله وصحبه السلام كما هو ثابت بهذا النص في السفر، والرسول عليه وآله وصحبه السلام توفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير لأهله. ولذلك جاءت الآية بالإشارة لصعوبة توفر الكتاب ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا﴾ في السفر، وفي الغزو أكثر، كعذر لطلب الرهن حفظاً للحقوق.

والرهن يعني حبس العين ليستوفى الحق من ثمنها أو ثمن منافعها إذا تعذر أخذه من الغريم، والمهم لابد من قبض الرهن ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ﴾، ولا يكفي الرهن بالقول دون الفعل فيصح قبض المرتهن أو قبض وكيله، وعندها يضمنه لو ضاع، كما يجوز رهن المشاع، ورهن ما في الذمة كالدين لأنه يجوز بيعه وإن منعه آخرون من غير المالكية ممن رأوا وجوب القبض وأن ما في الذمة مثل الدين لا يتحقق فيه القبض.

وأما كيفية استيفاء الحق المتعلق به الرهن من حيث منفعته فمتى غطى إنتاج العين المرهونة قيمة الرهن أو مقابل الرهن عادت العين المرهونة إلى صاحبها وسقط الرهن، ومن ناحية أخرى بشأن المحافظة على الرهن فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهوناً، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهوناً، وعلى الذي يركب ويشرب النفقة» ـ رواه البخاري عن أبي هريرة ـ، فالمرتهن يمكنه أن ينتفع من الرهن بالحلب والركوب بقدر النفقة، ولذلك لو أنفق عليه الراهن لا يحق أن ينتفع به المرتهن، ووضع يده عليه ليس أكثر من وثيقة للحفاظ على حقه مما يجعل لا يجوز له أن يتملكه إذا عجز الراهن عن الدفع في الأجل المحدد كما كانت تفعل العرب في الجاهلية، ولذلك قال الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «لا يغلق الرهن من صاحبه الذي رهنه،

له غنمه وعليه غرمه» لأن ذلك كان عندما كان الربا مباحاً ولا نهي عن القرض الذي يجر منفعة ولا عن أخذ الشيء بالشيء ولو كانا غير متساويين، ولذلك لا يجوز اشتراط المرتهن الانتفاع بالرهن من قرض، ولكن يجوز اشتراطه من بيع أو إجارة، لأن القرض إذا جر نفعاً كان رباً ولكن عند البيع يصبح بائعاً للسلعة بالثمن المذكور فكأنه بيع و إجارة.

وبالنسبة لنماء الرهن فإنه يدخل معه إذا كان لا ينفصل أو يتميّز عنه كالسمنة للحيوان أو ولادته و إنتاجه، وأما غلة النخيل وثمار البستان ولبن البقرة وصوف الغنم فلا يدخل فيه إلا عند الشرط عليه.

وعند إفلاس الراهن فالمرتهن أحق بالرهن من الغرماء وإن كان هو مثلهم مطالباً بحقه. ولابد للسداد من أن يؤدي الغريم الراهن لعينه ما في ذمته من دين، والذي يعتبر كأمانة في ذمته، وليخش الله من المطل والتهرب من السداد، وليحذر الشاهد على ذلك من كتمان شهادته الذي يؤدي إلى إضاعة الحق وإلا فإنه سيقع تحت الإثم على ذلك، كما ليحذر الراهن أن يقصد عدم السداد فيقع تحت الوعيد في قوله عليه وآله وصحبه السلام: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»، وليحرص على قصد التسديد ليجد عون الله له في ذلك لقول الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «من أخذ ديناً وهو يريد أن يؤديه أعانه الله عليه».

وتنتقل السورة أخيراً إلى نهايتها مع الآيات الثلاث الباقية لتقول:

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

انظروا أيها المؤمنون المتعاملون فيما بينكم بجميع أنواع المعاملات المالية إلى أن كل ما في السموات والأرض هو ملك لله لا يملك أحد أن يتصرف به إلا وفق مرضاته تعالى إذا كان مؤمناً، وإنه لن يتعامل بغير نظامه في أمره ونهيه إلا إذا كان غير

مؤمن به أو جاحد لتنظيمه وتدبيره لأمور خلقه، فلتعلموا أنكم في كل مظاهر أعمالكم ومقاصدها مما لا يعزب عن علم الله بشيء وبالتالي حسابه بالثواب أو العقاب.

ولذلك بغضّ النظر عن قول القائلين بأن ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ منسوخة بـ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ مما ورد في بداية الآية الأخيرة، أو أنها محكمة مخصوصة في معنى الشهادة التي نهى سبحانه عن كتمانها، أو أنها تشير إلى ما يطرأ من شك ويقين على النفوس البشرية، أو أنها محكمة عامة غير منسوخة في كونه تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا ومالم يعملوا مما في نفوسهم ليغفر للمؤمنين ويعاقب الكافرين والمنافقين، كما قال ابن عباس في قول آخر غير قوله الأول بأنها منسوخة، وهو القول الذي رجحه الطبري بأنها غير منسوخة، وأن الخواطر ليس مما يحاسب عليه الإنسان المؤمن لأنها ليست من وسعه ولا كسبه، أو أنها نزلت فيمن يتولى الكافرين من المؤمنين، أعلنوا ذلك أو أسروه، فإن الله محاسبهم على ذلك، وإن كان في هذا بعد عن سياق الآية، فإن المولى سبحانه الذي يعلم خافية الأعين وما تخفي الصدور له وحده سبحانه أن يغفر ويعفو عمن يشاء من عباده ويعذب من يشاء منهم، وأنه تعالى بهذا النصّ ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ﴾ يدعوهم ليكونوا أهلاً للمغفرة بالتزام أمره ونهيه ولا يكونوا أهلاً لعذابه بعصيان أمره ونهيه في كل معاملاتهم المالية وغير المالية، وما ذلك إلا لأنه سبحانه قادر على كل شيء، و أنه سبحانه عالم بمن يستحق مغفرته وعفوه وبمن يستحق عقابه وعذابه، كيف لا وهاهو سبحانه يقرر في مطلع الآية السابقة للأخيرة أنه قد ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾ فإنهم كلهم آمنوا بالله تعالى، وأنه سبحانه له الأمر والخلق، فهو سبحانه الخالق والمدبر لخلقه وليس الخالق التارك لهم دون تدبير كما يزعم دعاة فصل الدين عن الحياة وبالتالي عن الدولة ونظمها من دعاة الغرب الرأسمالي الديمقراطي ومن لفّ لفّهم، وأنهم من حيث الإيمان لا يفرقون بين أحد من رسله وآخر، وأنهم تنبيهاً للرسول عليه وآله وصحبه السلام قد بادروا بالقول ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ لما يمكن أن يلحقهم من حساب على خواطرهم كما فهموا من ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ فتفضل عليهم المولى سبحانه جزاء طاعتهم ودعائهم بطلب المغفرة أن قال لهم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ مؤكداً لهم أن خواطرهم التي ليست بوسعهم لن يحاسبهم عليها وإنما فقط يحاسبهم على ما يصدر عنهم من أفعال وأقوال فيجازي بالمثوبة المنضبط منها مع أوامره ونواهيه، ويجزي بالعقوبة المتفلت منهما، مؤكداً لهم سبحانه

ألا حساب إلا على الأعمال ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ ـ ٤١].

فليطمئن المؤمن إلى ذلك وليحرص على السعي الحثيث في طاعة الله وتجنب عصيانه وعندها يجد المولى سبحانه وقد تفضل عليه بالتجاوز عن الكثير من سيئاته وخطاياه، كيف لا وقد «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» من فضل الله وكرمه بعباده، كما أنه سبحانه من عدله في حسابه قد قرر إيمان رسوله والمؤمنين معه بكل ما فرض عليهم من أحكام الصلاة والزكاة والحج والحيض والطلاق والإيلاء، وما أورده من قصص الأنبياء، وما بينه من أحكام الربا والدين والرهن، وأنهم بإيمانهم هذا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وببنائهم لانضباطهم بأمره ونهيه على هذا الإيمان يستحقون هذا الفضل وهذه الرحمة من ربهم بأن لا يحمل عليهم ما حمل السابقين من الأعباء الثقيلة، ولا يحملهم إلا ما يطيقون القيام به، وأنه تعالى يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم ما داموا أهلاً لذلك كله، لأنه وحده باعترافهم الكامل مولاهم وناصرهم على أعدائهم وأعداء إيمانهم من صنوف الكافرين. .

وأنه سبحانه وتعالى يعلمهم بهذه الخاتمة كيف يدعونه حتى قال رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ هاتين الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» ـ رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري ـ مشجعاً أتباعه من المسلمين إلى يوم الدين على المداومة في تلاوتهما. . فكيف بهما وبسورة البقرة كلها الطافحة بأحكام الإسلام التي بالتزامها وتطبيقها في حياة الفرد والمجتمع والدولة خير الدنيا والآخرة؟!!

دليل سورة البقرة ـ ٢

– إنها سورة مدنية، وأنزلت في ٢٨٦ آية في أوقات متفاوتة. .

– تبدأ بالمقارنة بين المؤمنين والمنافقين والكافرين في أحوالهم المختلفة، وجزاء كل منهم. .

– ثم تذكر قصة خلقه تعالى لآدم خليفة في الأرض، وما جرى من حوار بين المولى سبحانه وبين إبليس بعد الملائكة بشأنه. .

– ثم تستعرض جميع جوانب كفر بني إسرائيل ومكرهم وتحريفهم لديانتهم. . مذكرة لهم بالتفضيل على عالم زمانهم المشركين. .

– فتذكرهم بما تفضل عليهم سبحانه من النجاة من فرعون ولكنهم ارتدوا وعبدوا العجل، ومن الغمام أثناء التيه، ومن المنّ والسلوى، ولكنهم كفروا النعم، ومن العيون

الاثنتي عشرة، والطعام الطيب، ولكنهم طلبوا الأدنى، واعتدوا يوم السبت فمسخوا، وأنكروا قتل شخص فأحياه تعالى بعد أن ضربوه بجزء من بقرة أمروا بذبحها. .

- فتدعوهم للإيمان بالرسول عليه وآله وصحبه السلام ورسالته، وتذكرهم بتوحيده تعالى في العبادة وبالكثير من الواجبات: من طاعة الوالدين والإحسان لذوي القربى، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة.. وتذكرهم بغير ذلك من بنود الميثاق الذي أخذ عليهم ولكنهم كفروا بذلك كله طلباً لمغانم الدنيا. .

- وتذكرهم بقتلهم أنبياءهم وزعمهم بأن قلوبهم مقفلة ضد الإيمان بالإسلام ورسوله.. وكيف أنهم رفضوا تمني الموت لو كانوا صادقين وذلك خوفاً من نزوله بهم. .

- وتشير لعدائهم لجبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالقرآن بحجة أنه ينزل بالحرب.. كما تشير لوصفهم الكاذب لسليمان عليه السلام بأنه كان ساحراً، وتنبه المؤمنين بأن يتجنبوا استخدام كلمة (راعنا) التي استخدموها لشتم الرسول عليه وآله وصحبه السلام واستخدام كلمة (انظرنا) بدلاً منها. .

- وتحذر المشركين من طلب أن يأتي الله والملائكة كجماعة يرونهم رأي العين، وأن يجعل جبل الصفا لهم ذهباً، لأنهم في ذلك يتشبهون باليهود ويكررون عنادهم في الكفر والضلال. .

- ثم تذكر حسد أهل الكتاب للمؤمنين وزعمهم بأنهم وحدهم من يدخلون الجنة، وتؤكد لهم بأن المسلم الخاضع لأمر الله تعالى ونهيه هو الذي يدخل الجنة. .

- ثم تذكر تخريب بيت المقدس من قبل نبوخذ نصّر البابلي ونفي اليهود إلى العراق.

- كما تذكر استنكارهم لتحويل القبلة إلى مكة، وتذكر افتراءهم على الله بأن له ولداً، وتذكر طلبهم أن يكلمهم الله تعالى لتأكيد نبوة محمد عليه وآله وصحبه السلام. .

- ثم تذكر قصة إبراهيم عليه السلام في حرصه على طاعة ربه والتزام أوامره، ثم تربط ذلك بالبيت الحرام واستنكار اليهود تحويل القبلة من القدس إلى مكة. .

- ثم تذكر القصاص في القتلى، وأنه لم تكن دية لدى اليهود: إذ كان إما قتلاً أو عفواً فقط. .

- وتربط بالموت حكم الوصية وذلك للوالدين الكافرين وغيرهم من الأقارب من غير الورثة. .

- ثم تتحدث عن فرض الصيام وأنه كان على الأمم السابقة.. ثم تتبعه بفرض الحج..

- ثم تذكر فرض الجهاد وكيف بدأ بعد الهجرة بالدفاع فقط ثم عمَّ الدفاع والهجوم دون المسجد المحرم إلا عند الفتنة..

- ثم تربط الحج بالقتال إذ يحصر الحجيج قبل الوصول للحرم.

- ثم تدعو الناس جميعاً ليكونوا مسلمين.

- ثم تجيب على مجموعة أسئلة: عن أوجه الإنفاق وأنه للوالدين.. وعن القتال في الشهر المحرم وجواز ذلك دفعاً للفتنة.. وعن تحريم الخمر والقمار.. وعن مقدار الإنفاق وأنه العفو.. وعن اليتامى والتعامل معهم.. وعن المحيض وتحريم الجماع أثناءه..

- ثم تتحدث عن مشاكل النساء والحياة الزوجية: من إيلاء، وطلاق، وفدية المخالعة، والعدة وما يمكن أن يرتبط بها من مشاكل، والولد من النكاح قبل الطلاق أو بعده، وعدة المتوفى عنها زوجها، وحقوق المطلقات المالية..

- وتربط فرض الصلاة ولزوم القيام به بالرغم من دوامة هذه المشاكل في كل الظروف مهما كانت معقدة.

- وتكرر التحريض على الجهاد في سبيل الله في جميع الأحوال..

- وتورد آية الكرسي التي تعتبر أعظم آية في القرآن لما تشتمل عليه من صفات الربوبية ودلائل الوحدانية..

- وتذكر بعدها عدم إكراه أحد على ترك دينه واعتناق الإسلام..

- وتربط الإيمان بقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود الذي فشل في إثبات زعمه بالألوهية، وبقصة عزير مع القرية الخربة وبعثه وحماره بعد مئة عام ليلمس قدرة الله تعالى في الإماتة والإحياء، وبقصة إبراهيم مع نفسه عندما طلب الاطمئنان في الإيمان..

- وتتحدث السورة أخيراً ملياً مع إنفاق الأموال: بدءاً بالجهاد، والصدقات دون رياء، والنذور، والربا وتحريم التعامل به، والديون ووجوب الحفاظ عليها وعلى أدائها، والشهادة في الأموال وغيرها ولزوم تقديمها.. وكل ذلك حسب الاستطاعة.

- وأخيراً يعلم المولى سبحانه عباده الدعاء للتجاوز عن أيّ خطأ أو تقصير في ذلك كله.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ إن بالوقوف كثيراً وبالمقارنات مع الكافرين من أهل الكتاب والمشركين والمنافقين في أقوالهم وأفعالهم وأحوال نفوسهم يجري التنفير منهم..

٢ ـ وحوار المولى عز وجل مع ملائكته بشأن آدم وجعله خليفة في الأرض، وماذا انتهى إليه ذلك، مما يعلم أبناءه أهمية الحوار ولو في أخطر الأمور . .

٣ ـ تفاصيل عديدة عن بني إسرائيل وعما تفضل عليهم المولى عز وجل من نعم بدءاً من تخليصهم من عبودية آل فرعون وانتهاء بدخولهم بيت المقدس بالرغم من كل إساءاتهم ومخالفاتهم ولكن عفو الله ومغفرته للتائبين كانتا تشملهم..

٤ ـ بيان مفهوم العقل وأنه ليس بصورة ولا نور وإنما تستفاد به الصور والأنوار.. مما جرى توضيحه بشكل وافٍ في التفسير المرافق، دفعا للكثير من الشبهات حول ذلك . .

٥ ـ بيان سلسلة من نكول بني إسرائيل بالمواثيق والعهود حتى انتهت بمحاولتهم قتل عيسى بن مريم عليه السلام ولكن دون أن ننسى الكثير من ذلك قبله وبعده..

٦ ـ ذكر قصة الملكين ببابل هاروت وماروت وأنهما كانا يحذران من تعلم السحر واستخدامه.

٧ ـ التأكيد على سلامة استخدام الكلمات والعبارات اللغوية بمعانيها الشرعية السليمة، فلا تستخدم (راعنا) بمعنى الدعاء ضد الآخر وإنما تستخدم (انظرنا) بدلاً منها.. وكذلك (حطة) بدلاً من (حنطة)..

٨ ـ إن تفضيل بني إسرائيل على العالمين يعنى عالمي زمانهم من الكفار والمشركين من الإنس والجن عندما كانوا موحدين من دون الناس.

٩ ـ عدم تحمل أحد وزر من سبقه، فلكل كسبه واختياره..

١٠ ـ لله تعالى وحده تحديد قبلة عباده في الصلاة، فلكل أمة وجهتها التي ولاها إليها حتى نسخت كلها بقبلة الإسلام كما نسخت الأديان كلها بدين الإسلام..

١١ ـ لقد قضى المولى سبحانه بابتلاء المؤمنين في أنفسهم وأموالهم ووعد الصابرين بالأجر العظيم..

١٢ ـ لابد من إظهار أمر التوحيد والدعوة إليه، وأمر الاحتكام للشريعة والدعوة إليها رضي الكفار أو سخطوا.

١٣ ـ بيان قاعدة الأصل في الأشياء الإباحة ما لم يرد دليل بغير ذلك، والأصل في الأفعال التقيد بالأحكام..

١٤ ـ بيان تخفيف عقوبة القتل في الإسلام بإضافة الدية بين القود والعفو في ما سبق..

١٥ ـ لا تجوز الوصية لوارث إلا أن يشاء الورثة.

١٦ ـ إن آية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ تعمُّ العمليات الاستشهادية في كل مكان.

١٧ ـ لابد من دفع العدو وبجنود الإيمان وإلا انتصر الشرك وخربت المساجد والبلاد..

١٨ ـ لا يكره أحد على ترك دينه ليعتنق الإسلام، وإذا ارتد يستتاب ويقتل إن رفض، وهذا هو الحكم الراجح.

سورة آل عمران (٣)

التقديم

تسمى هي والبقرة بالزهراوين لما فيهما من نور وهداية، وقد نزل نصفها الأول تقريباً في وفد نجران من النصارى الذين كانوا يزعمون أن عيسى عليه السلام ابن الله والذين دعاهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام في النهاية إلى المباهلة بأن يقول الطرفان: لعنة الله على الظالم منا! لأنهم رفضوا الأخذ بكل الحجج والبراهين التي أوردها لهم على وحدانية الله وربوبيته، وأن عيسى عليه السلام رسول الله وليس ابنه في شيء.

فبعد أن تبدأ السورة بالتأكيد أن الله تعالى لا معبود بحق غيره لأنه الحي الباقي والخالق المدبر تخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وتؤكد له أن الله قد نزّل عليه القرآن بالصدق ومخبراً له بأنه قد أنزل التوراة والإنجيل من قبله لتهدي من يؤمن بها ويسير عليها لكل خير، كما أنزل عليه القرآن، وأنه سبحانه لا يغيب عنه شيء بينما تغيب عن عيسى أشياء، وأنه سبحانه يخلق الأجنة في الأرحام على الصور التي يقدرها مما لا

يملكه عيسى ولا غيره من البشر، وأنه سبحانه ينزل عليك يا محمد القرآن بما فيه من آيات محكمات محددة المعاني، وآيات أخرى متشابهات متعددة المعاني، وهي الآيات التي يحاول أصحاب الإيمان الزائغ المائل عن الحق والصواب أن يقفوا عندها بقصد فتنة المؤمنين عن إيمانهم مع أنه كان حرياً بهم عدم التشكيك فيما يغيب عنهم ولا تدركه عقولهم ولاسيما أن العالم العارف بالله يجأر بذلك دون تردد، وأن ذلك كله من الله رغم عدم إدراكه له.

فليتوقف هذا الوفد النجراني عند الإدراك العقلي ولا يتجاوزه للغيب، وليدعوا الله مع محمد والمؤمنين معه العالمين الراسخين حتى يبقوا على إيمانهم وهدايتهم ورحمتهم التي ربّاهم عليها الإسلام، كيف لا وأنه سبحانه سيبعثهم يوم القيامة مع الناس في موعد لا يخلفه، وأن الكافرين منهم لـن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم عند حسابهم الذي ينتهي بهم ليكونوا وقوداً للنار كما كان الحال مع فرعون وأتباعه ومن تبعهم ممن كذبوا بآيات الله ووحدانيته وربوبيته فحل بهم من عذاب الله الشديد ما ناسب ذنوبهم.

وقل يا محمد لليهود ومن على شاكلتهم من الكفار بأنهم سيهزمون في الدنيا أمام المسلمين مهما ظهر عليهم من قوة، وأنهم سيؤولون يوم القيامة إلى جهنم عقوبة على أفعالهم الشنيعة وكفرهم المتغطرس، وليذكروا العبرة مما حصل مع المسلمين والمشركين يوم بدر، وكيف أن الله تعالى قد أيّد الفئة المؤمنة ونصرها رغم قلتها على الكافرة، مما يجعل لكل ذي عقل عبرة وأيُّ عبرة في ذلك، وليعلموا بأن الله تعالى قد خلق النفس البشرية على حال تميل معه إلى ما ترغب فيه من النساء والأولاد والأموال من خيل وأنعام وحرث، وأن ذلك كله متاع زائل مع الحياة الدنيا بينما الباقي الأفضل هو ما ينتظر الإنسان المؤمن يوم القيامة، فليحرص عليه كل فرد وليقبل على الإيمان ليناله.

وبعدها بينت السورة في الآية التالية بأن ما سيناله المتقون المؤمنون من جنات خالدات، ومن زوجات طاهرات، ومن رضى الله تعالى، هو الخير والأفضل من متاع الدنيا الزائل، وأن ذلك لكل صابر محتسب خاشع منفق مستغفر ممن يتوجهون إلى الله بالدعاء ليغفر لهم ذنوبهم ويجنبهم بإيمانهم وحسن أعمالهم عذاب النار.

وهنا تورد السورة أعظم شهادة في القرآن، إنها شهادة الله تعالى بأنه المعبود

بحق، وأن الملائكة وأولي العلم من الأنبياء يشهدون على أنه تعالى المحقق للعدل في كل شيء.

ثم تقرر أن الدين والإيمان والطاعات المقبولة عند الله تعالى هي فقط ما جاء به الإسلام الذي نزل على محمد عليه وآله وصحبه السلام، وأنكم يا يهود ويا وفد نجران خاصة ويا نصارى عامة لم يحصل هذا الاختلاف بينكم بشأن نبوة محمد والدخول في الإسلام إلا من بعدما جاءكم بيان صفته ونبوّته في كتبكم، وأنكم لو تركتم البغي والاختلاف في ذلك لاتبعتموه..

ولذلك قل لهم يا محمد إذا جادلوك في ذلك بأنك قد أسلمت وخضعت لله أنت ومن اتبعك، وادع أهل الكتاب والعرب لذلك وقل لهم بأن الهداية في ذلك وحده، وأنك لا تملك إكراه أحد عليها، والله العالم بالبشر كلهم هو المحاسب لهم على اختيارهم، فالذين يكفرون منهم بآيات الله ويقتلون الأنبياء كما يقتلون من يدعونهم للإيمان من أمثال بني إسرائيل فلهم عذاب أليم لأنهم أفسدوا أعمالهم في الدنيا وأفسدوا جزاءهم في الآخرة.

ثم تلفت السورة نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إلى ما فعله اليهود عندما دعا جماعة منهم للإيمان بالله والرجوع إلى التوراة التي تظهر أن إبراهيم لم يكن يهودياً وأن فيها صفته، أي صفة محمد عليه وآله وصحبه السلام، ولكنهم رفضوا ذلك، وادعوا زوراً وبهتاناً أن دخولهم النار سيكون لوقت محدود، وأنهم سيرون الحق والحقيقة يوم الحساب عندما يعطى لكل إنسان جزاؤه دون ظلم..

وقل لهم وللخلق جميعاً يا محمد بأن الله تعالى هو وحده صاحب كل المخلوقات، وأنه وحده يرزق ويمنع الرزق، وبالتالي يعزّ ويذل، فهو وحده سبحانه بيده الخير كله، وهو القادر على كل شيء، فهو سبحانه الذي يدخل الليل في النهار والنهار في الليل بتتابعهما، كما يخرج الحي من الميت والميت من الحي، ويرزق بقضائه وقدره من يشاء من مخلوقاته دون حد ولا حصر.. فلا يغترّوا بما بين أيديهم..

وليحذر المؤمنون مسايرة الكافرين وملاطفتهم على كفرهم والاعتماد عليهم دون المؤمنين، لأنهم بذلك يقعون في الإثم الشديد اللهم إلا أن يتخذوا ذلك وسيلة تحميهم من خطرهم، وليذكروا أنهم مهما أخفوا الدافع لذلك فإن الله تعالى يعلمه حق العلم

فليحذروه سبحانه، وليستحضروا الحساب يوم الحساب عندما يتمنى المرء أن لو لم يفعل أي فعل سيئ وأن أفعاله لو كانت كلها خير..

وقل لهم يا محمد بأن عليهم أن يتبعوك في الإيمان والعمل إن كانوا يحبون الله تعالى، وأنه سبحانه بذلك يحبهم ويغفر لهم ذنوبهم، كما قل لهم بوجوب طاعتهم لله والرسول وإلا فإنهم يقعون في الكفر والعياذ بالله.

وهنا تنقلنا السورة إلى ما لله صاحب الخلق والأمر من تدبير لخلقه عندما اصطفى لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران دين الإسلام والخضوع والطاعة له وحده سبحانه، وأنهم تتابعوا في ذريتهم على هذا الطريق، وأنه قد حصل مع امرأة عمران عندما نذرت ما تلده ليكون خادماً لله فجاءت بمريم وكانت تتمنى أن يكون ذكراً ليتمكن من الخدمة أكثر، وأن ذلك كله كان ابتغاء مرضاة الله الذي يسّر لها الكفالة والتربية الصالحة على يد زكريا زوج خالتها، والذي رأى رزق الله يأتيها من غير جهد مما جعله يبتهل إلى الله أن يرزقه الذرية الطيبة، فجاءته البشارة وهو يصلي بأن الله سيرزقه بولد اسمه يحيى ليكون سيداً وحصوراً ونبياً، وأن ذلك من قدرة الله تعالى التي لا يقف أمامها كبر السن وعقم الزوجة حائلاً، وأنه تعالى قد استجاب لدعائه وجعل له علامة المعجزة بالامتناع عن الكلام مع الناس لثلاثة أيام إلا بالرمز وأن يكثر من ذكر الله والتسبيح.

كما واذكر يا محمد لوفد نجران وللخلق كلهم ما قالته الملائكة بأمر من الله لمريم بأنه سبحانه اختارها لعبادته ولولادة عيسى من بين جميع نساء زمانها، ولما أمرها به من دوام الخضوع والطاعة لله والصلاة له، واذكر يا محمد أن كل هذه الأنباء التي نخبرك بها هي من أنباء الغيب والتي منها اختصامهم على كفالة مريم وأن زكريا هو الذي تولى ذلك لأن زوجته خالتها، كما أن منها ما قالته الملائكة لمريم بأن الله يبشرها بأنها ستلد مولوداً بأمر من الله ودون زوج وأن اسمه المسيح وأنه سيكون وجيهاً في الدنيا عند من يؤمن به وفي الآخرة عند الله، وأنه سيكلم الناس في المهد كما سيكلمهم بمعجزاته وهو كبير، وأن منها ما قالته مريم متسائلة عن ذلك الحمل خلاف العادة منها وهي لم تتزوج..

وأن الجواب قد جاءها بأن الخالق سبحانه الذي سيحقق ذلك بأمره فتلد ذاك المولود ويعلمه سبحانه الكتابة وفهم الأمور والتوراة والإنجيل ويرسله إلى بني إسرائيل بآيات ومعجزات تدل على رسالته التي منها أنه يخلق من الطين طيراً بإذن الله ويبرئ الأعمى والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما يأكلون ويدخرون من قوت بعون الله، ويصدق بأن التوراة نزلت من الله، ويحل لهم بعض ما حرم عليهم في التوراة

من أطعمة، وأن عليهم أن يعبدوا الله تعالى وحده، وأنه عندما لاحظ أنهم بدلاً من استجابتهم لأمره رفضوا وكفروا استنصر عليهم فوافق تلامذته من الحواريين على نصرته ومساندته، ولكن ذلك لم يمنع كفار بني إسرائيل من التآمر عليه لقتله..

ولكن ماذا حصل؟ لقد خيّب الله مكرهم إذ نوّم عيسى ورفعه إلى السماء منقذاً له من كيدهم وواضعاً شبهه بين أيديهم، وأن العذاب الشديد سيحل بأولئك الكفار منهم في الدنيا والآخرة بينما سينال المثوبة العظيمة أولئك المؤمنون الصالحون منهم.. وأن كل هذا يا محمد من الآيات التي نتلوها عليك من الغيب، وأن هذا الوفد وغيرهم من أهل الكتاب من اليهود والنصارى يكفيهم أن يذكروا أن عيسى عليه السلام عند الله مثل آدم الذي خلقه من تراب دون أب ولا أم بينما جاء عيسى من أم دون أب فهو أهون في الخلق من آدم.

وعليك يا محمد أن تدعو من يجادلك في عيسى بعد هذا العلم والبيان الواضح المفحم إلى المباهلة أي التضرع في الدعاء إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين في حق عيسى سواء منا أو منكم. واعلم يا محمد أن هذا من القصص الحق، وأن عليهم أن يلتزموا به، وأنهم إذا رفضوه فذلك من الفساد الذي لا يغيب علمه عن الله تعالى.

وقل لهم يا محمد بأن يلتزم الجميع هو وهم كلمة الحق فيما بينهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن لا يحلوا حراماً حرمه الله ولا يحرموا حلالاً أحله الله، وأنهم إن رفضوا ذلك فأعلمهم بأنكم أنت وأتباعك المسلمون الخاضعون لله وحده لن تكونوا معهم في شركهم بشيء، واسألهم مستنكراً عن سبب مجادلتهم في إبراهيم وزعمهم بأنه يهودي أو نصراني مع أن التوراة والإنجيل قد أنزلتا من بعده، فأين عقولهم؟!

إنهم إذا جرؤوا على الجدال في أمرك يا محمد المعلوم لديهم في كتبهم فكيف يزعمون ما يدّعونه في إبراهيم والذي جاء قبل كتبهم؟! يكفيهم أن يتبعوا ما يعلمهم به الله العالم بكل شيء والذي جل وعز يعلمهم الآن أن إبراهيم ما كان يهودياً ولا نصرانياً وإنما مسلماً لامشركاً، كما وأعلمهم يا محمد بأن أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه المؤمنون به بحق، وأنت يا محمد، والذين آمنوا معك..

وأعلمهم يا محمد بأن رغبة بعضهم من اليهود في إضلالكم وإبعادكم عن الإسلام لن يتحقق منها شيء لأنهم لا يضلون إلا أنفسهم ببعدهم عن الإسلام، وأنهم بذلك يكفرون وهم يرون آيات الله، ويخلطون الحق بالباطل ويخفون الحق عن علم ودراية مما يجعل ذنبهم أعظم.

وانظر إليهم يا محمد وجماعة منهم من أمثال كعب بن الأشرف يدعون سفلة قومهم للإيمان بالإسلام صباحاً والكفر به مساء ليشككوا المسلمين في إسلامهم ويعيدوهم إلى الكفر، وكيف أنهم يدعون سفلتهم لعدم تصديق أحد إلَّا اليهود مثلهم، ولذلك قل لهم يا محمد إن الهدى ليس هداهم وإنما ما أنزله الله من الإسلام الذي أنتم عليه، وأنه لا مثيل له ولا يملك أحد الجدال في ذلك، وما ذلك إلَّا لأن هذه الهداية فضل من الله أنزله عليكم، وهو سبحانه الذي يختص بذلك من يشاء من رسله.

وتواصل السورة بيان لجاجتهم في الجدل الباطل فتذكر جوانب أخرى من مكابرتهم في ذلك، فتذكر أن منهم من أمثال عبد الله بن سلام من يؤدي القنطار في دين الأمانة، ومنهم أمثال فنحاص من يخون الأمانة في الدينار الواحد اللهم إلا إذا لاحقته بإلحاح شديد، وذلك بسبب استحلالهم لأموال العرب الأميين من المسلمين وغيرهم وهم بذلك يكذبون عن علم، ويعلمون أن الحق مع من يتقي الله ولايكذب عليه أو يستحل حرماته لأنه يكون من المتقين بينما من يبع عهده مع الله بأبخس الأثمان ويدوس على إيمانه فإنه يفسد آخرته فلا ثواب ولا رضى وإنما غضب وسخط وخزي وعذاب أليم.

كما تشير إلى ما يفعله فريق منهم من التلاعب بكتاب الله ليخدعوكم بأن ما يقولونه حقاً من الله وهو كذب على الله لأنه من المستحيل حقاً وصدقاً أن ينزل تعالى الكتاب والنبوة على شخص ثم يأتي هذا الشخص بعبادة غير الله، وإنما سيقول للناس ﴿...كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ بالتزام ما يقوله الرب سبحانه وبدعوة الناس الآخرين إلى ذلك، ولا يمكن أن يأمر الناس بعبادة الملائكة والنبيين لأنه الكفر بعينه، ومن المستحيل أن يفعل ذلك عزير أو عيسى..

كما تذكّرهم بالميثاق الذي أخذه الله على النبيين بأن يلتزموا ما يأتيهم من كتب من الله، وأن يؤمنوا بمحمد ورسالته الذي جاء أخيراً يصدق نبواتهم وأن ينصروه، وأن الأنبياء قد أقروا بهذا العهد وشهدوا على ذلك، وأنكم أنتم يا أتباعهم تعلمون ذلك وتطالبون به، وكل من يرفض ذلك فهو من الفاسقين الخارجين عن الحق المبتغين غير الإسلام دين الله..

فقل لهم يا محمد بأنكم أنت وأتباعك آمنتم بالله وما أنزله من الإسلام عليكم وما أنزله من الكتب على من سبقوكم من إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى وغيرهم من النبيين، وأنكم لا تفرقون بين أحد منهم في النبوة، وأنكم خاضعون مسلمون لله تعالى وحده، وأن من يريد غير الإسلام ديناً يعتنقه ويعمل به فلن

يقبل ذلك منه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه لن يتحقق الهدى لمن يكفر بهذا الإسلام ولا يعترف بأن محمداً رسول بحق ورسالته كاملة خاتمة بحق، فمثل هذا الإنسان سيظلم نفسه بكفره وبعده عن هدى الله، وأن جزاءه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين في الآخرة، ولن يخلص من ذلك إلا من تاب قبل أن يوافيه الأجل بفسحة كافية، ولأن من يكفر بعد الإيمان ويواصل الكفر بعناد رغم البينات فإن توبته لن تقبل، وكذلك من يموت على كفره فإنه لا توبة له ولا فداء ولو ملء الأرض ذهباً.

ومع ذكر الفداء تشير السورة إلى الإنفاق الطيب المقبول فتنبه إلى أن أحداً لن يدخل الجنة وينال شرف الدين حتى يتصدق وينفق مما يحب من ماله، ثم تعود للحديث عن بني إسرائيل وما أحل لهم من الطعام فتقول بأن الأطعمة كلها كانت حلالاً لهم إلا ما حرمه يعقوب عليه السلام على نفسه قبل أن تنزل التوراة على موسى، فقل لهم يا محمد ارجعوا إلى التوراة لتروا صدق ذلك، وإياكم والكذب على كتاب الله بالتغيير والتبديل وسترون ما أقوله لكم حقاً، ولذلك قل لهم يا محمد بأن ما ورد في كتاب الله هو الصدق، وأنه عليهم اتباع ملة إبراهيم البعيدة عن الباطل والشرك مما يلزمهم باتباع الإسلام الذي جاء مصدقاً وناسخاً.

وتنقلنا السورة تبعاً لذكر ملة إبراهيم إلى الحديث عن الحج وأن البيت الحرام بمكة هو أول بيت وضع بأمر الله في الأرض ليهتدي الناس بالتوجه إليه في قبلتهم، وأن فيه علامات واضحة من الصفا والمروة والركن والمقام، وأن من دخله لايصل إليه أي خطر، وأن الواجب على كل مؤمن مستطيع أن يحج إلى البيت مرة واحدة في العمر، وإذا أنكر ذلك فقد كفر وظلم نفسه.

واستنكر يا محمد على اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب تنفير الناس عن دين الله، سالكين الطريق الأعوج، وهم يعلمون الحق ويعلمون أن الله تعالى عالم بذلك، فما هذا الكفر بآيات الله بالصد عنها والله عالم بأعمالهم؟!

وأنتم أيها المؤمنون إياكم أن تطيعوا ذلك الفريق من أهل الكتاب الذين يخرجونكم من الإيمان إلى الكفر باستجابتكم لهم، الأمر الذي يستنكر عليكم الوقوع فيه وأنتم تسمعون آيات الله وبينكم رسوله الذي ينقلها إليكم، واحرصوا على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله لتكونوا من المهتدين السائرين على الصراط القويم..

كما عليكم أيها المؤمنون بالخشية الحقة من الله تعالى، والتزام الإسلام حتى يوافيكم الأجل، والتمسك بحبل الله بشكل جماعي لا فردي فقط، والشكر لله على نعمته

تعالى في تحويلكم من أعداء متخاصمين يسفكون دماء بعضهم بعضاً إلى إخوان متحابين، ومن كفار على حافة السقوط في النار إلى مؤمنين يسيرون في طريق الجنة.

كما عليكم أن تكون منكم أيها المؤمنون جماعة يدعون إلى الإسلام ويأمرون بالمعروف منه وينهون عن المنكر الخارج عنه، وأن هـذه الجماعة أو الفئة أو الحزب هم المفلحون في الدنيا والآخرة لما يحققونه من خير لأنفسهم وأمتهم..

ومن ناحية أخرى إياكم أن تكونوا مثل أولئك اليهود والنصارى الذين تفرقوا بعد اختلافهم على البينات التي نزلت في كتبهم مما يؤول بهم إلى العذاب الشديد في ذلك اليوم الذي تبيضّ فيه وجوه المؤمنين وتسودُّ وجوه الكافرين لأن المؤمن حلت عليه رحمة الله وفضله ولأن الكافر خرج من الإيمان إلى الشرك بما افتراه على الله من الولد فحل عليه غضب الله وسخطه..

فاعلم يا محمد أن تلك هي آيات الله وبيناته التي نخبرك بها بكل صدق وحق، والتي تبرز أن الله لا يريد لعباده إلا العدل، فهو سبحانه مالك السموات والأرض ولا حاجة له سبحانه بشيء منها وإنما مخلوقاته هم المحتاجون إليها والذين سيقفون بين يديه يوم الرجوع إليه للحساب..

وأعلم أمتك يا محمد بأنهم خير أمة تعمل لخير الناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإيمانهم بالله ودعوتهم لهذا الإيمان، وأنه لو دخل أهل الكتاب فيما دخلتم فيه من الإيمان لكان في ذلك الخير العميم لهم، ولكن إذا كان فيهم البعض المؤمنون فأكثرهم فاسقون..

واعلم يا محمد أنهم مهما كانت كثرتهم الفاسقة فلن يكون لكذبهم وافترائهم إلا الأذى البسيط عليكم، وأنهم لن يصمدوا للقتال ضدكم بل سيهربون من أمامكم، ذلك بأنهم لن يكونوا إلا أذلاء مهما تغطرسوا في الأرض وآذوا المؤمنين اللهم إلا إذا وجدوا في عهد الذمة ومعونة الناس ما يحقق لهم الأذى الكبير بالمسلمين، وسيلازمهم غضب الله والمسكنة لكفرهم بآيات الله وقتلهم أنبياءه ظلماً وعدواناً.

واعلم يا محمد أن المؤمنين والكافرين من أهل الكتاب ليسوا سواء، إذ المؤمنون منهم يتلون آيات الله في الليل ويسجدون له سبحانه ويؤمنون به وباليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويبادرون لعمل الخير بصلاح أعمالهم ولهم بذلك مثوبة عظيمة لهذه التقوى التي يعلمها سبحانه، وأما أولئك الكافرون منهم فإن أموالهم وأولادهم لن تنفعهم أمام حساب الله وعقابه عندما ينتهون إلى الخلود في النار بكفرهم

وطغيانهم، وأنهم مهما أنفقوا من أموالهم في هذه الحياة الدنيا فهي كريح شديدة البرودة وتهلك الزرع الذي تمر به فهم ظالمون لأنفسهم بما اقترفته أيديهم..

وتعود السورة لتنبه المؤمنين إلى ضرورة التعامل الحذر مع الكافرين والمنافقين من أهل الكتاب وغيرهم بحيث لا يعيّنوا أيَّ حاشية لهم منهم لأنهم لا همّ لهم إلا الإفساد على المؤمنين وإيقاع الأذى بهم وذلك واضح من كرههم لكم الظاهر في كلامهم والمخفي في صدورهم، فاحذروا من ذلك مادمتم تدركون وتفهمون أحوالهم..

وانظروا كيف أنكم تحبونهم بينما هم لا يحبونكم وكيف أنكم تؤمنون بكل الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله بينما هم يزعمون ذلك نفاقاً أمامكم ويخفون حقدهم عليكم، فقل لهم يا محمد موتوا بغيظكم وليأكل الغيظ صدوركم التي يعلم الله ما تطوي عليه من الحقد الأسود، وهاهم إن يحصل لكم أي خير فإنهم يستاؤون لذلك بينما بالعكس يسرون إذا لحقت بكم أي مصيبة، ولذلك ما عليكم إلا أن تصبروا على أذاهم وتستمروا في طاعة الله وتقواه وعندها لن يلحقكم من كيدهم أي ضرر فاطمئنوا أيها المؤمنون.

وتتابع السورة من هنا بشكل يكاد يكون متواصلاً ذكر ما حصل في غزوة بدر وغزوة أحد، وما تحقق فيهما للمسلمين من خير النصر وابتلاء الهزيمة فتقول للرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام بأن يذكر ما حدث في غزوة أحد عندما أخذ عليه وآله وصحبه السلام يرتب المؤمنين في مراكز للقتال ضد مشركي مكة، وأن فئتين من المؤمنين في جناحي العسكر كادتا تجبنا وتتراجعا ولكن الله سلّم وثبتتا متوكلتين على الله، وكان لهم في نصر الله لهم ببدر مع ضعفهم بالنسبة لعدوهم أكبر عبرة للثبات ولاسيما مع بشارة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بمدد الله لهم بثلاثة آلاف من الملائكة وهم في وضعية الخوف، وبخمسة آلاف وهم في وضع الصبر والإقدام، وأن ذلك المدد كله شكل بشارة لكم واطمئناناً لقلوبكم بنصر الله لكم مما يفرض عليكم أن تثبتوا في أحد كما كنتم في بدر ليحقق الله نصره لكم..

كما تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدم الدعاء على مشركي العرب بالاستئصال لأن الله تعالى أعلم بهم وبما سيحصل منهم من دخول في الإسلام فيما بعد وما ذلك على الله ببعيد..

ثم تأمر السورة المؤمنين أن يكفوا عن أكل الربا الذي كانوا عليه، ليستحقوا نصر الله بطاعتهم له سبحانه ولرسوله عليه وآله وصحبه السلام،كما تأمرهم بالمسارعة إلى طلب العفو من الله عنهم بالثبات في القتال والتوبة عن الربا والإنفاق السخي في اليسر والعسر والتخلص من الغيظ الذي داخلهم في صدورهم على إخوانهم الذين أخطأوا في

اجتهادهم يوم أحد فسببوا الهزيمة لهم، كما تأمرهم بطاعة الله والتوبة من أخطائهم وطلب المغفرة من الله لذنوبهم.. وعندها فقط يثيبهم الله بالمغفرة وجنة الخلد جزاء أعمالهم واعتبارهم بهلاك من قبلهم من عصاة الأمم السابقة..

ثم تأمرهم السورة بعدم الوقوع في الضعف والجبن بسبب ما حل بهم من قتل وجراح في غزوة أحد لأنهم الغالبون لأعدائهم في النهاية ماداموا ثابتين على الإيمان، وليذكروا أنه إذا مسهم قرح يوم أحد فقد مسَّ مشركي العرب قرح مثله يوم بدر، وأن في ذلك كشف عيان عن المؤمنين منهم واستشهاد بعضهم، وما لهؤلاء الشهداء من كرامة عند الله، كما في ذلك تخليص لهم من ذنوبهم وقضاء على الكافرين، كما فيه بيان لمن جاهدوا بحق وصبروا بحق وما لهؤلاء وأولئك من عظيم الأجر، وأن ذلك كله قد جاء بعد أن كنتم تتمنون الشهادة قبل وقوعها في حق بعضكم.

كما عليهم أن يذكروا أن النبوة لا تمنع الموت عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام إذا حل الأجل، وأنه لا يجوز أن يؤدي موته أو قتله إلى ردتكم عن دينكم، ويذكروا أن مثل ذلك لا يلحق بالله تعالى أي ضرر وإنما يلحق بكم أنتم ذلك، وأن الموت لن يحل بإنسان إلا بقضاء الله وقدره عند انتهاء الأجل ولذلك ما عليكم إلا أن تسعوا لثواب الآخرة ولا تقفوا عند مغانم الدنيا، كيف لا وقد كان يقاتل مع النبيين في السابق المخلصون الصادقون الذين لم يضعفهم المصاب في الله، واستمروا على قوتهم وعزتهم وصبرهم وتوجههم إلى الله بالدعاء طلباً للمغفرة والثبات والنصر فحقق المولى سبحانه لهم النصر في الدنيا والجنة في الأخرى جزاء إحسانهم في أقوالهم وأعمالهم..

وليذكروا أنهم إن أطاعوهم في دعوتهم لهم للعودة إلى دين الآباء فإنهم يردونهم إلى الكفر والخسران المبين، وأن مظهر قوة الكفار تخفي تحتها ما يلقي الله في قلوبهم من الخوف لشركهم بالله فلا ينخدعوا بهم وبقوة سلطانهم، ناهيك عن بئس المصير الذي ينتظرهم يوم الحساب، وليذكروا أنهم قد انتصروا في بداية موقعة أُحد ولكنهم هزموا في نهايتها لمخالفة الرماة أمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وترك مواقعهم ظناً واجتهاداً منهم بأنه لم يعد حاجة لبقائهم هناك وقد حسمت المعركة لصالح المسلمين، وأنه لا عليهم لو شاركوا في جمع الغنائم ولم يثبت إلا القليل منهم، فكانت الهزيمة لهم بعد أن كادوا ينتصرون، ولكن عفو الله عنهم وفضله عليهم لم يجعل مخالفتهم سبباً لاستئصالهم، وكانت الهزيمة ممثلة بضياع الغنائم من جهة وبالقتل والجراح التي أصيبوا بها من ناحية أخرى، وكان من فضل الله عليهم أن أنزل عليهم بعد ذاك الغم المزدوج شعوراً بالأمن وضغطاً بالنوم حتى نام أكثرهم بينما أولئك المنافقون فيما بينهم قد

أحزنهم حالهم وأخذوا يرددون مقولة الجاهلية بأنه لا نصر للإسلام ورسوله، وأنهم لو كان لهم الخيار لما خرجوا في هذا القتال ولما قتلوا في هذا الموقع..

وأن عليك يا محمد أن تذكّرهم بأن الأمر والنصر والهزيمة كله بيد الله وقضائه وقدره، وأن عليهم أن يكفوا عن مثل هذا القول وليعلموا أن من فرض عليه الموت كان لابد من بروزه للموت ولو كان في بيته، وأن في ذلك اختباراً لما يعتقدونه في خفايا عقولهم وقلوبهم من قبل علّام الغيوب سبحانه..

وليذكروا أنه من هرب منهم إلى المدينة يوم أُحد وقت الهزيمة، وهم غير الرماة على الجبل، ما فعلوا ذلك إلا بعبث الشيطان في نفوسهم وتخويفه لهم من الموت بسبب خطايا سابقة لهم، وأن المولى سبحانه قد عفا عنهم بحلمه وغفر فعلتهم..

كما عليهم أن يذكروا بأن في التشبه بالمنافقين الذين كانوا يدعون أمثالهم ممن بعثوا إلى موقعة بئر معونة أو غيرها لعدم الذهاب والمشاركة ليقوا أنفسهم الموت والقتل، مما يؤدي للألم والحسرة في نفوسهم، عليهم أن لا يتشبهوا بهم ويذكروا أن الحياة والموت بقضاء الله وقدره ولا يملك أحد دفعها عن أحد، فلا يقولوا مثل ذلك ولا يفعلوه، وليعلموا أن القتل في سبيل الله أو الموت في سبيله تعالى له أعظم المثوبة عنده تعالى الذي يحشر الجميع للحساب.

وهنا تنعطف السورة إلى مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام فتدعوه للحرص على اللطف واللين والرحمة في تعامله مع أصحابه كما فعل يوم أحد، وأن في ذلك ثباتاً لهم على دينهم وطاعة لله ورسوله، وأن عليه أن يعفو عنهم ويطلب لهم المغفرة ويشاورهم في كل رأي يؤدي إلى عمل، وإن كان عليه في النهاية أن يتبنى ما يراه صائباً ويمضي في تنفيذه معتمداً على معونة الله تعالى له، وأن عليه أن يذكر هو ومن تبعه من المسلمين أن النصر بيد الله فإذا جاء فلا هزيمة معه، والعكس صحيح، فلا بد من الثبات على الإيمان والتوكل على معونة الرحمن..

وأن عليهم من ناحية أخرى أن يطمئنوا أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لا يمكن أن يخونهم بمنعهم من حقهم في الغنائم، لأنه عليه وآله وصحبه السلام يعلم أن من يفعل ذلك يفضحه الله به يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، كما عليهم أيضاً أن يتأكدوا أن من يحرص على رضى الله بترك الغلول لا يمكن أن يماثل من يفعله وهو يعلم جزاء الطرفين..

وتعود بعدها السورة لتذكير المؤمنين بعدة أمور تثبيتاً لهم على الإيمان والصبر على الجهاد والسخاء في الإنفاق فيه فتذكرهم بأن المولى سبحانه يمنُّ عليهم ببعثة محمد

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو بشر مثلهم يعلمون صدقه وأمانته وهو ينقل إليهم أحكام الله تعالى ويدعوهم لكل تزكية وتطهير وهو يعلمهم القرآن والسنة مما يحقق لهم كل الهدى بعد أن كانوا مغرقين في الضلال، الأمر الذي يفرض عليهم ألا يقولوا من أين جاءتهم الهزيمة في أُحد وهم مسلمون يقاتلون في سبيل الله وفيهم رسوله لأنهم يعلمون أن الهزيمة كانت من فعلهم عند مخالفة الرماة وأنهم لو أطاعوا نبيّهم لانتصروا لأن ذلك هو قضاء الله وقدره..

وأما المنافقون فعليهم أن يعلموا أنهم عندما رفضوا المشاركة في القتال أو الدفاع فإنهم فضحوا أنفسهم للمسلمين الذين رأوهم أقرب إلى الكفر من الإيمان في حالهم ومقالهم، ناهيك عما يطوونه من النفاق في صدورهم وهم يحرضون أمثالهم على القعود عن الجهاد بحجة النجاة من القتل وكأنهم هم يستطيعون أن يحموا أنفسهم من الموت!

وأما المؤمنون فعليهم أن يعلموا أن من يُقتل في سبيل الله حي يرزق عند الله في جنته وأنه يستمتع هناك بنعمة الله وفضله ويفرح أعظم الفرح لمن سيلحق به من الشهداء لما ينتظرهم من الطمأنينة والسعادة لاستجابتهم لأمر الله ورسوله وهم يتجرعون مرارة هزيمة أُحد، وذهابهم خلف المشركين في غزوة حمراء الأسد بعد هزيمة أُحد عندما دعاهم الرسول عليه وآله وصحبه السلام لاتباعهم حتى لا تحدثهم نفوسهم بالعودة للقضاء على المسلمين، والذين لم يأبهوا بتخويف الناس لهم بتجميع المشركين ضدهم بل على العكس ازدادوا بهذا التخويف إيماناً وثقة بنصر الله فكانت النتيجة أن أوقع الله الرعب في نفوس المشركين فرجعوا لمكة ورجع المسلمون بفضل الله ونعمته ورضاه ودون قتال، الأمر الذي يفرض على المؤمنين أن يتذكروا وساوس الشيطان ولا يستجيبوا إلا لأمر الله ورسوله، ولا يخافوا إلا من الله وعقابه، وعندها سيجدون النصر والفضل بانتظارهم..

وأما هذه الردة التي ظهرت على المنافقين وإصرار أهل الكتاب من اليهود على رفض الدخول بالإسلام، فلا تأبه بهما يا محمد فإنهم لن ينقصوا من ملك الله وسلطانه شيئاً وإنما هم سيضيع عليهم خير الآخرة وجنتها وينتهون إلى العذاب الشديد بعد أن باعوا الإيمان بالكفر..

وعليهم هم أن يعلموا أن هذا الإملاء لهم بإعطائهم المزيد من العمر وطيب العيش ليس من الخير في شيء وإنما هو استدراج لهم فيزدادوا بأعمالهم الآثمة إثماً على إثم وينتهوا إلى العذاب المهين..

كما عليك يا محمد وأتباعك أن تعلموا بأن الله تعالى لن يذركم على ما أنتم عليه

من اختلاط المؤمن بالمنافق وأنه سبحانه يميّز بينكم بالمحنة والتكليف فيعرف المؤمن من المنافق، ومن ناحية أخرى فإنه تعالى لا يطلع أحداً على الغيب ولكنه يختار من يشاء من الرسل فيطلعهم على ذلك فيعرف المنافق من قبلهم من المؤمن، وأن بسبب ذلك أيضاً عليكم أن تثبتوا على إيمانكم بالله ورسوله وتطمئنوا لحكمه وأن الأجر العظيم ينتظركم بسبب ذلك..

ومن ناحية أخرى على أولئك الذين يبخلون في الإنفاق في سبيل الله أن يتأكدوا أنه ليس من خير في ذلك وإنما هو الشر الذي يظهر بجعل ما بخلوا به طوقاً يحيط بأعناقهم يوم القيامة كما يحصل لمن يمتنع عن أداء الزكاة المفروضة..

كما على أولئك البخلاء أن يعلموا أن الله يعلم تجديفهم في حقه من أنه سبحانه فقير وهم أغنياء، وأنهم سيلقون أشد العذاب على ذلك، وعلى قتلهم الأنبياء، وعلى زعمهم أن الله قد أمرهم بعدم الإيمان بأي رسول حتى يقدم قرباناً لله وتأكله النار دليل القبول، فاسألهم يا محمد رداً على افتراءاتهم إذا كانوا صادقين: لماذا قتلوا الرسل الذين جاءوهم بالبينات وقدموا القرابين المقبولة عند الله؟! وإذا أنكروا ذلك وكذبوك يا محمد فلا تأبه لذلك لأن العديد من الرسل الذين جاءوا من قبلك بالبينات والكتب الواضحة قد كذبوا..

واعلموا يا محمد وأتباعه أن نفساً واحدة لن تفلت من الموت وأن يوم القيامة، يوم الحساب، بانتظار الجميع ليفوز من يدخل الجنة لا النار بعد أن تنتهي هذه الحياة الدنيا التي لن تدوم لأحد، وإياكم أن تخدعوا بقول أولئك العصاة والبخلاء، وتأكدوا أنكم سيحل بكم من البلاء والاختبار في هلكة الأموال والأنفس الشيء الكثير، وستسمعون من اليهود والنصارى والمشركين الكلام الكثير المؤذي، فما عليكم إلا الصبر في الرد عليهم وبيان خطئهم، كيف لا وقد نقضوا ما أخذ الله على أهل الكتاب منهم من ميثاق بإلزامهم بتعريف الناس بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه ولكنهم باعوا ذلك بدراهم معدودة كانوا يفرحون بها ظناً منهم أن الدنيا قد أصبحت ملكهم، وأنهم أحق بها وأهلها، فتأكد يا محمد أنهم لن يفلتوا مما ينتظرهم من العذاب الأليم من مالك السموات والأرض سبحانه القادر على كل شيء، ما أعظم شأنه!!

وتنتهي السورة بالآيات الإحدى عشرة المتبقية لتبرز قدرة الله على الخلق، وما في ذلك من دلائل لذوي العقول على قدرته ووحدانيته وما يتصف به هؤلاء من عبادة الله وذكره والتفكر في خلقه، ثم تعلمهم كيف وبماذا يتوجهون إليه تعالى بالذكر والدعاء،

وكيف أن الله تعالى قد استجاب لهم ودعاهم للثبات على الإيمان وعدم الاغترار بحياة الكفار والتزام طريق الأبرار.

التفسير

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٦ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾

لقد أجمع المفسرون أن هذه السورة مدنية وإن بدأت بذكر الكثير من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وذلك من باب التأكيد أن العقيدة هي أساس كل التشريعات التي نزلها الله الحي القيوم على رسوله المصطفى في المدينة بكل الحق والصدق، والتي تؤكد صحة ما نزل من ذلك على الأنبياء من قبل من مثل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما السلام، تلك الرسالات التي كانت قد أنزلت من قبل القرآن لتكون هداية للناس ودليلاً لهم لخير الدنيا والآخرة، وبيّنت لهم أن من يكفر بها له العذاب الشديد كما كان يقع على تلك الأمم السابقة في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة، وذلك لأن الله تعالى لا يعجزه إيقاع ذلك على المتكبرين عن طاعته والإيمان به، وعلى الطغاة المتغطرسين على عباده فينتقم منهم صدقاً وعدلاً، كيف لا وهو سبحانه العالم بكل ما يجري في الأرض والسماء، الأمر الذي يشكل تحذيراً شديداً لمشركي العرب ولأهل الكتاب من يهود ونصارى حتى لا يقعوا في ما وقع به أسلافهم فيحل بهم عذاب الله الشديد، وهو سبحانه القادر على كل شيء، والخالق لكل إنسان كما خلق عيسى على

الصورة التي يريدها، وأن على وفد نجران من النصارى أن يقروا بذلك ويعترفوا أن عيسى مخلوق لله العزيز الحكيم في صنعه وتدبيره.

وأما ما أنزله تعالى عليك يا محمد في القرآن من الآيات بنوعيها المحكمة، أي التي لا تحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، والمتشابهة، أي التي تحتمل أكثر من معنى، فإنها في الإيمان بها والعمل بها تكشف عن صدق وإيمان المطيعين وزيغ إيمان المتشككين المنافقين الذين لا همّ لهم إلا اصطياد المتشابه بقصد فتنة المؤمنين عن إيمانهم بما يأتونه من تأويـلات بعيدة عن الصواب..

ولك أن تطمئن يا محمد أنت وأتباعك أن الله تعالى يحيط علماً بمعاني هذه الآيات المتشابهات، كما هي في إطار قدرة وفهم الراسخين في العلم الذين لا يترددون بصدق إيمانهم في القول بأن كل ذلك من محكم ومتشابه هو منزل من الله تعالى، وأن هؤلاء المتشككين لو كانوا من ذوي العقول السليمة النزيهة لما وقعوا في سوء أعمالهم، الأمر الذي جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم» وأن أمثال ابن عباس ومجاهد هما كما قالا بأنهما ممن يعلم تأويل المتشابه وإن كان بعضه لا يعلم البتة كأمر الروح والساعة، وانظروا إلى مدى إيمان الراسخين في العلم العميق في صدقه وهم يدعون إلى المولى سبحانه ألا يبعدهم في فهمهم لآياته عن الهدى الذي يريده وأن يشملهم برحمته وفضله في كل علمهم وأعمالهم وأن يجمعهم يوم القيامة في مستقر رحمته مع غيرهم من المؤمنين الصادقين بوعده الحق المبين.. وفي ذلك تنبيه وتحذير للعلماء العاملين.

ثم تنتقل السورة لتذكّر الكافرين بآيات الله وما ينتظرهم من الهزيمة في الدنيا والعذاب الشديد في الأخرى فتقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ
١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١١
قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى
فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ
يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ١٣﴾ .

وأما أنتم أيها الكافرون فاعلموا أن أموالكم وأولادكم لن تنقذكم من عذاب الله بشيء، وستكونون حطباً لجهنم يوم القيامة، تماماً كما كان مصير فرعون وأتباعه الذين

كفروا بما أنزل على موسى فحل بهم ما حل من عذاب الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة أشد وأبقى، وهو نفس الحال في حق من قبلهم من الأمم الكافرة..

فقل يا محمد لهؤلاء الكفار بأنهم سيهزمون، وهذا ما حصل ببدر، ثم في الآخرة ينتهون إلى جهنم فلا يغرَّن أهل الكتاب منهم ما لديهم من قدرة، وعليهم أن يجدوا فيما حصل في بدر عندما التقى المؤمنون بقيادة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ضد المشركين فهزموهم بعون الله وتأييده شر هزيمة، عليهم أن يجدوا في ذلك عبرة ويرتدعوا عن موقفهم قبل أن يحل بهم ما حل بغيرهم إذا كانوا من ذوي العقول السليمة والمدركة للعواقب المحتومة.

وبعدها تقف السورة محذرة من مغريات الحياة الدنيا ومحرضة على تفضيل ما عند الله تعالى بدلاً منها فتقول:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ ۞

لقد زين الله تعالى للناس بفطرتهم التي فطرهم عليها ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠]، زين لهم سبحانه محبة متاع الدنيا من النساء لكثرة إغرائهن، والبنين لشدة الحرص عليهم، والمعدنين الثمينين من الذهب والفضة، والخيل المسومة لرعيها في المروج وجمال منظرها وعظم خطرها في الحرب والسلم، والأنعام من الإبل خاصة لدورها الكبير في حياة التنقل آنئذ، والحرث من فلاحة وزراعة بكل أنواعها وعظيم مداخيلها وأهمية نتاجها للغذاء والأمن الغذائي، وأن ذلك التزيين بقصد عمارة الأرض وجعلها طيّعة بين أيدي المؤمنين لا في قلوبهم ليعلوا طاعة الله والجهاد في سبيله بما تقدمه من إمكانات لتحقيق ذلك، وعندها يجدون عند الله العود الحميد ولاسيما أن المولى سبحانه يخبرهم بما ينتظرهم من جنات خالدات وأزواج طاهرات ورضوان عظيم يوم الدين جزاء ما عملوا في طاعته لا في عصيانه بدافع تلك الشهوات التي قد تسيطر عليهم وتبعدهم عن الله، فمتى التزموا تلك

الطاعة وجدتهم يعلنون بأقوالهم وأعمالهم بأنهم مؤمنون وطالبون مغفرة ذنوبهم والبعد عن النار وعذابها، كما تجدهم صابرين عن المعاصي والشهوات وعلى الطاعات، وصادقين في أفعالهم وأقوالهم مع الله وعباده، وقانتين ملتزمين طاعاتهم، ومنفقين في سبيل الله في الواجبات والمندوبات، ومستغفرين بالأسحار بكثرة الدعوات والصلوات.. مما يستدعي من كل مؤمن أن يحرص على ذلك كله.

ثم تحدثنا السورة عن أعظم شهادة في كتاب الله وما تقتضيه في حق الكفار من المشركين وأهل الكتاب فتقول:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ
أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ
وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم
مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن
تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى
ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

مبيّنة أن لا إله إلا الله هي أعظم شهادة في كتاب الله، وأن الملائكة والأنبياء وذوي العلم يشهدون على ذلك كما يشهد عليه كل مؤمن لديه شرف العلم، مما يشير إلى ضرورة عدم التقليد في الإيمان وجعله عن يقين لا عن ظن، وأنهم بذلك تتحقق لهم الشهادة بأنه تعالى هو صاحب العدل المطلق ولأنه عزيز، فلا يمتنع عليه شيء، وحكيم فلا يعادل أمره وتدبيره شيء، وأنه سبحانه يشهد ويبيّن ويؤكد لخلقه جميعاً أن الدين

المقبول عنده هو الإسلام المتمثل بالطاعة له بعد الإيمان به وفقاً لأمره ونهيه اللذين جاءا في كتابه القرآن وسنة نبيه عليه وآله وصحبه السلام، والذي يخبر به سبحانه عن اختلاف أهل الكتاب وأنه كان على علم عنهم بكل الحقائق وإنما هو بدافع البغي وطلب متاع الدنيا، مما يستحقون عليه أشد التوبيخ، فكيف إذا أضافوا لذلك اختلافهم في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فاعترف بعضهم بصفته ونبوته اللتين وردتا في كتبهم وأنكر ذلك الأغلبية منهم، ناهيك عن اختلافهم في أمر عيسى عليه السلام عندما قال بعضهم بأنه عبد الله ورسوله وقال الآخرون بألوهيته أو بنوته لله والعياذ بالله وتعالى عنه علواً كبيراً. .

وقل لهم يا محمد بأنهم إذا جادلوك بأقوالهم المزورة ومغالطاتهم المنكرة عن الإيمان بالله أنت وأتباعك، فإن عليهم هم والمشركون من العرب أن يسلموا لله مثلهم، وعندها فقد يهتدوا، وأما إذا رفضوا الإيمان هذا فإنك لا تملك إلا هذا البلاغ بالإيمان وليس الإكراه عليه، والله وحده العالم بهم وبموقفهم والمحاسب لهم على ذلك.

وقل لهم يا محمد أيضاً إن من يكفر منهم بآيات الله ويقتل الأنبياء، ويقتل دعاة الحق والعدل، كما فعل أناس من بني إسرائيل، بأن ليس له إلا العذاب الأليم بعد أن أفسدوا أعمالهم في الدنيا فلم يجدوا معيناً لهم في الأخرى، مما يشير إلى وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل من قدر عليه وكما قدر عليه، فإما بالعمل أو بالقول أو بالاستنكار القلبي تبعاً للأذى الذي قد يلحقه في كل حال وإن كان من أعظم الشهداء رجل قام إلى إمام جائر فنصحه فقتله، وأنه لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا عندما يصبح، كما قال الرسول عليه وآله وصحبه السلام «الملك في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رذالتكم»، رواه أنس بن مالك، والرذالة هم الفساق. .

ثم انظر يا محمد إلى أولئك اليهود الذين دعوتهم للإيمان بالله والدخول في الإسلام كيف أنهم ادّعوا أنهم على ملة إبراهيم ولكنهم رفضوا العودة إلى التوراة التي تكشف كذبهم والتي تذكر صفة النبي محمد عليه وآله وصحبه السلام وتلزمهم باتباعه، وزعموا أن إعراضهم عن الاستجابة بدعوى أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة بحجة أنهم ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وما هو إلا افتراء على دينهم وكتابهم، وذكّرهم أنت وأتباعك يا محمد بذاك اليوم الذي سيجمعهم الله تعالى فيه للحساب لينال كل منهم جزاء عمله كاملاً دون أدنى ظلم، وكيف سيكون حالهم؟!

وقل لهم بأن الله تعالى وحده لا يعجزه شيء من ذلك وهو مالك كل شيء،

والقادر على كل شيء، فإذا رزق أحداً رزق الملك وإذا أخذ الرزق أخذ الملك، وإن أعز بذلك أحداً أو أذل غيره، فكل شيء من الخير والرزق مرتبط بقضائه وقدره، كيف لا وهو سبحانه الذي يتابع الليل والنهار بعضهما ببعض كما يخرج الحي كالدجاجة من الميت كالبيضة، ويخرج الميت كالبيضة من الحي كالدجاجة، وأن الرزق كله بيده يهبه لمن يشاء دون حد ولا عد.. فلا ينخدع هؤلاء المشركون والكفار بما بين أيديهم من الملك والرزق لأنه استدراج لهم ليزدادوا إثماً على إثم وفي الآخرة لهم أشد العذاب.

ثم تنقلنا السورة إلى ما يجب أن يكون عليه المؤمنون في تعاملهم مع الكافرين أولاً ومع المؤمنين الآخرين أخيراً فتقول:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

محذرة المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم أولياء بدلاً من المؤمنين لأن من يفعل ذلك فإنه ليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء، الأمر الذي يفرض على المسلمين عدم الاستعانة بالكافرين..

وهاهو الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول بهذه الآية ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ عندما طلب من عبادة بن الصامت الأنصاري البدري التقي أن يُخْرِج معه حلفاءه من اليهود يوم الأحزاب ليستظهر بهم، فعلى المسلمين أن يستغنوا عن هذه الاستعانة إلا في حالة واحدة هي أن يتظاهروا لهم بأنهم ليسوا ضدهم ويداروهم ماداموا يقيمون بينهم ويخشون منهم على أنفسهم ولكن مع الحذر الشديد في ذلك فلا يصل إلى حد ممالأتهم وإلا فعقاب الله شديد لهم لأنهم أخفوا علاقتهم بهم فإن الله تعالى عالم بهم كما هو عالم بكل ما في السموات والأرض ويحاسبهم بشدة على ذلك لأن يوم الحساب لن يفلت منه أحد حين يجد كل إنسان أعماله حاضرة في كتاب يعطى إليه إما في يمينه وإما في شماله، وعندها يتمنى ويرغب بحرارة لو تخلص من سيئاته، ولكن هيهات ومحاسبه

علام الغيوب سبحانه، والذي يتجاوز برأفته ورحمته بعباده عن الكثير من السيئات لمن يستحق ذلك من الضعفاء والتائبين..

فقل لهم يا محمد بأنهم إن كانوا يحبون الله بصدق فعليهم أن يتبعوك فيدخلوا في دينك، وعندها يحبهم الله تعالى ويغفر لهم ذنوبهم، وإن كانوا كوفد نجران يصرون على أن ادّعاءهم بألوهية عيسى هو مجرد حب لله عز وجل فعليهم أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، ويتبعوك وإلا فهم الكافرون، ﴿...فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، كما عليهم أن يطيعوا الله بالإيمان به دون شريك، ويطيعوا رسوله بالإيمان برسالته والتزام أمره ونهيه وإلا فهم مكروهون عند الله.

وبعدها تقف السورة مع اصطفاء الله لمن يشاء من الرسل ليبلغوا دينه وينفذوا أحكامه، ومع أهل الكتاب ومواقفهم الملتوية، فتقول:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ
وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ
وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ
لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ
قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي
ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ
رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ
بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ (٤١) وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٢) يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ
إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ
(٤٤) إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي
ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتۡ رَبِّ

أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ
جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ
ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي
بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ
وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ
أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ
ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ
ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ
فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ
﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ
نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن
تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ
فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ
سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ
ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ
أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ
عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا
نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ
وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا

يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ
﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ
أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا
تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ
رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ
ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن
تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ
وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ
﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ
لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ
عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ
ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ
بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ
أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ
وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ
ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا
وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ
وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ
﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ
﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ

وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ
تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ
ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ
تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ
صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

موضحة أن الله تعالى قد اصطفى دين آدم ونوح وإبراهيم وعمران وهو دين الإسلام وخَصَّ هؤلاء بالذكر لأن الأنبياء والرسل الآخرين كلهم من نسلهم، فكان اصطفاؤهم كصفوة للخلق.

وانظر يا محمد إلى ما يقصُّ عليك ربك من غيب أخبارهم عندما نذرت امرأة عمران وهي أم مريم وجدة عيسى عليه السلام أن تحبس وليدها القادم لعبادة الله ليتفرغ لخدمة الكنيسة، فشعرت بشيء من الغصَّة عندما ولدت أنثى مما لا يمكنها من تلك الخدمة كالذكر، وسمتها مريم أي خادمة الرب ودعت إلى الله أن يحميها وذريتها من الشيطان الرجيم فاستجاب الله دعاءها ويسر لها كفالة وتربية زوج خالتها زكريا عليه السلام الذي كان يرى رزق الله يتوفر لها في محرابها، مما جعله يتوجه إلى الله بالدعاء أن يرزقه الذرية الطيبة كما يرزق مريم رزق الصيف في الشتاء وبالعكس دون كد ولا جهد، مما يدل على جواز طلب الذرية الصالحة من المولى سبحانه لما فيها من خير للآباء.

وتمضي السورة مشيرة إلى أن المولى سبحانه قد أمر الملائكة أن تبشر زكريا بولد يسميه يحيى ويكون سيداً في قومه ولا أرب له في النساء، ونبياً من الصالحين ومصدقاً بعيسى الذي حملت به مريم بكلمة الله تعالى «كُن» فكان من غير أب، وأن الملائكة قد أبلغته بأن هذه هي مشيئة الله في قضائه وقدره، وأن يهب له هذا الغلام وهو كبير السن ممن لا يأتيه الولد وامرأته عاقر لا يأتيها الولد، وأن الله قد جعل له علامة على هذه المعجزة بأن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً بالإيماء وحركة الشفتين أو العينين واليدين، وأن يكثر ذكر الله والتسبيح والصلاة في الليل والنهار، فسار على ذلك.

وتنعطف السورة بعدها لمريم وأن الملائكة قد أخبرتها بأن الله اصطفاها أولاً

لعبادته مطهراً لها من كل دنس ثم اصطفاها ثانية لمعجزته بأن تلد عيسى دون أب مما يجعلها تمتاز في ذلك على جميع نساء العالمين، حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية»، وأنه لذلك أمرها سبحانه بأن تطيل القيام في الصلاة وتكثر الصلاة مع المصلين.

ثم تقول السورة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن هذه من أنباء الغيب التي يوحيها تعالى إليه ليطمئن هو ومن حوله بأنه رسول الله الذي ما كان ليعلم مما جرى من قرعة على كفالة مريم بين علماء بني إسرائيل، وأن زوج خالتها زكريا هو الذي نال هذا الشرف، لولا هذا الوحي إليه والذي ينقل إليه أيضاً ما قالته الملائكة لمريم عندما بشرتها بكلمة من الله اسمه المسيح الذي يكون وجيها في الدنيا بمكانته وجمال خلقه، وفي الآخرة بمنزلته عند الله، ومن المقربين عنده تعالى، ويكلم الناس في المهد معجزة، ويكلمهم كهلاً بالوحي والرسالة ويكون من عباد الله الصالحين، وما قالته مريم لجريانه خلاف العادة من مجيء ولد لها دون زوج، وتطمين الملك لها بأنه أمر الله في قضائه وقدره، والذي اقتضى تعليم هذا الوليد الكتابة وفهم الأمور والتوراة والإنجيل ليكون رسول الله إلى بني إسرائيل بدلالة المعجزات التي جرت على يديه من خلق الطير من الطين ونفخ الروح فيه بإذن الله، ومن شفاء الأعمى والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ومن إخبارهم ما يأكلونه وما يدخرونه من طعام ليكون في ذلك معجزات تجعلهم يؤمنون بالله وأنه عبد الله ورسوله، وأنه عليه السلام قد جاء مؤكداً صدق التوراة كرسالة من الله إلى موسى، وأنه في ما أتى به إليهم من الإنجيل يحل بعض ما حرم عليهم من أكل الإبل وبعض الشحوم، وأنهم مدعوون بذلك للخوف من الله وطاعته والتزام أمره ونهيه لأنه هو سبحانه رب عيسى وخالقه ورب بني إسرائيل وخالقهم ولا يجوز أن يعبد أحد سواه.

وتنقلنا السورة إلى ما أدركه عيسى عليه السلام من موقفهم وأنهم قد اعتزموا على عدم تصديق ما يقوله لهم وإنما الكفر به، مما جعله يستنصر عليهم من المؤمنين الآخرين من قومه فيلبي طلبه الحواريون أنصاره، ويبدون استعدادهم لنصرته لكونهم مؤمنين بالله ومقرين على أنفسهم بالإسلام والخضوع لله وحده وداعين إلى الله أن يثبت أسماءهم مع أسماء الشاهدين على أنفسهم بالإيمان بالله وبما أنزل من توراة وإنجيل وباتباعهم رسوله عيسى عليه السلام.

ومن ناحية أخرى ماذا فعل كفار بني إسرائيل؟

لقد مكروا وتآمروا على قتل عيسى بعد أن قرروا الكفر به وبرسالته فأنقذه الله من

مكرهم بأن أوقع الشبه على أحدهم ليحل به عذابهم ويلقي المولى سبحانه النوم على عيسى ويرفعه إلى السماء ويجنبه أذاهم ويعلي مكانته على كل الكفار ويفصل بينه وبينهم يوم القيامة عندما يقفون بين يديه تعالى، وفئة اليعقوبية منهم تزعم أن عيسى هو الله الذي أقام فيهم ما شاء ثم صعد إلى السماء، وفئة النسطورية منهم تزعم أن عيسى هو ابن الله الذي أقام فيهم ما شاء الله ثم رفعه إليه، وفئة المسلمين التي رأت فيه عبد الله ورسوله والتي تظاهرت عليها الفئتان الكافرتان فأبادوها حتى جاء الإسلام ورسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام فانتصر عليهم، وليؤول مصير الكافرين منهم بالإسلام ورسوله إلى العذاب الشديد في الدنيا بالهزائم التي تلحقهم وفي الآخرة بنار جهنم والخلود فيها بينما يجد المؤمنون منهم بالإسلام ورسوله الثواب الجزيل..

فيا محمد إن هذا كله من الدلائل والمعجزات التي كانت مغيبة عنك والتي بها تفحم أهل الكتاب ليستجيبوا لدعوتك بمقدار ما تقتنع به عقولهم وتطمئن نفوسهم، كيف لا وأن في قولك لهم بأن عيسى في مولده دون أب أقل معجزة من آدم الذي جاء بلا أب ولا أم، مما يفرض الإدراك الحق على عقولهم إن اختارت النزاهة في التفكير وتجنب العمه في الإدراك..

وتأتي بعدها السورة إلى ما يطلق عليه المباهلة أي التضرع في الدعاء إلى الله، أن يجعل لعنته تعالى على الكاذبين من الطرفين عندما يصرون على الجدال والخصومة بعد كل هذه الحجج والبراهين، وعندما يطلب منهم أن يحضروا أبناءهم ونساءهم معهم ليكونوا مع ما يقابلهم من المسلمين ويتضرعوا لله ليُنزل عذابه على جماعة الكاذبين، ولكنهم مع علمهم بصدق الرسول عليه وآله وصحبه السلام خافوا من المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم اليمن..

ثم تثني السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن هذا الذي يقصه الوحي عليه هو من القصص الحق، وأن عليه ألا يهتم لإعراضهم وكفرهم وإفسادهم لأن الله تعالى عليم بهم وكفيل بأعمالهم، وأن عليه أن يدعوهم هم واليهود كأهل كتاب ليلتزموا بكلمة الحق والعدل فيما بينهم ويلتزموا بعبادة الله وحده ودون الإشراك معه بأي شريك، وطاعته في كل ما حرم وحلل وليس طاعة أحد من البشر في التحليل والتحريم، فإن رفضوا الاستجابة لدعوتك فاستشهدوهم على أنكم وحدكم المسلمون من دونهم.

وهنا يعلمنا الرسول عليه وآله وصحبه السلام وهو يعلم أنس بن مالك بأن المسلمين لا ينحنون لبعضهم البعض في تبادل التحية ولا يتعانقون وإنما يتصافحون كما

ورد في حديث أخرجه ابن ماجة في سننه، ويستثنى من ذلك ما بين الأقارب والأصدقاء كما فعل الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

ثم تطلب السورة من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يسألهم مستنكراً لماذا يجادلون في إبراهيم فيزعم اليهود أنه كان يهودياً ويزعم النصارى أنه كان نصرانياً بينما لم تنزل التوراة والإنجيل إلَّا من بعده، فأي عقل يفكرون به؟! وكيف يجادلون في إبراهيم الذي لا علم لهم به في كتبهم لأنه جاء قبلها إذا جاز لهم أن يجادلوا في محمد عليه وآله وصحبه السلام لأنه ورد وصفه في كتبهم؟!

وقل لهم يا محمد بأن إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان موحداً على الحنيفية الإسلامية البعيدة عن كل شرك، وأنهم ليسوا بأتباع إبراهيم بهذا الشرك الذي هم عليه وإنما الأولى به هو أنت النبي المصدق به ومن اتبعك من الموحدين المسلمين..

وتنبه السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه إلى محاولة بعض اليهود من بني النضير وقريظة وقينقاع دعوة بعض الصحابة من معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر إلى دينهم وترك الإسلام مما يؤدي بهم إلى الضلال، وما هم في الحقيقة لفشلهم في ذلك إلا مضلين لأنفسهم إذ لم يحرصوا على معرفة صحة الإسلام قبل الدعوة لتركه..

ثم تستنكر السورة عليهم كأهل كتاب كفرهم بصحة الآيات والدلائل التي وردت في كتبهم وإقدامهم على خلط الحق بالباطل بإنكارهم نبوة محمد عليه وآله وصحبه السلام وكتمان صفاته الواردة عندهم والتي يعلمونها حق العلم..

ثم توبخهم السورة بفضح ألاعيبهم وخاصة فئة منهم من أمثال كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وغيرهما التي تطلب من أراذلهم أن يندسوا بين المسلمين متظاهرين بالإسلام صباحاً ومنكرين له مساء ليشككوا المسلمين بدينهم ويعيدوهم إلى الكفر، وتأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يرد على دعوتهم لبعضهم البعض ألا يثقوا إلا بأبناء دينهم بأن الهدى الحق ليس ما هم عليه وإنما ما أنزله سبحانه في القرآن الناسخ لكتبهم والملزم لهم بالاتباع بدلاً منها، وأن زعمهم بأن ما أنزل عليهم لا مثيل له فلا يستمعوا لغيره حتى لا يكون حجة عليهم، فرد عليهم يا محمد أيضاً بأن فضل الله قد تحقق بنزول القرآن الناسخ لكتبهم، والله وحده هو صاحب هذا الفضل العظيم والعليم بمن يستحقه ومن هو أهله.

وتواصل السورة تنبيه الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه إلى نمط آخر من معاملة أهل الكتاب فتقول بأن منهم من أمثال عبد الله بن سلام من إن تأمنه على قنطار

من الذهب يدفعه لك في أجله بينما منهم من أمثال فنحاص بن عازوراء من إن أودعت عنده دينار، كما حصل فعلاً، فإنه ينكره عليك اللهم إلا إذا ألححت في الطلب عليه، وما ذلك إلا لأن أمثال هذا يدّعون أنه حلال عليهم أكل أموال الأميين من العرب وغيرهم من الأمم وما هم بذلك إلا مفترين على الله عن علم وتصميم.

وقد رأى الإمام أبو حنيفة من هذه الآية ملازمة الغريم ومنعه من التصرف بل حبسه إذا لم يف بدينه في أجله، ومما يعطي الأمانة في التعامل قدراً كبيراً حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في شأنها «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»، ومما لا يجيز للمسلم أخذ شيء من مال الذمي إلا عن طيب نفسه، ومما لا يجعلهم أهلاً للشهادة لأنهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾..

وتواصل السورة هذا التنبيه فتؤكد الفرق بين من لا عهد له في التعامل، ويستحل أموال الآخرين، وبين من يفي بالعهد ويتق الله في تعامله فلا يستحل ما حرم عليه، ثم تبين قبيح فعلة من يبيع عهده ويمينه بثمن رخيص من متاع الدنيا عندما ينكر حق الغير عنده، وأن عاقبته ضياع آخرته وسخط الله عليه ووقوعه في العذاب الأليم، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» برواية الأئمة عن أبي أمامة، كما تدل السورة هنا على أن حكم الحاكم لا يحل المال بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانه..

وتنقلنا السورة إلى التنبيه على اعوجاج آخر في سلوك أهل الكتاب عندما يتظاهر بعضهم بشكل معين عند نقل النصوص ليظن السامع بأنه حق وما هو في الحقيقة إلا تحريف للكلام وإبعاد له عن القصد وافتراء على الله عن سابق علم وتصميم ولاسيما لأن أحداً من البشر لا يمكن أن يختاره لرسالته ويعطيه الحكمة في تبليغها والنبوة في بيان أحكامها وبراهينها ثم يزعم للناس بأنه معبودهم من دون الله وإنما يقول لهم بأن يكونوا مخلصين لله وصادقين في طاعته وفقاً لما يعلمونه من الرسالة وما يدرسونه تبليغاً وتطبيقاً على غيرهم، كما لا يمكن أن يأمر الناس بأن يجعلوا لهم من الملائكة والأنبياء أرباباً من دون الله لأنه بذلك يأمر بالكفر والخروج عن الإسلام..

وفي هذا الموضع من السورة تشنيع على أهل الكتاب لزعمهم بربوبية عيسى والعزير..

وبعدها تشير السورة إلى العهد والميثاق الذي أخذه الله من أنبيائه أجمعين عند اصطفائهم بأن يؤمنوا بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وينصروه إن أدركوه، وأن يأخذوا العهد بذلك من أممهم، ولكن بني إسرائيل غيروا وحرفوا ونقضوا العهد والميثاق ورأوا

في شرك العرب الأفضلية، والعياذ بالله، على دعوة محمد للوحدانية مما جعل المولى سبحانه يتهدد من يفعل ذلك من أهل الكتاب لأنه من الفاسقين الخارجين عن الحق، ثم يسألهم مستنكراً رغبتهم في ابتغاء غير دين الإسلام الذي أمر الله به البشرية كلها، مع أن كل من في السموات والأرض قد استسلم وانقاد وخضع وذل لله سواء عن رضى وطواعية من المؤمن أو عن كره ونفور من الكافر. .

فقل يا محمد للناس بعامة ولأهل الكتاب خاصة بأنك وأتباعك قد آمنتم بالله وما أنزل عليكم من القرآن والسنة، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط الاثني عشر وموسى وعيسى والأنبياء الآخرين من الملة والتوحيد لا من المنهج والتشريع لأن ﴿...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

وقل لهم أيضاً يا محمد بأن من يرتضي لنفسه ديناً غير دين الإسلام فإن الله لن يقبل منه ذلك وأنه من الخاسرين لآخرتهم يوم القيامة عندما يزج به للخلود في عذاب جهنم.

ثم تعطف السورة استنكاراً على هذا القول بالسؤال عن كيفية هداية الله لمن اختار الكفر بإرادته وتصميمه مرتداً عن الإيمان وعن الإقرار السابق بأن الرسول محمد حق وأنه جاء بالبينات الحق، فمثل هذا المرتد ظالم لنفسه لا تجد هداية الله طريقاً إلى عقله وقلبه بعد أن طمسا بسواد المعاصي والعياذ بالله، وأن جزاء مثل هذا الظالم لنفسه بكفره نزول لعنة الله عليه وذلك بإبعاده من رحمته تعالى، ونزول لعنة الملائكة والناس جميعاً بالدعاء عليه ألا تشمله رحمة الله، وأن يخلد في عذاب الله متى نال جزاءه دون تأجيل ولا تأخير اللهم إلَّا إذا تاب قبل أن يوافيه الأجل أو العلل وأصلح حاله فإنه ينال مغفرة الله ورحمته. .

وأما أولئك الذين يكفرون بعيسى والإنجيل كحال اليهود، ويزدادون كفراً بإنكارهم للإسلام رسولاً ورسالة، فليس لهم توبة وهم على هذه الحال المغرقة في الكفر والضلال، وهؤلاء على شبه مع أولئك الكفار الذين ماتوا على كفرهم وأن على هذا الكافر وأمثاله أن يدرك بأنه لن ينال البر والخير والجنة إلا إذا أنفق لوجه الله وفي سبيله ما يحب من المال الطيب والذي يعلمه الله حق العلم، وهيهات للكافر أن يفعل ذلك وإنما المؤمن الصادق وحده هو الذي يفعله، وهاهم الصحابة يتسابقون على فعل ذلك. .

وتشير السورة هنا أخيراً إلى ما كان عليه بنو إسرائيل في طعامهم، وأنه كله كان حلالاً قبل نزول التوراة باستثناء ما كان إسرائيل قد حرم على نفسه، فاطلب منهم يا

محمد أن يرجعوا للتوراة بهذا الخصوص ليجدوا صدق هذا إذا كانوا هم صادقين، وأما إذا افتروا على الله الكذب كعادتهم وادعوا أن ذلك ليس في التوراة فليتحملوا وزر ظلمهم لأنفسهم بهذا الكذب ذلك أن يعقوب قد حرم على نفسه لحوم الإبل بوصف الأطباء لأنه كان مصاباً بعرق النسا، ولكن اليهود ادعوا كذباً أن هذا التحريم موجود في التوراة فكذبهم الله ورد عليهم: ﴿...قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ ولكنهم لم يفعلوا ذلك فقال عز وجل: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ مما يؤكد الدلالة في هذا النص على نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال له عز وجل تعقيباً على ذلك: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ بأن ذلك لم يكن محرماً في التوراة ولذلك ﴿...فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ واتركوا ملّتكم المحرفة لأن إبراهيم لم يكن مشركاً بدلالة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إذ ترك الشرك بالله الذي هم عليه..

وهنا تشير السورة إلى موضع لإبراهيم عليه السلام صلة وثيقة به وتربطه في تشريع عبادة الحج في الإسلام فتقول:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

فالمسجد الحرام هو أول بيت وضع في الأرض للعبادة وتلاه المسجد الأقصى ببيت المقدس الذي بناه سليمان عليه السلام. فبكة هي المسجد ومكة هي الحرم كله بما فيه كل ما يحيطه من بيوت، وجعل الله العمل في المسجد مباركاً لمضاعفة العمل فيه كما جعله هدى يهتدي الناس به إلى قبلتهم في الصلاة مما جعل فيه علامة واضحة على توحيد الله ووحدة المسلمين ووحدة قبلتهم، وأمَّن من يدخله فلا يتعرض لأي خطر مثل الخطف كما كان يجري في الجاهلية إذا كان خائفاً..

وإن كان جمهور الفقهاء يرون أن الحدود تقام في الحرم إذ أمر صلى الله عليه وآله وسلم بقتل عبد الله بن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة لقتله مسلماً وارتداده عن الإسلام، كما أن من دخله متنسكاً يأمن من النار حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»..

وأما فريضة الحج فهي أحد قواعد الإسلام الواجب أداؤها مرة واحدة في العمر،

وأن الأداء واجب على التراخي لا على الفور، وأن الوجوب على من يستطيع ذلك بأن يملك الزاد والراحلة كما يملك القدرة البدنية بالمشي في الحج، وإن كان الزاد والراحلة هما الأساس وفقدان أحدهما يلغي الاستطاعة، وكذلك الدين وفقدان نفقة العيال فهما مقدمان على الحج إذا لزما والحج على التراخي إلا إذا كان عنده من العروض ما يبيعه وينفذ به الحج بعدئذ، أو يؤجله صاحب الدين، والمريض والمعطوب الذي لا يستطيع الثبات على الراحلة لا يلزمهما المسير إلى الحج لأنه لا استطاعة لهما، وأما قوله تعالى ﴿...وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فيعني من كفر بفرض الحج ولم يره واجباً.

وتعود السورة بعدها لتتحدث عن أهل الكتاب وكفرهم وصدهم عن الإيمان بالإسلام فتقول:

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

فاسأل يا محمد أهل الكتاب وبالذات اليهود عن سبب كفرهم بآيات الله تعالى المحيط بأعمالهم وعن سبب محاولاتهم لإبعاد المؤمنين عن الإيمان بالإسلام متقصدين العوج عن الحق الذي ترونه في التوراة المكتوب فيها أن الله تعالى لا يقبل غير الإسلام..

وأنتم أيها المؤمنون احذروا أن تستجيبوا لدعوات الفتنة بين الأوس والخزرج التي يطلقها بعض اليهود لتمزيق شمل المسلمين وإعادتهم إلى الكفر بعد الإيمان، الأمر الذي يستنكر وقوعه منكم بعد أن آمنتم وأصبحتم تعيشون مع آيات الله تلاوة وتطبيقاً، وترون رسوله عليه وآله وصحبه السلام فيما بينكم صباح مساء، فاحذروا ذلك والتزموا كتاب الله وأمره ونهيه ففي ذلك الهدى والصراط القويم.

وتواصل السورة أمر المؤمنين بالتقوى والوحدة على كتاب الله وسنة رسوله والدعوة إلى ذلك فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ
جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ
إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣
وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ
١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥
يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا
كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾.

فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم، برواية البخاري «حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر».

وذكر المفسرون أنه لمَّا نزلت هذه الآية قالوا يا رسول الله: من يقوى على هذا؟ وشق عليهم ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ناسخة لها، وقيل مبينة لها بمعنى فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، وهو الراجح.

ثم دعت السورة المؤمنين أن يحرصوا على التمسك بكتاب الله ويكونوا يداً واحدة في ذلك ولا ينسوا نعمة الإسلام والإلفة التي أنعمها عليهم إذ وحد بين قلوبهم وأزال الخصومة والشحناء والعداوة من بينهم، ليصبحوا أخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متخاصمين..

وحذر رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أمة الإسلام من هذه الفرقة والخصومة فقال: «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»-رواية الترمذي عن أبي هريرة- وفي رواية أخرى أضاف «كلهم في النار إلا ملة واحدة» وعندما سئل عنها قال: «ما أنا عليه وأصحابي» وفي رواية أخرى بأنها ما عليه الجماعة.

ثم تدعو السورة الأمة الإسلامية لتشكل منها أمة أو جماعة أو حزبا أو جماعات وأحزاباً بشرط أن تدعوا إلى الخير أي الإسلام وتأمر بالمعروف من الشرع وتنهى عن المنكر في نظر الشرع وعندها يكون هؤلاء هم المفلحون الفائزون بعملهم لنشر الإسلام

وتقوية المسلمين، ثم تدعوهم من باب التأكيد والتشديد ألا يكونوا كاليهود والنصارى الذين تفرقوا في دينهم فكيف تنازع المسلمون واختلفوا على أئمتهم مع أن البينات والأدلة بين أيديهم بحيث مهما اختلفوا في الاجتهاد يبقى «اختلاف أمتي رحمة» فلا ينقسموا للتخاصم والعداء وإلا تعرضوا للعذاب بالتشتت والذلة في حياتهم ومع أعدائهم، وما يجري هذه الأيام أمام الصهيونية والصليبية لأقوى دليل.

ثم تنبههم السورة بأن العذاب الأشد ألماً ينتظرهم إذا فعلوا ذلك عندما تبيضُّ وجوه المؤمنين الصادقين في دعوتهم لنشر الإسلام ووحدة المسلمين وتطبيق الشريعة في الأرض، وعندما تسود وجوه من كفروا وعملوا على تمزيق الأمة واضطهاد دينها والعاملين في سبيله تعالى سواء كانوا من المبتدعة أو أصحاب الأمر والنهي في الأمة..

وتنبه السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن آيات الله ومعجزاته واضحة في ذلك كله وفيها الحق كله وما نعيشه في طول البلاد الإسلامية وعرضها خير شاهد وأقوى دليل على صدق ذلك وأحقيته، كيف لا والله تعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، لأنه سبحانه غني عن الخلق كلهم وهو مالك كل ما في السموات والأرض وإليه سبحانه يرجع الأمر كله ليحاسب المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وتستمر السورة في مخاطبة المسلمين وتحديد الخيرية فيهم وفي أهل الكتاب فتقول:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

مبينة أن خيرية هذه الأمة تتحقق عندما يتحقق على أيدي أبنائها ثلاثة أمور:

الأمر بالمعروف من الشريعة، والنهي عن المنكر في نظر الإسلام، والإيمان بالله تعالى وإن قال صلى الله عليه وآله وسلم «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» برواية الأئمة من حديث عمران بن حصين..

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مؤوّلاً هذه الآية: من فعل مثل فعلكم كان مثلكم مخاطباً الصحابة مؤكداً معنى قوله عليه وآله وصحبه السلام في حديث أنس: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أم آخره»، كيف لا وقد أجاب سالم بن عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عندما طلب منه أن يكتب إليه بسيرة عمر بن الخطاب ليعمل

بها، أجابه قائلاً: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، وكتب إليه بمثل ذلك جميع فقهاء زمانه.

ولاشك أن ربط هذه الآية بسابقتها التي تأمر بتشكيل الجماعات والأحزاب الإسلامية يظهر الواجب على هذه الأمة في كل عصر.

ومن ناحية أخرى تبين هذه الآية أن خيرية أهل الكتاب من يهود ونصارى لن تتحقق لهم إلا بعد الإيمان بالإسلام ورسوله والدخول في أمته، وهذا ما فعله القليل منهم وبقي أكثرهم على فسقه والخروج عن طاعة ربه.

وبعدها تنبه السورة إلى نوعية ما يمكن أن يلحقه أهل الكتاب من أذى بالمسلمين، وتبين سبب ذلك فتقول:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ
﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ
وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

مبينة للمسلمين بأن كذب أهل الكتاب وتحريفهم وبهتهم هو الأذى الممكن أن يلحقوه بهم لا الغلبة عليهم مهما تعالوا وتغطرسوا، وأنهم ما أسرع ما يهربون أمام المسلمين في المعارك، وما أكثر ما يجري عندما يخوض المسلمون أيَّ قتال صادق في سبيل الله، وسبب ذلك أن المذلة والهوان والخضوع قد فرضت عليهم وبالذات اليهود حيثما حلوا ولا تستثنى من ذلك إلا الحالة التي يأخذون بها بالقوة التي أمر بها الله سواء كانت من وحدتهم أو العتاد الحربي بين أيديهم، كما يجدون في حماية المسلمين لهم كأهل ذمة ما يحقق لهم التماسك وإيقاع الأذى بالمسلمين المتفرقين المستضعفين،

وبالرغم من ذلك فسيبقى سخط الله واقعاً بهم والمسكنة تعمل عملها في نفوسهم المتعجرفة وذلك لكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء فكانوا عصاة معتدين طيلة عهودهم..

ولكن بالرغم من هذا المظهر العام عليهم عبر عهود التاريخ إلا أن منهم جماعة، كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسيد بن عبيد، وغيرهم ممن أسلم من يهود وصدقوا في إيمانهم يختلفون عن الأكثرية منهم إذ هم يواصلون تلاوة القرآن في الليل وفي الصلاة ويؤمنون بالله تعالى وبيوم القيامة ويقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالدعوة لاتباع الإسلام وترك الكفر، ويبادرون بعمل الخير من الأعمال الصالحة مما يجعلهم من الصالحين من أصحاب محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وفي معيتهم في الجنة..

واعلموا أن الكافرين منهم لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم أمام عذاب الله في شيء وسينتهون إلى الخلود في النار، وعليهم أن يعلموا أن ما ينفقونه من أموال مهما كثرت في هذه الحياة الدنيا ليس بأكثر من زرع أصابته ريح باردة، أو نار فأحرقته وأهلكته ولم ينتفع به أصحابه بعد أن كانوا يرجون عظيم منفعته وفائدته، وهم بذلك ليسوا بأكثر من ظالمي أنفسهم لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه فلم ينفقوا في سبيل الله بصدق وإخلاص.

وتعود السورة وتنبه المسلمين وأولي الأمر منهم بالذات إلى نوعية الحاشية التي عليهم أن يتخذوها وسبب ذلك فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ
أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ
ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن
تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

محذرة المسلمين لعدم الركون إلى الكفار واتخاذ حاشية منهم، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» في سنن أبي داود برواية أبي هريرة، ومبينة نهي الله تعالى عن مواصلتهم لأنهم لا يتركون جهدا في فساد المؤمنين ولو بالمكر والخديعة، فحيثما يقتضي الإخلاص والأمانة لا يجوز

استعمالهم لأن علام الغيوب سبحانه يعلمنا ما هم عليه من الكره للمسلمين بالرغم من محاولتهم مبادلتهم المحبة بسبب إيمان المسلمين بجميع الكتب المنزلة، ولكن الغيظ والحقد ينهشان صدورهم فيفرحون كلما حلت بالمسلمين مصيبة ويستاؤون إذا حل بهم خير..

ولذلك فإن المسلمين مدعوّون للصبر على أذاهم واتقاء شرورهم، وعندها يسلمون من كيدهم، فاطمئنوا أيها المسلمون لذلك ولا تعاملوهم إلا بما يستحقون.

وترجع السورة لتذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحابته وأتباعه حتى قيام الساعة بما حصل في معركتي بدر وأُحد ليعتبروا من ذلك فتقول:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ
مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ
ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟
أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ
وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ ۞

واذكر يا محمد إذ غدوت صباحاً من منزلك مع عائشة في غزوة أحد لتوزع

المؤمنين على مواطنهم للقتال ضد ثلاثة آلاف مقاتل جاؤوا من مكة في الثاني عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، ودارت المعركة ليستشهد حمزة رضي الله عنه ويَقتل الرسول عليه وآله وصحبه السلام طلحة بن عثمان اللخمي حامل لواء المشركين، وقد كادت فئة من جيش الرسول عليه وآله وصحبه السلام وهم بنو سلمة من الخزرج وفئة أخرى وهم بنو حارثة من الأوس، أن يجبنا وهما جناحا العسكر يوم أحد وذلك بسبب عبث المنافقين ورجوعهم إلى المدينة بقيادة ابن أبيّ، ولكن الله تعالى ثبتهم ومضوا مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام دون تقاعس، وماذا كانت النتيجة؟ لقد استشهد من المهاجرين أربعة ومن الأنصار سبعون رضي الله عنهم أجمعين، وجرح وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكسرت رباعيته اليمنى السفلى بحجر رماه ابن عمرو بن قميئة الليثي وشاركه في إيقاع ذلك الأذى عتبة بن أبي وقاص الذي أصاب رباعيته عليه وآله وصحبه السلام، وانتزع أبو عبيدة رضي الله عنه بأسنانه حلقتي الدرع اللتين غارتا في وجه الرسول عليه وآله وصحبه السلام مما سبَّب سقوط ثنيته، وقتل وحشي مملوك جبير ابن مطعم حمزة رضي الله عنه الذي حرَّره سيده مكافأة له..

وأما التوكل في ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهو الثقة بالله والاطمئنان بمضي قضائه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم في السعي واتخاذ الأسباب واستعمال ما تقتضيه سنة الله المعتادة، وليس هو ترك الأسباب والركون إلى مسبِّب الأسباب لأن مثل هذا القول طعن في سنة الرسول عليه وآله وصحبه السلام الذي أخذ بالأسباب واطمأن لنصر رب العباد..

ثم تقول السورة مذكرة المسلمين منذ عهد الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى قيام الساعة بأن الله قد نصرهم ببدر مع ضعفهم وقلة عددهم إذ كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً وعدوهم ما بين التسع مئة إلى الألف، ودارت المعركة بين الطرفين في السابع عشر من رمضان، وفي يوم الجمعة بالذات، وهُزمت قريش رغم كثرة جيشها، وكان ذلك ما يستدعي الشكر لله والخوف من أي مخالفة لأمره وأمر رسوله الذي طمأن أفراد جيشه من المسلمين بأن الله ممدهم بثلاثة آلاف من الملائكة، وإن صبروا في القتال وتجنبوا أي مخالفة فإن المدد يصبح خمسة آلاف من الملائكة، وقد لمس المسلمون مشاركتهم الفعلية في القتال حتى قال سهيل بن حُنيف رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر وأن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه..

هذا وقد قيل بسبب قلة مشاركتهم الفعلية في القتل والقتال أنهم حضروا للدعاء

بالتثبيت وتكثير سواد جيش المسلمين أكثر منه للقتال الفعلي وإلا لأفنوا المشركين عن آخرهم، ولذلك أشارت الآية التالية بصراحة إلى أن مشاركة الملائكة كانت بشرى وتطميناً لأن النصر أولاً وآخراً بيد الله تعالى وحده، وأن الهدف من ذلك قتل عدد من المشركين لا كلهم مما يحزنهم بهذا وبالهزيمة فيعودوا لمنازلهم فاشلين رغم كثرة عددهم..

وعندما تأذى الرسول عليه وآله وصحبه السلام همّ أن يدعو الله تعالى ليستأصلهم فجاءت السورة تقول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فعلم عليه وآله وصحبه السلام أن منهم من سيسلم، وهكذا كان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم ممن أصبحوا من مشاهير القادة المسلمين فيما بعد..

كما أن السورة أشارت إلى ما يريده تعالى لهم من ذلك إما التوبة أو العذاب وكأن لكل أمر فئة منهم تندرج تحته، ثم نبه سبحانه بأنه مادام النصر بيده وأن كل ما في السموات والأرض بيده فهو سبحانه الذي يتجاوز عمن يشاء منهم ويعذب الآخرين.

وهنا خاطب المولى سبحانه المؤمنين بأن يتجنبوا عصيان الله في كل شيء ومنها أكل الربا الذي كانوا عليه بصورة الأضعاف المضاعفة، ويخشوا الله في كل أعمالهم، لكي يحقق لهم النصر والفلاح، ويتجنبوا النار المعدَّة للكافرين، ويحرصوا على طاعته سبحانه وطاعة رسوله في كل ما يأمرهم به لتلحقهم الرحمة، ويبادروا في طلب المغفرة من الله عند ارتكاب أي خطأ أو تردد في القتال وعندها يجدوا الجنة على اتساعها باتساع السموات والأرض معدّة لهم كمتقين، متقين ينفقون في سبيل الله في اليسر والعسر، في الرخاء والشدة، في الصحة والمرض، متقين يكظمون غيظهم فلا يظهرونه إذا غضبوا بل يعفون عمن غضبوا عليهم وهو قمة الإحسان، متقين يبادرون لذكر الله وطلب المغفرة لارتكابهم أية فاحشة في مجال الزنا أو الظلم في مجال التعامل المالي مع الآخرين، فيهبون لطلب المغفرة من الله تعالى الذي لا يغفر الذنوب أحد غيره، ويحرصون على عدم الإصرار على أي منكر يقعون فيه وهم يعلمون حقيقته بأن فيه مخالفة أو خطأ شرعياً..

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا توبة مع إصرار» لأن الإصرار يعني عدم نية التوبة، ولأن التوبة والعود إليها بعد تكرار الذنب أحسن من ابتدائها ولاسيما أن تكرار الذنب قد يهوّن ارتكابه ونسيان التوبة كلياً، والمهم ألا يصرَّ على البقاء على الذنب ويتجاهل التوبة كما لا يصرُّ على ارتكابه فكلما زلت به القدم بادر للندم..

والأمر بالتوبة يجعل الجزاء مغفرة الذنوب والدخول في جنات خالدات طيبات،

فاطمأنوا أيها المؤمنون لهذا الشأن الذي درج عليه السابقون ولاسيما من آثار العذاب الذي كان يحل بالكاذبين منهم، وأن في هذا كله بياناً وبلاغاً للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، كما فيه بيان لطريق الهدى الحق وموعظة لمن يخشون الله ويخافون عذابه ويطلبون رضاه وجنته.

وتواصل السورة حث المؤمنين على الثبات في الجهاد فتقول:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ
ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ
شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ
أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ
مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ
أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى
ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ
ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ
مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾
بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ
أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾
وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ
ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ
فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ
بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ

أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ
ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا
هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى
ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ
كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ
بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ
ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم
مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ .

احذروا أيها المؤمنون من أن تضعفوا وتجبنوا عن جهاد أعدائكم لما أصابكم، وإياكم أن تحزنوا لما أصابكم من هزيمة في أحد لأن العاقبة بالنصر ستكون لكم مادمتم مؤمنين بصدق وعد الله لكم بذلك. .

واذكروا أنه إن حل بكم قتل وجرح في أحد فقد أصابهم مثله في بدر، فالأيام دول بين الناس ليظهر الله المؤمنين رؤية العيان ويتخذ منهم الشهداء، فقد روي عن علي رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر فقال له: «خيّر أصحابك في الأسارى، إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء، على أن يقتل منهم عام المقبل مثلهم فقالوا الفداء ويقتل منا» أخرجه الترمذي- فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه أي بقتلهم، بعد أن خيّرهم فاختاروا القتل، وأما المشركون فإن الله لا يحبهم وإن نالوا في أحد من المؤمنين بينما يحب المؤمنين وإن عرضهم للألم، لأنه بهذا الألم يخلصهم من ذنوبهم بينما في النهاية يستأصل الكافرين.

ثم تحذر السورة المؤمنين حتى لا يظنوا أنهم يدخلون الجنة دون كشف المجاهدين منهم للعيان وإظهار الصابرين ليقتدي بهم الآخرون، وتقول لهم بأن يذكروا أنهم كانوا يتمنون الشهادة من قبل الاستشهاد في المعركة وهاأنتم رأيتموها في أحد،

والمهم أن تحذروا إذا قتل الرسول عليه وآله وصحبه السلام أو مات، لأن مثل هذا قد يصيبه كما أصاب الرسل من قبله، أن تهزموا أمام الكفار أو ترتدوا عن الإسلام لأن من يفعل ذلك لا يضر الله بشيء وإنما يضر نفسه ويعرضها لعقاب المخالفة لأن الله تعالى لا تنفعه طاعة أحد ولا تضره معصية أحد وهو سبحانه الذي يجازي الشاكرين الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا..

ثم تذكّرهم بأن موت أي امرئ لن يتم إلا بقضاء الله وقدره ومتى انتهى أجله، فليحرص الواحد منهم ليس على طلب الدنيا بما فيها من غنائم لأنها تأتي مع النصر تحصيل حاصل، وإنما على طلب الآخرة وثواب الله الجزيل بالجنة والرضى وعندها سيؤتيه وصحبه من النصر ما يستحقه جزاء ثباته وعدم انهزامه في المعركة..

ثم تذكّرهم بأنه كم من الأنبياء من جاهد واستشهد معه من الصادقين المخلصين العدد الكثير، وأنهم لم يضعفوا أمام أعدائهم بسبب أي ألم حل بهم بل واصلوا الجهاد دون ذل ولا خضوع فنالوا محبة الله لصبرهم على الجهاد، كيف لا وهم يدعون الله رغم ما يحل بهم أن يغفر لهم ذنوبهم من الصغائر والكبائر وينصرهم على الكافرين مما استحقوا معه ما جازاهم به المولى سبحانه من ثواب الدنيا بالنصر فيها وحسن ثواب الآخرة بالرضى والجنان، لإحسانهم في صبرهم وجهادهم..

ثم تذكّرهم بالحذر من طاعة الكافرين من مشركين وأهل كتاب في دعوتهم لهم عند الهزيمة بالعودة إلى دينهم الأول لأنهم بذلك يرتدون للكفر ويخسرون دنياهم وأخراهم، وأن ما عليهم إلا أن يطمئنوا أن الله سيلقي الرعب والخوف في قلوب المشركين جميعاً لينتهي الأمر بقتالهم للهزيمة في الدنيا والنار في الآخرة..

ثم تذكّرهم بأن الله تعالى قد صدقهم الوعد بالنصر في بداية موقعة أُحد عندما قتلوا حامل لواء المشركين وسبعة آخرين من حراس اللواء ولكنهم ما إن اشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضاً مركزهم طلباً للغنيمة حتى وقعت الهزيمة بهم، وعليه فقد صدقهم الله وعده وأراهم الفتح ولكنهم عندما عصوا أعقبهم البلاء فكادوا في البداية يقتلونهم ويستأصلونهم بقضاء الله وقدره لتحقيق النصر لهم ولكنهم عندما جبنوا وضعفوا امتحنهم الله بالهزيمة فكان من نتيجة تنازعهم وعصيانهم أن وقعوا بالفشل والهزيمة وذلك أن بعض الرماة رغبوا باللحاق بالغنائم، وبعضهم ثبتوا تنفيذاً لأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وكان المشركون في الميدان بعد أن قتل حامل لوائهم قد دبَّ الرعب والفزع بينهم، وأخذ المسلمون يعملون فيهم بالقتل مما جعل الرماة الخمسين يرون ألا حاجة لبقائهم في مواقعهم والمسلمين يجوسون معسكر المشركين، فتنازعوا مع من

أصروا على الثبات على الجبل فجاءتهم خيل المشركين بقيادة خالد بن الوليد الذي كان ما يزال مشركاً فعملت فيهم بالقتل..

فجاءت السورة هنا توبخهم على سوء فعلتهم إذ أضاعوا على المسلمين النصر المحقق بذلك العصيان وطلب الغنيمة، ولكن الله عفا عنهم بعد أن ثبت منهم من ثبت بقيادة أميرهم عبد الله بن جبير الذي استشهد بحملة خالد وعكرمة عليهم، فعفا عنهم سبحانه بعد الهزيمة إذ لم يعرضهم بسبب المعصية والمخالفة التي جاء جزء منها كاجتهاد منهم، لم يعرضهم للاستئصال وغفر لهم سبحانه خطأ اجتهادهم لأنه عز وجل صاحب العفو والمغفرة..

كما تذكّرهم بأن العفو من الله قد جاءهم بعد أن أخذوا يهربون دون أن يلتفت بعضهم إلى بعض والرسول عليه وآله وصحبه السلام يناديهم في أخراهم بعد أن بقي معه اثنا عشر رجلاً منهم فقط ويصرخ بهم «أي عباد الله ارجعوا» كما روى ابن عباس، فكان أن حل بهم غمُّ الهزيمة وغمُّ ضياع الغنيمة وهم يرون سبب ذلك فلا يحزنوا وتتحطم معنوياتهم وإنما يحذروا تكرار الوقوع في مثل هذه المخالفة ليحافظوا على استحقاقهم لنصر الله..

ثم تذكّرهم بما تفضل الله عليهم به بعد هذه الغموم يوم أحد من النعاس الذي نام بسببه أكثرهم، وهم المؤمنون، بينما المنافقون الذين خرجوا معهم طلباً للغنيمة لم يغشهم النعاس وأخذوا يتأسفون على الحضور ويشيعون الأقاويل من مثل أن أمر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) باطل وأنه لا يُنصر، وأنهم لم يخرجوا باختيارهم، فكذبهم المولى سبحانه بأن النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء تبعاً لأحقيته بالطاعة أو المعصية..

وتخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما يشيعون من أنه لو كان لهم رأي لما خرجوا إلى قتال أهل مكة ولما قتل رؤساؤهم، فيكذبهم أيضاً المولى سبحانه بأن من انتهى أجله سيأتيه الموت ولو كان نائماً في بيته أو أنه يخرج لمكان آخر يُصرع فيه حتى يبتلي صدورهم ويكشفهم للمؤمنين، هذا من ناحية المنافقين وأما المؤمنون فقد جاءت هزيمتهم يوم أُحد اختباراً لصبرهم وتخليصاً لهم من سيئاتهم إن تابوا وأخلصوا وفي ذلك الخير كل الخير لهم وللمسلمين..

ثم تذكّرهم بأن من هرب منهم إلى المدينة وقت الهزيمة، وهؤلاء غير رماة الجبل، فقد وسوس لهم الشيطان بخطاياهم السابقة فكرهوا الثبوت خوفاً من القتل

فهربوا، ولكن حلم الله شملهم بعفوه ومغفرته فاطمأنت نفوسهم لهذا العفو بالرغم من تلك المعصية..

ثم تحذرهم من جديد من أن يكونوا كالمنافقين الذين قالوا لرفاقهم في النفاق عندما بعثهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بئر معونة ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ فيرددون مثل قولهم، وليحذروا ترديد مثل هذا القول سواء سافر بعضهم للتجارة وطلب الرزق أو لغير ذلك فماتوا، أو كانوا غزاة فقتلوا، فلا يرددوا ذلك لأنه يترك الألم والأسى في النفوس دون أن يرد شيئاً من قضاء الله وقدره في الموت إذ الحياة والموت بيده تعالى، والقتل والموت في سبيله خير من الدنيا وما فيها، وسيظهر ذلك يوم الحشر عندما يحل هؤلاء الشهداء أعظم المنازل عند الله..

ثم تذكر للرسول عليه وآله وصحبه السلام عظيم موقفه من أصحابه بعد هزيمة أُحد، وكيف أنه عاملهم برحمة ولطف ولين رغم ما سبَّبوه من هزيمة مما جعلهم يزدادون التفافاً حوله، الأمر الذي جعل المولى سبحانه يدعو رسوله عليه وآله وصحبه السلام للعفو عن معصيتهم، ويطلب المغفرة لهم، ويحرص على مشاورتهم في الأمر حيث تلزم المشورة، ولكن متى استقر رأيه على فكرة معينة فليمضها متوكلاً على الله دون تردد.

ولذلك فإن طلب الرأي في الشورى والالتزام بما يوصل إليه يحتاج إلى نظر: فالرأي إما وحي من الله، فلا مجال للشورى فيه إلا من باب التطمين للرجال ورفع مكانة من يعرض عليهم ليعرفوه ويطبقوه ويدعوا له، وإما رأي في تحديد مفهوم أو تعريف قاعدة أو فكرة، وصاحبه هو الخبير العالم بمجاله ولا مجال للشورى فيه إلا كالرأي السابق، وإما رأي يؤدي إلى فكر كالاجتهاد في النصوص والأحكام التي يتوصل لها من ذلك، وكالبحوث السياسية والاستراتيجية الموصلة لأفكار معينة فلا مجال فيها للشورى إلا في إطار علماء كل ميدان وخبراء كل فن سواء في السلم أو الحرب، في السياسة أو الاقتصاد أو التعليم وغيرهما،وإما رأي يؤدي إلى عمل كبحوث المهندسين في تحديد المواقع لمختلف الإنشاءات، وما تحتاجه من نفقات، والأولوية في ذلك في مختلف مناطق وولايات الدولة الإسلامية، وأصحابه هم أهل المشورة فيه (أهل مكة أدرى بشعابها) أي يستشار فيه كل من له صلة بذلك ممثلين بالنواب ممثليهم في مجلس الأمة أو ما يسمونه البرلمان.

ولنا في ملاحظة مواقف من سيرة الرسول عليه وآله وصحبه السلام مستند في هذا الفصل: فإنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض تدخل كبار الصحابة في صلح الحديبية

قائلاً بأن ذلك أمر الله ولن يضيعه مشيراً إلى أنه لا مجال للشورى مع الوحي، هذا أولاً، وأخذ عليه وآله وصحبه السلام برأي الخبير في المواقع الحربية في موقعة بدر قائلاً: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، ولم يطلب من غيره الرأي، هذا ثانياً، وكذلك فعل بأخذ رأي سلمان الفارسي الخبير في الخنادق لدرء خطر هجوم العدو يوم الخندق، وأما ثالثاً فإن معنى تحديد المفاهيم والتعريفات لكل الأفكار والقواعد وأمثالها هو العودة للعالم والخبير بها فلا مجال للشورى في ذلك أيضاً بدليل ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ من آية ٤٣ من سورة النحل وآية ٧ من سورة الأنبياء، وأما رابعاً فهو ما فعله الرسول عليه وآله وصحبه السلام عندما أخذ يستشير أصحابه للخروج من المدينة لمعركة أُحد أو البقاء فيها والحرب حولها، فإنه عليه وآله وصحبه السلام قد نزل عند رأي الأكثرية وخرج ورفض التراجع عن ذلك لأنه كان رأيا يؤدي إلى عمل الخروج أو البقاء، وهذا هو فقط مجال المشورة الملزمة من بين جميع الآراء والمجالات الحياتية، وللمسلم والذمي، رجلاً كان أو امرأة، أن يدلي في ذلك، ولا ننسى قوله عليه وآله وصحبه السلام في ذلك لوزيريه أبي بكر وعمر «لو اتفقتما في مشورة ما خالفتكما» فالمشورة إذن ملزمة والشورى لا تلزم إلا في المجال الذي يؤدي فيه الرأي إلى عمل وأما غيره فلا.

وبعد أن تذكر السورة بأن النصر بيد الله لا يعطيه إلا لمن يستحقه تنقلنا للتذكير بجانب خطير آخر في الميدان الحربي فتقول:

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

مُطمئنة المسلمين أن النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لا يمكن أن يظلم في قسمة الغنيمة سواء مكثتم أيها الرماة في مواقعكم أو نزلتم عن الجبل لتشتركوا في جمع الغنائم لأن مثل هذا الظلم لا يتناسب مع أمانة الرسالة، وهو عليه وآله وصحبه السلام القائل «لا إغلال ولا إسلال» أي لا خيانة ولا سرقة، وهو عليه وآله وصحبه السلام يُتلى عليه قوله تعالى: ﴿...وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾ أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته مفضوحاً بإظهار خيانته على رؤوس الإشهاد، وهو عليه وآله وصحبه السلام يقول: «شراك أو شراكان من نار» لمن تأخر في إحضارهما للقسمة يوم خيبر، وإن كان

عليه وآله وصحبه السلام لم يعاقب المتأخر في ذلك بحرق متاعه وإن كان يمكن أن يؤدبه بالتعزير والضرب، وإن اعتبر الرد في ذاته توبة لفاعله. .

واعلموا أن من الغلول هدايا العمال فلا يجوز أن يقبل أي عامل أو موظف من عمال أو موظفي الدولة هدية من أحد كما قال عليه وآله وصحبه السلام: «من اتخذ غير ذلك فهو غال سارق» فليس له غير راتبه حتى لو أخذ كتاباً لنفسه من الكتب التي يرغبها من الغنائم بحجة هدية. .

وبعدها نبهت السورة أن من يحرص على نوال رضوان الله بترك الغلول والصبر على الجهاد فإنه لا يمكن أن يكون كالمتعرض لغضب الله بكفر أو غلول أو تولٍّ في الحرب الذي لا مثوى له غير جهنم إذا لم يتب ويقبل الله توبته، فشتان بين الفريقين في الجزاء عند الله، فمبتغي الرضوان له درجات في الجنة والمتعرض لغضب الله له دركات في النار.

ثم تذكّر السورة المؤمنين بمنة الله العظيمة عليهم ببعثة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فتقول:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

مشيرة إلى ما أظهره عليه وآله وصحبه السلام من البراهين وهو بشر مثلهم مما يؤكد أن ذلك من عند الله فشرفوا به عليه وآله وصحبه السلام فكانت تلك المنة ولاسيما مع معرفتهم الوثيقة بحاله في أعماله وموقعه فيهم، ثم وهو ينقذهم بالإيمان من كل أرجاس الكفر ويعلمهم من القرآن والتدبر ما يجعلهم في بون شاسع عما كانوا عليه من الضلال السابق.

ثم تعود السورة لتذكّر المؤمنين بما أصابوا يوم بدر وأول يوم أُحد وبما أصيبوا بعدها يوم أُحد، وموقفهم فيهما فتقول:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ

أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

فانظروا أيها المؤمنون إلى تساؤلكم عن سبب الهزيمة التي حلّت بكم يوم أُحد وأنتم تقاتلون في سبيل الله، وأنتم على الإسلام وهم على الشرك، وفيكم نبيّ الله ووحي ربه وفيهم دنس الشرك والوثنية..

فيأتيهم الجواب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْۗ﴾ بمخالفة الرماة ولو أطعتم لكان النصر كله لكم لأنكم ستكونون حزب الله الغالبين، أَمَا وقد عصيتم فقد حلّت بكم الهزيمة بقضاء الله وقدره، مما يؤدي لكشف كل المؤمنين على حقيقة الإيمان والمنافقين على حقيقة النفاق ولاسيما من يدعون للقتال لتكثير سواد المقاتلين فيعتذرون عن ذلك ليكونوا على حال يفضح نفاقهم وكذبهم مما يجعلهم أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان، إذ إن ما يصرحون به من الإيمان ويضمرونه من الكفر يؤكد افتراءهم ولاسيما وهم يدعون رفاقهم في النفاق من الأحياء ويخاطبون من جيَّف منهم بأنهم لو أطاعوهم في عدم الخروج مع المسلمين ولم يجاهدوا معهم لما قتلوا مما تجد الآية تكذبهم قائلة: ﴿...قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وهنا جاء دور ذكر مكانة الشهداء عند الله فتقول السورة:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

مبينة أن شهداء أُحد وأمثالهم ممن ثبتوا واستشهدوا من أمثال حمزة ومصعب رضي الله عنهما هم أحياء في الجنة يرزقون إذ فضلوا عن غيرهم من موتى المسلمين بالرزق في الجنة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم، وهذا هو الفرق الذي يبنى عليه عدم الصلاة على الشهيد لأنه حي حكماً كالحي حساً، كما لا يغسلون بل

يتركون مع دمائهم، ومادامو قد قتلوا في المعركة، وأن لهم عظيم الثواب حتى أن شهيد البحر يمتاز على شهيد البر بما قاله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «ويغفر لشهيد البر الذنوب كلها إلا الديّن ويغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والديّن».

وأما الديّن الذي يحبس الشهيد عن الجنة فهو ما قدر فيه على الأداء ولم يؤده أو لم يوص بأدائه.

وأما استبشارهم بمن لم يلحق بهم فهو لما وجدوه من فضل الله عليهم وأنه بانتظارهم متى استشهدوا مثلهم وأن في ذلك عظيم النعمة وجزيل الفضل التي تفوق كل شيء مثلها في الدنيا..

وأن مثل هذا الأجر العظيم يناله أولئك الذين لبَّوا دعوة الرسول بعد هزيمة أُحد وانطلقوا خلف مشركي العرب ليمنعوهم من التفكير بالعودة أو اللحاق بالمسلمين مما جرى في غزوة حمراء الأسد، لما في هذه الاستجابة من عظيم الإيمان والتضحية..

وأن مثل هذا الثواب الجزيل يناله كل أولئك المؤمنين الصادقين الذين لم يبالوا بتخويف الناس لهم من منافقين وغيرهم من الخروج لملاقاة المشركين بل على العكس زادهم ذلك إيماناً بالله وثقة بنصره وهم يرددون ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ مما يناله كل من هو على شاكلتهم إلى يوم الدين وللذين ما إن يفوضوا أمورهم إلى الله تعالى وينطلقوا مجاهدين حتى يعطيهم الله تعالى من الجزاء على أربعة أشكال: النعمة والفضل وصرف السوء واتباع الرضا فرضوا عنه ورضي عنهم..

ثم تذكّر السورة المؤمنين بأن مثل ذاك التخويف لا يستحق أن يقام له أي وزن لأنه من عبث الشيطان ووسوسته لأتباعه مما يفرض عدم الخوف منهم ومن تجمعهم مهما كثروا لأنهم جبناء وأنتم أيها المؤمنون مهما قلَّ عددكم فإنكم مندفعون للتضحية في سبيل الله.

وبعدها تدعو السورة رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لعدم الحزن على من ارتدوا خوفاً من المشركين فتقول:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى
ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا

كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٨٠﴾﴾.

مذكرة الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن هؤلاء الجماعة الذين ارتدوا عن الإسلام خوفاً من المشركين لا يستحقون الهمّ والغمّ والحزن الذي يشعره نحوهم، كما لا يستحق شيئاً من ذلك أولئك اليهود الذين كتموا صفتك وأصروا على الكفر بالإسلام . .

ومذكرة له عليه وآله وصحبه السلام أنهم لا ينقصون من ملك الله وسلطانه شيئاً بسبب كفرهم وإنما هم يجْنون على أنفسهم فيحرمونها من الجنة ويلقون بها إلى النار، وأنهم كمن باع إيمانه بالكفر فهو لن يضر الله في قليل ولا كثير وإنما يجلب لنفسه أليم العذاب . .

وليذكر هؤلاء الذين كفروا أن طول العمر ورغد العيش التي يعطيها المولى سبحانه لهم مع تخويفهم للمسلمين هي ليست خيرا لهم وإنما هي مجلبة للمزيد من المعاصي والآثام وذل العذاب . .

كما ليذكّر المؤمنين الذين طلبوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق أن الله تعالى بما يجري في ميادين القتال وبما يصدر على ألسنة المنافقين يميز بين المنافق الخبيث والمؤمن الطيب، وأنه تعالى لا يطلع المؤمنين ويعرفهم بالمنافقين حتى يعرفوهم من واقع تصرفاتهم بالتكليف والمحنة، وإنما سبحانه يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على غيبه، فما عليكم أيها المؤمنون إلا الثبات على الإيمان بالله ورسله لما في ذلك لكم من عظيم الأجر وإياكم أن تنشغلوا بالتشوف إلى الإطلاع على الغيب.

كما ليحذر أولئك الذين يبخلون في الإنفاق من فضل الله وفي سبيل الله، فبخلهم لن يجلب لهم أي خير مهما وفروا من المال، ولاسيما إذا كان من المفروض عليهم في الزكاة أو غيرها، وليتأكدوا بأنهم يجلبون الشر لأنفسهم ولاسيما عندما يتخذ منه طوق يوم القيامة حول عنق الواحد منهم . .

والرسول عليه وآله وصحبه السلام يؤكد ذلك إذ يقول: «ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله إلا مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق به في عنقه»- والشجاع الأقرع هو

الأفعى الضخمة-، ولذلك ليحذروا ذلك وأنهم غداً تاركون كل شيء خلفهم ليرثهم المولى سبحانه وهو مالك كل ملك في الأصل.

وتواصل السورة التذكير بأولئك البخلاء وما يفترونه على الله فتقول:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾.

فما هذا الافتراء على الله يا حيي بن أخطب ويا فنحاص بن عازوراء وأمثالكم من زعماء اليهود في قولكم إن الله تعالى فقير لأنه سبحانه حث على الإنفاق بهذا الأسلوب البليغ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾..

ولتعلموا أن الله مسجل عليكم كل أكاذيبكم هذه وأمثالها ليجازيكم عليها يوم القيامة، وسيحفظ لكم عدوانكم وقتلكم للأنبياء، كما فعل أجدادكم ورضي عنه أحفادهم، وسيجازيكم كلكم بحريق العذاب جزاء ما فعلته أيديكم، واعلموا أن المولى سبحانه لا يظلم الناس جميعاً ولكنهم يظلمون أنفسهم..

وتذكّر أيضاً بهؤلاء المفترين على الله وهم يزعمون أن الله تعالى قد عهد إليهم وفي طليعتهم كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهوذا وفنحاص بن عازوراء ومن صحبهم من اليهود، بأن لا يؤمنوا لرسول يدعي أنه من عند الله حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، فإن فعل ذلك صدقوه وإلا فلا، فتنعى عليهم كذبهم وهم الذين جاءهم رسل من قبلك يا محمد بالحجج والبراهين وبالقرابين فكذبوهم، الأمر الذي لا تستغرب يا محمد عليهم تكذيبك أيضاً.

وهنا تذكّر السورة بالموت الذي لابد لكل نفس إلا وتذوقه، منبهة على الفائز في النهاية، فتقول:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾».

مبيّنة للمؤمنين وغيرهم أن كل هذا البخل من البخلاء والافتراء من أهل الكتاب لن يدوم لأن أمد الدنيا قريب، ويوم الجزاء قادم لا محالة بعد أن يبعث الله النفوس كلها وقد أماتها من قبل ليحاسبها على ما فعلته فيفوز فقط من مرَّ عن النار ودخل الجنة. .

فليذكر هؤلاء البخلاء المفترون ذلك كله وليستعدوا له. .

وأنتم يا مؤمنون تأكدوا أنكم ستختبرون بالإنفاق في أموالكم وبالآفات تحل بها كما تختبرون في أنفسكم بالموت والأمراض، كما ستتعرضون لكثير من الطعن من أهل الكتاب والمشركين، وما عليكم أمام ذلك من هجاء للرسول عليه وآله وصحبه السلام وتشبب بنسائكم إلا أن تصبروا وتتجنبوا أذاهم حتى يأتي أمر الله بقتالهم ووضع حد لافتراءاتهم وإن كان لابد من الاستمرار على الجدال بالتي هي أحسن ومداراة السفهاء مادام في ذلك خير للإسلام ودعوته.

وتعود السورة وتذكّر بالعهد الذي أخذه تعالى على أهل الكتاب وما فعلوا بصدده فتقول:

«وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾».

موضحة أن اليهود قد أمروا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبيان أمره ولكنهم كتموا نعته مما استدعى هذا التوبيخ لهم ولمن على شاكلتهم ممن يعلم ذلك العلم الحق ويكتمه عن الناس مهما تعرض من إغراءات متاع الدنيا لأن الثمن سيبقى بخساً أمام خطورة ما باعوا. . وكأن في ذلك تشنيع على من يزعمون أنهم من المسلمين ويكتمون بيان الحق مهما كان نوعه!

وأما أولئك المتخلفين عن الغزو من المنافقين فلهم شأن آخر مع السورة هنا إذ تقول:

«لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾».

فلا تفرحوا أيها المنافقون بتخلفكم عن الجهاد مع رسول الله، واعتذاركم إليه بالحلف الكاذب، ورغبتكم أن تحمدوا بما لم تفعلوا، لأن ذلك كله لن ينقذكم من العذاب الأليم الذي ينتظركم لذلك كله، ويكفيكم أن تذكروا أن الله كل شيء وأنكم في قبضته وأنكم لن تنجوا من عذابه.

وأخيراً تذكّر السورة المؤمنين بما عليهم من الدعاء الصادق والعبادة الحقة والطاعة المخلصة لله تعالى فتقول:

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ
ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا
سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ
١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ
أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ
لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ
حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا
مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ
عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾.

مذكرة المؤمنين بما يجب عليهم من النظر والاستدلال في آياته التي لا تصدر إلا عن حي قيوم غني عن العالمين ليكون إيمانهم مستنداً إلى اليقين لا إلى التقليد، إلى الدليل الجازم لا الظني، لأن أولي الألباب يستخدمون عقولهم في تأمل الدلائل، والرسول عليه وآله وصحبه السلام الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقرأ هذه الآيات العشرة الأخيرة من سورة آل عمران كل ليلة..

ومبينة لهم أن من صفات أولي العقول أنهم كانوا يداومون على ذكر الله على كل حال من قيام وقعود وعلى الجنب وغيرها، وفي جميع أوقات التعامل مع الله والنفس والآخرين، سواء بالدعاء أو الصلاة أو التزام الأمر والنهي، بحيث إذا لم يستطع أن يفعل ذلك على حال معينة أخذ بالرخصة فصلى قاعداً مثلاً بدلاً من قائماً، وصلى على جنبه بدلاً من القعود، وتفكر في خلق السموات والأرض وما فيهما ليزداد في إيمانه يقيناً بأن شيئاً من هذه المخلوقات لابد له من خالق مدبر قادر على كل شيء..

والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» فهو سبحانه فوق إدراك القدرة العقلية البشرية بالنسبة لذاته ولكنه في إطارها بالنسبة لمخلوقاته، وما أعظم أثر هذا التفكير حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» ليقول بأن الخالق المدبر سبحانه لم يخلق ما خلقه عبثاً وهزلاً بل دليلاً على قدرته وحكمته، مما يجعل المؤمنين يتوجهون إليه بالدعاء أن يجرهم من عذاب النار الذي لا يدخله إلا ذليل مهان لا يجد معيناً ولا ناصراً، ويتضرعون إليه تعالى بأنهم سمعوا دعوة محمد وآيات كتابه فآمنوا راجين مغفرة الذنوب وتكفير السيئات والحشر في الجنان مع الأنبياء، ويدعونه سبحانه المغفرة الموعودة على ألسنة رسله ولا يعذبهم ولا يخزيهم يوم القيامة ويدخلهم جناته كما يحقق لهم النصر على عدوهم في الدنيا.

وتطمئنهم السورة بأنه تعالى قد استجاب لهم فلا يضيع أجر عمل صدر من ذكر منهم أو أنثى بدءاً من المهاجرين الذين قُتلوا في سبيل الله وانتهاءً بغيرهم من المؤمنين الصادقين الذين يكفّر الله سيئاتهم ويمنحهم أعظم الأجر، ثم تدعو السورة النبي عليه وآله وصحبه السلام وأمته لكي لا تغرهم أموال الكفار وكثرتها فكلها متاع زائل ومصيرهم النار وشتَّان بينهم وبين المؤمنين ومصيرهم الجنة ثم تذكرهم بالمؤمنين الصادقين من أهل الكتاب ومالهم من عظيم الأجر عند الله.

وانتهت هذه الآيات بالحضّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، وعلى الثبات أمام الأعداء بكل شجاعة في الهجوم والمرابطة، وعلى مخافة الله في كل آن وحال، وفي ذلك كله الفلاح المبين.. وكفى بذلك خيراً عظيماً...

دليل سورة آل عمران ـ ٣

-إنها سورة مدنية، وتسمى طيبة، ومع البقرة تسميان الزهراوان، وقد أنزل نصفها الأول في وفد نجران النصارى، وجاء عدد آياتها ٢٠٠ آية.

-تبدأ بالتأكيد بأن الله تعالى هو المعبود بحق دون غيره لأنه الحي الباقي الخالق المدبر، ولأنه منزل القرآن ومن قبله التوراة والإنجيل بحق لا شك فيه.. وأن على الوفد النجراني أن يؤمن بذلك ويكفوا عن التكذيب به وإلا نزل بهم العقاب كما نزل بفرعون وأتباعه..

- ثم تهدد اليهود وأمثالهم من الكفار بالهزيمة في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة إذا أصروا على كفرهم وغطرستهم ضد الإسلام ورسوله.. وبين أيديهم الأدلة الواضحة من موقعة بدر ومما خلق تعالى من نعم الدنيا الفانية وما ينتظر المؤمنين من نعم الآخرة الخالدة..

-ثم تحذر وفد نجران واليهود وجميع أهل الكتاب من استمرار البغي وإنكار الإسلام والزعم بأن عذابهم في النار سيكون لمدة محدودة.. وتتهددهم أن عليهم أن يؤمنوا بالإسلام لتغفر لهم ذنوبهم.. وليذكروا قدرة الله على الخلق والتدبير عندما حقق لامرأة عمران نذرها فولدت مريم، وحقق لزوج خالتها زكريا دعاءه فأنجب يحيى مع تقدم السن وعقم الزوجة.. وعندما ولدت مريم عيسى دون زوج ليكون معجزة وتأتي على يديه المعجزات بإذن الله تعالى..

-وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يباهل من ينكر ذلك من بني إسرائيل فيدعو الله تعالى أن يجعل لعنة الله على الكاذبين.. ولكنهم رفضوا ذلك خوف نزول اللعنة عليهم.. كما تدعوه عليه وآله وصحبه السلام الحذر من زعماء اليهود الذين يطلبون من أتباعهم التشكيك في الإسلام بدخوله صباحاً والخروج منه مساءً..

-وتذكر أنواعاً من جدالهم الباطل من مثل استحلال أموال غيرهم كذباً، ومثل زعمهم بأن كتابهم يدعو لعبادة غير الله مع أن جميع الكتب تأمر بعبادة الله وحده وبالإيمان بالإسلام ورسوله.

-وتبين لهم بأن الإسلام يأمر بالإيمان بالكتب والرسل السابقين جميعاً دون تمييز بينهم.. وتؤكد بأن من يكفر بالإسلام لن تكون له توبة ولا فداء يوم القيامة..

-ثم تبين ما أحل الله تعالى لبني إسرائيل من الطعام وما حرمه عليهم بغضّ النظر عن إنكارهم ذلك بتحريف كتبهم وتبديل ما يوضح ذلك فيها..

-ثم تؤكد لهم بأن الإسلام قد جاء مصدقاً لكتبهم وناسخاً لها لأنه الدين الخاتم..

-وبالإشارة إلى ملة إبراهيم تتحدث عن الحج والبيت الحرام بمكة، وتستنكر تنفير اليهود للناس عن دين الله الإسلام وتدعوهم للتمسك به..

-وتأمر المؤمنين أن تكون منهم جماعة أو حزب يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو للإسلام وأنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة، وأما بنو إسرائيل المنكرون للإسلام فهم الخاسرون لهما..

-ثم تخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه بأنهم خير أمة تعمل لخير الناس ما داموا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وأن بني إسرائيل والمشركين جميعاً سيكونون من الأذلاء ما داموا على باطلهم..

-ثم تذكر بأن من أهل الكتاب فئة مؤمنة صادقة الإيمان، وهم الأقلية، ومنهم الأكثرية الكافرة المنافقة الذين يجب الحذر منهم..

-وتذكّر بما حصل في بدر وأحد من نصر في الأولى وابتلاء بالهزيمة في الثانية، وسبب كل منهما، لتأخذوا دائماً بالأسباب أيها المسلمون..

-وتأمر المؤمنين بالكفّ عن أكل الربا ليستحقوا النصر، كما يكفوا عن جميع المحرمات ليستحقوا ذلك دائماً..

-وتذكّر المؤمنين بأن النبوة لا تمنع الموت عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام إذا حان انتهاء الأجل.. وأن الموت بقضاء الله وحده فلا يسمحوا للخوف منه أن يقعدهم عن الجهاد في سبيل الله..

-وتثْني السورة على الرسول عليه وآله وصحبه السلام لتعامله باللطف واللين والرحمة مع أصحابه يوم أحد وأن في ذلك الثبات لهم على دينهم.. ولا سيما وهم يرون عدله عليه وآله وصحبه السلام في توزيع الغنائم..

-ويدعوهم تعالى بالسخاء في الإنفاق في الجهاد والصبر عليه، وتذكرهم السورة بما منّ تعالى عليهم من الإيمان والإسلام، وتطمئنهم بأن الجنة ستكون جزاء شهدائهم الأحياء فيها.. وتحذرهم من عناد أهل الكتاب والمشركين في الكفر، وأن يعلموا بأن كل ما بين أيديهم من الخير هو مجرد استدراج لهم.

-وتؤكد أخيراً للمؤمنين والكافرين بأن أحداً لن يفلت من الموت ومن الحساب يوم القيامة، وأن قدرة الله على الخلق والموت أكبر دليل لاستثارة العقول للإيمان والدعاء إليه تعالى بطلب المغفرة والرضوان والثبات على الإيمان وصحبة الأبرار ونبذ الأشرار..

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ دعوة وفد نجران ليقروا ويعترفوا بأن عيسى مخلوق لله تعالى.

٢ ـ الأمر للمؤمنين بالإيمان والعمل بالآيات المحكمة والمتشابهة على حدٍّ سواء.

٣ ـ تذكّر المشركين وأهل الكتاب بأن الهزيمة كما حصل في بدر ستكون نصيبهم إذا أصروا على الكفر..

٤ ـ تحذر المؤمنين من مغريات الحياة الدنيا من نعم النساء والأولاد والأموال والأنعام.. وأن يحرصوا على ما عند الله من نعيم الجنة بدلاً من ذلك كله..

٥ ـ تذكر أعظم شهادة في كتاب الله بأنها شهادة الله بوحدانيته، وأن الملائكة وأولي العلم يشهدون بذلك.. يشهدون بأنه خالق الخلق ومدبرهم..

٦ ـ تأمر المؤمنين بعدم موالاة الكافرين، وتذكّرهم باختياره تعالى لآدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران ليكونوا رسله وأنبياءه للناس، لأقوامهم حتى جاء الإسلام ليكون للناس كافة ناسخاً لكل الأديان السابقة.

٧ ـ ثم تستنكر على أهل الكتاب نسبة اليهودية والنصرانية لإبراهيم عليه السلام وقد جاء قبلهما وكان موحداً وبعيداً عن الشرك الذي يزعمونه ويحرفون به كتبهم.. وتؤكد للناس كافة بأن الله لا يقبل غير دين الإسلام للناس جميعاً.

٨ ـ وهنا تذكّر بأن المسجد الحرام بمكة هو أول بيت وضع في الأرض للعبادة ثم بعده بأربعين سنة بني المسجد الأقصى بالقدس..

٩ ـ ذكرت بأن «حق تقاته» التي أُمر بها المؤمنون يرجح بأنها غير منسوخة وأن آية «فاتقوا الله ما استطعتم» مبينة لها..

١٠ ـ تحدد نوعية البطانة للحاكم بأن يكونوا من المؤمنين الصادقين.. ولا يكونوا من الكافرين..

١١ ـ تؤكد أسباب النصر في بدر وأسباب الهزيمة في أحد، وتحذر من ذلك في كل معارك الجهاد..

١٢ ـ تتحدث عن استشارة الحاكم للأمة، وهنا يوضح متى تلزم الشورى ومتى لا تلزم.. وقد تم بيان ذلك في التفسير المرافق..

١٣ ـ وتتحدث عن جوانب متعددة من معركة أحد سواء بحق المؤمنين الصادقين أو المترددين أو المنافقين.

١٤ ـ وأخيراً تدعو المؤمنين للحرص على الدعاء في جميع الأحوال وبالذات أثناء القتال.

سورة النساء (٤)

التقديم

السورة تبدأ بمخاطبة الناس جميعاً مسلمهم وكافرهم داعية لهم ليخشوا الله الذي خلقهم من نفس واحدة هو آدم عليه السلام الذي خلق منه زوجه حواء ليتناسلوا ويخلفوا العديد من الأولاد بنين وبنات كبداية للبشرية كلها . .

ثم تدعوهم لمخافة الله مرة أخرى في مجال آخر ألا وهو بالدعاء له بالهدى والتوفيق في الدنيا والرضى والجنة في الأخرى، من جهة، والحرص على الأرحام وصلتهم، من جهة أخرى، للحفاظ على الترابط الأسري والمجتمعي في المجتمعات البشرية التي تبدأ السورة أول ما تبدأ بأضعف أفرادها ألا وهم اليتامى، فتدعو أولياءهم ليدفعوا مع الرشد إليهم أموالهم دون طمع بالطيب منها ولا انتقاص لأي جزء عند تشغيلها . .

وتنبه بعدها عند الخوف من عدم العدل في مهور البنات اليتامى والنفقة عليهن إذا رغبوا في الزواج منهن أن يتزوجوا غيرهن إلى أربع زوجات إذا اطمأنوا للعدل بينهن في القسمة والنفقة، وإلا فالاكتفاء بواحدة خشية من الظلم أو الحاجة، ثم تنقلنا لتأمرنا بدفع مهر المرأة كعطية خالصة لها بحيث لا يجوز أخذ شيء منه من قبل ولي الأمر إلا إذا تنازلت عنه عن رضى تام.

ولكن من ناحية أخرى لا يجوز إعطاء السفيه وغير البالغ ماله إليه الذي وكل به ولي أمره، ولكن يطلب منه أن ينفق منه عليه في ضروراته من طعام وكسوة ورعاية صحية وتعليمية، بحيث إذا اطمأن إلى بلوغه ورشده يدفع إليه ماله دون أن يقتطع منه شيئاً اللهم إلا إذا كان فقيراً فعندها له أن يأخذ منه بما يسمح له الحكم الشرعي المعروف من ضروراته، والمهم أن تشهدوا عليهم إذا تم الدفع إليهم.

وبعدها وصلت السورة أمر اليتامى بذكر المواريث فبينت أن علتها هي القرابة وأجملت النصيب المفروض مهيئة للحكم في ذلك وأشارت إلى لزوم إكرام الأقارب من غير الورثة بإعطائهم إذا حضروا القسمة وكان المال كثيراً وإلا فيعتذر إليهم لتحقيق التلاحم الأسري والعائلي بين الأقارب، ثم وعظت السورة الأوصياء أن يفعلوا باليتامى ما يحبون أن يفعل بأولادهم من بعدهم مؤكدة لهم أن من يأكل من مال اليتيم أي شيء ظلماً له أشد العذاب.

وبعدها تبين السورة أحكام المواريث: فتبين أنصبة الأولاد التي توزع عليهم بعد أداء الدين والوصية من تركة المتوفى من والديهم، وأنصبة الوالدين من تركة المتوفى من أولادهم، مع وجود الأولاد وعدمهم في كل حالة، وأنصبة الأزواج من تركة المتوفى منهم، مع وجود الأولاد، والتي توزع أيضاً بعد أداء الدين والوصية إذا وجد شيء من ذلك.

ثم بعد ذكر المواريث للنساء مع الرجال بعد أن كن لا يورثن جاء التغليظ عليهن لو ارتكبن أي فاحشة حتى لا يتوهمن أن إعطاءهن هذه الحقوق يُسوغ لهن ترك العفاف، ولكن مع ذكر العقوبة ذكرت السورة التوبة لمن يقع في الذنب بجهالة من النساء والرجال، وحددت شروط قبول التوبة. .

ثم عادت السورة لتصل الحديث عن الزوجات ببعض ما لم يرد ذكره سابقاً فأمرت بمنع إيقاع الظلم والإضرار عليهن من أوليائهن سواء في المواريث أو غيرها، وسواء كان الفراق بسبب منهن أو من الأزواج، وشددت على إلزام الزوج بعدم طلب مال من الزوجة عند الطلاق من غير نشوز أو سوء عشرة منها، ثم أمرت بعدم التزوج بامرأة الأب كما كان يجري في الجاهلية. .

وأوردت النساء المحرمات في الزواج بأنهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخت وبنات الأخ وأمهات الرضاعة وأخوات الرضاعة وأمهات الزوجات وبنات الزوجات بعد الدخول وزوجات الأبناء والجمع بين الأختين كما كان يجري في الجاهلية، ثم ذكرت من المحرمات النساء المتزوجات إلا الإماء، وأن ما عدا ذلك من النساء حلال التزوج منهن بشرط قصد الإحصان ودفع المهور، ولم تذكر السورة تحريم الجمع مع العمة أو الخالة وذكرته السنة، ثم ذكرت السورة أن من لا يستطيع الزواج من المؤمنة العفيفة يمكنه من الإماء بشرط إذن الأهل ودفع المهر وقصد الإحصان وليس الإخدان، ثم ذكرت عقوبة الزوجة الأمة عند الفاحشة بأنها على النصف من عقوبة الحرة.

وتبعاً لذكر الأموال في اليتامى والمواريث جاءت السورة بذكر الأموال في التعامل بين المؤمنين وألزمت بالحلال في ذلك ولاسيما بالتجارة وعقود التراضي فيها. .

وبعدها نهت عن التمني لما في أيدي بعضهم بعضاً باستثناء الغبطة بتمني المثيل لا تمني الشيء ذاته، ثم عقبت على ذلك بأن لكل إنسان ورثة وموالي، فعلى كل إنسان أن ينتفع بميراثه ولا يتمنى مال غيره، والمولى هنا هو من أعتقه الإنسان رجلاً كان أو امرأة، وهو يتوارث بينه ومن أعتقه. .

وأما بالنسبة لمستوى المسؤولية بين الأزواج وزوجاتهم فعليهم النفقة عليهن وحمايتهن، كما عليهم حسن معاشرتهن، وأما هن فعليهن طاعتهم والقيام بحقهم في مالهم وفي أنفسهن في غيابهم، وعند نشوزهن لهم أن يعظوهن أولاً، ثم أن يهجروهن في المضاجع، ثم ضرب التأديب لا الإنهاك، وعند الشقاق بين الزوج وزوجته يمكن أن يتولى الصلح بينهما حكم من أهلها وحكم من أهله.

وتنقلنا السورة بعدها للأمر بالإخلاص في كل عمل بدءاً من العبادة ومروراً بالإحسان للوالدين فالأقارب والأيتام والمساكين والجار القريب والجار البعيد والصاحب وابن السبيل والعبيد، مع التحذير من التكبر على أحد من عباد الله سواء في تجنب البخل بالتصدق عليهم أو في الإدعاء بأنهم فقراء لا يملكون ما يساعدون به، أو في الرياء بمساعدتهم دون ابتغاء وجه الله تعالى ودون مراقبة الإيمان به وبيوم الحساب الذي ينال فيه المخلصون أطيب الجزاء على إنفاقهم من رزق الله الذي يضاعف الحسنات..

ثم يوبخ المولى سبحانه كفار قريش وأمثالهم لعنادهم مع رؤية المعجزات ورفضهم الإيمان باستفهام استنكاري إذ كيف سيكون حالهم يوم القيامة مع أفعالهم المنكرة ضد الرسول والرسالة، وهل يتوقعون أن يكونوا معذبين أو منعمين؟! وليذكروا أن الواحد منهم يتمنى في ذلك اليوم لو ابتلعته الأرض ولا يقف هذا الموقف.

وبعد مخاطبة الكفار تخاطب السورة من يقابلهم، إنهم المؤمنون، فتبدأ بعماد الدين الصلاة فتبين لهم توطئة لتحريم شرب الخمر ألا يصلّوا وهم سكارى، كما لا يصلوا مع الجنابة إلا بعد التطهر والاغتسال، ويمكنهم أن يتيمَّموا بالتراب الطاهر عند عدم وجود الماء بالمسح على الوجه واليدين سواء عند المرض أو السفر أو في الحضر أو عند ملامسة النساء أو عند خروج شيء من أحد السبيلين البول أو البراز، فقد جمعت هذه الآية (٤٣) بعض شروط صحة الصلاة والتهيئة لتحريم الخمر بالإضافة للتيمم حتى سميت بآية التيمم.

ويجئ بعدها دور الحديث عمن يعيشون في المجتمع الإسلامي أو هم على ميثاق مع دولته فتشير إلى اليهود وجوانب من شرورهم بدءاً من محاولاتهم لنشر الضلال بين المسلمين، وتحريفهم لكلام الله في التوراة، وتوجيههم السباب لرسول الله عليه وآله وصحبه السلام بكلام مبطن..

ثم تدعوهم للإيمان بالقرآن وتتوعدهم بالعذاب إن رفضوا ذلك وأصروا على الشرك بالله والزعم بتزكية أنفسهم من مثل قولهم إنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل ذلك افتراء

على الله وإيمان بالسحر وأكاذيب أحبارهم وجرأة على قول الباطل عندما قالوا لكفار قريش بأنهم أهدى من محمد عليه وآله وصحبه السلام!! وهل هذا حسد منهم للنبي عليه وآله وصحبه السلام لأنه أوتي النبوة من دونهم، ولكن أي حسد هذا وقد آتى الله النبوة لإبراهيم عليه السلام فهل آمنوا به جميعاً؟ منهم من آمن ومنهم من كفر، وهم يعلمون جزاء كل من الطرفين من الخلد في الجنان للمؤمنين ومن الخلد في النيران للكافرين، فهل ارعووا وأعدوا العدة أم هو الكفر والاستكبار؟!

وتواصل بعدها السورة ذكر أمهات الأحكام مما يتعلق بالعدل والأمانة بين الناس، مؤمنين وكافرين، ليعلم أمثال هؤلاء الكفار من مشركين وأهل كتاب أن الإسلام لا يميز في ذلك بين أبناء رعيته كما يزعمون في دينهم كذباً وافتراءً على الله، ثم تكمل الخطاب للمؤمنين بالذات بأن يلتزموا في أعمالهم بطاعة الله ورسوله بما ورد من أمر ونهي في الكتاب والسنة، ثم بطاعة حكامهم وأمرائهم وفقاً لطاعة الله ورسوله سواء في التنازع والخلاف معهم أو في الرضى والاستجابة لأوامرهم..

ثم تحذرهم من أمثال فعلة المنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان والإسلام ولكنهم يحتكمون للكفر بدلاً منه مع أنهم مأمورون بالاحتكام إليه بل تجدهم يرفضون ذلك إذا دعوا إليه، فاسألهم يا محمد عما يكون عليه حالهم عندما تحل مصيبة بسبب سوء تصرفهم؟ هل يظنون أن زعمهم بأنهم بحلفهم بالله يجدون التصديق لأكاذيبهم التي يعلمها الله ويخبر رسوله بها، فليتوقفوا عن ذلك وليعلموا أن الله قد أرسلك يا محمد لتطاع فيما تأمر وتنهى كما أرسل كل رسول من قبلك، وأنه كم كان سيكون خيراً لهم لو اعترفوا بذنوبهم وجاؤوك ليستغفروا الله وتستغفر لهم أنت من الله تعالى وعندها يتقبلهم الله برحمته، ولكنهم والويل للسادرين منهم في غيّهم، المصرّين على التحاكم للطاغوت، لن يجد الإيمان طريقه إلى قلوبهم وهم على هذه الحال إلا بعد أن يرتدعوا عن ذلك ويحتكموا إليك في كل خلاف فيما بينهم ويتقبلوا حكمك بكل رضى وقبول وتسليم..

وتأكد يا محمد أن الله تعالى لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يغادروا ديارهم لما فعله إلا القليل منهم مع أنهم يعلمون أن طاعة الله فيها كل الخير لهم والثبات على الحق والأجر العظيم والهدى المستقيم، لأن من يطع الله ورسوله جزاؤه المنزلة العليا في الآخرة إذ يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.. وهل من منزلة أعظم من ذلك؟

وتعود السورة لتخاطب المؤمنين المخلصين من المسلمين فتأمرهم بجهاد الكفار وحماية الشرع كجزء من طاعة الله ورسوله وذلك بالحذر من عدوهم فلا يقتحموا مواقعه

إلا بعد التأكد من سلامة ذلك، ثم يأتي دور النفير للجهاد على صورة سرايا أو جيوش، ثم تعلمهم بأن المنافقين بينهم يتباطؤون في الخروج للجهاد فينتظرون ماذا يحصل معكم، فإن وقع بكم قتل وهزيمة زعموا أن الله أنعم عليهم بالقعود عن مشاركتكم، وإن أصبتم غنيمة وفتح يعبر الواحد منهم عن ندمه لعدم مصاحبته لكم ليشارككم ذلك، ولذلك يأمر المولى سبحانه عباده المخلصين الذين يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة أن يقاتلوا في سبيل الله لأن الله أعد لهم الأجر العظيم بانتظارهم سواء قتل الواحد منهم أو غلب.

ثم تعقب السورة فتحض على الجهاد وحماية المستضعفين من الرجال والنساء والأطفال الذين يتمنون الخلاص من ديار الكفر وظلم أهلها واللحاق بديار الإسلام ونصرة أهلها، ثم تؤكد المقارنة بأن المؤمنين فقط هم الذين يقاتلون في سبيل الله بينما الكافرون هم الذين يقاتلون في سبيل الباطل وأن على المؤمنين أن يواصلوا قتال أتباع الشيطان من الكفار والمنافقين..

ثم تذكّر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما حصل عندما منع المسلمون من القتال في مكة وأذن لهم به في المدينة بأن منهم ـ ويقصد به المنافقين المحسوبين عليهم ـ من خاف وتراجع عن القتال، وتمنوا لو تأخر الأمر به إلى وقت آخر، فتطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول لهم بأن كل ما تطلبونه من متاع هذه الحياة الدنيا بجانب ما في الآخرة قليل بل لا قيمة له، وأن عليهم أن يعلموا بأن الموت سيحل بالواحد منهم ولو كان في برج حصين، فلا يظنوا أن عدم القتال ينجيهم من الموت، وأن يدركوا أنه مهما حل بهم من نصر أو هزيمة بأنه من الله حسب استحقاقهم، وليكفوا عن نسبة النصر إلى الله والهزيمة إليك، فهذا من عدم فقه الجوانب الإيمانية بشكل سليم..

وأما ما أصابك يا محمد من خصب وصحة فاعلم بأنه من فضل الله وأما ما أصابك من جدب ومرض فإنه بذنب تعاقب عليه، والخطاب لأمة الإسلام التي يخاطبها المولى سبحانه في الآية التالية بأن من يطع الرسول منهم فقد أطاع الله ومن يعصه فقد عصى الله..

ثم تتحول السورة لتخاطب الرسول عليه وآله وصحبه السلام: أن انظر إليهم يا محمد، وخاصة أولئك المنافقين وهم يدّعون أنهم مطيعون لك بالتمام والكمال، والحقيقة أنه مجرد تظاهر لأنهم لا يؤمنون بهذه الطاعة، وليعلموا أن الله عالم بحقيقتهم، وما عليك يا محمد إلّا أن تعرض عنهم وتعتمد على الله وحده، وأخبرهم أنه يكفيهم أن

يتدبروا آيات القرآن بصدق ليتأكدوا أنه بلا ريب أنزل من عند الله، وأنه لو لم يكن كذلك لوجدوا فيه التفاوت والتناقض الكثيرين..

كما وانظر إليهم يا محمد وهم يسارعون في إفشاء كل أمر من أمور المسلمين، سواء في السلم أو الحرب، مع أنهم لو عادوا إلى الرسول عليه وآله وصحبه السلام وإلى أمرائهم دون أن يفشوه لعرفوا الحقيقة ولعلموا ما يمكن أن يعلن أو يكتم.. ولذلك ما عليك يا محمد أنت ومن تبعك إلا أن تقاتل في سبيل الله بكل ما تستطيع دون أن تلزم غيرك بذلك مكتفياً بتحريضهم على ذلك مطمئناً لهم أن الله تعالى يكفيهم الذين كفروا ويؤكد لهم أن الشفاعة مردودة على صاحبها، فإن شفع لينفع فهي له وإن شفع ليضر فهي عليه، فشؤم اليهود ودعاؤهم على المسلمين يرجع عليهم.

وتنقلنا السورة من الشفاعة فيما بين الناس، مسلمين وكافرين إلى التحية بالسلام والدعاء فيما بينهم، فتنبه إلى أن التحية ترد بمثلها أو بأحسن منها لمن أراد المزيد من المثوبة، مع مراعاة المحيي والتحية، وأنها ابتداء أو ردّ، وأنها بين الرجال أو على النساء، وأنها بين المسلمين أو بينهم والكافرين من أهل الذمة والمحاربين، وأنها على المصلي أو غيره.

وتعود السورة لتحذّر المؤمنين من الانقسام إلى مجموعتين في القول بحق المنافقين بأنهم صادقون في إيمانهم أو كاذبون، فتنبههم بأنهم انتكسوا في إيمانهم وأنهم برجوعهم يوم أحد إلى المدينة أثبتوا نفاقهم وتركوا الهدى واتبعوا الضلال وهم يعرفون ذلك فمن أنى لهم الهدى وقد أصروا على الضلال؟!

وانظر إليهم وهم يتمنون لو تكفروا مثلهم فاحذروا موالاتهم والاستعانة بهم حتى يثبتوا خروجهم للقتال ابتغاء وجه الله، وإياكم أن تأخذكم بهم رأفة في دين الله إن رفضوا التوحيد والهجرة فعليكم بقتلهم أينما وجدتموهم باستثناء أولئك الذين لهم صلة بمن تواثقونهم أو من كرهوا قتالكم فسلّموا لكم، كما لتعلموا أنكم ستجدون من يظهر لكم الصلح ليأمنوكم ولكنهم إذا سنحت لهم فتنة انضموا إلى أهلها ضدكم، فهؤلاء إن لم يتجنبوا القتال ضدكم ويسالموكم فلا ترددوا في قتالهم أينما وجدوا..

والمهم عليكم أيها المؤمنون أن تعلموا أنه ليس لمؤمن منكم أن يقتل في كل هذه الحروب أي مؤمن آخر إلا بالخطأ، وعليه أن يحرر رقبة مؤمنة ويدفع دية لأهل المقتول إلا إذا تنازلوا هم عن الدية، إذا كان المؤمن منكم، وأما إذا كان عدواً لكم فعلى القاتل أن يحرر رقبة مؤمنة فقط دون دية، وإذا كان المقتول من قوم معاهدين فعلى القاتل أن يحرر رقبة مؤمنة ويدفع دية لأهله كالمقتول منكم تماماً، وإن لم يجد الرقبة ولا المال

فعليه صيام شهرين متتابعين، ولكن من يقتل مؤمناً عمداً مستحلاً ذلك فإنه يكفر ويخلد في جهنم.

وينبه المولى عز وجل عند الغزو أن يتأكد المؤمن من دين من يقتله ظناً أنه كافر حربي يجوز قتله، ويحذر من التعجل في قتله لمجرد الظن أنه ألقى عليه السلام لا طاعة لله وإنما دفعاً للخطر، فيكون القتل بهدف المغنَمْ وينتهي للوقوع في المأثم، مع العلم بأن ما عند الله تعالى من المغانم الكثيرة أفضل من كل ما يطلبه، ونعمة الإسلام بعد الكفر أكبر دليل على ذلك.

وتذكر السورة بأن القاعدين عن الجهاد في سبيل الله من المؤمنين دون عذر لا يستوون مع المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، مما يجعل المؤمن الصادق يحرص على نوال الدرجات العلى جزاء جهاده ويرفض القعود بحجة أنه مستضعف بل يلتحق بالجهاد ولا يقبل الظلم وحكم الكفر وهو يعلم أن المستضعفين المعذورين هم المسنّون والنساء، والزمنى والأطفال فقط، وهؤلاء لهم وحدهم جواز عدم التحول لدار الإسلام إذا كانوا في دار الكفر ولم يخشوا الفتنة على دينهم ولم يقدروا على التحول والخروج.

ويخبر المولى تعالى من يضرب في الأرض للجهاد أو طلب الرزق أو طلب العلم أن الله تعالى قد خفف عليه الصلاة الرباعية لتصبح ثنائية سواء كان هناك خوف أو لم يكن، كما له الجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، مبيناً سبحانه كيفية صلاة الخوف وعدد ركعاتها، بمراعاة مدى ما يتعرضون له من خطر، وداعياً للإكثار من ذكر الله والدعاء إليه عقب كل صلاة، وللحرص على أداء الصلاة مهما كان الحال مما يبين الفرق بين ما يرجوه المؤمن من الله تعالى وما يرجوه الكافر من متاع الدنيا..

وتخاطب السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بمزيد من التكريم والتفويض، منبهة إلى تجنب المجادلة عن أهل التهم والدفاع عنهم بما يقوله خصمهم، وأن يستغفر الله للمخاصمة عن الخائنين، لأنه عليه وآله وصحبه السلام قد همّ أن يقطع يد يهودي ترجيحاً لحجة غيره الخائن، فعليه أن يتجنب مثل هذه المجادلة، معلماً له سبحانه بأن أولئك الخائنين قد سرقوا الدرع ودفنوه في بيتهم ظناً منهم بأن الله تعالى لا يعلم سرهم، وأنه لا بد من التأكد من حقيقة الأمر قبل الحكم ولا يخدع بحجة المتهم، وأن التوبة الصادقة لمن فعل ذلك مقبولة منه، وأما من يصرّ على ذلك ويستحل الظلم لنفسه ويلقيه على غيره البريء فإنه يوقع نفسه في البهتان العظيم.

ويؤكد المولى سبحانه لرسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأنه لولا فضل الله ورحمته به لنجحوا في إبعاده عن الحق وتبرئة ابن أبيرق السارق الحقيقي من التهمة

وإلحاقها باليهودي، فعصم المولى سبحانه رسوله عليه وآله وصحبه السلام من الخطأ والبعد عن الحق، ولكن مع تحذيره هو وأي حاكم بين الناس من تدابير ومكائد المتهمين السرية، والتعريف للمسلمين بأن النجوى لا بد من تجنبها إلا إذا كانت للأمر بصدقة أو لعمل معروف أو للإصلاح بين الناس، ثم أمر عز وجل رسوله عليه وآله وصحبه السلام بأن يخبر هؤلاء المتهمين وأمثالهم بأن من يحكم عليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام أو أي حاكم مسلم منفذ لشرع الله تعالى، ويرفض هذا الحكم، ويهرب مرتداً عن الإسلام لينجو من الحكم متى كان بحد فيه قطع يده، فإنه إلى جهنم وبئس المصير، لأنه لا مغفرة ولا عفو للمشرك بينما قد تشملان غير المشرك مهما كان ذنبه كبيراً تبعاً لمشيئة الله تعالى وفضله ورحمته، وأن المشرك بأي نوع من الشرك وليس بنوع خاص مستحق لعذاب جهنم والخلود فيه بينما المؤمن الصادق الصالح هو المستحق للخلود في جنات النعيم.

وتربط السورة بعدها بين أماني المشركين الشيطانية وأماني أهل الكتاب الذين يزعمون أن الجنة لن يدخلها إلا من كان منهم وعلى ملتهم فتؤكد لهم أن دخول الجنة ليس بمثل هذه الأماني، وأن كل مسيء وبشكل خاص المشرك لابد أن يحاسب أشد الحساب بينما العامل بالخير عن إيمان هو الذي تشمله رحمة الله تعالى وينتهي إلى جنته.. مما يفرض على كل حال الحرص على طاعة الله تعالى في كل أمر ونهي لينال الحظوة عنده تعالى.

وتجيب السورة بعدها على تساؤلات الصحابة عن أمر النساء وأحكام الميراث بشأنهن، فتبين لكل مسألة حكمها. فمثلاً يتامى النساء لابد من دفع المهور لهن عند الزواج منهن، وأموال الأطفال اليتامى لابد من الحذر في التعدي عليها، فالعدل العدل في ذلك كله هو المفروض.. فلو خشيت زوجة النشوز أو الإعراض من زوجها فلها المصالحة معه بأي مال من مهرها أو غيره، أو بالتنازل عن دورها لضرتها ليبقيها في عصمته، مع الحرص على حسن العشرة في المعاملة الزوجية، فجزاء الإحسان هو الإحسان والعكس بالعكس. وعند تعدد الزوجات يتعذر العدل القلبي بين النساء فلا بد من الحذر من تعليق إحداهن بحيث تكون لا هي زوجة ولا هي مطلقة، والأولى من ذلك هو الطلاق لأنه ربما يأتي بالخير لكل من الطرفين بعد الفراق.

وتربط السورة بعدها دعوتها للأزواج بالقسط فيما بينهم بدعوتها للمؤمنين جميعاً للقسط والعدل في الشهادة بعضهم على بعض ولو على الذات أو الوالدين أو أقرب الناس إليهم، وتحذرهم من التذرع بالغنى أو الفقر في تجاوز العدل عند الشهادة، لأن

الغنى والفقر بيد الله تعالى وحده وليس لأحد أن يحتج بشيء من ذلك وما عليه إلا اتباع الحق في الشهادة وعدم اتباع الهوى، إذ الله تعالى عالم بحقيقة كل إنسان ومدى عدله أو تحيزه..

ثم توسع السورة دعوتها للمؤمنين جميعاً ليكون إيمانهم شاملاً لله تعالى ورسوله وكتابه وكل الكتب المنزلة من قبله، وتحذرهم من الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر لأن في ذلك الضلال البعيد والعذاب الشديد.

ثم تحدد الأشد ضلالاً بأنهم أولئك الذين يؤمنون ثم يرتدون ثم يؤمنون ثم يرتدون ثم يغرقون في الردة، فإن هؤلاء لن يجدوا شيئاً من المغفرة ولا الهدى عند الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعدها ليبشر المنافقين بالعذاب الأليم لأنهم يوالون الكفار دون المؤمنين علّهم يجدون عندهم العزة، وأي عزة في الذل؟! فلن يجد أحد شيئاً من العزة إلا إذا كان مع الله تعالى..

ثم تخاطب السورة كل من يظهر الإيمان، سواء كان محقاً أو منافقاً، لتحذره من مجالسة الكافرين والمنافقين المعروفين المعتادين على الطعن في الدين والهزء من آيات رب العالمين إلا إذا غيروا حديثهم ولم يطعنوا ولم يسخروا، ومن يجالسهم مع سوئهم يكون في الكفر والجزاء مثلهم، ولاسيما أنهم ينتظرون نزول أو تحقق النصر لكم ليدّعوا أن ذلك عائد لوجودهم معكم، ولكنهم عند انتصار الكفار فإنهم يقولون لهم بأن المؤمنين قد هابوهم لكونهم هم معهم.. فليحذر هؤلاء ألاعيبهم ومكائدهم التي يعلمها الله تعالى وسيحاسبهم عليها أشد الحساب، ولن يجعل للكافرين أي سلطان على المؤمنين ماداموا ملتزمين بالإيمان وبما يقتضيه من أحكام، وأما عند بعدهم عنه فيحل بهم البلاء بما كسبت أيديهم.

فليحذر المؤمنون المنافقين قبل الكافرين، ولا يتخذوا من أي منهم أنصاراً بدلاً من المؤمنين إلا إذا تابوا وصلحت توبتهم فعندها يكونون من المخلصين لله تعالى ولدينه، ويعتبرون في مصاف المؤمنين ولهم الأجر العظيم، والله تعالى لا منفعة له في تعذيب أحد إن شكر وآمن كما لا مضرة عليه إن كفر، فالإحسان والسوء مردود على صاحبه.

وتنبه السورة بعدها إلى تحريم الجهر بالكلام السيئ ضد أي أحد إلا الظالم، سواء كان بالإكراه أو بغيره، وسواء كان المظلوم هو المباح له الجهر بالطعن أو نفس الظالم، لأنه يزداد بتهجمه على المظلومين ظلماً، أو لأنه مقيم على ظلمه.

وتبين بعدها ما يفعله أهل الكتاب من يهود ونصارى في كفرهم بالله تعالى ورسله، وفي محاولتهم التفريق بين الإيمان بالله تعالى وبرسله، فتؤكد أن ذلك كله من الكفر إذ كيف يزعمون أنهم يؤمنون بموسى كيهود ويكفرون بعيسى وبمحمد عليهم السلام، أو كيف يؤمنون بعيسى كنصارى ويكفرون بمحمد مع أنهم مطالبون بالإيمان بهم جميعاً، كما أنهم ملزمون باتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام الذي جاءت شريعته ناسخة للشرائع السابقة كلها.

ثم تشير إلى أولئك المعتبرين مؤمنين حقاً، وأنهم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأمته الذين آمنوا بالله تعالى ورسله جميعاً، والذين لم يفرقوا في الإيمان بينهم.

وتخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام مذكرة له بأن أهل الكتاب اليهود بالذات يطلبون منه أن ينزل عليهم كتاباً بأن يروك تصعد إلى السماء وتعود إليهم بكتاب..

ويطمئنه المولى عز وجل بأن عنتهم هذا ليس بالجديد لأنهم قد فعلوا ما هو أكبر منه مع رسول الله تعالى إليهم موسى عليه السلام عندما طلبوا منه أن يريهم الله تعالى عياناً فعاقبهم بصاعقة أماتتهم ثم أحياهم ولكن بادروا إلى عبادة العجل ضاربين عرض الحائط بكل الحجج والبراهين التي يرونها صباح مساء ويذكرونها تماماً من مثل معجزات العصا واليد وفلق البحر وغيرها، ولكن المولى عز وجل عفا عنهم لمزيد من الاختبار وإلزام الحجة، وأخذ منهم عهداً عند كل اختبار وكان أشدها رفع جبل الطور من فوقهم وأمرهم بدخول بيت المقدس سجداً وبعدم التعدي يوم السبت..

ولكنهم كانوا يسارعون للعصيان وارتكاب المنكرات وكأن ذلك مما طبعوا أو جبلوا عليه دون غيره مع أن كل إنسان مجبول على القدرة على فعل الخير أو فعل الشر وليس فعل الشر فقط، ولكن شدة حبهم للدنيا ومتاعها كان يعميهم عن فعل الخير..

وهاهم يزعمون بأنهم قتلوا عيسى عليه السلام، ولكن الحقيقة أنهم لا قتلوه ولا صلبوه وإنما فعلوا ذلك بمن شبهه الله تعالى به، الأمر الذي جعلهم يشكون ويختلفون في عقائدهم التي أقاموها على الظن، وأي عقيدة تقوم على الظن تنتهي إلى مثل هذا الاختلاف عليها بين أهلها.. فهاهي فئة منهم تشاهد عملية رفعه عليه السلام إلى السماء، وفئة أخرى بل كلهم يؤمن به قبل موته.

وتشنع السورة عليهم ظلمهم لأنفسهم وما يجره عليهم استمرار نقضهم لما يؤخذ عليهم من العهود والمواثيق من العذاب والغضب من رب العالمين.

وهاهو ميثاق الالتزام بالطيبات قد نقضوه فحرمها عليهم بعد أن كانت حلالاً لهم جزاء فعلتهم..

وهاهم يدأبون على العمل لمنع أنفسهم والناس عن اتباع محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام، وعلى أكل الربا المحرم عليهم، وعلى أكل أموال الناس، وبالذات أموال المسلمين التي يرونها حلالاً لهم ظلماً وعدواناً، مع أن علماءهم الذين أسلموا من أمثال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار، والمؤمنين من المهاجرين والأنصار، كانوا على علم تام بكذبهم وبالبيان الحق في القرآن لحقيقة أكاذيبهم وافتراءاتهم.

فاعلم يا محمد بأن زعمهم بأن الله تعالى لم يوحِ لأحد من بعد موسى كله كذب وافتراء، وأنه تعالى قد أوحى إليك بالإيمان الحق بكلِ الرسل والأنبياء تماماً مثل ما أوحى إلى نوح ومن بعده من الأنبياء الكثيرين، وكما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وداود..

فاحذر يا محمد أكاذيبهم، واعلم أن من الرسل من ذكره الله تعالى ومنهم من لم يذكره، وأن الرسل كلهم كانوا مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين مما لا يبقى لأحد حجة على الله تعالى يوم الحساب..

وإياك يا محمد أن تبالي بقولهم بأنهم لن يشهدوا لك بالرسالة عند الله تعالى لأنه تعالى يشهد لك كما تشهد لك ملائكته، فليخسأوا في عنادهم وعنتهم!!

وانظروا إلى اليهود الذين كفروا بمحمد عليه وآله وصحبه السلام ورسالته فأوقعوا أنفسهم في الضلال البعيد، وأنهم قد حرموا أنفسهم من مغفرة الله تعالى بكتمانهم أمر محمد عليه وآله وصحبه السلام..

واحذروا أيها اليهود من تكذيب محمد عليه وآله وصحبه السلام وكتابه، واعلموا أن رسالته هي الحاكمة على جميع ما سبقها من الرسالات، والناسخة لها في كل تشريعاتها، وأنكم مطالبون بالتخلي عن دينكم الذي أدخلتم عليه الشرك، وعن شريعتكم التي حرفتموها وبدلتم الكثير من أحكامها، والدخول في دين الإسلام والاحتكام لشريعة الإسلام.

وأنتم أيها النصارى، عليكم بالتخلي عن الكفر بالقول بأن المسيح هو الله أو ابن الله لأنه كلمة الله تعالى وروح منه خلقه على هذا الحال معجزة له، وعليكم بالتخلي عن القول بالثالوث وأن الله سبحانه هو الأب والمسيح هو الابن وجبريل أو مريم هو أو هي روح القدس، فالكل: جبريل ومريم والمسيح، من خلق الله تعالى، واعلموا أن المسيح لا يتكبر عن عبوديته لله تعالى.

واطمئنوا أيها المسلمون المؤمنون لهذا البرهان الساطع الذي جاءكم من ربكم بإرسال محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومعجزته القرآن، فكانت كالنور الواضح لكل ذي عقل سليم.

واطمئنوا أن المؤمنين منكم بالله تعالى، والمعتصمين المتمسكين بشرعه، والمتبعين رسوله، هم فقط الذين يدخلون في جنته ليس فقط بإيمانهم وإنما بفضل الله تعالى ورحمته بهم بعد أن وضع بين أيديهم هذا النور ليهتدوا به إلى الصراط المستقيم فالتزموا به واهتدوا بنوره ورفضوا منذ نزوله كل ما غيره.

وتأتي السورة في النهاية إلى مسألة الكلالة، والكلالة حالة يكون عليها الميت رجلاً كان أو امرأة دون أن يترك ولداً أو والداً يرثه، فكيف توزع تركته؟ هنا تبين السورة بأنه لو كان الوارث أختاً فلها نصف التركة، وهو يرثها بالكامل، وإن كانتا أختين فلهما ثلثا التركة، وإن كانوا إخوة وأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين بحيث لو كانوا أخاً وأختاً فلها الثلث وله الثلثان.

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ
ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ
فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا
﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ
أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

بدأت السورة بمخاطبة الناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم، أن يخشوا الله من إيمان

للمسلم وبعد عن الإيمان للكافر، ذلك لأنه سبحانه هو الذي خلقهم بعد عدم ومن نفس واحدة هي آدم عليه السلام، مما يدل على قدرته وعظمته، ثم خلق من هذه النفس زوجها حواء ومن هذين الزوجين اللذين أودع فيهما وفي ذريتهما خاصية التناكح والإنجاب للأحفاد وأحفاد الأحفاد حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومع هذه الخاصية أودع في الإنسان خاصية التفكير والاختيار بإدراك ما يصدر إليه من أمر ونهي والاختيار بين القبول والرفض لهذا الأمر أو ذاك وهذا النهي أو ذاك، الذي يأتيه من خالقه المدبر لخلقه بشرائع يرسلها إليهم تعرفهم بما يلزمهم ولا يلزمهم، ما ينفعهم وما يضرهم، كيف لا وهو سبحانه خالقهم ومحيط بكل ذلك في حقهم ولن يكون هناك تشريع شامل لجميع جوانب حياتهم إلا منه سبحانه..

ولهذا خاطبهم بادئ ذي بدء ببداية خلقه مذكراً لهم بهذه الصلة بخالقهم ليلفت نظرهم إلى تدبيره لهم الذي يتمثل في الأحكام التي بينها لهم في ما يلي من هذه السورة وفي السور الأخرى من كتابه هذا المنزل على رسوله عليه وآله وصحبه السلام للناس كافة وفي سنة هذا الرسول المبينة والمكملة لذاك الكتاب..

فطالبت السورة الإنسان أن يتقي الله بالتزام أمره ونهيه الذي منه رعاية الأرحام التي فطر الإنسان على الحرص عليها وترابطها مهما فرط في ذلك في بعض الأحيان مما جعل المولى سبحانه يخاطبه بها لتأكيد التنبيه في النفوس، كيف لا وقد اعتاد الناس على مخاطبة بعضهم بعضاً بالقول: أسألك بالله وبالرحم، مشيرين لأهميتها في نظرهم، وصلتها في نظر هذه الشريعة واجبة وقطيعتها محرمة حتى لو كانت غير مسلمة، مهددة بالرقابة منه تعالى على كل تصرف يسيء إليها، ومبتدئة بالجانب الضعيف المستضعف منها ألا وهو اليتامى، فتأمر الأولياء والأوصياء عليهم أن يعطوهم أموالهم متى بلغوا الحلم ورشدوا حسن التصرف بها، وليحذروا تبديل الطيب منها بالرديء كما لا يستحله لنفسه إذا شغله مع ماله، وأما قبل البلوغ والرشد فينفق عليه منه في طعامه وكسوته وما يصلحه من صحة وتعليم وضروراته الحياتية.

وعند التفكير في الزواج من اليتامى لابد من العدل في المهور والنفقة عليهن، وإذا خشي الزوج من عدم العدل مع زوجته التي كانت يتيمة تحت وصايته فليتجنب الزواج منها ويتزوج سواها وليحذر استغلالها كونها تحت وصايته ولا يأكل مالها وليدفع لها مهرها، وإذا خاف عدم العدل بين زوجاته إذا تزوج أكثر من واحدة من غير اليتامى فليتزوج فقط واحدة أو جاريته إذا لم يملك نفقة ومهر الحرة، وفي ذلك الحد الأدنى الذي يمنعه من الظلم أو الحاجة..

والمهم ألا يتجاوز عند القدرة الزوجات الأربعة بأي حال من الأحوال لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام أمر من كان لديه أكثر من هذا العدد في الجاهلية أن «اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن»، وأما زواج الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأكثر من أربعة فذلك من خصوصياته عليه وآله وصحبه السلام التي أذن له بها ربه تعالى، فليس لمؤمن إلا الرضى بما أمر تعالى.

ومن ناحية أخرى لو حصل وتزوج مسلم زوجة خامسة فحكمه الحد إذا كان عالماً بحرمة ذلك، وبالنسبة للقدرة على العدل بين النساء فهي محصورة في النفقة والقسمة وأما في الميل القلبي فلا يملكها أحد كما سيأتي ذكره.

وبالنسبة للدفع للزوجات واليتامى عموماً فقد أمر تعالى أن تعطى الزوجة مهرها كعطية خالصة لها من دون أحد غيرها إلا إذا طابت نفسها عن أي شيء منه فيمكن لولي أمرها أن يأكله كله أو بعضه حلالاً زلالاً، وأما بدون رضاها فلا يجوز أن يأخذ منه شيئاً، فالمهر واجب للمرأة عند الزواج ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولكن لها أن تحط عنه كثير المهر أو كله مقابل شرط ألا يتزوج عليها مثلاً عند عقد النكاح. هذا بالنسبة لدفع المهور للزوجات وأما دفع الأموال لليتامى فلا يجوز دفعها لهم إذا كان الواحد منهم سفيهاً لا يحسن تدبير ماله لخلل أو ضعف في إدراكه وتصرفاته، أو كان غير بالغ إذ حكم السفيه الحجر وليس دفع المال إليه ليبدده في الحرام أو حتى الحلال، وإذا الأموال وضعت تحت رعاية الأولياء ليوفروا لهم بها معاشهم وصلاح دينهم وأحوالهم، ولذلك عليهم أن ينفقوا عليهم في كل ضروراتهم من طعام وكسوة وغيرهما، مما يدل على فرض نفقة الوالد على الولد والزوج على الزوجة مادام الولد لا مال له ولا كسب ومادامت البنت غير متزوجة..

والمهم أن تكون النفقة في جميع الأحوال حسب مستوى المال وقدرة ولي الأمر على ذلك، وأما عند عدم وجود المال لليتيم ولا القدرة للولي فعليه أن يخاطبهم باللطيف من القول والدعاء لهم وإشعارهم بالحرص عليهم وعلى أموالهم إن وجدت ليطمئنوا لحسن تصرفه.

وعند دفع مال اليتيم إليه لابد من اختباره عند البلوغ بأنه راشد حسن التصرف بماله، سواء بلغ الخامسة عشرة أو بعدها، فإذا اطمأن لرشده وسلامة تصرفه فليدفع إليه ماله إذ مجرد البلوغ لا يكفي لدفع المال إذ لابد من الرشد وحسن التصرف أيضاً، وأما لو حصل وعاد إلى السفه بعد الرشد فهنا يحجر عليه من قبل الحاكم أو من ينيبه..

ومن الرعاية بمال اليتيم قبل دفعه إليه أن يشغله في التجارة أو غيرها كما يشغل

ماله، والمهم أن يحذر أن يأكل منه شيئاً بغير حق قبل أن يبلغ ويرشد، فإذا كان الولي غنياً فلا يأخذ منه أي شيء مقابل رعايته، وهذا هو الأفضل، طلباً للثواب من الله، وأما إذا كان فقيراً فلا يجوز له أن يأكل منه إلا بالمعروف مما يجيز له الشرع لمثله وبقدره إذ يختلف أجره إذا كان مشرفاً كلياً ومتفرغاً تماماً له عنه إذا كان غير ذلك..

هذا ولابد من الشهود عند دفع المال لليتيم براءة للذمة ودفعاً للاتهام، اللهم إلا إذا كان المال من النوعية والكمية التي اعتاد الناس عليها بالتعامل دون إشهاد.. فليحذر الأوصياء والأولياء في التعامل بمال اليتيم وفي معاملته شخصياً إذ يجب الرعاية له في بدنه، تعليماً وصحة وتأديباً، كما يجب الرعاية في ماله فلا يمد إليه عينه، فكيف بيده، وهو ممالا يجوز له..

وتنقلنا السورة بعدها من أمر اليتامى إلى أمر المواريث وتقسيمها فتقول:

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ
أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ
وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ
فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ
نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا
ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ
فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن
لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ
يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ
لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَـٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟
أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ
وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

مبينة في هذه الآيات المعتمدة من أركان الدين وأعمدة الأحكام الفرائض أي توزيع المواريث التي تعتبر ثلث العلم ويخشى عليها من النسيان حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «تعلموا القرآن وعلموه للناس، وتعلموا الفرائض وعلموها للناس، وتعلموا العلم وعلموه للناس، فإني امرؤ مقبوض وإن العلم سيقبض وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما» ـ رواه ابن مسعود ـ وقال عليه وآله وصحبه السلام «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة» ـ رواه عبد الله بن عمرو ـ فالآية المحكمة هي كتاب الله في أحكامه الثابتة غير المنسوخة، والسنة القائمة هي الثابتة الصحيحة، والفريضة العادلة هي قسمة الميراث بالعدل حسب الكتاب والسنة.

وسواء نزلت آية المواريث بسبب امرأة سعد بن الربيع عندما مات وترك بنتين وأخاه، فعمد هذا الأخ وأخذ جميع تركته فشكته زوجه للرسول عليه وآله وصحبه السلام فنزلت الآية، فأمره الرسول عليه وآله وصحبه السلام «ادفع إلى ابنتيه الثلثين وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي»، أو بسبب آخر فإنها جاءت بعد التهيئة لها بأن المواريث يجب تقسيمها بين الورثة رجالاً ونساءً وليس للرجال فقط مهما كانت التركة قليلة، وأما القول بحرمان أحد بحجة أنه غير محارب فهذا لا يجوز، والمهم أن تقبل التركة القسمة ولا ضرر على أحد في ذلك، وأما لو لم تقبل أو يتضرر أحد منها فلا بد من الشفعة بأن يشتري الورثة بعضهم من بعض والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «الشفعة في كل مالا يقسم فإذا وقعت الحدود فلا شفعة».

وعند إجراء القسمة يعطى إذا كان المال كثيراً ما تجود به النفس لمن يحضرها من الأقارب أو الأيتام والفقراء ممن لا يرثون ويعتذر إليهم إذا كانت التركة لا تقبل القسمة أو كانت قليلة لا تقبل الإعطاء، وأهم من يعطى هم الأرحام والمساكين لما في صلتهم من التشديد، والمهم أن يحرص كل ولي أمر يتيم أن يفعل بماله ما يحب أن يفعل بأولاده من بعده، إذ كما يخشى على ورثته وذريته من بعده فعليه أن يخشى على ورثة غيره، وليحرص على العدل والصواب في القول معهم لأن من يأكل مال اليتيم بغير حق فإنه يقع في أعظم الظلم والرسول عليه وآله وصحبه السلام يعتبر ذلك من السبع

الموبقات أي الآثام الكبيرة مما يؤول به إلى نار جهنم، فليحذر ذلك وليتق الله في نفسه قبل أيتامه.

ومع آيات تفصيل قسمة المواريث تأتي ما يسميها الفقه تبعاً للرسول عليه وآله وصحبه السلام بالفرائض، فتحدد نصيب الأولاد الصلبيين، وتبعاً لهم أولاد الأبناء، باستثناء الكفار منهم لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «لا يرث المسلم الكافر» كما لا يرث القاتل عمداً من مال من قتله ولا من ديته شيئاً، فيعطى أصحاب الفروض أولاً ثم يقسم الباقي للذكر مثل حظ الأنثيين لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «ألحقوا الفرائض بأهلها» كما رواه الأئمة..

والفرائض في الكتاب ستة هي: النصف، والربع، والثمن، والثلثان، والثلث، والسدس، وتعطى كما يلي: - النصف فرض خمسة هم: ابنة الصلب، وابنة الابن، والأخت الشقيقة، والأخت للأب، والزوج، إذا لم يوجد من يحجبهم. والربع فرض الزوج مع الحاجب، وفرض الزوجة والزوجات مع عدم الحاجب؛ والثمن فرض الزوجة والزوجات مع الحاجب؛ والثلثان فرض أربع هم: اثنتان فصاعداً من بنات الصلب، وبنات الابن، والأخوات الشقيقات، أو للأب، إذا لم يوجد من يحجبهن؛ والثلث فرض الأم مع عدم الولد، وولد الابن، وعدم الأثنين فأكثر من الإخوة والأخوات، وفرض الاثنين فصاعداً من ولد الأم. وهذا في ثلث كل المال وأما ثلث الباقي فهو للأم في مسألة زوج أو زوجة وأبوان، وأما في مسألة الجد مع الأخوة إذا كان ذو سهم معهم وكان ثلث ما يبقى أفضل له؛ والسدس هو فرض سبعة هم: الأبوان والجد مع الولد وولد الابن، والجدة والجدات، وبنات الابن مع بنت الصلب، والأخوات للأب مع الأخت الشقيقة، والواحد من ولد الأم ذكراً كان أو أنثى.

وأما الأسباب الموجبة لهذه الفروض في الميراث فهي ثلاثة: نسب ثابت، ونكاح منعقد، وولاء عتاقة، وقد تجتمع الثلاثة في زوج المرأة ومولاها وابن عمها، وقد يجتمع اثنان في زوجها ومولاها أو زوجها وابن عمها، فيكون له جميع المال إذا انفرد: نصفه بالزوجية ونصفه بالولاء أو النسب.

والميراث لا يوزع على أحد من الورثة إلا بعد أداء الدين والوصية، والدين بجميع أشكاله أولاً ثم الوصية من الثلث فقط، والباقي يقسم بين الورثة وعددهم سبعة عشر: عشرة رجال: الابن، وابن الابن، والأب، وأب الأب، والأخ وابن الأخ، والعم، وابن العم، والزوج، ومولى النعمة، وسبع نساء: البنت، وبنت الابن، والأم، والجدة، والأخت، والزوجة، ومولاة النعمة أو المعتقة.

والأولاد يشملون الموجودين منهم أو الأجنة ماعدا الكافر، ولكن ولد الصلب يحجب ولد الولد، وأما بنت الصلب فلا تحجبه فتعطى بنات الصلب إلى الثلثين ثم يعطى الثلث الباقي لولد الولد الذكر فقط، وفرض البنت الواحدة النصف ولما أكثر من بنتين الثلثين، وللبنتين مثلهم، وبنات الابن يقمن مقام البنات إذا لم يوجدن، وأبناء البنين يقومـون مقام البنين في الحجب والميراث، وفي مسألة ابنة وابنة ابن وأخت للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي للأخت، وإذا ترك زوج بموته زوجته الحبلى فلا توزع التركة حتى يظهر ما تضع، فإن خرج حياً واستهل بالبكاء يرث ويورث، وإن خرج ميتاً لم يرث. والبكاء ليس بشرط والمهم ثبوت الحياة. والأولاد يشملون الخنثى أي من له فرجان فيورث من حيث يبول أو يغلب البول إلا إذا كان مشكلاً فيورث نصف الذكر ونصف الأنثى.

وجاء فرض الأبوين لكل منهما السدس مع الولد سواء كان ذكراً أو أنثى، فلو ترك رجل ابناً وأبوين كان السدس لكل منهما والباقي للابن، وأما لو ترك ابنة وأبوين فللابنة النصف وللأبوين السدسان والباقي لأقرب عصبة وهو الأب وذلك من باب الرد، يقول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «ما أبقت الفرائض فلأول رجل ذكر». وأما عندما يرثه الأبوان فللأم الثلث وللأب الثلثان. ولكن إذا كان له أخوة فإنهم يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس سواء كانوا أشقاء أو لأب أو لأم.

وورد ذكر الوصية قبل الدين في الآيات مع أن الدين مقدم عليها، لماذا؟ والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «الدين قبل الوصية وليس لوارث وصية».. رواه الدارقطني. جاء التقديم للاهتمام بالوصية ولاسيما أنها نصيب المساكين، وتقديم الدين في الدفع جعل تقديم دين الزكاة والحج على الميراث ولاسيما أنه يخشى عدم دفعه من الورثة.

وخاطبت الآية الرجال بأن لهم نصف تركة زوجاتهم إذا لم يكن لهن أولاد، أبناء صلب وأبناء بنين، ولهم الربع إذا وجد الأولاد. وأما الزوجة فلها الربع عند عدم وجود الولد، ولكن لها الثمن إذا وجد الولد. ولكن إذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلالة وهم الإخوة للأم، أو الإخوة الأشقاء أو للأب، كما يرد في آخر السورة الذين يوزع الميراث عليهم بقوله تعالى ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾، وأما ميراث الإخوة للأم الكلالة ﴿فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ﴾ مع التسوية بينهم ذكراً وأنثى مهما كثروا وهو الموضع الوحيد الذي يتساوى فيه الذكر والأنثى. فمثلاً لو ماتت امرأة وتركت زوجها وأمها وأخاها لأمها فللزوج النصف وللأم الثلث وللأخ من

الأم السدس أي الباقي، وأما لو تركت أخوين وأختين أشقاء أو لأب فللزوج النصف وللأم السدس وللأخوين والأختين الثلث فتتم بذلك القسمة.

وأما المسألة المسماة بالحمارية أو المشتركة فقد أشركوا فيها بين الجميع مادامت أمهم واحدة وقيل: هب أن أباهم كان حماراً فأشركوا بين الإخوة لأم مهما كانوا متفرقين في الثلث وللزوج النصف وللأم السدس.

وشددت السورة على عدم الإضرار في الوصية بأحد من الورثة، ولا في الإقرار بدين بقصد الإضرار إذا كان هذا الدين غير صحيح، وقد مرَّ في سورة البقرة المزيد من الحديث والوعيد عند الإضرار في الوصية ووجوهها.

ثم تربط السورة الأمر بالإحسان إلى النساء، ودفع مهورهن إليهن وبيان ميراثهن مع ميراث الرجال بالتغليظ عليهن عندما يرتكبن أية فاحشة فتقول:

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ
فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا
مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا
ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ
أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا
أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ
بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن
تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾﴾.

فعلى النساء ألا يتوهمن أن إعطاءهن حقوقهن بعد أن كن محرومات منها يسوغ لهن ترك التعفف والإقدام على أشنع منكر ألا وهو الزنا، وفي هذه الحالة لابد من التثبت والإشهاد بأربعة شهداء من المؤمنين تغليظاً على المدّعي وستراً على العباد بشرط أن يروا ذكر الرجل في فرج المرأة، وأن يكون الشهود ذكوراً، وعندها تمسك الزانية وتحبس في البيت، وكان هذا أول عقوبات الزناة في أول عهد الإسلام، ثم تلاه الأذى في الآية التالية، ثم بآية النور بالجلد للأعزب والرجم للثيب.

ومع كثرة الزناة جعل لهم السجن في البيوت كتوعد لإيقاع الحد بهم عندما تحدد

الحد عندما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مئة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»..

والأذى والتعيير مازال قائماً مع الجلد وإن كان محتملاً مع الرجم وكذلك التغريب لمدة عام. والأذى يعني التوبيخ والتعيير التأديب، وكان الحبس يوقع على النساء، والأذى على الرجال لحاجتهم للسعي والكسب ثم جاء الحد للبكر والمحصن فلم يعد هناك تمييز بينهما.

والمهم لابد من التوبة التي كانت تطلب في البداية من الزناة وثبوت الصلاح وعندها يرفع الحبس والأذى، ولابد أن تكون التوبة النصوح بشروطها من ارتكاب المعصية عن جهالة، ومن التعجيل بها فور ارتكاب الفاحشة، وليس تأجيلها حتى يقترب الموت أو بعد الموت، والجهالة في المعصية تعم الكفر والمعاصي إذ إن كل من يعصي ربه فهو جاهل حتى يتخلص من معصيته نهائياً سواء كان ارتكابه لها عن عمد أو جهل، والقرب في التوبة هو قبل الموت والمرض، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

ثم تخاطب السورة الأولياء فتأمرهم بتجنب إيقاع الظلم على النساء والضرر بل لابد من التزام أمر الله فيهن ونهيه، فلا يجوز أن تتعاملوا مع المرأة إذا مات زوجها كما كان يحصل في الجاهلية إذ كان أولياؤها أحق بها، إن شاء بعضهم تزوجها أو زوجوها أو منعوها من الزواج، فهم أحق بها من أهلها، فأمرتهم السورة بتجنب ذلك لحرمته سواء بأن يتزوجوهن كميراث أو يمسكوهن حتى تفتدي نفسها بمالها أو تموت فيرث وليها مالها، وأمرتهم أن يطلق الزوج إن كره صحبتها ولا يمسكها كرهاً..

وأما إذا ارتكبت فاحشة الزنا فتحد مئة جلدة إذا كانت بكراً ويضيّقها ويشق عليها حتى تفتدي نفسها، وأما إذا كانت فاحشتها البغض والنشوز وليست الزنا فله أن يأخذ من مالها في الخلع، ففي كلا الحالتين الزنا والنشوز يحل له أخذ المال..

والعضل مع الأب يختلف عن الزوج لأن الأب يحرص على مصلحة بناته فلا يتهم بينما الزوج يحرص على مصلحته فيؤمر بالتخلي عنه وبحسن المعاشرة كأي زوجة شريفة، كما ينبه عليه كراهة الزوجة لدمامتها أو سوء خلقها فيندب إلى تحمله لأنه عسى أن يؤول الأمر إلى الرزق بالأولاد الصالحين.

وتنقلنا السورة بعدها إلى استكمال حالات أخذ المال من الزوجة فتقول:

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

مبينة الفراق الذي يسببه الزوج بعد أن بيّنت في السابق الفراق الذي تسببه الزوجة، وموضحة أنه إذا أراد الطلاق من غير نشوز وسوء عشرة فليس من حقه أن يطالبها بأي مال، ومضيفة جوازاً جديداً في شأن المهور والمغالاة فيها في قوله تعالى ﴿...وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ حتى اعترف عمر رضي الله عنه عندما أراد تحديد المهور ومنع مغالاتها، واعترضت عليه امرأة بهذه الآية قائلاً: أصابت امرأة وأخطأ عمر، وإن كان مثل هذا النص لا يدل على أكثر من المبالغة وليس جواز المغالاة في المهور.

ومن مجمل القول في هذه المسألة أن قلة المهر أو كثرته تابع لحال الزوج لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام استنكر كثرته على من سأله ولم يستنكره على القادر عليه، وزوج عليه وآله وصحبه السلام بقليل وكثير، والمهم أنه لا يجوز أن يلزمها عند المخالعة بالدفع أو التنازل عن مهرها أو شيء منه ولكن إذا أرادت هي العطاء فيجوز أن يأخذ، وعللّت السورة تحريم الأخذ بالخلوة بها والإفضاء معها في لحاف واحد جامع أو لم يجامع وإن كان الجماع أرجح، وفي نفس الوقت بقصد النكاح الذي استحل به فرجها..

وهنا تأتي السورة على ذكر من يحرم الزواج منهن ومن يحل، والهدف من الزواج فتقول:

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ الَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ الرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ الَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ الَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ

مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾.

فبدأت بتحريم زوجة الأب، وأن من يفعل ذلك يعاقب إلا ما مضى فقد مضى، ثم حرمت الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهات الرضاعة وأخوات الرضاعة وأمهات الزوجات وبنات الزوجات وزوجات أبناء الصلب والجمع بين الأختين، وبذلك حرمت سبعاً من النسب وستاً من رضاع وصهر وألحقت السنة المتواترة الجمع بين الزوجة وعمتها وكذلك خالتها.

والمهم أن ما يحرم بسبب النكاح لابد أن يكون النكاح صحيحاً لأن الحرام لا يحرّم الحلال والحديث المحرم بالزنا لا تقوم به حجة، وقال عليه وآله وصحبه السلام في حق الرضاعة «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، والرضاع الراجح هو ما كان خلال الحولين الأوَّلين من العمر، وبخمس رضعات مشبعات فأكثر، والمحرمات من الصهر أربع هن أم المرأة وابنتها وزوجة الأب وزوجة الابن.

وإذا وطئ رجل امرأة بنكاح فاسد فإنها تحرم على أبيه وابنه وأجداده وولد ولده، وأما إذا وطئها بالزنى لم يحرم عليه نكاحها بذلك، كما لا تحرم عليه امرأته إذا زنى بأمها أو ابنتها، وحسبه إقامة الحد عليه، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «لا يحرم الحرام الحلال إنما يحرم ما كان بنكاح» لأن أحكام البنوة والأبوة من التوارث والولايات وغيرها تجري هنا ولا تجري عند الحرام، وهو نفس الحال عند اللواط فلا يحرم النكاح باللواط فلا تحرم الأم إذا لعب بابنها، وأما الجمع بين الأختين فمحرم في حياة الأخت الأولى الزوجية وأما بعد موتها أو فراقها فيجوز. وكذلك عند الفراق أو الطلاق فلا يجوز نكاح أختها إلا بعد انقضاء عدة المطلقة.

ثم ذكرت السورة من المحرمات على النكاح النساء المتزوجات باستثناء الإماء

فيجوز نكاحهن إذا كانت مسبية في الحرب ووقعت في سهمه لأن السباء يقطع العصمة، والمهم أن يقصد من النكاح الإحصان والعفاف وليس السفاح والإخدان، ولابد في النكاح الصحيح من دفع المهر وهو ما يطلق عليه أجر منفعة البضع مما جعل الآية تقول: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾ والآية ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ توضح أنهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن، فلا حاجة للتحرج من وطء المسبيات ذوات الأزواج بعد العدة ولو بحيضة واحدة.

وهكذا بينت السورة مع السنة جميع النساء المحرمات في النكاح، وأما من عدا ذلك فهن حلال بشرط القصد أن يكون التعفف عن الزنا، وليس تمتع الزنى ولذلك قال عليه وآله وصحبه السلام عندما سمع صوت الدف في العرس «هذا النكاح لا السفاح ولا نكاح السر»، وأن يكون طلباً لمنافع البضع بدفع المهور بحيث لا إباحة إلا بهذا الدفع سواء مقدماً أو مؤخراً أو الاثنين معاً..

ومهما كان نوع المال المدفوع للمهر والمهم أنه يصلح أن يكون أجرة للمنفعة، وأما الآية ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فلابد من دفع المهر مقابل أجر الاستمتاع، وسمي المهر أجراً لأنه مقابل منفعة الاستمتاع، وما يقابل المنفعة هو الأجر، والمقصود عليه في الزواج هو بدن المرأة للاستمتاع به، ومنفعة البضع طلباً للأولاد، والحل طلباً للعفاف، فيكون معنى هذا القسم من الآية أن ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي ادفعوا لهن مهورهن مقابل ذلك ولو كان الجماع لمرة واحدة، فيدفع المهر المسمّى أو مهر مثلها إذا لم يسمّ، وإذا كان النكاح فاسداً فلابد من المهر المسمّى.

ومن ناحية أخرى لا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة لنهي الرسول عليه وآله وصحبه السلام عنه وتحريمه ولقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ والزواج الشرعي بإذن الأهل أي بولي وشاهدين مسلمين، ونكاح المتعة لا إذن ولا شهود فيه ولا ميراث كالنكاح الصحيح، ولقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦﴾ والمتعة ليست نكاحاً ولا ملك يمين..

وروى الدارقطني عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن المتعة وقال: وإنما كانت لمن لم يجد فلما نزل النكاح والطلاق والعدة والميراث بين الزوج والمرأة نسخت. وقال ابن مسعود: المتعة منسوخة نسخها الطلاق والعدة والميراث..

ومن تتبع إباحتها ونسخها يظهر أنها كانت محظورة أولاً ثم رخص لهم بها

الرسول عليه وآله وصحبه السلام في الغزو عندما نهاهم عن الإستخصاء فكانت الرخصة أن ينكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم نهاهم عنها عام خيبر، ثم أذن لهم فيها عام الفتح، ثم حرمها بعد ثلاث في حجة الوداع، فهي محرمة إلى يوم الدين، ولذلك وصفها القاضي ابن العربي بأنها من غرائب الشريعة لإباحتها ثم تحريمها ثم إباحتها ثم تحريمها، ولا يشبهها في الشريعة إلا مسألة القبلة التي طرأ عليها النسخ مرتين ثم استقرت بعد ذلك.

وذكر بأن صيغة المتعة هي أن يقول لها: أتزوجك يوماً، أو ما أشبه ذلك، على أنه لا عدة عليها ولا ميراث بينهما ولا طلاق ولا شاهد يشهد على ذلك، وهذا هو الزنى بعينه، ولم يبح قط في الإسلام ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا أوتى برجل تزوج متعة إلا غيبته تحت الحجارة. ومن المعلوم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول بجوازها ثم ثبت رجوعه عنها وإن كان يتردد أنه وبعض الصحابة وبعض أهل البيت رخصوا بها ولذلك استمر أصحابه من أهل مكة واليمن على حلها بينما حرمها سائر الناس.

وبالنسبة لمقدار المهر فقد روي من حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال لرجل من أصحابه: «يا فلان هل تزوجت؟» قال: لا، وليس معي ما أتزوج به: قال: «أليس معك: قل هو الله أحد؟» قال: بلى! قال: «ثلث القرآن، أليس معك آية الكرسي؟» قال: بلى! قال: «ربع القرآن، أليس معك ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾؟» قال: بلى! قال «ربع القرآن، أليس معك ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾؟» قال: بلى! قال «ربع القرآن، تزوج تزوج» مما يدل على جواز الزواج بتعليم الزوجة ما معه من القرآن وخاصة مثل هذه الآيات والسور، فيكون هذا التعليم محققاً دفع مهر الفريضة، ويجوز التراضي بالمزيد أو النقص من المهر بعد استقرار الفريضة بتنازل المرأة عنه كله أو بعضه لشرط معين يقبله الزوج أو دفعه كاملاً لها إن طلقها قبل الدخول.

وعند العجز عن توفير الطَّوْل وهو القدرة على الزواج من قدرة على الجماع وقدرة على النفقة فيمكنه الزواج من أمة مؤمنة وذلك بإذن أهلها ودفع مهرها واستهداف الإحصان لا السفاح ولا الإخدان، وهي خير من حرة مشركة وإن كانت الكتابية الحرة تفضلها بحريتها وهي زوجة وولدها حر لا يسترق وولد الأمة يكون رقيقاً، وللحرة الخيار بفسخ عقد الزواج إذا تزوج عليها أمة دون علمها..

والمهم أن يتزوج أمة الغير لا أمة نفسه، ولا يتزوج الأمة الكتابية، وأن يكون ذلك بولاية مالكها وإذنه، كما لا يجوز نكاح العبد بغير إذن سيده، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «أيـما عبد نكح بغير إذن سيده فهو عاهر» وطلاقه بيد سيده أيضاً،

وأن تُعطى الأمة المهر في النكاح وإن قيل إنه لسيدها في رأي آخر لكونها في بدنها ومنفعتها ملكاً لسيدها، وأن يقصد الإعفاف لا الزنى ولا اتخاذها خليلة لأن المرأة المسافحة هي المبذولة تحت الطلب وأما ذات الخدن فهي التي تزني بواحد فهي خليلته أو عشيقته في التسمية الحديثة، ومن هذا الواقع الفاحش يظهر معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]. كما قال ابن عباس وغيره.

وأما إقامة الحد على الزانية فالرسول عليه وآله وصحبه السلام قال: «إذا زنت أمة أحدكم فليحدها الحد» وإن كان أبو حنيفة يرى إقامة الحدود على العبيد والإماء للسلطان دون المولى في الزنى وسائر الحدود. وللسيد أن يعفو عن عبده وأمته إذا زنيا كما قال حسن البصري ولكن غيره يرى إقامة الحد ولا يسع السلطان إلا إقامة الحد إذا علمه وكذلك السيد. ومقدار الحد هو الجلد بخمسين جلدة نصف ما على الحرة سواء كانت الأمة متزوجة أو غير متزوجة لأن الرجم لا يتبعض ولأن العقوبة تجب على قدر النعمة.

وأما بيع الأمة الزانية فليس بواجب لازم على ربها إلا إذ تكررت منها الفاحشة وعندها لابد أن يعرّف بزناها لأنه عيب لا يحل أن يكتم. وبسبب هذه الظروف المحطّة من قدر الزواج بالأمة فالصبر على العزبة خير من نكاحها لأنه كأبرز شيء يفضي إلى إرقاق الولد ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم «من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر»- سنن ابن ماجه.

وأخيراً تخاطب السورة المؤمنين بأن الله تعالى يريد من بيان هذه الأحكام لكم بيان أمر دينكم ومصالح أمركم فيما يحل لكم ويحرم عليكم، كما يريد أن يعرفكم بطرق أهل الحق وأهل الباطل ممن كانوا قبلكم، وكيف أنهم عندما تركوا أمر الله ونهيه عاقبهم بينما يريد الله تعالى أن يتوب عليكم ولا يعاقبكم كلما سرتم على هديه في كتابه وسنة رسوله، وحرصتم على التوبة من كل ذنب تقعون فيه..

ولذلك انظروا إلى الكافرين ومن لفّ لفّهم كيف أنهم يريدون أن تغطسوا في الشهوات والفواحش بجميع أنواعها دون حساب لحلال وحرام بينما يريد المولى سبحانه أن يخفف عنكم العنت بالإذن بزواج الإماء عند عدم القدرة على الصبر عن النساء وعند العجز عن الوفاء بالنفقات، كيف والمولى سبحانه الذي خلقكم يعلم أنكم بشر ضعاف أمام أهوائكم وشهواتكم وخاصة في أمر النساء حتى قال ابن عباس أن ﴿...وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي لا يصبر عن النساء، وقال ابن المسيب بأنه بالرغم من أنه بلغ الثمانين يخشى على نفسه فتنة النساء، وكرر ذلك عبادة بن الصامت رضي الله عنه..

الأمر الذي يستدعي الحذر من هذا الشر المستطير الذي عمَّ وطمَّ البلاد وأصبح كأنه هدف للإفساد وتركيع العباد للظلم والظالمين بعبث الشيطان وحزبه!!

ومع ذكر الأموال لليتامى والنساء والصغير والكبير جاء ربط ذلك بما يجوز من تجارة وغيرها ومالا يجوز فتقول السورة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾.

منبهة أن بيع القمار والغرر والمخاطرة، وأكل المال بالباطل بغير عوض ولا هبة كلها باطل، وكذلك بيع العربان إذا اختار البائع إتمام البيع، ويروي عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم (نهى عن بيع العربان)..

ولا يستثنى من هذه المعاملات إلا التجارة بالبيع والشراء بالرضى بين الطرفين وبعوض جائز شرعاً، فلا خمر ولا لحم خنزير مثلاً، ولا مخالفة للمواصفات وإلا كان المشتري بالخيار، ولا تجاوز للثلث في الغبن، والتزام الحديث «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» فإن تفرقا بالأبدان تمّ البيع وخاصة إذا لم يقولا بالخيار، ولاسيما أن الله تعالى يقول في مجال آخر ما ينطبق هنا ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾، ومن لزوم مراعاة الصدق والأمانة في التعامل لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «التاجر الصدوق الأمين المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة» مما يعظم مكانته ويفرض عليه الحرص عليها، ومع ضرورة عدم تعريض الإنسان نفسه للهلاك بالحرص على الدنيا طمعاً في المال ولو بالخداع بأي طريقة، لأن من يقدم على ذلك له أشد العذاب يوم القيامة، كيف لا وهو يوقع نفسه في الكبائر من الذنوب التي يفرض فيه أن يتجنبها مهما كان مطمع الدنيا، ولاسيما عندما يضع أمام ناظريه رقابة الله له وحرصه على رضاه ليخرج من هذه الدنيا بسلام معه تعالى فتكون المخالفة لأمر الله تعالى هي مركز انتباهه وحرصه على ألا يقع فيها في أية معاملة مالية مع الآخرين، وعندها فقط يحصل على ما يعد به الله لأمثاله ﴿وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ بجنان الخلد في الآخرة، كيف لا وهو المسلم التقي الصادق الأمين في معاملاته مع الله والناس ونفسه جميعاً.

وبعدها تأتي السورة على جانب آخر من مشاكل البيوت بين الأزواج والزوجات فتقول:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

فتجيب على تساؤل: يغزو الرجال ولا يغزو النساء ولهن نصف الميراث؟ وعلى تمني النساء لو جعل أنصباؤهن كأنصباء الرجال، فنهى سبحانه المؤمنين عن التمني لما فيه من انشغال البال ونسيان الأجل وأجيز لهم الغبطة بأن يتمنى الرجل أو المرأة حال الصاحب دون زوال حاله عنه، وهذا معنى حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»، فلا يجوز تمني عرض الدنيا وأشباهها وأما في الأعمال الصالحة فذلك حسن لقوله عليه وآله وصحبه السلام «وددت أن أحيا ثم أقتل» أي في سبيل الله والشهادة في الجهاد لرفيع منزلتها وكرامة أهلها..

فالمنهي عنه أن يحسد أخاه بذهاب النعمة عنه لتأتيه كما أشارت الآية ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾، ومنها خطبة الرجل على أخيه وبيعه على بيعه لما فيها من الحسد والبغضاء، فتلفت السورة نظر المؤمنين بأن لكل من الرجال والنساء حظاً مما يعملون من الثواب إن أحسنوا ومن العقاب إن أساءوا، فليحرصوا على كسب الثواب وسؤال المولى سبحانه عما عنده من فضل لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «سلو الله من فضله، فإنه يحب أن يُسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج»- رواه الترمذي- وقال «من لم يسأل الله يغضب عليه»- رواه ابن ماجه.

ثم يبين المولى سبحانه أن لكل إنسان ورثة وموالي، فلينتفع بما قسم الله له من

الميراث ولا يتمنى مال غيره، ثم أمر سبحانه المؤمنين أن يعطوا الحلفاء أنصباءهم من النصرة والنصيحة وأشباهها كما ذكر الطبري عن ابن عباس لمعنى ﴿...وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾، وكما أن الولد يرث والده فإن الغلام المعتق يرث سيده إذا لم يكن له غيره كما فعل صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عندما ورثه فعلاً.

ثم تتحدث عن معنى قوامة الرجل على زوجته بأنه يقوم بالنفقة عليها وحمايتها سواء أثناء العيش معها أو بالغزو في الجهاد وهذا ليس لها، ولهذا فضله عليها في الإرث ولاسيما أنه مطالب بالمهر مع الإنفاق مما يجعل تفضيله عنها عائداً إليها، الأمر الذي يدل على أن عليه تأديبها إذا لم تحفظ حقوقه مع حرصه على حسن العشرة معها، وهذا من مقتضى مفهوم القوامة، ومن ناحية أخرى فمن معناها أيضاً أنه إذا عجز عن نفقتها فقد سقطت قوامته عليها مما يعطيها حق فسخ عقد الزوجية معه وإن كان لها أن تصبر وتنظره إلى ميسرة حفاظاً على حسن العشرة، كيف لا والزوجات الصالحات طائعات لله وحافظات لغيبة أزواجهن بحرصهن على طاعة أزواجهن والقيام بحقهم في أموالهم وفي أنفسهن عند غيبتهم عنهن، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول بهذا الشأن «خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك» من مسند أبي داود..

وأما عند التأكد من نشوزها وعصيانها بعدم القيام بما أوجب الله عليها من طاعة الزوج فعليه بوعظها وتذكيرها بكتاب الله وما أوجبه عليها من حسن الصحبة وجميل العشرة، كيف لا والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»، ويقول: «أيما امرأة باتت هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» وفي رواية «حتى تراجع وتضع يدها في يده»..

فإن استجابت فنعمّا هي وإلا فله أن ينتقل في علاج نشوزها بهجرها في المضجع بأن يوليها ظهره ولا يجامعها أو يترك السرير معها، فإن كانت صاحبة نفس حساسة وصاحبة مروءة وتقدير حسن العشرة فما أسرع ما تستجيب للتذكير والهجر وتصلح موقفها مع زوجها وإن عاندت على باطل وأصرت على نشوزها فله أن ينتقل إلى الضرب غير المبرح ولو بإصبعه أو بالسواك بحسب ما يراه مصلحاً لها ومحققاً استجابتها لأن الضرب ليس مقصوداً لذاته بل كواسطة مؤثرة في التذكير إذا كانت ممن يتذكر بذلك والرسول عليه وآله وصحبه السلام قال في حجة الوداع «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا

إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن» مشيراً بالفاحشة لا إلى الزنا الذي يستلزم الحد وإنما إلى إدخال من يكرهون وإغضاب أزواجهن..

والمهم أنه إذا استجابت الزوجة ورجعت للطاعة وتخلت عن النشوز ومشاكله فلا يجوز له أن يتجنى عليها بقول أو فعل ولا يفرض عليها ما لا تملكه من ضرورة حبها القلبي له، وليتذكر أن الله قادر عليه مهما قدر هو عليها، وأنه عليه أن يميز بين أسلوب تأديب الزوجة إذا كانت رفيعة عنه إذا كانت دنيئة، فأدب اللوم كاف مع الرفيعة بينما قد لا ينفع إلا أدب السوط مع الدنيئة.

وفي النهاية قد يصل النزاع بين الزوجين إلى القطيعة التي لابد لها من علاج، فوضع المولى سبحانه ذلك في التحكيم بينهما بأن يرضى كل منهما عن حكم من أهله فيعرِفا مَن سبَّب الشقاق ويعالجاه ويصلحاه إذا كانا جادين في ذلك بتوفيق الله لهما ولو كان الحكم واحداً برضى الطرفين، وقضاء الحكم ملزم ونافذ بينهما في كل ما وكلاه فيه حتى الطلاق إلا أن يجعل هذا للقاضي وذلك بشرط اتفاق الحكمين على الحل، وأما إذا اختلفا فلا نفاذ ولا لزوم لقولهما، وعند النفاذ لهما تطليقة واحدة فقط وليس لهما أكثر من ذلك، وعند فهم الزوجين بأن الحكمين أو الحكم الواحد على قدرة من حسم الأمر بينهما، رضيا بالحل أو لم يرضيا به، فعليهما الاستعداد لتقبل حكم الحكمين..

وأما إذا كان التحكيم ليس لحل الشقاق وإنما لتنفيذ المخالعة فهذا ليس عمل الحكمين الوارد هنا والمقصود بالإصلاح والإبقاء على الحياة الزوجية وإنما مجرد تنفيذ ما اتفقا عليه قبل الاستعانة بغيرهما، فلا علاقة له بموضوع التحكيم.

وتعقب السورة على أعمال الزوجين وغيرهما بأن تكون خالصة لله في كل المعاملات مع القريب والبعيد، مع الحرص على الإنفاق بكرم في سبيل كل عمل خير فتقول:

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ
وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ
مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ
ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا

عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا
مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ
لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

مبينة ومؤكدة لزوم الطاعة لله والإخلاص في كل عمل ليكون لوجهه الكريم وحده ودون إشراك غيره فيه ولا بأي شكل من أشكال الرياء ﴿...فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وسواء كان الشرك على طريقة الجاهلية باعتقاد شريك لله في ألوهيته، أو ما هو دونه في الرتبة من اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، أو ما هو دون ذلك من الإشراك في العبادة، وهو الرياء، فكله شرك مبطل للأعمال، وسواء كان الرياء بعزمه أن الفعل لغير الله ولكنه يريد أن يعرف أنه لله، وهو النفاق، أو كان الفعل ابتداء لله ولكنه ينشط للقيام به إذا اطلع عليه غير الله، وهذا العمل يجب إعادته عند التوبة، أو كان الفعل مخلصاً لله ابتداءً وانتهاءً ولكنه رضي واطمأن لمدح الآخرين له، وهذا هو الرياء المنهي عنه لأنه يريد الحمد والمدح والإجلال من الآخرين للوصول إلى مال أو غيره، وأما لو كتم عمله عن الآخرين، واطلعوا عليه ليس منه، وسر بذلك وهو لا يحب إطلاعهم فينطبق عليه ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، مما يستدعي منه شكر الله والثناء عليه دون توجه إلى أي مغنم ممن اطلع عليه من متاع الدنيا.

وبعدها تبدأ السورة في تعداد من هم بالترتيب اللازم الإحسان إليهم طلباً لمرضاة الله تعالى، فتذكر الوالدين أولاً، كيف لا والمولى سبحانه يقول: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ رابطاً شكرهما بشكره تعالى، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «رضى الرب في رضى الوالدين وسخطه في سخط الوالدين»..

ثم تذكر السورة الإحسان لذي القربى واليتامى والمساكين، ثم الجار ذي القربى والجار الجنب أي الجار القريب والجار الغريب أي الأجنبي مما يدل عليه حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد، فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار، والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار»، والمهم أن يحسن لأقرب الجيران منه أولاً لقوله عليه وآله وصحبه السلام لعائشة: «إلى أقربهما

منك باباً» عند الإهداء إليهما، علماً بأن حد الجيرة يصل إلى أربعين داراً من كل ناحية وإن كانت مراتب الجيرة بعضها ألصق من بعض، وعلى الجار إكرام جاره سواء في الهدية أو قضاء الحاجة أو غير ذلك ولا يستخف بالمساعدة بالشيء مهما قل والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «يا نساء المؤمنات لا تحقرن إحداكن لجارتها ولو كراع شاة محرقاً» أي ساقها العاري من اللحم، وحدد عليه وآله وصحبه السلام حق الجار فقال: «إذا استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير سرّك وهنيته، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزيته، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها، ولا تستطل عليه بالبناء لتشرف عليه وتسد عليه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فاهدِ له منها وإلا فأدخلها سراً لا يخرج ولدك بشيء منها يغيظون به ولده، وهل تفقهون ما أقول لكم، لن يؤدي حق الجار إلا القليل ممن رحم الله».

ثم تذكر السورة ابن السبيل وهو المسافر بإعطائه وهدايته ورشده، وبعدها ما ملكت أيمانكم من المماليك بالإحسان إليهم بالتسوية في الملبس والمطعم معهم حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم «من ضرب عبده حداً لم يأته أو لطمه فكفارته أن يعتقه»- رواه مسلم. وقال: «من قذف مملوكه بالزنى أقام عليه الحد يوم القيامة ثمانين» بغض النظر عن تفضيل الحر عليه بحريته وقيامه مختاراً بتكاليفه الشرعية.

وتختم السورة هذه الآية بأن الله تعالى لا يرضى عمن يتكبر على الناس ويفخر عليهم بأعماله متطاولاً، ويتوعد سبحانه من يمتنع ببخله عن أداء ما أوجبه الله عليه سواء كانوا المسلمين أو اليهود الذين اعتادوا على ذلك وعلى كتمان أمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام، فالمسلم البخيل محروم من محبة الله والكافر البخيل ينتظره العذاب المهين المذل، وأما المنافقون الذين يتظاهرون كذباً ورياء بالإنفاق من أموالهم بينما هم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فكيف تقبل أعمالهم عند الله؟! إنها للشيطان وساء لهم صاحباً في نار جهنم، وكم كان حرياً بهم وهم الذين خالطوا المؤمنين وعرفوا الإيمان لو آمنوا بالله واليوم الآخر وجعلوا إنفاقهم خالصاً لوجهه تعالى العالم بكل سكناتهم وحركاتهم، والذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة من عمل يأتيه بل يؤجره عليه ويضاعف الحسنات من فضله العظيم ورحمته الواسعة أكثر مما يتخيل الإنسان.

وانظروا إلى الرسول عليه وآله وصحبه السلام الذي يدعوكم للإيمان بالله واليوم الآخر والإخلاص لله في الأعمال وهو يستمع إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، كيف تذرف عيناه لثقل هذه المسئولية

بالشهادة على كفار قريش خاصة وغيرهم من الكفار عامة لحرصه على إيمانهم وإصرارهم على الكفر مع أنه كان شديد الحرص على إيمانهم، فكيف يكون حالهم يوم القيامة مع عنادهم في الكفر وتعاليهم عن الإيمان؟!

إنهم سيكونون بأسوأ حال فيتمنى الواحد منهم لكفره وعصيانه للرسول عليه وآله وصحبه السلام لو تخسف به الأرض ولا يخفي شيئاً من حياته يوم الحساب حين يتمنى أن يكون تراباً كالبهائم، وحين يختم على أفواههم وتشهد أرجلهم وأيديهم بما كانوا يكسبون بعد أن يؤمروا بالصمت لكذبهم في قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

وبالمقابل تأتي السورة على مخاطبة المؤمنين ودعوتهم للحرص على سلامة صلاتهم في شروطها مع الماء وعدمه فتقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ ❁

وخصت المؤمنين بالخطاب لأنهم كانوا يقيمون الصلاة مع تناول الخمر مما أفسد عليهم عقولهم ومما جعل منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ينادي: ألا لا يقربن الصلاة سكران. فطلب عمر رضي الله عنه أن يبين تعالى في الخمر بياناً شافياً فنزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ فقال عمر: انتهينا، انتهينا، ثم نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: ألا إن الخمر قد حُرّمت.

وكانت هذه الآية الناهية عن الصلاة مع السكر قد نزلت عندما قرأ علي رضي الله عنه وهو يؤمهم كما يروي الترمذي عنه قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون ليمنعوا من الصلاة إلا وهم على وعي تام بها ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾، مما يدل على أن الخمر كانت مباحة أولاً ثم أخذت الآيات تنزل مهيئة لهم للتحريم الكلي.

ثم أمرت الآية المؤمنين ألَّا يقربوا الصلاة والواحد منهم جنباً إلا بعد الاغتسال ولكن باستثناء عابر السبيل المسافر فإنه يتيمم لعدم الماء مع السفر. وأما إذا وجده، وتيسر له، فلا بد من الاغتسال للصلاة، وكذلك على المقيم أن يتيمم قبل عبور المسجد إذا كان جنباً وتعذر له وجود الماء والقدرة على استعماله لمرض ما، وكذلك لو افتقد

وضوءه لخروج شيء من أحد السبيلين، وفقدان الوضوء مانع من الصلاة ومن مس المصحف وقراءة القرآن، على رأى، ولا بد من النية لغسل الجنابة وكذلك للوضوء والتيمم لقوله عليه وآله وصحبه السلام: «إنما الأعمال بالنيات»، وبعد النية لغسل الجنابة يتوضأ وضوءه للصلاة مبتدئاً بغسل العورة ثم الوضوء وبعدها يغسل رأسه وجنبه الأيمن فجنبه الأيسر فيطمئن على غسل الرجلين محاولاً بل حريصاً على عدم الإفراط في استخدام الماء.

وأما التيمم فقد أمر به تعالى عند المرض والخوف من مضاعفة المرض أو الهلاك إذا استخدم الماء، وعند السفر مع فقدان الماء، فهو رخصة للمريض والمسافر، وبشرط فقدان الماء أو عدم إمكانية الوصول إليه، أو الخوف من ضياع وقت الصلاة للمقيم لأن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ يعني المقيم إذا عدم الماء، لأن مفهوم الآية أن السبب الموجب للتيمم هو الحدث وليس المرض ولا السفر.

وأما نواقض الوضوء فهي ثلاثة: زوال العقل، وخارج معتاد من أحد السبيلين، وملامسة النساء، على مذهب المالكية، ويرى الأحناف ذلك في خروج نجاسة من الجسد بغض النظر عن المخرج، كما لا يعدون اللمس، وأما الشافعية فيرون الخروج من أحد السبيلين دون مراعاة الاعتياد، كما يراعون اللمس، فزوال العقل مجمع عليه لدى الجميع بالإغماء أو الجنون أو السكر ولكن باستثناء النوم فهم يختلفون حوله وإن كان الكل يرى النوم الثقيل مظنة الحدث سبباً وأما الخفيف أو عند الجلوس فليس بسبب لنقض الوضوء أخذاً من قوله عليه وآله وصحبه السلام: «إن الوضوء لا يجب إلا على من نام مضطجعاً فإنه إذا اضطجع استرخت مفاصله» وقوله: «من نام جالساً فلا وضوء عليه ومن وضع جنبه فعليه الوضوء». وأما ملامسة النساء فهي بين الجماع واللمس، واللمس بمعنى المس باليد، والأحناف على الجماع والجمهور على المعنى الثاني وخاصة لورود ذكر الجنب في أول الآية. والمهم عندهم ألا يصاحب المس باليد لذة وشهوة.

ومتى لا يجد المسافر الماء؟ إما لعدمه تماماً أو عدم بعضه، وأما لخوفه فوات الصحبة أو على الرحل بسبب طلبه أو من اللصوص أو السباع أو فوات الوقت أو العطش المهلك له أو لغيره أو لحاجته للطبخ ليقيت نفسه، فأي من هذه الأشياء يمكن معه التيمم والصلاة، وله أن يقوم بذلك في أول الوقت أو في وسطه أو يؤخر الصلاة عله يجد الماء في التأخير، والمهم أن يراعي من وجود الماء وجود ما يكفيه لطهارته فإن وجد أقل تيمم وصلى ولم يستعمل ما وجد، والمهم أيضاً أن يجد ما يسمى ماء

ويتصف بأنه طاهر مطهر، وإلا فالتيمم بالتراب الطاهر حتى قال عليه وآله وصحبه السلام لأبي ذر «الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج» وقال لمن طلب الماء فلم يجده «فأينما أدركتك الصلاة تيممت وصليت»، هذا وعلى المتيمم عند وجود الماء أن يستعمله لبطلان تيممه كأفضل من البقاء حتى يحدث سواء قبل انتهاء الوقت أو بعده، وله أن يكرر التيمم لكل صلاة فريضة لأن عليه أن يطلب الماء لكل صلاة ويتيمم إذا لم يجده.

وأما الصعيد الطيب فهو وجه الأرض سواء كان عليه تراب أو لم يكن وكان رملاً أو حجارة أو معدناً أو سبخة، وهذا قول المالكية، وأما الشافعية وبعض الأحناف فهو التراب الطيب فقط وله غبار، وهذا ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبشرط أن يكون التراب الطاهر غير مغصوب حتى لو كان على جدار، وكيفية التيمم أن يضرب بيديه التراب الطاهر ضربة واحدة، على رأي، وضربتين على الرأي الأرجح، ويمسح بهما واحدة وجهه والأخرى بيديه إلى المرفقين كالوضوء وكما قال الرسول عليه وآله وصحبه السلام «إلى المرفقين».

وبعدها تعود السورة لمخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأمته إلى يوم القيامة بشأن اليهود بالذات وأفاعيلهم المنكرة وعبادتهم للطاغوت فتقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ
أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ
وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ
أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ
بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ
ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ .

انظروا إلى يهود المدينة وما والاها كيف بحسدهم وعنادهم في الكفر يستبدلون الضلالة بالهدى ويسعون لإبعادكم عن طريق الحق فاحذروهم ولا تصحبوهم لأنهم أعداؤكم واكتفوا بالله تعالى فهو يكفيكم أعداءكم. وانظروا إلى هؤلاء اليهود ومنهم من يحرفون الكلام ويتأولونه على غير تأويله متعمدين بإنكارهم صفة النبي عليه وآله وصحبه السلام وبقولهم بأنهم سمعوا قولك وعصوا أمرك، ويدعون عليك من باب السباب قائلين: أن اسمع ولا سمعت، أي لا يقبل أحد دعوتك ولا يستجيب معك، ويلوون ألسنتهم عن الحق ويطعنون في الدين وفي نبوته عليه وآله وصحبه السلام بأنه لا يعلم ما يقولونه ضده، فأطلعه الله عليهم ونهاهم عن هذا القول، وكم كان أفضل لهم وأسلم لو قالوا سمعنا وأطعنا ولكن لعنهم الله وطردهم من رحمته لعظيم كفرهم.

وانظر إليهم يا محمد وربك يأمرهم بالإيمان بالقرآن الذي يصدق بنزول التوراة والإنجيل، ثم يتهددهم إن لم يفعلوا ذلك بطمس وجوههم ومحوها فيهلكوا حتى ارتعب كعب الأحبار وعبد الله بن سلام عندما سمعا هذه الآية وخشيا أن يحل بهما ذلك قبل أن يعود الواحد منهما إلى بيته فأسلما، ورفع ذلك العذاب بإسلامهم وأجل الآخرون لعذاب يوم القيامة، كما هددوا بالطرد من رحمة الله واللعن كما لعن أصحاب السبت من اليهود السابقين عندما مسخوا إلى قردة وخنازير، وانظر إليهم وإلى جميع المشركين والله تعالى يتهددهم بأنه لا يغفر الشرك لأحد ولكنه يغفر ما هو أدنى منه من الصغائر والكبائر لمن يشاء من عباده، كما قال الإمام الطبري: حتى قال علي رضي الله عنه كما يروي الترمذي: ما في القرآن آية أحبُّ إلي من هذه الآية.

وانظر يا محمد إلى أولئك اليهود وأمثالهم الذين يزكون أنفسهم بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] وقولهم ﴿...إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وقولهم بأن ذنوبهم مغفورة وأنهم كالأطفال في عدم الذنوب وأنهم يثنون على بعضهم البعض، فمن أين لهم بهذه التزكية وهذا التطهير والله تعالى وحده الذي يزكي ويطهر من يشاء وليس هم، وسيرون عدله يوم القيامة، فمنع سبحانه التزكية للذات وللآخرين كما منع ذلك الرسول عليه آله والسلام فقال «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم وقولوا: عبد الله ورسوله» لأن مدح الآخرين بما ليس فيهم تجاوز الحد واعتداء آثم وأما مدحه بما هو فيه ولا يخشى عليه من الكبر والتشوف بل يشجعه على الخير فجائز.

وتواصل الآية دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن ينظر إلى افتراءاتهم وأكاذيبهم على الله بهذه التزكية مما يعرضهم للإثم الشديد، كما انظر إليهم وهم يؤمنون

بالجبت والطاغوت أي السحر والشيطان وكل ما يعبد من دون الله وتصل بهم الجرأة في الباطل إلى درجة أنهم بقيادة كعب بن الأشرف وصحبه السبعين الذين ذهبوا لقريش طلباً للحلف ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقولون لكفار قريش جواباً على سؤالهم فيما إذا كانوا هم أو محمد أفضل بأنهم أفضل من محمد وصحبه إذ قال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد! فهل هم أولى بالنبوة منك يا محمد أم لهم نصيب من ملك الله يجرؤون على مثل هذا الكفر المركب!! وهاهم يبخلون بأقل القليل في العطاء وكأن الملك لهم ولهم التصرف به!

وتواصل السورة توبيخ اليهود على حسدهم النبي عليه وآله وصحبه السلام النبوة وكفرهم بسبب ذلك فتقول:

﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ﴿٥٤﴾ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن صَدَّ عَنۡهُۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

انظر إليهم وكأنهم ليس فقط على قدرة من التصرف بملك الله بل أيضاً يحسدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم على النبوة لأنهم كانوا يتوقعونها فيهم، وكأنهم لا يعلمون أن النبوة إلى الله تعالى يصطفي لها من عباده من يشاء كما اصطفى آل إبراهيم وأنزل عليهم الكتب ووهبهم الحكمة وحسن التدبير والملك العريض، فماذا كانت النتيجة؟

إن من قومهم من آمن بما أنزل عليهم ومنهم من كفر ورفض وسعير جهنم بانتظارهم ناهيك عما لاقوه من العذاب في الدنيا.. فهاهو ملك سليمان وسيطرته على الجن والطير وغيرهما، وهاهو ملك داود وما سخر الله تعالى له من الريح وغيرها، فلينتظر أولئك الذين كفروا النار تتناوب على جلودهم كلما استبدل المحروق منها بالجديد، وما ذلك بمعجز لله القادر على كل شيء الحكيم في تدبير عباده، وانظروا إلى من آمن منهم وصلحت أعماله ما ينتظرهم من جنات الخلد وما فيها من أنهار تجري فيها وأزواج مطهرة من كل دنس فلا حيض ولا بول ولا تغوط، ومثل هذا جزاء كل مؤمن صالح..

ثم تخاطب السورة ولاة المسلمين من النبي عليه وآله وصحبه السلام وصحبه إلى من يتولى أمورهم إلى يوم القيامة فتقول:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ .

في آية تعتبر من أمهات الأحكام بأمرها للولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في تنفيذ الأحكام الشرعية، كما أنها تأمر عامة الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادة وغيرها، كيف لا والصلاة والزكاة وسائر العبادات هي أمانة الله تعالى.

فبعد أن أخبر تعالى عما يفعله أهل الكتاب من كتمان صفة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وزعمهم أن المشركين أهدى من المسلمين سبيلاً أورد هذه الآية التي تشير إلى أن ذلك كله خيانة منهم، الأمر الذي يفرض على من توسد إليه أمانة مهما كان نوعها ألا يخونها كما خان اليهود أماناتهم..

والأمانة في المعاملات تشمل الوديعة واللقطة والرهن والعارية وكلها مفروض الحفاظ عليها وأداؤها والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك» أخرجه الدارقطني.

هذا بشأن الأمانات وشمولها وأما بشأن الحكم بين الناس فالواجب على الحاكم المسلم خليفة سمي أو أمير مؤمنين أو إماماً أن يحكم بين الناس أبناء الأمة الإسلامية والمجتمع الإسلامي مسلميهم وذمييهم بالعدل عملاً بقوله عليه وآله وصحبه السلام «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته» كما أن الرجل والمرأة والخادم كلاً منهم راع ومسئول عن رعيته، والله تعالى سميع لكل كلمة تصدر من أحدهم وبصير بكل عمل يصدر عنه فليحذر الخروج عن الحكم بالإسلام والعدل في تنفيذه والحرص على دوام الإحسان في التنفيذ.

وهنا تعطف السورة على هذا الخطاب بأمر المؤمنين بطاعة أولياء أمورهم المطيعين لله ورسوله وتحديد كيفية حسم أي خلاف بين الرعية وحاكمها عند الحكم فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

إذ بعد أن أمرت السورة الحكام بأداء الأمانات والحكم بين الرعية بالعدل أمرت الرعية في هذه الآية بطاعته تعالى أولاً بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانياً في ما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثاً، وطاعة الخليفة واجبة في كل ما لله فيه طاعة لا في ما فيه معصية فكيف بمن لا يأمر بطاعة الله وإنما بعصيانه في كل ما يطبق من أحكام؟! قال الإمام علي رضي الله عنه: حق على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك وجب على المسلمين أن يطيعوه، لأن الله أمرنا بأداء الأمانة والعدل ثم أمر بطاعته.

صحيح أن هناك من قال إن أولي الأمر هم أهل القرآن والعلم، كما قال الإمام مالك رحمه الله، أي العلماء والفقهاء، أو أنهم أولو العقل والرأي الذين يدبرون أمور الناس، ولكن الأولى والأدق أنهم الحكام، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «من أطاع أميره فقد أطاعني» ويقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» مما يوجب على الرعية طاعة ولي الأمر ما دام يطيع الله ورسوله، وعند الاختلاف معه يجب رده إلى الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ما دمتم مؤمنين بالله ومستعدين لتحمل الجزاء يوم القيامة بكل صدق وإخلاص، وهنا يحذر الرسول عليه وآله وصحبه السلام ممن يريد الاحتكام للقرآن دون السنة فيقول «أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما في هذا القرآن، ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر» أخرجه الترمذي. والله تعالى يحسم الأمر بقوله ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ [النور: ٦٣].

ونعود للآية فنجدها تنتهي بالتشديد على المؤمنين أن ردهم ما يختلفون فيه إلى الكتاب والسنة هو خير من التنازع وأن فيهما الحكم والحل لكل تنازع لأنهما المرجع الحق من دون غيرهما.

ثم تذكّر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام والمؤمنين بما يفعله المنافقون مما يجب الإقلاع عنه فتقول:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا
﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل
لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ
أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا
رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ
أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ
ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ
تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ
وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ
أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

فانظر يا محمد إلى المنافقين الذين يطلب أحدهم المخاصم لليهودي أن يحتكم إلى حكامهم بدلاً من الرسول عليه وآله وصحبه السلام فيزعم أنه مؤمن بالإسلام وبالكتب السابقة ولكنه يتحاكم في حل خصومته إلى الطاغوت مما هو كل ما دون الله بينما هو مأمور أن يكفر بالطاغوت ويحتكم لله ولكنه يسير مع الشيطان ويحتكم لباطله فيغرق في الضلال. .

وانظر إليهم وهم يرفضون الاحتكام إلى القرآن والسنة فلا يطول حصول أحدهم على جزائه العادل تماماً كما حصل في تلك الخصومة بين اليهودي والمنافق عندما رفض المنافق حكم رسول الله لأنه حكم لليهودي، ثم رفض حكم أبي بكر، وعندما جاء عمر وعلم رفضه لحكم رسول الله وصاحبه قتله وقال: هكذا أقضي على من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودي، ونزلت الآية وقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «أنت الفاروق» ونزل جبريل عليه السلام وقال: إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمي الفاروق، ونزلت في ذلك الآيات التالية حتى ﴿وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

ثم تواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن ينظر كيف تكون حال أولئك المنافقين عندما تحل بهم مصيبة كأن يرفض عليه وآله وصحبه السلام الاستعانة بهم فيلحقهم من الهوان ما يلحقهم فيسارعون إليه عليه وآله وصحبه السلام

بأيمانهم الكاذبة بأنهم بطلبهم دية قتيلهم الذي قتله عمر يريدون الإحسان وطلب الحق فقط بالتوفيق بين الخصوم، فتنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام وليزجرهم أبلغ الزجر ويرفض اعتذارهم ويؤكد لهم أن الله تعالى يعلم كذبهم ونفاقهم فعليهم أن يتوقفوا عن ألاعيبهم وإلا قتلهم شر قتلة، وأعلمهم، واعلم البشر كلهم، أن الله عندما يرسل أي رسول يجب طاعته بأمر الله وليس لأحد الخروج على أمره، وكم كان خيراً لهم لو أنهم بعدما أوقعوا أنفسهم في كل هذا الكذب رجعوا عن ذلك وجاءوا إليك يا محمد تائبين مستغفرين الله واستغفرت الله لهم لتاب الله عليهم برحمته وفضله..

كما ليعلموا هم والبشرية جمعاء أن الإيمان لن يتحقق من أحد مادام يريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ولكنه يتحقق فقط عندما يحتكم في كل شجونه وشئونه إلى رسول الله ويتقبل حكمه بكامل الرضى والاطمئنان والتسليم والإذعان، كيف لا وهو عليه وآله وصحبه السلام معصوم عن الخطأ في التبليغ والأحكام.

ثم تعلم السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأكاذيبهم الأخرى من أنهم لو فرض عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم جزاء نفاقهم لما فعل ذلك إلا القليل منهم مع أنهم لو فعلوه لكان فيه لهم الخير كل الخير في الدنيا والآخرة والثبات على الحق ونوال أعظم الثواب في الآخرة..

ثم استأنفت السورة تعميم هذا الثواب على كل من يفعل ذلك فنبهت إلى أن من يطع الله بالتزام أمره ونهيه، ويطع رسوله في كل ما يأمر وينهى أيضاً، فإنه ينال الحظوة العظمى عند الله تعالى عندما يجعل مكانته مع النبيين في دار واحدة ونعيم واحد يستمتع برؤيتهم والحضور معهم وإن تفاوتت درجته عنهم، وأنه مع الصديقين كأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومع الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، ومع الصالحين من أمة محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم..

وهنا يرى الإمام القرطبي ورأيه حق بأن في الآية دليل على خلافة أبي بكر وتطمين الناس إلى صحتها إذ جاء الصديق بعد النبي في مرتبة أولياء الله تعالى. وتنهي السورة ذكر هذا الفضل للمطيعين لله ورسوله بأنه منه تعالى الذي يتفضل بذلك على عباده لا استحقاقاً لهم وإنما كرماً منه تعالى.

وتبعاً لذكر الكفار والمنافقين وافتراءاتهم وألاعيبهم جاء الأمر للمؤمنين بالجهاد بعد أن تمت التهيئة الكاملة له فقالت السورة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ
أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ
لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣)
۞ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ
الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا
أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ
أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن
تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ
اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ
فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩) مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ
الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٨١) أَفَلَا
يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ
الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ
مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (٨٣) فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ
تَنكِيلًا (٨٤)﴾ ۞

فقد خاطب المولى سبحانه المؤمنين الصادقين في الأمة الإسلامية ليهبوا للجهاد في سبيل الله حماية للشرع ونشراً للدين في الأرض، فبعد أن ذكّرهم بالتزام طاعة الله

وطاعة رسوله أمرهم وهم أهل هذه الطاعات بالقيام بهذه المسئوليات الجسام ليبقى دينه سبحانه حياً في الأرض والنفوس معاً، في المجتمع والفرد سوياً..

ولكن بشرط ألا يهاجموا عدوهم وهم يجهلون حالته وإنما لابد أن يتحسسوا أمره ويضعوا موازينهم للمقارنة بما عندهم ويدركوا تمام الإدراك كيف يردون حيث يلزم الرد، وكيف يهجمون حيث يلزم الهجوم ولهذا قال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ قبل مباشرة الحروب ضد أعدائكم، أعداء دينكم..

وهذا بالطبع هو عين التوكل على الله بالأخذ بالأسباب ورجاء النصر بتوفيق الله وعونه إذ الحذر وحده لا يكفي لدفع مكائد الأعداء لأن النصر أولاً وآخراً بيد الله، بقضائه وقدره، وليس فقط بالسلاح مهما كان قوياً، وهذا معنى قوله عليه وآله وصحبه السلام «اعقلها وتوكل» كيف لا وسبحانه المؤكد لهذا المعنى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ مما يعني هنا بالتحديد قضاءه وقدره.

وهكذا أمر الله سبحانه المسلمين بالنفير للجهاد في سبيل الله بالشكل اللازم في ذلك الموقف سواء جاء في جماعات وفئات وسرايا محدودة عند الهجوم العدواني المفاجئ أو بالجيوش الكثيفة تحت إمرة الإمام الذي أخذ حذره وأعد للأمر عدته وذلك عند الهجوم الإسلامي للفتح ونشر الدعوة بهدف إزالة الحاجز المادي الذي أقامه العدو في طريقها ومنع به وصول الإسلام وأحكامه وتشريعاته إلى حياة مجتمعه الذي رآى الإسلام حياً في المجتمع المجاور فتعطش لعدله وإنسانيته.

وأخذ المولى سبحانه ينبه المسلمين على مواضع الخلل الذي من الممكن أن يحصل لهم فذكر لهم أخطر عنصر في ذلك ألا وهو ولاؤهم للمنافقين الذين يعمدون إلى تثبيط العزائم وتأخير التصدي أو الهجوم بذرائع تناسب نفاقهم وتآمرهم على أمتهم مع عدوهم حتى أنهم يشمتون بأهلهم وجيش أمتهم عندما يصاب بهزيمة فيزعمون أن الله قد أنعم عليهم بقعودهم عن الجهاد أو تهربهم منه، ولكنهم ما أجرأهم على التظاهر بالمساندة والدعم عندما يحقق الله تعالى النصر للجيش الإسلامي فيعبرون عن الندم والتحسر لتأخرهم عن المشاركة في الجهاد والغنيمة..

ثم وجه المولى سبحانه أمره للمؤمنين بالمبادرة للقتال في سبيل الله ماداموا يبيعون حياتهم الدنيا بالآخرة فيبتغون ما عند الله تعالى من ثواب جزيل مقابل دنياهم وعندها سيجدون مثل هذا الأجر العظيم بانتظارهم سواء قتلوا في المعارك لإعلاء كلمة الله أو انتصروا ولم يقتلوا فهما سواء حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم موضحاً ذلك «ما

من غازية تغزوا في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم في الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم»- رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

ثم عادت السورة تحض على الجهاد لتخليص المستضعفين من الرجال والزمنى والنساء والأطفال الذين يجأرون بالدعاء إلى الله تعالى أن يخلصهم من ظلم كفار مكة وينصرهم عليهم، فشتان بين هؤلاء المؤمنين المجاهدين في سبيل الله لهذا الهدف النبيل وبين الكفار الذين يقاتلون في سبيل الطاغوت مما يشمل كل ما دون الله مما يفرض قتالهم كأنصار للشيطان ضعيف المكر والكيد مهما أوهم أتباعه.

وتعود السورة للتنبيه على المؤمنين من التخاذل فلا يترددون في القتال في سبيل الله بعد أن كانوا قد رغبوا فيه في مكة فلم يؤذن لهم هناك بينما هاهم يؤمرون به في المدينة جنباً إلى جنب مع الأمر بالصلاة والزكاة، فعليهم ألا يخشوا مشركي مكة الذين كانوا يضطهدونهم بل يجب أن يضعوا نصب أعينهم الخوف من الله تعالى كأشد ما يكون، وتدعوهم لنبذ القول بتأخير القتال إلى وقت قريب آخر..

وتذكرهم بأن متاع الدنيا لا يعادل شيئاً لقلته بالمقارنة بما عند الله تعالى من خير جزيل في الآخرة، وتؤكد لهم بأنهم إن كانوا يخشون الموت كما يحصل من المنافقين إذا قاتلوا الكفار فإنهم لن يهربوا من وقوعه بهم متى حل أجل الواحد منهم ولو كان في برج حصين، وتشدد عليهم بأن لا يرددوا كلام المنافقين الذين يرون الخصب من عند الله ولكنهم يرون الجدب من عند الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه، والعياذ بالله، وليعلموا أن ذلك كله رزق بيد الله وليس لأحد من خلقه رسولاً كان أو غير رسول دخل في ذلك فليفهموا ذلك وليقفوا عند التسليم بقضاء الله وقدره ويرفضوا مقولات المنافقين في ذلك.

ثم ليعلموا جزماً وتأكيداً أن كل خصب وعافية تحل بك يا محمد هي بفضل الله تعالى وإحسانه إليك، وأن كل شدة وضر إنما هو بذنب اقترفتموه يا معشر الناس، فكيف يسند المنافقون الحسنة إلى الله تعالى والسيئة إليك وكأنهم لا يفقهون ما يجب عليهم فيتجنبون كل مخالفة لأمر الله تعرضهم للعقوبة ويدركون أنك رسول الله للناس كافة والله تعالى وحده الشهيد على صدقك في تبليغ الرسالة..

فعلى المنافقين أن يعلموا ويؤمنوا بكل صدق وإخلاص أن من يطع الرسول عليه وآله وصحبه السلام فإنه يطيع الله تعالى لأنه عليه وآله وصحبه السلام يأمر بأمره تعالى وينهى بنهيه تعالى، وليحذروا التقصير في طاعة الرسول لأن الله تعالى الرقيب على أعمالهم هو الذي يتولى محاسبتهم على ذلك، وليدركوا تمام الإدراك أن أمر الله تعالى

لا يحتمل منهم إلا الطاعة المبنية على الإيمان الصادق، لأن الطاعة بلا عقيدة لا قيمة لها عند الله، وإياهم أن يواصلوا النفاق فإذا خرجوا للقتال أو غادروا مجلسك يا محمد غيروا ما قالوه لك وبدلوا قولك وأمرك إليهم، فإن الله تعالى يعلم سرهم وسيجازيهم عليه وأما أنت يا محمد فأعرض عنهم، وهذا خاص بالمنافقين بالذات، ولا تخبرهم بأسمائهم ولا تعاقبهم واعتمد على الله بكل ثقة بنصره لك على عدوك، وأخبرهم بأنهم لو تمعنوا في آيات القرآن وتدبروا معانيها وأساليبها فإنهم بعقول نزيهة مفتوحة للحق سيرون أنه لو كان من عند غير الله لكان مليئاً بالتفاوت والتناقض ولكنه خال من ذلك تماماً مما يفرض على عقولهم أن تؤمن به بأنه من عند الله وتلتزم أمره ونهيه وطاعة الرسول الذي بلغه.

ثم تواصل السورة تحذيرهم من التعجل في الحديث بكل ما يصل إليه علمهم من أمور أمن المجتمع والدولة الإسلامية التي تتولى رعايتهم، وليحرصوا على نقل هذه المعلومات إلى ولي أمرهم القائم عليهم بعد الرسول كخليفة له لأنه القادر بما لديه من أجهزة المعلومات والاستخبارات أن يدرك حقيقة الأمر والحكم عليه بشكل صائب ويحمي المجتمع من المكائد والبلبلة، فليلتزموا وليعلموا أن الله تعالى يحميهم بعد ذلك بفضله ورحمته متى التزموا أمره ونهيه ويجنبهم الوقوع في شرك الشيطان وأتباعه ولو انحرف بعضهم ووقع في ذاك الشرك الخبيث..

ثم يعود خطاب المولى سبحانه وتعالى إلى رسوله عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بإلزامه بالقتال في سبيل الله ولو وحده لأنه وعده بالنصر وضمنه له، وهذا لا يتأتى لأي مؤمن أن يفعله بمفرده وإن قال رضي الله عنه أبو بكر وقت الردة: ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي، وقال عليه وآله وصحبه السلام قبله «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي» فوعد الله تعالى وضمانه النصر لرسوله مدعاة للالتفاف حول الرسول والرسالة، وهذا مقتضى كونها للرسول، ثم إن بقية الآية يبتدئ بـ ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مما يوضح حث المؤمنين للمشاركة مع الرسول وبالتالي مع خليفته في القتال، وعدم تركهم بمفردهم..

وربط المولى سبحانه إطماعه للمؤمنين وتحريضهم على القتال وتحقيق النصر لهم بكف بأس الكافرين عنهم ببأسه سبحانه الأشد وتنكيله الأعظم وأكد لهم ذلك في آيات أخرى عديدة مثل ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾.. فليهب داعي الجهاد وليحرص على الطاعة في الله وليأخذ النصر المبين من رب العالمين الذي لا يخلف وعده.

وتنقلنا السورة من الأمر بالجهاد للرسول عليه وآله وصحبه السلام ولو بمفرده وللمؤمنين بتحريضهم للجهاد معه وبالتالي مع كل خليفة له تنتقل من ذلك إلى الشفاعة الحسنة للمؤمنين بمعنى الوقوف بالدعاء معهم وليس فقط بالأجسام فتقول:

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

فعلى كل مسلم أن يتنبه إلى شفاعته بتسخيره لجاهه ومكانته إلى منفعة غيره فلا يضعها إلا في البر بالآخرين والطاعة لله رب العالمين، وأبرز ذلك بأن يكون بقلبه ولسانه مع المسلمين وجيوشهم في الجهاد بالدعاء إلى الله تعالى لهم بالنصر، ويحذر أن يضعها في معصيته بالدعاء على المسلمين والأذى لأي منهم كما كان يفعل المنافقون واليهود، وليذكر أن الشافع يؤجر فيما يجره من الخير للمسلمين، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «اشفعوا تؤجروا وليقض الله على لسان نبيه ما أحب» وليتجنب أي شفاعة في سوء لأنه يتحمل شيئاً من الإثم الذي يكتسبه المشفوع له، وليتذكر هذا الإنذار له من الله تعالى بأنه تعالى قادر على ذلك بمعاقبته في الدنيا والآخرة لمشاركته في إيقاع الأذى بالآخرين. .

ثم تربط السورة بين الشفاعة وبين التحية لما في كل منهما من تأثير على الترابط والتراحم والتعاطف بين المسلمين، فتنبه إلى وجوب مقابلة التحية بتحية أحسن منها، كأن يقول لمن ألقى عليه السلام بكلمة السلام عليكم بإضافة ورحمة الله أو أكثر منها، وأحسن: ورحمة الله وبركاته، أو على الأقل بردها بمثلها فقط، ولكل مقدار أجره على قدره عند حساب الله تعالى المحاسب العادل، فالابتداء بالسلام نافلة مرغب فيها ولكن رده فريضة على الكفاية بحيث يكفي فيه أي عدد يرده ممن يلقى عليهم حتى لو كان واحداً فقط كما يكفي أن يلقى من واحد، ومن السنة كما قال عليه وآله وصحبه السلام «يسلم القليل على الكثير» و«يسلم الراكب على الماشي»، كما أن المرسل بالسلام يرد عليه كالمصافحة إذ قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لمن قال له: إن أبي يقرئك السلام «عليك وعلى أبيك السلام» وأن يبدأ باسم الله السلام عند إلقاء التحية لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قال لمن قال له: عليك السلام يا رسول الله «لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الميت ولكن قل السلام عليك» بغض النظر عن مدى ثبوت هذا الحديث ولكن لكونه علّم عائشة رضي الله عنها كيف تسلّم على الموتى

بقوله «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون» فلا يجعل أي فرق في السلام على الأحياء والموتى بالبدء بكلمة السلام. كما يسلم القائم على القاعد والصغير على الكبير وذلك من باب مراعاة حالة الوقار في القعود والكبر وإن كان يجوز العكس، وأما السلام على النساء فجائز إلا عند خوف الفتنة عند المكالمة والنظر، ومن السنة الجهر في السلام والجواب إلا إذا كان عن بعد فتكفي الإشارة، ويرد على الكافر إما بكلمة عليك فقط دون حرف الواو أو بعبارة علاك السلام أي ارتفع عنك، وأما المصلي فلا يسلم عليه وإن حصل إما يرد عليه بإشارة الإصبع أو بعد الفراغ من الصلاة، كما لا يسلم على من يقضي حاجته وإن حصل لا يرد عليه، كما لا يسلم على من يقرأ القرآن وإن حصل له الخيار بالرد فوراً أو بعد الانتهاء من القراءة، وليلاحظ المسلم أن لكل جزء من السلام عشر حسنات حتى تبلغ ثلاثين حسنة سواء لمن ألقى أو لمن رد، ويلاحظ بأن حسابه يجزل له يوم القيامة لدى علام القلوب المحاسب العادل على كل بر..

وهنا تنقلنا السورة إلى تأكيد جمع الخلق كلهم يوم القيامة فتقول:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

مؤكدة بهذا القسم من المولى سبحانه بأنه ليس لمن يشك بيوم البعث أن يفعل ذلك وقد أقسم له تعالى بحصوله بنفسه، وأن جميع الخلق ستقوم فيه لرب العالمين عز وجل من قبورهم، وأنه لا مجال لقول قائل بعد أن أخبرنا بذلك رب العالمين ولا أحد أصدق منه سبحانه.

وتبعاً للحديث والصدق فيه جاء دور الإشارة إلى المنافقين الكذابين فيه فتقول السورة:

﴿۞فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ

وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾

فلماذا تنقسمون أيها المسلمون إلى فرقتين في أمر هؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن المدينة مرتدين فيقول بعضكم بأنهم مسلمون وبعضكم أنهم منافقون، فأعلمهم تعالى أنهم منافقون وحسم الأمر حتى لا ينقسموا بصددهم وقال لهم جل من قائل بأنهم بعد عودتهم إلى مكة ولو تظاهروا باستئذان الرسول عليه وآله وصحبه السلام في ذلك ولكنهم ارتدوا فانتكسوا إلى الكفر بعد الإيمان..

وما نسبة الارتكاس إلى الله تعالى في الآية إلا من باب كون فعلهم لا يخرج عن قدرة الله في منعهم لو أراد ولكنه سبحانه أسلمهم لاختيارهم وفعلهم الإرادي في الردة لينالوا الجزاء العادل على اختيارهم، وهذا نفس ما قصدته الآية في نهايتها عندما قالت: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ إذ أن من تركه المولى لضلاله الاختياري لن يعيده أحد إلى الهدى والإيمان مادام مصراً على هذا الضلال المعلوم لدى الله تعالى أنه كذلك وأن مثل هذا الضال لن يعود عن ضلاله.

وتواصل السورة التحذير من هؤلاء المنافقين فتنبه المسلمين إلى أنهم يتمنون أن تكونوا في الكفر مثلهم، ولذلك تلزمهم بعدم اتخاذ مناصرين منهم حتى يثبتوا صدق إيمانهم بالهجرة ثانية إلى دار الإسلام في المدينة بدلاً من دار الكفر التي كانت في مكة قبل فتحها إذ كانت الهجرة هذه واجبة أول الإسلام ثم ألغيت بعد الفتح بقول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «لا هجرة بعد الفتح»، وبقيت الهجرات الأخرى واجبة من هجرة المنافقين بالذهاب مع النبي عليه وآله وصحبه السلام في الغزوات وتعرضهم للقتل في المعارك وليس للتخذيل والكيد، ومن هجرة من أسلم من دار الحرب دار الكفر إلى دار الإسلام، دار الخلافة والحكم بالإسلام حيثما وجدت، ومن هجرة المسلم لكل ما حرّمه الله عليه والتي أشار إليها صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بقوله «والمهاجر من هجر ما حرم الله عليه»، ومن هجرة أو مقاطعة أهل المعاصي من باب التأديب حتى يتوبوا كما فعل صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم مع كعب بن مالك وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع..

ولم تكتف السورة بالتحذير والتنبيه ولكن أمرت المسلمين عندما يرفض هؤلاء المرتدون المنافقون التوحيد والهجرة بأسرهم وقتلهم حيثما وجدوا باستثناء من يتصل منهم بأي جماعة داخلة في جوار أو حلف مع الدولة الإسلامية، مما يثبت شرعية

الموادعة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان فيها مصلحة للمسلمين، وباستثناء أي جماعة أو دولة بينها وبين المسلمين ودولتهم ميثاق وكرهوا قتال المسلمين ولا القتال معهم ضد قومهم كنوع من العهد، أو أنهم وافقوا على التسليم بشرط عدم المقاتلة مع المسلمين ضد غيرهم، كما كان في أول عهد الدولة الإسلامية مما يساعد على فتح قلوبهم للإسلام. .

وتواصل السورة توجيه التهديد للمسلمين بأن الله تعالى يسلط عليهم الكفرة والمشركين من باب العقوبة عند ذيوع المنكر وظهور المعاصي، أو ابتلاء واختباراً للمؤمنين ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ أو تمحيصاً للذنوب ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولله تعالى أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء بحكمته ودرايته بخلقه وبما يصلحهم ويصلح لهم. .

وهكذا تتصل هذه المعاني والأحكام بما قبلها كما يلي:

عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا المنافقين الذين اختلفتم فيهم إلا إذا هاجروا، أو أن يكون لهم صلة بمن بينكم وبينهم ميثاق فيدخلوا فيه فلهم حكمهم، أو أن يأتوا إليكم وقد امتنعوا عن أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم فيدخلوا فيكم مما يفرض عليكم عدم قتلهم.

وتأتي هذه الآيات إلى جماعة تريد أن تتعامل مع المسلمين ودولتهم بشكل آخر ألا وهو طلب الأمان، كما حصل من أسد وغطفان الذين قدموا المدينة، دولة الإسلام، ثم رجعوا إلى ديارهم وارتدوا إلى الكفر، فمثل هؤلاء قد يظهرون لكم أيها المسلمون الصلح ليأمنوكم ولكنهم ما أسرع ما ينقلبوا عليكم إذا سنحت لهم الفرصة بفتنة يكونون مع أهلها عليكم لأنهم لبحثهم عن الأمان والدعم يرجعون إلى الشرك إذا وجدوا فيه مطلبهم، فأمثال هؤلاء انظروا في أمرهم بكامل الحذر والاستعداد، فإذا وجدتموهم من نوعية المعجل بالعودة للشرك وأهله ضدكم فلا ترددوا في قتلهم أينما وجدتموهم، وأما إذا لم يستجيبوا لدعوات الشرك وصمدوا على عهد الأمان فهم من أهله.

وتنقلنا السورة بالوصل بهذا المعنى الأخير إلى التنبيه على القتل وأنواعه وعقوبته فتقول:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ

وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾ .

مبينة أنه لا يجوز أن يقتل أي مؤمن إلا خطأ دون تفريق بين حر وعبد لقوله عليه وآله وصحبه السلام «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، وأن من يخطئ في ذلك فعليه تحرير رقبة مؤمنة ككفارة لفعلته، على أن تكون بالغة سليمة من العاهات، كما عليه أن يسلم لولي القتيل دية، على أن تجمع من عاقلة القاتل من باب المساعدة والمواساة، ومقدارها مائة من الإبل أو ألف دينار ذهباً، أو اثنا عشر ألف درهم فضة، أو مائتا بقرة، أو ألف شاة، أو مائتا حلة، وعلى أن تكون الإبل مما يدفع في الزكاة..

وهذه الدية تكون مقسطة على العاقلة وهي العصبة على ثلاثة أعوام بواقع الثلث كل عام مثلاً، وتؤخذ من البالغين الرجال فقط..

وينطبق ذلك على قتل الجنين في بطن أمه فتلقيه حياً ثم يموت بعد أن تضرب على بطنها، وأما إذا ألقته ميتاً ففيه غرة أي عبد أو وليدة، وإذا ماتت ولم تلقه فلا شيء فيه، والغرة تكون بيضاء اللون وتقوّم بنصف عشر دية الحر المسلم، وهي خمسون ديناراً ذهباً، وإذا خرج حياً فيه الكفارة مع الدية، والدية لأبويه خاصة ثلث للأم وثلثان للأب إذا كانا أحياء وإلا فهي كاملة للحي منهما، ولا يسقط من الدية في جميع الأحوال شيء إلا إذا تنازل الأولياء ورثة المقتول لأنها حق لهم ولا تسقط الكفارة لأنها حق الله تعالى تكفيراً للذنب.

وأما إذا قُتل المؤمن في بلاد الكفر أو في حروب الكفار على أنه منهم فلا دية فيه ولكن فيه كفارة تحرير رقبة، وأما إذا قتل الذمي والمعاهد خطأ فتجب الدية والكفارة كالمؤمن لأن هذا الجانب من الآية لم يفرق بين المؤمن والكافر وإن قيل بنسخ هذا الحكم في سورة ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾﴾.

ومقدار دية المرأة نصف دية الرجل لأن لها نصف ميراثه ولأن شهادة اثنتين بشهادة واحد، وكل ذلك في دية الخطأ، وأما دية العمد فبالتساوي ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ دون فرق بين الأعمى والبصير، وأما عند عدم وجود الرقبة في الكفارة أو عدم توفر مال لدى القاتل لشرائها فعليه بصيام شهرين متتابعين إلا لعذر شرعي.

وأما قتل المؤمن عمداً فمحرم تماماً مهما كانت وسيلة القتل المحققة في الأصل هذا وعن تعمد مسبق، وأما لو تعمد ولكن الوسيلة لا تحقق القتل أصلاً كالسوط أو

باليد أو العصا فيكون القتل خطأ شبه عمد وله دية مائة من الإبل كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «إلا أن دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل منها أربعون في بطونها أولادها» رواه الدارقطني.

وقال عليه وآله وصحبه السلام: «عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد ولا يقتل صاحبه»، وديته أيضاً على العاقلة كالخطأ التام وإذا قتل جماعة رجلاً خطأ فعلى كل منهم الكفارة وليست كفارة واحدة على الكل والثابت أن قاتل العمد له توبة لأن ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿...وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ و﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾، والمهم أن هذا القاتل لا يستحل القتل وإلا آل إلى الكفر.

وتعود السورة إلى ذكر أحكام أخرى مرتبطة بالقتل والجهاد وإلى التمييز بين المجاهد والقاعد فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ ❁

موضحة أنه لا يجوز لمن خرج مجاهداً أن يتعمد قتل من يلقي السلام عليه ويلفظ الشهادة أو لم يلفظها بل وقف عند السلام، ويأخذ ما معه من مال أو ما لديه من أنعام، لأن في ذلك الرغبة في متاع الدنيا دون مراعاة مقتضى السلام ناهيك عن الشهادة بلا إله إلا الله أو التصريح بأنه مسلم ولو تحت بريق السيف كما حصل مع أسامة بن زيد عندما قتل مرداس الغطفاني، فعظّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأمر على أسامة حتى حلف لا يقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله. و﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ تفرض التثبت والتأكد من الأمر قبل الإقدام على القتل لعظم دم المسلم عند الله تعالى..

وفي هذه الآية دليل على جواز قتل الكافر المحارب الذي لا عهد له، والتوقف عن ذلك إذا قال لا إله إلا الله لأنه بذلك عصم ماله ودمه، وكذلك من يلقي السلام لمظنة أنه مسلم معصوم الدم والمال بشرط التثبت من ذلك، وتنهي السورة الآية بالتذكير بفضل الله على المسلمين ومنته عليهم بالإسلام بعد أن كانوا كفاراً مما يفرض عليهم

الحذر من التعجل في القتل في مثل هذه الحالة، وليذكروا أن الأجر العظيم ينتظرهم يوم القيامة عند إحسان القتال في سبيل الله لمن يقاتلهم من الكفار.

وبعدها تنبه السورة على الفرق الكبير بين المجاهد في سبيل الله بماله ونفسه وبين المؤمن القاعد عن ذلك وهو لا يشكو من أي مرض مقعد، وأن الله تعالى فضل أولئك المجاهدين على أصحاب الأعذار التي منعتهم من الجهاد مما يجعل من الجندي الدائم ذا أفضلية عند الله تعالى من المتطوع المؤقت لما يعانيه ذاك باستمرار من الشدائد في سبيل الله، كما جعل لمن يبذل ماله لغناه أفضلية على العاجز عن ذلك لفقره، الأمر الذي يستحث الهمم للسعي طلباً للرزق لتحصيل الغنى وبذله في سبيل الله.

وبالخلاصة فقد ورد التفضيل بالدرجات للتحريض على الجهاد والاستشهاد مهما كان مستوى القدرة على ذلك لما لكل واحد من خير عميم وأجر جزيل بانتظاره ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وأما من ظلم نفسه والمستضعف فله شأن آخر بجانب المهاجر في سبيل الله كما تذكر السورة إذ تقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

مؤكدة أن من يشارك المشركين في حربهم ضد المسلمين بأي شكل كان حتى لو كان مجرد تكثير سوادهم فإنه يظلم نفسه مهما زعم أنه مستضعف ولم يستطع مغادرة بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وأنه يئول إلى عقوبة جهنم يوم القيام إذا مات على هذه الحال، الأمر الذي يفرض الهجرة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام متى اقتضى ذلك ولم يرتب البقاء حيث هو لمصلحة الإسلام، ولا يستثنى من ذلك إلا المستضعفين من الرجال ذوي الضرر والعجز عن أي وسيلة تيسر لهم الهجرة هم وأمثالهم من النساء والأطفال فأولئك معذورون ويشملهم الله بعفوه ومغفرته.

وأما أولئك الذين يهاجرون في سبيل الله من ديار الكفر إلى ديار الإسلام فإنهم يجدون المثوبة عند الله تعالى على معاداة قومهم وهجرهم لهم، كما يجدون السعة لهم

الكافية لدى المسلمين، وأن ذلك الأجر العظيم متحقق لهم عند الله إذا وافت أحدهم المنية في هجرته، مما يدل على عدم جواز البقاء في ديار الكفر إلا لترتيب معين، كما تطلب الهجرة من أرض يسب فيها الصحابة، ومن أرض غلب عليها الحرام، وفراراً من الأذية في البدن سواء من اضطهاد وتعذيب أو بسبب الخوف من الوباء والأمراض المعدية، وفراراً بسبب الخوف على المال لأن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وهكذا تجوز الهجرة للتفكر والعبرة، وللحج، وللجهاد، وللمعاش، وللتجارة، وللمساجد الثلاث، وللثغور للرباط، ولزيارة الأهل والإخوان في الله تعالى..

ومع الهجرة والضرب في الأرض والسفر تأتي السورة إلى صلاة القصر ووقتها وكيفيتها فتقول:

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ
الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم
مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا
فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ
فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ
أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ
كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

فيبين المولى سبحانه وتعالى أن الصلاة لا تسقط بعذر السفر ولا بعذر الجهاد وقتال العدو، ويخاطب عز وجل نبيّه عليه وآله وصحبه السلام خطاباً في ذلك يتناول الأمراء من بعده إلى يوم القيامة، كما يدخل في ذلك أمته فيقول سبحانه بأن على الإمام في صلاة الخوف أن يصلي صلاة تختلف عن صلاة الأمان فيقوم الإمام ومعه جماعة وتبقى جماعة أخرى بمواجهة العدو، وبعد أن يقوموا من الركعة الأولى يثبت الإمام وتتم الجماعة من خلفه ركعة ثانية ويسلمون وينصرفون وهو قائم ويحل محلهم الذين كانوا بمواجهة العدو فيكبرون خلف الإمام فيصلي بهم ركعة ويسلم ويقومون هم ويصلون الركعة الثانية ويسلمون.

وفي رواية أخرى أن الإمام ينتظر الجماعة الثانية حتى يكملوا الركعة الثانية ويسلم بهم، وكلا الشكلين جائز ولكن إذا اشتد الخوف أكثر من ذلك صلى الإمام راكباً أو قائماً يومئ إيماء.

وتروى هذه الصلاة في شكل رابع أن يصلي الإمام بالجماعتين لكل منهما ركعة واحدة ودون ركعة أخرى أبداً وإن كانت زيادة ركعة أولى.

وفي شكل خامس أن يصلي الإمام ركعتين كاملتين في كل جماعة فتكون له أربع ركعات ولكل جماعة ركعتان.

وهناك أشكال أخرى حتى قال الخطابي: صلاة الخوف أنواع صلاها النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في أيام مختلفة وأشكال متباينة يتوخى فيها كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة.

هذا في الصلوات غير المغرب وأما في المغرب فيذكر أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام صلى بجماعة ثلاث ركعات ثم انصرفوا وبعدها صلى بالجماعة الأخرى ثلاث ركعات فكانت له ستاً ولهم ثلاثاً ثلاثاً.

وهناك شكل آخر أن يصلي بالأولى ركعتين وبالثانية ركعة، وشكل ثالث أن يصلي بالأولى ركعة وبالثانية ركعتين.

وعند اشتداد القتال والخوف من فوات الصلاة يصلي الجندي كيفما أمكن سواء استقبل القبلة أم لا، وإن وصلت شدة القتال إلى عدم القدرة على الإيماء فيؤخرون الصلاة حتى يخفَّ أو يتوقف القتال ويأمنوا فيصلون ركعتين وإلا صلوا ركعة وإلا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وكذلك الحال في صلاة الجندي الملاحق للعدو أو الملاحق من قبل العدو فإنها تصلى على ركوبته. وكذلك الحال عند الظن باقتراب العدو لأي معلومة فالصلاة صلاة الخوف ولكن إذا تبين عدم وجود عدو فقيل يعيدون وقيل لا إعادة عليهم وكل ذلك تابع لصحة الاجتهاد للواقعة.

والمهم في جميع أحوال صلاة الخوف هناك تشديد بالحذر وأخذ السلاح لئلا ينال منهم العدو حتى يكون حمل السلاح أثناء الصلاة واجباً إذا كان الخوف شديداً وإلا أمكن الصلاة بدونه مع الحذر فقط ذلك لأن العدو يتمنى أن يغفل جنود المسلمين عن أخذ السلاح لينالوا منهم ويحتلوا مواقعهم.

ورخص في عدم حمله في المطر حتى لا يثقل عليهم أو يتعرض نفس السلاح للتلف أو التعطل عن العمل. وفي قوله تعالى ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ تأكيد على اليقظة بوضع

السلاح أو حمله مما يدل على لزوم التأهب والحذر من العدو في جميع الأحوال وتجنب الاستسلام. .

وعند الانتهاء من صلاة الخوف مهما كان شكلها على الجنود أن يذكروا الله بالقلب واللسان كيف كانت حالهم ﴿...قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ واستمروا في الذكر بالتكبير والتهليل والدعاء بالنصر، ولكن بعد الأمن والاطمئنان لابد من القيام بالصلاة بأركانها وهيئتها كما في السفر وبكمال عددها كما في الحضر لأنها فرض واجب الأداء في وقته. .

وتعود الآية وتأمر بعدم الضعف أمام العدو مهما حل بكم من جراح وقتل لأنكم يا مسلمون إن كنتم تتألمون مما أصابكم من الجراح فهم أيضاً يتألمون مما أصابهم ولكن لكم مزية عليهم أنكم ترجون ثواب الله وهم لا يرجونه.. ويكفيكم علم الله بصدقكم وحكمته في رعايتكم. .

ثم تأتي السورة إلى ذكر الخائنين ومساندتهم لقدرتهم على إخفاء خيانتهم وتلبيسها لغيرهم والتحذير من ذلك فتقول:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا
﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ
يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ
سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا
يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ
ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ ۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا
مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ
نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ .

مبينة أن المولى سبحانه قد شرف نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم باصطفائه للرسالة وكرمه بتفويض أمر الحكم بين الناس إليه وفقاً لما يريه سبحانه، مقوماً له على أن الحكم يجب أن يكون بما ينزل عليه ربه، ومؤنباً له على قضية بني أبيرق، الذين اشتركوا كلهم أو بعضهم، وكانوا ثلاثة إخوة وابن عم لهم، في سرقة دروع وطعام من بيت شخص ثالث شكاهم للرسول عليه وآله وصحبه السلام، فانبرى للدفاع والجدال والتكذيب للتهمة أمام الرسول عليه وآله وصحبه السلام ابن عمهم حتى أغضب الرسول عليه وآله وصحبه السلام على المسروق بيتهم فجاء التأنيب لهذا المجادل عن السارقين الخائنين . .

وجاء التنبيه للرسول عليه وآله وصحبه السلام لكي لا يجادل ويساند أهل التهم ويدافع عنهم بقول خصمهم، مما يدل على أنه لا يجوز لأحد أن يخاصم عن أحد، كما يفعل المحامون اليوم، إلا بعد أن يعلم أنه على الحق، كما تدل الآيات على أنه لا يجوز إذا ظهر للمسلمين نفاق قوم أن يجادل عنهم أحد ليدافع عنهم ويحميهم، وهذا معنى ﴿وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ وهو خطاب موجه للرسول عليه وآله وصحبه السلام ومراد به من فعله ومن يفعله إلى يوم القيامة لأن الجدال كان من غيره ولأنه كان حكماً بينهم ولكنه انفعل بحجة المدافع عن السارقين فأنبه ربه تعالى ودعاه ليستغفر الله عن ذلك ويلزم من جادل عن الخائنين بالاستغفار، وخاصة أنه عليه وآله وصحبه السلام قد همّ بالدفاع عنهم بعد غضبه، وهمَّ بقطع يد اليهودي المسروق بيت قريبه وكأنه السارق بعد تأليب الرسول عليه وآله وصحبه السلام عليه بقوة الدفاع واستخدام وسائل الإثارة في الحجة والزعم بأنهم يرمون أهل بيت صلاح ودين، وأنهم هم السراقون ولكنهم يتهمون غيرهم بها . .

فكان الأمر للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يستغفر الله للمذنبين من أمته والمتخاصمين بالباطل، ودوره أن يسمع من المتداعيين ويقضي بينهم بما يسمع ويستغفر للمذنب منهم أي بني أبيرق في هذه القضية، وأن لا يجادل عن الذين يخونون أنفسهم، كما فعل ابن عمهم الذي جادل بالباطل عنهم حتى أثار الرسول عليه وآله وصحبه السلام عليهم بحجته، مما يدل على أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد دافع على الظاهر وهو يعتقد براءتهم . .

وهذا هو المطلوب من كل قاض يفصل بين الناس لأنه يقضي بما يسمع، مما

يفسح المجال واسعاً أمام صاحب الحجة ولو كان على باطل ومما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يحذر أشد التحذير من ذلك بعد أن بين له المولى سبحانه حقيقة القضية وأنه تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ بجرأته وإصراره على ممارسة الخيانة الآثمة.

وما كشفته الآيات للرسول عليه وآله وصحبه السلام أن السارق من بني أبيرق قد أخفى الدرع المسروق تحت التراب، وكأن بإخفائه عن الناس يخفيه عن الله تعالى علام الغيوب، ثم كشفت الكذب الذي تدبروه والله تعالى محيط بأعمالهم ونواياهم فتخاطب ابن عمهم الذي تصدى للدفاع عنهم بأنه قد جادل عنهم في هذه الدنيا بقوله المنمق المثير فهل فكر بمن يستطيع أن يجادل عنهم أمام الله يوم القيامة، مستنكرة عليه فعلته المنكرة وموبخة له على افتراءاته لأنه لا أحد ـ لا هو ولا غيره ـ يستطيع المحاججة عنهم كوكيل ومحام لهم أمام الله تعالى عندما يأخذهم بعذابه.

وبعدها تعرض الآيات على بني أبيرق وأمثالهم التوبة بأن من يسرق أو يظلم نفسه بالشرك ثم يطلب المغفرة من الله بالتوبة النصوح فإن المولى سبحانه يغفر له ذنبه ويرحمه وقد ردَّ حقوق الناس إليهم وتاب من أن يعود لمثلها، ثم تنبه وتحذر من الوقوع في الذنب لأن عاقبته على من يقترفه، ومن اقتراف أي خطيئة بعمل محرم يفعله عمداً أو ليس بعمد، أو ارتكاب أي إثم، بعمل محرم يفعله عمداً ثم يجرؤ على اتهام غيره به لأنه بذلك يرميه بالبهتان لأنه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه» لمن سأله عليه وآله وصحبه السلام عن الفرق بين الغيبة والبهتان.

ثم تخاطب الآيات الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة السلام بأنه لولا فضل الله ورحمته عليك بأن نبّهك على الحق في هذه القضية فحال بين بني أبيرق والنجاح في همِّهم لدفع الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليبرِّئهم من التهمة ويلحقها باليهودي فكان أن أوقعوا أنفسهم في الباطل لأن الله تعالى عاصم رسوله عليه وآله وصحبه السلام من أمثال ذلك، وواضع بين يديه قرآناً يهتدي به ودراية وفهماً يعي بهما كل ما يعلمه به الله تعالى من الشرائع والأحكام حتى يكون ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

ثم تكشف الآيات ما تفاوض به قوم بني أبيرق من التدبير وذكروه للنبي عليه وآله وصحبه السلام بأنه لا خير فيه أبداً، وبينت أن النجوى الخيرة هي فقط في ثلاثة أمور: في الأمر بصدقة لمحتاج، وفي إسداء معروف لطالبه، وفي إصلاح بين الناس لفضِّ أي خصومة، وقال عليه وآله وصحبه السلام «من فتح عليه باب من الخير فلينتهزه فإنه لا

يدري متى يغلق عنه» مشجعاً على الإسراع في عمل الخير، ولذلك قال العباس رضي الله عنه: لا يتم المعروف إلَّا بثلاث خصال، تعجيله وتصغيره وستره، فإذا عجلته هنأته، وإذا صغرته عظمته، وإذا سترته أتممته.والمهم أن يراعى في المعروف ترك الامتنان به والإعجاب بفعله لأنهما مسقطان للشكر محبطان للأجر. وأما الإصلاح بين الناس فهو عامٌّ في الدماء والأموال والأعراض ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «من أصلح بين اثنين استوجب ثواب شهيد».

وأخيراً تبين هذه الآيات ما انتهت إليه قضية ابن أبيرق السارق، وأنه لما حكم النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بقطع يده هرب إلى مكة وارتد عن الإسلام، وكرر السرقة هناك فلحق به المشركون وقتلوه فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ فأضاع ذاك السارق دنياه بما انتهى إليه وأخراه بارتداده، فإنه وأمثاله يكلهم رب العالمين لما يعبدون من الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ويؤول يوم القيامة إلى جهنم وبئس المصير، فتحذر الآيات هذه من الخروج على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بمخالفة ما أتى به في الكتاب والسنة، كما تبين أن الشرك هو الأمر الوحيد الذي لا يغفره تعالى وأنه سبحانه يغفر غيره وفقاً لمشيئته وعلمه وحكمته.

وتبعاً لذكر الشرك وعدم غفرانه تشير السورة إلى جوانب منه وتضيف مقارنة بين أهل الشرك وأهل الإيمان والصلاح فتقول:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ
لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ
ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ
خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾
لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ
ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ

إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ .

ملفتة النظر إلى ما يعبده المشركون من دون الله إذ عبدوا الأصنام وسموها بأسماء الإناث كما عبدوا الملائكة وقالوا بزعمهم بأنهم بنات الله وشفعاؤهم عند الله، وما يعبدون في الحقيقة إلا إبليس لأنهم التزموا أمره ونهيه من دون الله فكان أمره هو النافذ فيهم مع عتوه وتمرده على طاعة الله تعالى الذي طرده من رحمته لذلك فكان رده أنه سيغوي البشر ويضلهم في أكثرهم ولذلك كان الكفرة والعصاة هم أكثرية البشر لأنهم يتسهلون الشهوات ويرغبون عن المكاره والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات».

وأعطاهم المولى سبحانه بحكمته الاختيار في اتخاذ القرار بعد أن أنزل لهم الهداية في اتباعها أو الإعراض عنها فقال ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣]. وقال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٨ ـ ١٠] وقال ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.. وبمعرفة إبليس بما خلق الله تعالى عليه الإنسان كان عالماً بأن له نصيباً وفيراً أكيداً من البشر، الأمر الذي جعله يقول ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ بإبعادهم عن طريق الهدى، وقال ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بأن يسوِّل لهم بالتمني فيمنّي كل واحد منهم أن يعطيه بقدر رغبته ويجعله يستهلك حياته بالأمل في العمر المديد والتوبة في النهاية ولو مع الإصرار في المعصية، كما يأمرهم للقيام بقطع آذان البحيرة والسائبة وغيرها من الإبل محرمين لها مضحين بها لأصنامهم.

ولهذا جاء أمر الله تعالى بعدم جواز التضحية والهدي مما في أعينها وآذانها من قلع أو قطع أو تشويه ومنع كل ذلك في الأنعام وإن رخص بإخصائها بقصد منفعة السمن أو غيره وحرم ذلك على الآدمي لأنه قطع للنسل المندوب إليه الإنسان في الزواج، واستثنى من ذلك وسم وإشعار الأنعام في غير الوجه، ولكن حُرم ذلك على البشر لأنه تغيير لخلق الله ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم «لعن الله الواصلة والمستوصلة» إذ تصل الشعر فتغير شكلها بشعر آخر طويل، وقالوا إنما جاء النهي عن الوصل خاصة، كما يشمل تغيير خلق الله جعل ما خلق سبحانه من نجوم وكواكب ونار وحجار لا للاعتبار بها والانتفاع وإنما كآلهة تعبد، وجعلوا الأنعام محرمة عليهم مع أن الله تعالى خلقها لتركب وتؤكل.

كما يشمل تغيير خلق الله بتحريف فطرة الله التي فطر الناس عليها كما قال صلى الله

عليه وآله وصحبه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه» وكل ذلك من عبث الشيطان بعقول الضالين والكافرين أتباع الأهواء والشهوات الذين يطيعونه ويعصون أمر الله فينتهون إلى خسران أنفسهم وقد أسلموها للشيطان بدلاً من خالقها المولى المتفضل المنان، ذلك لأن كل وعود الشيطان وأمانيه ما هي إلا أباطيل وترهات تدور حول الإغراء بالمال والجاه والرئاسة مما يسيل له لعاب صاحب الشهوات وينخدع في الركض وراء سرابها كله، دون مراعاة لحلال أو حرام في ذلك إلا ما تحله وتحرمه له شهواته وأهواؤه الملتصقة بالتراب، وماذا يأتي من التراب والوحل؟!

ثم تتوجه الآيات إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى مع المشركين من كفار قريش لتقول لهم إن قولكم يا قريش بأنكم لن تبعثوا، وقولكم يا يهود ونصارى بأنكم أبناء الله وأحباؤه لن يكون لأن عدل الله وحكمته اقتضتا أن من يعمل أي سوء من شرك وغيره سينال جزاءه في نار جهنم وعذابها الخالد ولن يجد له هناك أمام عذاب الله له أي معين ولا مناصر، فعليكم أن تكفوا عن هذه الأماني الكاذبة الخادعة وتقبلوا على الإيمان والطاعات لأن من يعمل الأعمال الصالحة سواء كان ذكراً أو أنثى وعلى أساس من الإيمان الصادق فإن جزاءه الجنة ولن يتعرض لقيد أنملة من الظلم في أي عمل عمله لأن ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، ولأن الإيمان والعمل الصالح وفقاً لدين الإسلام هو الحق بعد أن جعله الله ناسخاً لما سبقه من الأديان ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾، ولأن الإسلام في معناه اللغوي التسليم والخضوع لله تعالى في كل أمره ونهيه، فكيف إذا أحسن في ذلك وربط تسليمه وخضوعه بأوامره تعالى ونواهيه الواردة في دين الإسلام الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في معناه الشرعي، وفي ذلك يكون قد اتبع عقيدة التوحيد الحق التي كانت ملة إبراهيم الحنيفية السمحة الذي اتخذه تعالى خليلاً لصدقه في محبته فكان يوالي في الله ويعادي في الله..

وتختم السورة هذه الآيات بالإشارة إلى أن ما في السموات والأرض هو ملك لله الخالق المدبر لها، وأنه ليس بحاجة لحسن طاعة إبراهيم ومخالته وإنما ذلك كله إكراماً منه تعالى له لامتثاله لأمره ونهيه.. فهلا وعت ذلك العقول المؤمنة قبل المشركة وعملت به!

وبعدها تعود السورة لتكمل الإجابة على السؤال عن أمر النساء وأحكام ميراثهن وغير ذلك من شجون الحياة الزوجية فتقول:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ
اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا
لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا
أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن
تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ
وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ
اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ .

قل لهم يا محمد إن الله يفتيكم في أمر النساء ويبين لكم حكم ما سألتم عنه مما لم ينزل بعد، كما يظهر في القرآن بشأنهن، فاعلموا أنه يجب عليكم دفع المهور لمن تريدون أن تنكحوهن من يتامى النساء ولا تمنعوهن من ذلك كما يفعل الواحد منكم مع يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال فلا يعطيها حقها هذا إذا رغب في الزواج منها، وما أقل حدوث ذلك!

كما عليكم أن تعطوا الأطفال المستضعفين الذين تحت وصايتكم كامل حقوقهم، كما يجب أن تعاملوا اليتامى بالعدل التام لأن مردود كل خير منكم يعود عليكم بما يجزيكم عليه المولى العالم بكل تصرفاتكم وأعمالكم يوم القيامة.

وقل لهم إذا توقعت أي زوجة دوام النشوز والإعراض عنها من قبل زوجها فلا يكلمها ولا يأنس بها فيمكنهما أن يصطلحا فيما بينهما على أي حال يبقي الحياة الزوجية بينهما، كأن تتنازل عن دورها كما فعلت سودة بنت زمعة رضي الله عنها عندما خشيت أن يطلقها الرسول عليه وآله وصحبه السلام فتنازلت عن دورها لعائشة رضي الله عنها مقابل أن يبقيها على ذمته، وبالفعل ماتت وهي من أزواجه عليه وآله وصحبه السلام، وكما تفعل أي زوجة فتؤثر البقاء على ذمة زوجها ولو آثر عليها زوجته الشابة، وكما تفعل من تتنازل لزوجها عن مهرها المؤجل كله أو بعضه مقابل أن ينقصها من حقها ويبقيها على ذمته سواء لتقدمها في السن أو دمامتها أو فقرها أو سوء خلقها، أو كما

يحصل العكس كأن يعطيها الزوج من ماله مقابل أن تقسم لزوجته الشابة في الليل والنهار أكثر منها..

وكل ما يصطلحان عليه مباح شرعاً من أجل الحفاظ على الحياة الزوجية التي هي أهم من تساوي الأدوار والحقوق ولذلك قالت الآية ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾، ولكن أتبعت ذلك بما يعلمه سبحانه من خلقه بأن النفوس البشرية جبلت على الشح حتى يحمل بعضها بعضاً على بعض ما يكره، وإذا تجاوز ذلك إلى منع الحقوق الشرعية فهو البخل المرذول المذموم الذي اعتبره عليه وآله وصحبه السلام أشد الأمراض عندما قال «وأي داء أدوى من البخل!»، وضرب للأنصار رضوان الله عليهم مثلاً بقصة قوم نزلوا بساحل البحر فأبعدوا نساءهم عنهم كرهاً لاستقبال الضيوف، فصار الرجال يعتذرون ببعد النساء وتتعذر النساء ببعد الرجال، فطال ذلك بهم حتى اشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء ! فعلى الأزواج أن يتجنبوا الشح وعدم الإحسان لأزواجهم ويحرصوا على حسن العشرة معهن حتى مع كراهية صحبتهن وفي ذلك الخير لهم بمخافة الله العالم الخبير بكل خير أو سوء معهن.

وقل لهم يا محمد إن أحداً منهم لن يستطيع أن يعدل بين نسائه إذا كن أكثر من واحدة في ميله الفطري بالمحبة والجماع والحظ من القلب مهما حرص على ذلك حتى أكد ذلك عليه وآله وصحبه السلام بقوله «اللهم إن هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، وأن عليكم أيها الأزواج أن تلتزموا بـ ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ بأن تتعمدوا الإساءة لأزواجكم بل عليكم بالتسوية بينهن في القسم والنفقة لأن هذا مستطاع لكم، ولذلك حذر عليه وآله وصحبه السلام فقال: «من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقّه مائل» لأن مثل هذا الظلم يؤدي إلى جعل الزوجة لا هي مطلقة ولا زوجة وإنما معلقة بينهما، الأمر الذي يفرض عليكم العدل فيما تملكون من المبيت والنفقة، والحرص خوفاً من الله على تحقيق ذلك بأقصى قدر متيسر لديكم مما يجلب لكم المغفرة والرحمة.

وقل لهم يا محمد إنه إذا لم يمكن أن يصطلحا وتفرقا فعليهما أن يحسنا الظن بالله لأنه قد ييسر للرجل امرأة تقر بها عينه، وللمرأة من يوسع عليها، كيف لا وقدرته سبحانه تحيط بكل ما في السموات والأرض، وأنه عز وجل قد أمر جميع الأمم السابقة بالتقوى كما يأمركم أنتم اليوم وذلك بأن تلتزموا أمره ونهيه في التعامل مع زوجاتكم، وعليكم أن تعلموا أنكم لو أنكرتم طاعة الله فإنه تعالى غني عنها فكما أنه تعالى بملكه للسماوات والأرض وما فيهما فإنه غني عن العالمين وهو سبحانه القادر على أن يغني

كلا من الزوجين من سعته لأن خزائنه لا تنفد وأنه سبحانه المتولي لحفظ خلقه وتدبيرهم.. فعليهم ألا يغيب شيء من ذلك عن أذهانهم في كل جوانب حياتهم الزوجية بل المجتمعية الواسعة الشاملة لكل الناس مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، حاكمهم ومحكومهم.

وهنا تعود السورة وتذكرنا بقدرته تعالى على استبدال من يريد من الناس بغيرهم فليحرصوا على الطاعة له والعدل مع الآخرين بكل صدق وإخلاص فتقول:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (١٣٤) ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥)﴾.

مخاطبة المشركين والمنافقين بأن الله تعالى قادر على إماتتكم والمجيء بغيركم أطوع له تعالى منكم، فليحذر كل من كانت له ولاية أو إمارة أو رئاسة من عدم العدل في رعيته، كما ليحذر كل عالم من التقصير في العمل بعلمه ونصح الناس به، وأن الله تعالى قادر على إماتته والإتيان بغيره، والله تعالى قادر على ذلك كله ولا يعجزه شيء..

واعلموا أن من عمل بطاعة الله طلباً لما عنده تعالى من طيب الجزاء يوم القيامة فإنه يجده بلا ريب بوعد الله تعالى له، وأما من عمل طلباً للدنيا أعطاه الله تعالى ما قضاه وقدره له في الدنيا وحرمه في الآخرة من أي ثواب، فإياكم أيها المنافقون والكفار من أن تنتظروا غير ذلك فأقلعوا عن طلبكم الدنيا بأهوائكم وإنما اطلبوها بأمر الله لتكون جسراً قوياً للآخرة، فعليكم بالإيمان بقدرة الله عليكم والإيمان بالقيامة لتتقربوا لله تعالى فتنالوا الدنيا والآخرة من سميع لكل ما تقولون وبصير بكل ما تعملون..

وأنتم أيها المؤمنون أقيموا على العدل باستمرار في جميع أعمالكم بدءاً من شهادتكم على أنفسكم بالإقرار بحقوق الغير عندكم، ثم مع الوالدين لوجوب برهما وعظم مكانتهما، ثم مع الأقربين لأنهم مظنة المحبة والتعصب، مما يجعل العدل مع الآخرين أحرى أن يقام عليه دائماً، مما يدل على جواز شهادة الولد على الوالدين دون أن يمنع ذلك من برِّهما، بل من برِّهما أن يشهد عليهما ليخلصهما من الباطل، ويدل على جواز شهادة الوالدين والأخ، وإن تركت فيما بعد لأنها شهادة متهم..

والمهم أن تكون الشهادة لله أي طلباً لرضاه فلا يشهد للغني بسبب غناه ولا للفقير مراعاة لفقره لأن الله تعالى بيده الأرزاق وهو سبحانه الأولى بالخصمين كيفما كانا فلا حاجة للتحيز لأحدهما بمثل هذه المبررات، وليتجنب صاحب الشهادة اتباع هواه وميله إلى هذا وذاك وليضع أمر الله بالعدل في الشهادة طلباً للحق ومرضاة الآمر بالحق نصب عينيه، وإياه أن يميل إلى أحد الخصمين أو يعرض عن أحدهما فلا يجوز أن يجعل لهوى المحبة دافعاً لميله لأحدهما ولا لهوى الكره دافعاً لإعراضه عن الآخر، وليذكر أن الله تعالى خبير بكل عمل منه، فليلتزم العدل مع الكل فيتحقق له ولهم كل الخير في الدنيا والآخرة.

وتواصل السورة التركيز على الأمر بالإيمان الحق ورفض إيمان وتصرفات المنافقين والمشركين المزورة المنكرة فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ
مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ
سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا
سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا
مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ
فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم
مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ
ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا
يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ
لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ
لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا
﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ ۞

عليكم أيها المؤمنون أن تؤمنوا بالله ورسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام والقرآن الذي نزله عليه والكتب السابقة التي أنزلها من قبل على رسله، وإياكم أن يتزعزع إيمانكم بذلك كله بل أقيموا عليه واثبتوا مهما تعرضتم لفتن وابتلاءات..

وأنتم أيها المنافقون المتظاهرون بالإيمان عليكم أن يشمل إيمانكم بصدق وإخلاص كذا وكذا..

وأنتم يا مشركي مكة عليكم بنبذ معبوداتكم من اللات والعزى وكل معبود غير الله وتؤمنوا بالله تعالى وكتبه بصدق وإخلاص، واعلموا جميعاً أن من يرتد أو يكفر أصلاً بذلك كله فقد أوقع نفسه في الضلال البعيد عن كل حق..

واذكروا أن من يؤمن مثلاً بموسى ثم يكفر بعزير، ويؤمن بعزير ثم يكفر بعيسى، ثم يزداد كفراً بمحمد عليه وآله وصحبه السلام، أو الذي يؤمن بموسى ثم بعزير ثم يكفر بعيسى ويزداد كفراً بمحمد، فإن كل هؤلاء لن يجدوا العفو والمغفرة عند الله في الآخرة ولن يسيروا على الهداية في الدنيا، فعلى كل إنسان أن يؤمن بموسى وعزير وعيسى ومحمد، وأنهم عليهم الصلاة والسلام يجب الإيمان بهم كلهم والانتهاء إلى محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كخاتم لهم وناسخ بشريعته لشرائعهم، مما يلزم أتباعهم أن يتبعوا محمداً عليه وآله وصحبه السلام وأن يكونوا مسلمين..

وليعلموا أن البشارة الوحيدة للمنافق يوم القيامة هي أن ينتظر ما ينتظر من العذاب الأليم جزاء نفاقه، ذلك لأنهم يعمدون إلى اتخاذ الكفار أولياء لهم ويتركون المؤمنين طالبين بذلك العزة والمنعة منهم وعندهم وينسون أن الغلبة والقوة كلها لله تعالى وحده، فليحذر ابن أُبَيّ من موالاة بني قينقاع.

وذكّرهم يا محمد بأن الله تعالى قد نزّل عليهم في التوراة، كما نزّل على المسلمين في القرآن بأنهم إذا سمعوا الطعن في آيات الله تعالى والسخرية منها فيجب أن يهجروا هذا المجلس الذي يجري فيه ذلك ويتجنبوه حتى يتخلوا عن الطعن إلى حديث آخر، وإلا فإنهم سيكونون كافرين أو منافقين مثلهم وغداً سيجمعهم الله تعالى منافقهم وكافرهم معاً في جهنم، وذكّرهم بأن جلوس المنافقين مع أحبار اليهود وسخريتهم من القرآن معاً يجعلهم كفاراً مثلهم، ويحشرون معهم في جهنم.

وذكّرهم يا محمد بأن انتظار المنافقين لوقوع الأذى بالمؤمنين، فيجعلون لأنفسهم

دوراً إذا انتصر المؤمنون طلباً للغنيمة، ويجتمعون مع الكافرين إذا كانت لهم غلبة بمساعدتهم ضد المسلمين وتخذيلهم للمؤمنين عنهم لينالوا منهم الغنيمة، فأعلمهم يا محمد بأن هذه المزاعم معلومة تماماً عند الله تعالى علام الغيوب، وهو سبحانه سيتولى الحكم فيها يوم القيامة، وأن عليهم أن يتأكدوا مهما كان لهم من جولات وصولات على المسلمين بأن الله تعالى لن يسلطهم عليهم ليبيدوهم ويقضوا على دينهم، وإنما هو الابتلاء إذ استطاعوا القضاء على دولتهم.

وأعلمهم يا محمد بأن معنى أن الله تعالى لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً هو «وإني سألت ربي ألا يهلكها، أي أمته، بسنة عامة، أي بالقحط، وألا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وأن ربي قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً».. فأكد لهم يا محمد بأن الأمة الإسلامية لن يزول سلطانها ولا كيانها إلا بأيدي أهلها..

وهذا ما حصل بالفعل سواء في نهاية كيانها مع العهد العثماني أو ما قبل ذلك بكثير من المشاكل والفتن بين أبنائها.

واعلموا أيها الكفار والمنافقون أن محاولات المكر والخداع التي تمارسونها ضد المسلمين ستذهب هباء مهما انتصرتم فيها وأن الله تعالى سيوقعكم بشر أعمالكم بالخزي في الدنيا وبأشد العذاب في الآخرة.

وانظروا إلى المنافقين عندما يقومون إلى الصلاة، فإنكم تجدونهم يمارون الناس وهم في تكاسلهم وتثاقلهم عند أدائها.. إنهم لا يرجون من الله ثواباً ولايعتقدون على تركها عقاباً.. وانظروا إليهم متى انتهوا من أدائها، فإنهم ما أقل ما يذكرون الله تعالى بعدها، فتجدهم بلا تسبيح ولا تهليل ولا تكبير ولا استغفار ولا أي دعاء.. والدعاء مخ العبادة.. واحذروا من الوقوع في ذلك أيها المسلمون واذكروا ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢]. واذكروا أنه لا يستثنى من صلاة الرياء إلا من صلى صلاة ليراها الناس ويرونه فيها فيشهدون له بالإيمان، أو أراد طلب المنزلة والظهور لقبول الشهادة وجواز الإمامة، لأن صلاة الرياء الموقع في المعصية هي أن يظهرها بقصد صيد الناس طريقاً إلى المنافع.

وتصف الآيات بعدها تصرفات المنافقين مع الناس بعد أن وصفتها مع الله تعالى، وذلك من خلال تذبذبهم وتنقلهم من شخص إلى آخر، ومن فئة إلى أخرى، فتحذر

المسلمين من مجاراتهم والوقوف في مصافهم، مؤكدة أنهم ليسوا بمخلصين في الإيمان ولا بالمصرحين بالكفر.. والرسول عليه وآله وصحبه السلام يصفهم «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعيد إلى هذه مرة وإلى هذه مرة» لترددها بين القطيعين..

فاحذروا أيها المؤمنون من اتخاذهم هم وأمثالهم من الكافرين كخاصة أو بطانة لكم لأن ذلك يعرض كلمتكم للدس والفتن والوقيعة والتشتت والضياع في الدنيا وعذاب الله تعالى في الآخرة.. عذاب الدركات السفلى في النار.. وتأكدوا أيها المسلمون أنه لن يستثنى منهم أحد من هذا العذاب إلا من يتوب وتحسن توبته..

واعلموا أيها المنافقون أن الله تعالى لا منفعة له في عذابكم إن آمنتم وأخلصتم، لأنه سبحانه لا يعذب الشاكر المؤمن، ولأن تعذيبكم لا يزيد في ملكه تعالى شيئاً ولا ينقص شيئاً وهو القائل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. والقائل: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، فتخلصوا من مظاهر النفاق في تعاملكم مع المسلمين، سواء من المكر أو البغي أو النكث، وعندها يظهر عليكم الإيمان الصادق، واذكروا أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، وأن البغي مردود على أهله، وأن نكث العهود والوعود مردود على أهله.

واذكروا أيها الناس، مسلمون وغير مسلمين، آخر الآية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فإنه تعالى يشكر عباده على طاعته، وأنه تعالى يتقبل العمل القليل منهم، وأنه تعالى يثيبهم على ذلك بالثواب الجزيل.

وتأتي السورة بعدها إلى أمر حساس في العلاقات فيما بين المسلمين بعضهم مع بعض خاصة، وفيما بينهم وبين غيرهم عامة، ألا وهي الطعن أو التجريح والتشهير، وأن ذلك جائز شرعاً في حق كل ظالم سواء كان فرداً أو جماعة، عادياً أو مسؤولاً، فتقول:

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

فيجوز لمن وقع عليه الظلم أن يجهر بسوء القول ضد من ظلمه كأن يقول: ظلمني فلان، فينفر الناس منه، مع جواز الدعاء عليه وإن كان الصبر أفضل له. هذا إذا لم يكن هناك إكراه وأما لو أكره المظلوم على أسوأ قول وهو الكفر فيجوز للمظلوم المكره أن يصدر منه الكفر لنجاته إذا تعرض كله أو بعضه للهلاك كما حصل مع عمار بن ياسر عندما تحقق من قتله وقد رأى والديه يقتلان أمامه. والمهم ألا يرد القذف بالقذف إذا ظلمه متسلط فقذف عرضه وإنما يدعو عليه كما دعا الرسول عليه وآله وصحبه والسلام

حيث قال «اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنيّ يوسف» وكما قال «اللهم عليك بفلان وفلان» وسماهم.

ومن ناحية أخرى لا يجوز أن يقال لمن تاب من النفاق: ألست نافقت؟ إلا إذا كان مازال مقيماً على النفاق، لأن الله تعالى آنس من تاب من النفاق بقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾، المار ذكره ثم قال للمؤمنين ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ أي ظلم نفسه بالإقامة على النفاق.

وعليه فإن الظالم الذي يجهر بالسوء ظلماً وعدواناً وهو ظالم، كما هو حال الظلمة ودأبهم عندما يتطاولون بألسنتهم على مظلوميهم وينالون من عرضهم كل ما حرم عليهم أو بعضه، فيجب الأخذ على أيديهم ومنعهم من ذلك لقوله عليه وآله وصحبه السلام «خذوا على أيدي سفهائكم» وقوله «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قالوا: هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تكفه عن الظلم»..

فليحذر هذا الظالم من ظلمه لأن الله تعالى سميع لكل كلمة سيئة تصدر عنه وعليم بكل فعل منكر يقترفه، والمطلوب منه أن يبادر إلى العفو لأنه من صفات الله تعالى عند القدرة على الانتقام فيعفو عنه في وقت هو بأمس الحاجة إلى العفو من رب عفو قدير.

وتنقلنا السورة إلى الإشارة لما يفعله أهل الكتاب ضد الرسول والرسالة فتقول مقارنة لهم بالمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

مبينة حال أهل الكتاب بعد أن بينت حال المشركين والمنافقين، وأن اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم مما أدى إلى كفرهم بكل الرسل الذين كانوا يأمرون بالإيمان بمحمد وبجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومحذرة لهم من التفريق بين الإيمان بالله والإيمان برسله فيزعمون بأنهم يؤمنون بموسى كيهود ولا يؤمنون بعيسى ولا محمد، ويؤمنون بعيسى كنصارى ولا يؤمنون بمحمد بزعم كل منهم أنهم لم يجدوا ذكر محمد عليه وآله وصحبه السلام في كتبهم، وهم كاذبون، ويحاولون بذلك أن

يبتدعوا لهم ديناً بين الإسلام واليهودية أو بين الإسلام والنصرانية، مما يوقعهم بالكفر الأكيد ويؤدي بهم إلى العذاب المذل المهين. .

هذا بينما ترى بالمقابل النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأتباعه وأمته إلى يوم الدين يؤمنون بالله ورسله جميعاً ودون تفريق بينهم مما يؤدي بهم إلى الثواب الجزيل من رب غفور رحيم.

وتعود السورة وتواصل الحديث عن تعنت اليهود ونكثهم بالمواثيق وافترائهم على السيد المسيح فتقول:

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟
أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا
عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ
وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا
ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ .

فانظر يا محمد وهم يطلبون منك أن تصعد إلى السماء وتنزل إليهم بكتاب، فلا تبال بتعنت هؤلاء اليهود لأنهم طلبوا أكبر من ذلك من نبيهم موسى عندما أرادوا أن يريهم الله تعالى عياناً، فليس غريباً عليهم هذا التعنت بالرغم من أن الله تعالى كما يعلمون قد صعق أجدادهم أولئك الطالبين ذلك لعظم ما طلبوه غير آبهين بكل ما رأوه من المعجزات، وبالرغم من أنه تعالى أحياهم ليعتبروا بما حل بهم من عقوبة قد تتكرر لظلمهم وكفرهم ولكنهم عادوا واتخذوا العجل معبوداً لهم ولم يعتبروا بمعجزات موسى الباهرات من اليد والعصا وغيرهما، وعاد الله تعالى بعد أن أخذهم بعقوبات أخرى للتذكير وعفا عنهم تعنتهم ووضع أمامهم على يد موسى بينات أخرى، وأخذ عليهم الميثاق أن يلتزموا بالتوراة ولكنهم عادوا ونقضوا العهد فهددهم بإهلاكهم بالجبل وأمرهم كما مر سابقاً في سورة (البقرة) بدخول الباب سجداً ولا يصطادوا السمك يوم السبت

كعيد أسبوعي لهم ولكنهم بنقضهم ذاك الميثاق وكفرهم بآيات الله التي ظهرت أمامهم وقتلهم أنبياء الله وزعمهم بأن قلوبهم مقفلة عن سماع شيء بعد التوراة فإن الله تعالى قد حملهم مسئولية سوء أعمالهم، فأصبحت قلوبهم لشدة ما استمرأت الباطل لا تتأثر بأي قول حق ولا تستجيب لدعوة الإيمان إلا القليل النادر منهم، ولم تضنّ ألسنتهم عن الافتراء في حق مريم، فرموها بالبهتان العظيم بيوسف النجار الذي كان من الصالحين منهم..

ولم يكتفوا بذلك حتى زعموا بأنهم قتلوا السيد المسيح مع أن الحقيقة أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكنهم فعلوا ذلك بيهوذا الذي كان يتآمر عليه معهم عندما ألقى الله عليه الشبه بالمسيح، ولذلك وقع الخلاف بينهم حتى قال بعضهم إذا كان هذا هو عيسى فأين صاحبنا، وإذا كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟

كما اختلفوا في من رأى رفعه إلى السماء فقالوا لم نقتله، ومن لم يروه قالوا بل قتلناه، واختلفوا في ما صلبوه منه بزعمهم فقالت النسطورية بأنهم صلبوا ناسوته، أي الجانب المادي منه، وليس لاهوته، أي الجانب الروحي، وقالت الملكانية بأن الصلب وقع على ناسوته ولاهوته معاً..

وكل هذه الاختلافات الكثيرة من باب ظنونهم التي لا تستقيم مع الحق واليقين في شيء، كيف لا وهاهي مجموعة منهم قد رأوه وهو يرفع إلى السماء من قادر لا يعجزه عن ذلك شيء وحكيم يدبر أمر عباده على خير ما يكون..

وتؤكد هذه الآيات أخيراً أن منهم من يؤمن بعيسى على الحقيقة عند معاينة الموت، ولكنه إقرار لا ينفع لأنه إيمان يأس وعند الموت، وكذلك سيؤمن به كل من يوجد منهم قبيل يوم القيامة وهم يرونه يقتل الدجال والخنزير ويكسر الصليب.. وعندها سيشهد عليهم بتكذيب من كذبه وتصديق من صدقه.

وتواصل السورة ذكر مظاهر ظلم اليهود واعتراف علمائهم بذلك فتقول وهي تقارنهم بالمؤمنين:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾
وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾
لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ
وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

مبينة أن انظر إلى أولئك اليهود الذين اقترفوا من أنماط الظلم ما لا عدّ ولا حصر له لأنفسهم ولغيرهم حتى مع رسول الله موسى عليه السلام إليهم مما وردت الإشارة إليه. .

ومما تشير إليه السورة هنا من صدّهم أتباعهم وغيرهم عن الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام ورسالته، ومن أكلهم الربا مع أنه محرم، ومن أكلهم أموال الناس المسلمين خاصة منهم بدعواهم الكاذبة أن ذلك حلال عليهم، وكل ذلك من كفرهم الذي أعد الله لهم جزاءه العظيم من العذاب الأليم. .

ثم تبين السورة أن العلماء منهم الذين آمنوا من أمثال عبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهما يشتركون مع المؤمنين بالإسلام من مهاجرين وأنصار في الإيمان بالقرآن الذي أنزله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل من كتب على الرسل السابقين، وأنهم جميعاً موضع تكريم عظيم لإقامتهم للصلاة وإيتائهم للزكاة جنباً إلى جنب مع إيمانهم بالله واليوم الآخر مؤكدين أن الإيمان قول وعمل بعد التصديق اليقيني الجازم في القلب عن دليل قاطع، وأن هؤلاء جميعاً ينتظرهم الأجر العظيم يوم القيامة.

وتواصل السورة بيان أكاذيب اليهود ومن على شاكلتهم من مكذبي الوحي فتقول:

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾
وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾
رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾
لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ
يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾﴾.

اعلم يا محمد بأن اليهود كاذبون عندما يزعمون لك بأن الله لم يوح لأحد من بعد موسى، فإن أمر الوحي إليك كأمر من تقدمك من الأنبياء إذ أن المولى سبحانه قد أوحى

إليك كما أوحى لجميع من قبلك من الرسل والنبيين بدءاً من نوح أول رسل الله تعالى بشرائع للبشر إلى عيسى عليه السلام، وكذلك لا حاجة بهم لأن يطلبوا منك كتاباً تنزل به من السماء ولا أن يكذبوك بأنه لم يوح إليك، وليعلموا بأنه لم يتكلم العربية من الأنبياء غير خمسة هم: هود وصالح وإسماعيل وشعيب ومحمد عليهم الصلاة والسلام مما يجعل الكثير الكثير من الأنبياء منهم فيزداد العبء عليهم، فأين هم من ذلك مع افتراءاتهم وجرأتهم على الله ورسله؟!

وليدركوا تعظيم الله لرسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام وهو يذكره في الوحي قبل من سبقوه من إخوانه الرسل، وأن زبور داود عليه السلام كان مئة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام وإنما هي حكم ومواعظ فقط، وأن عيون داود كانتا زرقاوين وأن رسول العالمين كافة محمد عليه وآله وصحبه السلام قد مدح ذلك فقال: «الزرقة في العين يمن»، وأن علم محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم عن الرسل قد جاء بوحي من ربه عندما قصّ عليه أخبار مجموعة منهم لا كلهم، وأن الوحي لموسى كان بتكليم الله بكلام حقيقي له سمعه موسى دون أن يرى مصدره، وأن أولئك الرسل جميعاً كانوا مبشرين للمؤمنين بجنات النعيم ومنذرين للكافرين والمنافقين بنار الجحيم، وفي ذلك قطع على أي أحد من الناس وبالذات الكافرين أن يكون له حجة يتذرع بها غداً يوم القيامة أمام حساب الله تعالى له بأنه لم يصله أمر ونهي يلتزمه من ربه، وأن أصح ما يروى أن عدد الأنبياء كان مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، وكان المرسلون ثلاث مئة وثلاثة عشر كما قصّ الرسول عليه وآله وصحبه السلام في رواية عن أبي ذر الغفاري وأخرجه الآجري وأبو حاتم البستي في المسند الصحيح له..

كما ليعلموا أن الله تعالى يشهد لك يا محمد فيما تقول وأنك لست بحاجة لشهادتهم لأنه منزله عليك، كما يشهد لك الملائكة وإن كانت شهادة الله تعالى تكفيك وتخرسهم..

وليعلموا أن اليهود منهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ووقفوا في طريق اتباع الناس لك بزعمهم أنهم لا يعرفون صفة محمد في كتابهم وأن النبوة محصورة في ولد هارون وداود، وأن شرع موسى في التوراة لا ينسخ..

فكل ذلك زعم كاذب ويئول بهم إلى الوقوع في الضلال الشديد ولاسيما لمنعهم الناس من دخول الإسلام وظلمهم لمحمد عليه وآله وصحبه السلام بكتمان نعته وظلمهم أنفسهم بكفرهم، وظلمهم للناس إذ كتموهم، فهؤلاء أنى لهم أن يستحقوا شيئاً من مغفرة الله لهم وهم المصرون على رفض طريق الهدى والنور والسير في طريق الضلال

المؤدي بهم إلى جهنم والخلود المؤبد فيها وما ذلك على الله بعزيز مادام الواحد منهم قائماً على إصراره المنكر حتى يموت دون توبة ولا تراجع ولا إنابة..

وأخيراً تخاطب السورة في هذه الآيات الناس كافة، مؤمنهم وكافرهم، بأن الرسول محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد جاءهم بالقرآن رسالة الحق والهدى، وأن عليهم الإيمان بكل ما يأمرهم به وفي ذلك الخير لهم، وإن أعرضوا وكفروا فليعلموا أن ما في السموات والأرض كله لله وهو الغني عنهم وهم جزء من ملكه رغماً عنهم وهو سبحانه العليم بأحوالهم بتدبيره لهم فليحذروا أنهم بكفرهم لا يظلمون أكثر ما يظلمون إلا أنفسهم.

وتعود السورة وتخاطب النصارى من أهل الكتاب بالذات محذرة لهم من غلوهم في دينهم وداعية لهم إلى الحق من عند ربهم فتقول:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾﴾.

فما الذي دهاكم يا نصارى حتى تقعوا في هذا الاختلاف في صلب دينكم فتغلوا وتتجاوزوا كل حدٍّ مشروع ومعقول فتنسبوا إلى الله الباطل كما نسب اليهود من قبلكم إذ أنكروا نبوة عيسى بل قذفوا مريم، وأنتم ها أنتم تجعلون عيسى رباً، فدعوا القول على الله تعالى بأن له شريكاً أو ابناً، لأن المسيح كما يعلمه بحق بعضكم هو رسول الله إليكم برسالة الإنجيل المكملة للتوراة من قبل، وهو كلمة الله تعالى ألقاها إلى أمه مريم لتلده دون أب، مما يجب عليكم وعلى كل مؤمن أن يؤمن بذلك، وأن كلمته هي (كن) فكان

بشراً من غير أب، وهل يعجز عن ذلك من خلق آدم بلا أب ولا أم، ومن بيده ملكوت السموات والأرض خلقاً وتدبيراً ؟!

واعلموا أيضاً أن المسيح هو روح من عند الله، وتجنبوا هذا الضلال الذي وقعتم فيه بهذا الصدد لأن الله تعالى هو الذي خلق الأرواح كلها وليس عيسى فحسب، وأن فضله لكونه بدون أب، وأن جبريل عليه السلام قد نفخ في مريم بأمر الله فسمي المسيح بالروح، وأن الله قد سمى القرآن روحاً بمعنى رحمة على الناس كافة فكان عيسى رحمة من الله لمن اتبعه..

فارتدعوا عن هذا الضلال الذي قادكم إليه تأويلكم المغرق في البعد عن الحق والصواب بكون عيسى روحاً من الله تعالى، وأقبلوا على الإيمان بالله تعالى ورسله وخاتمهم محمد عليه وآله وصحبه السلام، وكفوا عن القول بعقيدة التثليث التي ترددون فيها أن الله تعالى هو الأب، وأن المسيح هو ابنه سبحانه، وأن مريم أو جبريل، على اختلافكم، هي أو هو روح القدس، فكفوا عن ذلك يكن لكم الخير، ذلك لأن الله تعالى إله واحد وهو المنزه عن أن يكون له ولد، كيف لا وله ما في السموات والأرض خلقاً وتدبيراً ومنهم المسيح نفسه؟ كفوا عن قول ذلك والإيمان به.

واعلموا أن بولس، كما يقول بعض علماء دينكم الصادقين، قد اندس في دينكم بعد أن كان يهودياً حاقداً، ونجح بخداعه الشديد ومكره الرهيب في تحريفكم عن الإيمان بالله الواحد الأحد بعد أن قضيتم قرابة القرن على ذلك، وجعلكم من خلال نسطور الذي استخلفه عليكم في القدس بعد أن ضلله بعقيدة أن عيسى بن مريم إله، ومن خلال يعقوب الذي استخلفه على الروم بعد أن ضلله بعقيدة أن عيسى ابن الله، ومن خلال الملك أو «ملكا» الذي يذكر بأنه ظهر في بلاد الروم واستولى عليها، الذي ضلله بعقيدة أن الإله هو عيسى، وأنه بعد أن تمكّن منهم دعا كل واحد منهم على انفراد وزعم له بأنه رأى المسيح في النوم ورضي عنه، وأنه غداً يذبح نفسه ويتقرب بها، وأن عليه أن يدعو الناس إلى نحلته وعقيدته، وأنه بالفعل قد دخل المذبح وذبح نفسه كما يُزعم، فأخذوا بعد مرور الأيام الثلاثة التالية يدعون الناس كل لعقيدته مما أوقع القتل والاختلاف بين أهل هذه العقائد الثلاثة إلى يومنا هذا.

فكفوا عن الغلو في دينكم والكفر بهذا التجاوز عن الحق أو ذاك، والتزموا بعقيدة الوحدانية، وعندها تعلمون بحق صدق الإيمان بالله، كما واعلموا أن المسيح لن يأنف أو يتكبر عن أن يكون عبداً من عباد الله، كما لا يمكن أن يأنف ذلك الملائكة المقربون

من رحمة الله ورضاه، لأن الكل يعلم أن من يأنف أو يستكبر عن ذلك فمصيره للحشر يوم القيامة مع الناس جميعاً للحساب، وكيف من يعلم ذلك حق العلم أن يفعل ذلك؟!

كما اعلموا أن من آمن منكم بالله ورسله وخاتمهم محمد عليه وآله وصحبه السلام والتزموا الأعمال الصالحات في كل أمر من الله ونهي فإن الله قد أعد لهم ليس فقط أجر إيمانهم وأعمالهم بقدرها وإنما يزيدهم من فضله الشيء الكثير، وأما أولئك الذين أنفوا وتكبروا عن ذلك فهم على موعد مع العذاب الأليم دون نصير ولا معين..

فاذكروا ذلك كله وأقبلوا على التوحيد والإيمان الصادق والأعمال الصالحة مع المسلمين الذين يخاطبهم المولى سبحانه بأن معجزة القرآن التي أنزلها على رسوله إليهم وإلى البشرية كلها هي الحجة الدامغة لكل ذي عقل سليم لو أحسن التمعن والتفكير وتجرد عن التعصب المقيت، وهي التي تحقق لمن يؤمن بها بصدق ويقين ويعمل بها بإخلاص وثبات الدخول في رحمة الله وفضله بالاطمئنان في الدنيا مهما مر به من عواصف الابتلاء، والثواب الجزيل في الآخرة ونعيم جناتها، وفي ذلك كله الهدى إلى قويم السبيل، فكيف بمن يزداد رفعة في الدرجات مع سمو الأعمال الصالحات؟!

وأخيراً تصل بنا السورة إلى خاتمتها مع قضية الكلالة التي سبقت الإشارة إليها وإلى بعض أحكامها فتقول:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

موضحة في هذه الآية التي نزلت والرسول عليه وآله وصحبه السلام يتجهز لحجة الوداع، وأنها نزلت لتجيب على سؤال جابر بن عبد الله للرسول عليه وآله وصحبه السلام حول كيفية تقسيم تركته بين إخوته التسعة، فتقول: اعلموا أيها المسلمون أنه إذا مات شخص دون أن يخلف ولداً أو والداً، وكانت له أُخت واحدة، فإنها ترث نصف تركته والنصف الآخر يذهب إلى ابنته لأن الأخوات يعصبن البنات وإن لم يكن معهن أخ، إذا كان لديه ابنة، وإلا فيذهب لأقرب عصبة، وأما هو فإنه يرث كامل تركتها إذا لم يكن لها أي ولد أو بنت، وأما إذا كانت الأخوات الوارثات لتركة الأخ اثنتين فأكثر فإنهما ترثان ثلثي تركته، وأما إذا كانوا إخوة، رجالاً ونساء، فتقسم تركته بواقع للذكر مثل حظ الأنثيين.

واعلموا أن هذا هو بيان الله تعالى الجديد إليكم بعد أن بيَّن ما بيَّن في هذا الأمر سابقاً، فإياكم أن تبتعدوا عن هذا البيان الحق وإنما التزموه حيث يقع، واحذروا الله العليم بكل شيء من أعمالكم في تقسيم التركات وغيرها..

واعلموا بمناسبة هذه الآية بأنها تسمى بآية الصيف لأنها نزلت في فصل الصيف، ولأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام قد شدّد على عمر رضي الله عنه بشأن الكلالة عندما سأله عنها بقوله: «يا عمر، ألا يكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء» مما جعله رضي الله عنه يقول: ثلاث لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيّنهن أحب إلي من الدنيا وما فيها: الكلالة والربا والخلافة، وقد خرّجه ابن ماجه في سننه.

دليل سورة النساء ـ ٤

- إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٧٦ آية.

- تبدأ بذكر الزواج لإنجاب الأولاد في جوّ أسري ومجتمعي نظيف عادل بحيث إذا رغب بأكثر من زوجة فعليه بالعدل بينهن في القسمة والنفقة وإلا فيكتفي بواحدة تجنباً للظلم أو الحاجة.

- ثم تذكر أمر المواريث وأن سببها أحد ثلاثة: النسب والنكاح والولاء.. ثم تبين توزيع الأنصبة على الورثة بعد أداء الدين والوصية من التركة.

- وتحدث بعدها عن تجنب إيقاع الظلم بالزوجات في المواريث وغيرها، وتحدد المحرمات في الزواج، وتبين شروطه بأنه بإذن ولي الأمر، وبدفع المهر، وبقصد الإحصان.. وتذكر ما لكل من الزوجين من الحقوق لدى الآخر، وكيفية حل الشقاق بينهما.

- ثم تأمر بالإخلاص في كل عمل سواء من العبادات أو المعاملات أو الأخلاق وذلك بجعلها ابتغاء وجه الله تعالى وليس رياء لأحد من خلقه..

- ثم تخص بالذكر الصلاة من العبادات فتذكر من شروط صحتها عدم السكر أثناءها والتطهر الأصغر والأكبر بالماء، وبيان التيمم إذا لم يتوفر الماء.

- وبعد الإشارة إلى أعمال الكفار المنكرة ونفاق المنافقين تشير إلى نموذج من ذلك بما فعله اليهود من شرور محاولات نشر الضلال بين المسلمين وتحريف التوراة وشتم الرسول عليه وآله وصحبه السلام وتفضيلهم المشركين على المؤمنين من باب الحسد..

- وتذكر بعدها أمهات الأحكام بشأن العدل والأمانة بين الرعية دون تمييز بين المؤمنين والكافرين سواء أثناء التنازع معهم أو الرضى، محذرة المنافقين من التظاهر بالإسلام وهم يحتكمون للكفر، وآمرة المؤمنين بجهاد الكفار وحماية الشرع مهما أصابهم من أذى في سبيل ذلك.

- وهنا توضح الفرق بين المهاجرين المؤمنين الصادقين وبين المنافقين في الجهاد في سبيل الله، وتذكر أن الموت سيلحق بكل إنسان مهما تحصّن، وأن ما على المنافقين لذلك إلا أن يكفوا عن التظاهر الكاذب في الإيمان والقتال..

- وهنا بعدها تشير إلى الشفاعة وأنها فقط تعود بالثواب على من يريد الخير لغيره من المؤمنين، وكذلك التحية..

- وتعود لتحذر من الاستعانة بالمنافقين في القتال ووجوب الشدة في قتال مَنْ يصرّون على الشر لأمتهم باستثناء من له ميثاق مع المسلمين أو صلح.. وتبين هنا جزاء من يقتل مؤمناً أو غير مؤمن عمداً أو شبه عمد أو خطأ.. وتحذر من التعجل في القتل أثناء الجهاد.. كما تحذر من التسوية بين القاعدين عن الجهاد دون عذر مع المجاهدين بأموالهم وأنفسهم.. كما تخفف الصلاة الرباعية عن الضاربين في الأرض للجهاد أو طلب الرزق أو طلب العلم..

- ثم تدعو كل مدافع عن المتهمين للاستغفار والتأكد من براءتهم قبل تولي المخاصمة عنهم..

- وتحذر من موالاة الكفار دون المؤمنين طلباً للعزة حيث الذل.. كما تحذر من مجالستهم هم والمنافقين الذين يطعنون في الدين، وتؤكد أن الله تعالى لن يجعل أي سلطان لهم على المؤمنين ما داموا صادقين..

- وتؤكد تحريم الجهر بالقول السيئ ضد غير الظالمين بقصد كفّهم عن الظلم..

- وتكشف كفر أهل الكتاب بالتفريق بين الإيمان بالله ورسله.. مؤكدة أن المؤمنين حقاً هم محمد وأمته الذين آمنوا بالله وجميع رسله ولم يفرقوا بينهم، ومبينة أن ذلك ليس بغريب على اليهود وهم يطلبون من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يصعد إلى السماء ويعود إليهم بكتاب إذ فعلوا أكبر منه عندما طلبوا من موسى عليه السلام أن يروا الله تعالى بعيونهم فصعقهم ثم أحياهم.. كما أنهم ادعوا قتل عيسى وصلبه بالظن لا باليقين مما يرد زعمهم.. وأنهم نقضوا كل المواثيق التي أخذت عليهم ومنها مواصلتهم أكل الربا وأموال الناس بالباطل، واستمرار تكذيب رسالة الإسلام التي يؤكد سبحانه

أنها الخاتمة والناسخة لجميع الرسالات، وأن على اليهود والنصارى أن يؤمنوا بذلك كما على المسلمين أن يطمئنوا بذلك..

- وفي نهاية السورة تشير إلى مسألة الكلالة بموت المرء دون ولد أو والد يرثه فتأخذ الأخت نصف التركة كالبنت إذا وجدت، وترثها كاملاً، وأما الأختان فأكثر فلهم الثلثان، وإن كانوا إخوة وأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فتبرز الأمور التالية:

١ ـ فلا بد من اختبار اليتيم عند البلوغ للتأكد من أنه راشد حسن التصرف قبل دفع ماله إليه.

٢ ـ يعتبر توزيع المواريث ثلث العلم فلا بد من الحرص على تعلمه.

٣ ـ إن أسباب وجوب توزيع المواريث ثلاثة: نسب ثابت، ونكاح منعقد، وولاء عتاقة.

٤ ـ الورثة ١٧ منهم ١٠ رجال: الابن، ابن الابن، الأب، أب الأب، الأخ، ابن الأخ، العم، ابن العم، الزوج، مولى النعمة، و٧ نساء: البنت، بنت الابن، الأم، الجدة، الأخت، الزوجة، مولاة النعمة.

٥ ـ نكاح المتعة منسوخ بالطلاق والعدة والميراث: فقد حظر أولاً ثم رخّص في الغزو عند منع الاستخصاء ثانياً، ثم نهي عنه عام خيبر ثالثاً، ثم أذن به عام الفتح رابعاً، ثم أخيراً حرمه الرسول عليه وآله وصحبه السلام بعد ثلاث سنوات في حجة الوداع فهو محرم إلى يوم الدين.

وصيغة المتعة: أتزوجك يوماً دون ميراث ولا طلاق ولا شاهد وهذا في حقيقته زنا.. وأما نصّ الأجر ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فإنها تعني المهور لأنه مقابل منفعة الاستمتاع.

٦ ـ جرى التهيئة لتحريم الخمر بآية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ثم آية ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأخيراً جاء التحريم القاطع ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾.

٧ ـ توبخ اليهود على أفعالهم المنكرة وعلى حسدهم النبي عليه وآله وصحبه السلام النبوة..

٨ ـ إن الأمر بطاعة أولي الأمر مشروط بطاعة الله ورسوله أولاً ثم بالرد إليهما عند التنازع مما يحدد الطاعة بالكتاب والسنة..

٩ ـ لا بد من الحذر قبل المباشرة بالجهاد الحربي بمعرفة جميع أحوال وقدرات العدو ليتحقق الأخذ بالأسباب مع رجاء النصر الرباني..

١٠ ـ تسلم الدية لولي المقتول خطأ بمقدار مئة من الإبل أو ألف دينار ذهباً أو ١٢ ألف درهم فضة.. وتجمع من العاقلة، وتدفع مقسطة على ثلاثة أعوام..

١١ ـ التأكيد على الدعاء عند كل صلاة حتى مع الخوف..

١٢ ـ التحذير من الدفاع عن أي قضية باطلة..

١٣ ـ العدل في أداء الشهادة ولو على النفس أو الأقربين..

١٤ ـ يجوز مهاجمة الظالم بالقول المناسب لدفع ظلمه مهما كان القول سيئاً..

١٥ ـ التأكيد على أنهم لم يقتلوا المسيح ولم يصلبوه ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾..

١٦ ـ التحذير من نقض العهود والمواثيق مع العدو والصديق إلا بشروطها، وإعطاء كل ذي حق حقه وبالذات الورثة.

سورة المائدة (٥)

التقديم

سورة المائدة تسمى المنقذة لأنها «تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب» كما قال عليه وآله وصحبه السلام.

بدأت السورة بدعوة المؤمنين كافة للوفاء بالعقود سواء كانت عقود الدين أو الطاعات بحيث لا يخرج شيء منها عن طاعة الله، ثم أبانت لهم أن الله قد أحل لهم بهيمة الأنعام من إبل وبقر وغنم التي لهم أكلها بمجرد ذبحها بشكل شرعي، ولم يستثن من ذلك إلا ما يرد في الكتاب والسنة من محرمات وذلك مثلاً عند صيد البر في الإحرام بحج وعمرة..

ثم أمرتهم ألا يتعدوا حدود الله في كل أمورهم من مناسك الحج وغيرها، ولا يستحلوا القتال في الأشهر الحرم، كما لايستحلوا ما أهدي أو قلد ليذبح لله عند بيته الحرام، ولا منع أحد من المسلمين أو المشركين قبل النسخ في سورة براءة من قصده البيت الحرام للتعبد، ولكن لهم أن يصطادوا بعد الإحلال من الحج والعمرة، ولكن عليهم ألّا يحملهم بغضهم لمشركي قريش، لأنهم صدوهم عن المسجد الحرام، لا يحملهم ذلك على أن يعتدوا فيمنعوا القاصدين للتعبد بجانب الحرم من المشركين، وأن يحرصوا على التعاون على أعمال البر والتقوى مقابل ذلك ولا يتعاونوا على أعمال الإثم والعدوان فيما بينهم.

وبعدها بينت لهم مجموعة من المحرمات التي يتلوها عليهم القرآن من الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله والتي ماتت خنقاً من الأنعام أو ضرباً أو سقوطاً أو نطحاً ما دامت دون تذكية، وكذلك ما افترسه السبع ولم يذكّ، ومثلها ما ذبح على النصب فكلها لحومها محرمة، وكذلك الاستقسام بالأقداح على أنواعها.. لأن ذلك كله خروج عن أمر الله..

ثم تخبرهم بأن المشركين قد يئسوا منذ ذلك اليوم الذي تمّ لهم أي للمسلمين فيه فتح مكة من أن يعيدوهم لدينهم الوثني، ولذلك لايجوز لأحد من المسلمين أن يخشاهم بل عليه أن يضع أمام عينيه فقط خشية الله، كيف لا وقد أكمل الله بأداء مناسك الحج لهم أركان دينهم وأتمّ عليهم نعمته وفضله ورضي لهم الاسلام ديناً يلتزمون كل أمره ونهيه في الكتاب والسنة وما أرشدا إليه من إجماع الصحابة والقياس الشرعي لا العقلي، كأدلة يرجع إليها لاستنباط الأحكام الشرعية التي جاءت لإسعاد البشرية وإبعاد كل العسر والمشقة عنها، والتي جاء منها أن من يضطر بسبب الجوع والتعرض للهلاك أن يأكل شيئاً من تلك اللحوم المحرمة فإن شريعة الاسلام تجيز له ذلك بشرط ألا يقصد الخروج عن الشرع والوقوع في الإثم.

ثم تتحدث السورة عن بيان ما سألوا عنه مما يحل لهم أكله إذا كانوا يستخدمون الجوارح في الصيد، وأن الحلال منه هو فقط ما تصطاد الجوارح من كلاب وأمثالها وصقور وأمثالها بشرط أن تكون مدربة على ذلك بحيث تجيب الأمر وتنزجر بالنهي، وأن يرسلها الصياد لا أن تطلب الصيد لنفسها، وأن يسمي الله عند إرسالها مما يجوز معه أكل الصيد إذا جاءت به ميتاً ولكن لابد من التذكية إذا لحقها وفيها روح.

وفي هذا اليوم والعهد الذي كمل فيه الدين أحلت للمؤمنين المأكولات الطيبات ومنها ذبائح اليهود والنصارى ولو ذبحوها باسم العزير وباسم المسيح وفي نفس الوقت ذبائح المؤمنين حلال لهم. هذا بالنسبة للأكل وأما بالنسبة للنكاح فقد أضافت السورة ما سبق أن مر سابقاً في سورة (النساء) أنه من الحلال فيه الزواج من النساء العفيفات من اليهود والنصارى تماماً كالزواج من المسلمات العفيفات وذلك بشرط دفع المهور في كلا الحالتين واستهداف الإعفاف منه لا السفاح ولا الإخدان، ولكن هذا لا يسمح لنساء أهل الكتاب أن يدّعين أن دينهن مقبول عند الله كالمسلمات لأنهن عند الله كافرات بالإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام ورسالته وأنهن بسبب ذلك قد أفسدن أعمالهن وخسرن آخرتهن.

ثم تنقلنا السورة إلى آية الوضوء فتبين المزيد على ما ورد في سورة النساء، بأنه

إذا أراد المسلم أن يقوم للصلاة فعليه أن يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ثم يمسح رأسه وينزل لغسل رجليه إلى الكعبين، وإن قيل بمسحهما فقط مما يخالف السنة المتواترة قولاً وعملاً، وهذه هي الواجبات الأربعة في الوضوء وبينهما ومعهما المندوبات من غسل ما له صلة بالوجه من الفم ومضمضته والأنف ونثر الماء به، ومن غسل اليدين بتخليل الأصابع وغسل الكف وظهره للكوع فقط، ومن استيعاب الرأس بالمسح بما فيه الأذنين، ومن الغسل في الرجلين إلى الكعبين وجوباً وأكثر إلى الساقين ندباً. .

وهذا كله للوضوء وأما عند الجنابة فلا بد من الغسل بالماء لمن يجده وإلا دفع بالسنة إلى التيمم الذي تأتي الآية على ذكره بعد الوضوء فتقول بأنه إذا لم تجدوا الماء وكنتم في حالة مرض أو سفر أو حدث معتاد بالبول أو البراز أو لامستم النساء من غير جماع وجنابة فعندها يجب عليكم التيمم بالصعيد الطاهر وذلك بأن تضعوا اليدين عليه مرة أو مرتين فتمسحوا الوجه مرة واليدين مرة أخرى، وفي ذلك يتحقق لكم اليسر والطهارة وتمام النعمة التي تستدعي منكم عظيم الشكر للمنعم المتفضل.

ثم تأمر السورة المؤمنين أن لا ينسوا العهد والميثاق الذي التزموا مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام على السمع والطاعة في المنشط والمكره وذلك في ليلة العقبة وتحت الشجرة، كما تأمرهم أن يلتزموا بالقيام بحق الله عليهم في طاعاته، وكما مر في سورة (النساء) من الشهادة بالعدل ولو على أنفسهم، وكما مر في مطلع هذه السورة بأن لا يتركوا العدل مع أحد بسبب بغضهم له، لأن العدل هو الأقرب للتقوى، ولأن الله تعالى وعد المؤمنين الصالحين بالمغفرة والأجر العظيم بينما توعد الكافرين المنكرين للإسلام بنار الجحيم، كما تأمرهم بتذكر نعم الله عليهم والتي منها أن عصم الرسول عليه وآله وصحبه السلام من ذاك الأعرابي الذي همّ بقتله، وعصمه من اليهود عندما همّوا أيضاً بقتله، ففي ذلك أعظم المنة والفضل عليهم، وليتقوا الله ويتوكلوا عليه سبحانه فهو وحده مانعهم من كل سوء.

وبعدها تحدثنا السورة عن نقض بني إسرائيل مواثيق الله تعالى إذ أرسل موسى عليه السلام اثنى عشر نقيباً منهم للإطلاع على أخبار الجبارين في فلسطين تهيئة لدخولها ولكنهم بدلاً من التزام السرية بأمر نبيهم موسى عليه السلام بأن لا ينقلوا ما علموه لأحد لم يتقيد بذلك منهم إلا اثنان فقط مما جعل شرط الله تعالى عليهم بأنهم إن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وينضبطوا بأوامر الرسول ويعظموه وينفقوا بسخاء في سبيل الله فإن الله تعالى يكفر سيئاتهم ويدخلهم الجنة وأما من يكفر بعد ذلك فإنه سيقع في الضلال، ولم يرعوا بالشرط وجزائه فنقضوا الميثاق فطردهم تعالى من رحمته فقست قلوبهم عن

طاعة الله تعالى، وعميت أبصارهم عن رؤية الحق فأخذوا يحرفون كلام الله تعالى بما يلحقونه به من تأويلات باطلة ومن تغييرات متعمدة سواء في صفة الرسول محمد عليه وآله وصحبه السلام أو آية الرجم أو غيرهما، وتجاهلوا عهد الله الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبيان نعته، وأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام كان يعرف خياناتهم هذه من الكذب والفجور ومساندة كفار قريش ضد المسلمين إلا القليل منهم، مما دعا المولى سبحانه أن يتجاوز عنهم بسبب عهد الذمة معهم.

وقد تكرر نقض الميثاق من النصارى أيضاً عندما ألزموا بالإيمان بالرسول محمد عليه وآله وصحبه السلام في الإنجيل ولكنهم تجاهلوا ذلك وحرفوا الكلام الدال على ذلك، وبنتيجة ذلك ولانقسامهم في شأن المسيح عليه السلام فقد دبّت العداوة بينهم وأخذ كل من اليعاقبة والنساطرة والملكانية يكفر بعضهم بعضاً. وبعدها يخاطبهم المولى سبحانه فيلزمهم بالإيمان برسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام الذي كشف لهم عما أخفوه من نعته ونبوته.

ويتوقف عن المزيد من أخبارهم لأن ما ذكر يكفي للتدليل على الإعجاز، وينير الطريق للحق، والوصول لرضوان الله وجناته.. منبهاً لهم بأن من يقول بأن الله تعال هو المسيح ابن مريم فقد كفر لأن المسيح لا يملك الدفاع عن نفسه وأمه فكيف يكون إلهاً مع هذا العجز! ثم هو جزء من ملكية الله للسموات والأرض وما فيهما وبينهما فمن أين تأتيه الألوهية وهو المخلوق لله تعالى؟!

ومذكراً لهم بأن قولهم كيهود ونصارى بأنهم لن يعذبوا يوم القيامة بحجة أنهم أبناء الله وأحباؤه لهو افتراء وكذب على الله لأنه باعترافهم يعذبهم بذنوبهم، فكيف يزعمون ذلك؟! ثم يدعوهم للإقرار بأنهم ممن خلق الله من البشر، وأنه يغفر لمن أساء وتاب منهم ويعذب من يصرّ على الإساءة وعدم التوبة لأنهم محاسبون كغيرهم على أعمالهم يوم القيامة..

ومكرراً التنبيه لهم بأنه لم تعد لهم حجة كأهل كتاب بعد أن أرسل الله رسوله محمد عليه وآله وصحبه السلام لهم وللناس كافة وذلك بعد فترة انقطاع الوحي الطويلة منذ عيسى عليه السلام التي ظهر فيها الكثير من الأنبياء فكان مجيء محمد عليه وآله وصحبه السلام مما يلجمهم عن القول بأن رسولاً لم يأتهم.. فها هو قد جاء، ولديهم العلم بأنه كان سيجيء، فعليهم الإيمان به وبكل ما يأمر به وينهى عنه.

وبعدها تنقلنا السورة إلى قصة موسى عليه السلام مع قومه، ورفضهم دخول بيت

المقدس خوفاً من سكان فلسطين الجبارين مما تبعه إنزال العذاب عليهم بالتيه لمدة أربعين سنة قضوها في سيناء دون أن يسمح لهم بدخول الأرض المقدسة فكان الجزاء من نوع العمل، كما أن قصة ولدي آدم عندما قتل أحدهما الآخر حسداً لقبول قربانه، ورفضه أن يكون المبادر بالقتل، وجهله بكيفية دفن أخيه حتى تعلّم ذلك من غراب دفن غراباً آخر قتله، فدفنه والندم يأكل كبده..

هذه القصة تذكّرهم بحكم الله بأن من يقتل شخصاً بغير حق يأثم كمن قتل جميع الناس ومن يحافظ على حياة شخص يكسب من الأجر كأنه أحيا جميع الناس.

وربطاً بموضوع القتل تورد السورة مشكلة المحاربة بين المسلمين عندما يخرج بعضهم ليقطع الطريق ويسلب الأموال ويسفك الدماء فعندها لن يفلت من العقاب العادل المناسب لما اقترفه:

فهو إما أن يقتل أو يصلب أو تقطع يده ورجله من خلاف أو ينفى من الأرض بالحبس والتغريب مما فيه الخزي بين الناس ويوم الآخرة العذاب الأليم، ولا يستثنى من هذه العقوبة، وهي حد الحرابة، إلا من يتوب قبل أن يلقى القبض عليه فإن الله يغفر لهم خطيئتهم على أن يحرصوا على التقرب من الله بتوبتهم النصوح ويحذروا أن تأخذهم العزة بالإثم فيقعوا في الكفر عند الهرب إلى ديار الكفر من خوف حد الحرابة والانضمام إلى الكفار وعندها لن يغني عنهم أضعاف أموال الأرض لتنقذهم من عذاب الله يوم القيامة حيث يخلدون في النار.

ثم تدعو السورة المؤمنين للحذر من مشكلة أخرى هي أخذ أموال غيرهم بالسرقة دون حرابة، لأن السارق والسارقة متى توفرت فيهما، وفي المال المسروق، وفي الموضع الذي سرقا منه الشروط الشرعية قطع يد كل منهما عقوبة كحد للسرقة والاعتداء على مال الآخرين بغير حق، وعند التوبة من السرقة، والإقامة على التوبة، ينال المغفرة وذلك لأن الله تعالى يملك السموات والأرض فله سبحانه أن يعاقب من يشاء بالعقوبة المناسبة لذنبه وله أن يغفر لمن يشاء تبعاً لتوبته وإصلاحه لشأنه، وليس لأحد الاعتراض على ذلك أمام القادر على كل شيء سبحانه.

وتدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن لا يحزن لموقف اليهود من تحريف كتابهم من الرجم للزاني المحصن إلى الجلد وهم بذلك يسارعون في الكفر، وليطمئن أن الله تعالى سيحقق له وعده بالنصر عليهم، وليعلم أنهم سواء المجاورون منهم له في المدينة أو البعيدون هناك في فدك فكلهم يحرفون كلام الله ويطلبون حكماً غير المكتوب عندهم، وهم مشتركون في الكفر مع المنافقين، وأنهم سادرون في غيّهم

ولن ينفعهم وعظ ولا تحذير، فخزي الدنيا واقع بهم بالفضيحة الآن وبالجزية غداً، وعذاب النار ينتظرهم، وهم لا يحرصون إلا على سماع الكذب على الله وتحريف أحكامه بأكل المال الحرام بالرشوة وغيرها، ولهذا فالرسول وكل حاكم بين الخيار في الحكم بينهم ما داموا موادعين لا أهل ذمة أو عدم الحكم، واحرص إن حكمت بينهم أن تحكم بالعدل ولا تنظر لما يزعمون لأن هذا ما يحبه الله، ولا سيما أن حكم التوراة هو رجم الزاني المحصن، ولكن كفرهم هو الذي يجعلهم يرجعون إليك..

واعلم أن في التوراة هدى ونور، ولذلك طولب بالحكم بها الأنبياء الذين جاءوا بعد موسى وعيسى عليهما السلام وتطبيقها على كل المؤمنين التائبين وذلك بما لديهم من علم أمروا بعدم كتمانه هم وأمثالهم من العلماء والحكم بالرجم وغيره لأن من لم يحكم بما أنزل الله استخفافاً واحتيالاً فإنه كافر لأنه رد الشرع واستحل ذلك..

وانظر يا محمد أننا أمرناهم بالتسوية فيما بينهم، فلا فرق بين نفس من قبيلة ونفس من قبيلة أخرى ولا في العين والأنف والأذن والسن والجروح التي لها قصاصها، هذا عندهم أما في شريعة الإسلام ففي العينين الدية وفي عين واحدة نصف الدية، لأن العقوبات عندهم كانت إما القصاص أو العفو ولا يوجد دية كالإسلام، وقصاص الجروح من قود عند العمد إلى دية عند الخطأ، وإذا تنازل المجني عليه فهي حسنة له عند ربه، ولابد من الحكم بما أنزل الله وإن شذ عن ذلك وحكم بغيره تساهلاً فهو من الظالمين..

وبعد الأنبياء التالين لموسى جاء عيسى بن مريم يصدق التوراة وأنزل عليه الإنجيل يصدقها ويرشد أتباعه المتقين إلى الخير والتوجيه باتباع الرسول القادم على أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل لأن من لم يحكم بأمر الله ويتجاوزه فهو فاسق.

وتنقلنا السورة إلى توجيه الخطاب إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيقول له المولى سبحانه: لقد أنزلنا عليك القرآن مصدقاً الكتب المنزلة السابقة من توراة وإنجيل ولكن مهيمناً عليها وناسخاً لها..

ثم يأمره سبحانه بأن يحكم بالقرآن المنزل عليه ويحذر أن يميل عنه إلى ما تهوى أنفس أهل الكتاب أو غيرهم، ذلك لأن الله تعالى قد أنزل لكل أمة شريعة تختص بها وطريقاً تسير عليه وجعل شريعة الإسلام الخاتمة للناس كافة بدلاً من كل الشرائع السابقة، ولأنه تعالى قادر لو أراد أن يجعل البشرية كلها أمة واحدة ولكنه الابتلاء والاختبار في أن يجعل لكل إنسان القدرة على الاختيار وأمر جميع الأقوام لتدخل في أمة الإسلام ولكن دون إكراه، ثم دعا الرسول المصطفى عليه وآله وصحبه السلام وأمته

للمسارعة إلى الطاعات لما في ذلك من رفيع الدرجات عندما يرجع يوم القيامة البشر كلهم للحساب فيعلم كل منهم حقيقة الاختلاف فيما بينهم وبين الآخرين من الأمم.

وتعود السورة وتأمره عليه وآله وصحبه السلام بأن يحكم بالقرآن ولا يميل مع أهوائهم ويحذر أن يتخلى عن شيء من المنزل عليه ولا يبالي بهم لو أعرضوا لأن في ذلك المزيد من العذاب لهم من جلاء وجزية وقتل، وهذا ما وقع فيما بعد بهم، ولأن الكثير منهم عاصون، ثم تستنكر السورة على أولئك اليهود الذين يريدون أن يحتكموا للجاهلية عندما كانوا يجعلون حكم الشريف يختلف عنه للوضيع مع أنه لا حكم مطلقاً أفضل من حكم الله لكل من يوقن بأنه محاسب على ذلك يوم الدين.

وجاء الخطاب بعدئذ إلى المؤمنين حين أمرهم تعالى بأن لا يوالوا اليهود والنصارى لأنهم يوالون بعضهم بعضاً في التأييد والمناصرة، ولأن من يناصرهم يكون منهم ويكون حكمه في الكفر والعذاب مثلهم.. ذلك أن أولئك المنافقين يسارعون في موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين بحجة الخوف من النصر على المسلمين أو يحصل قحط فلا يميرونهم، وعندها يقول المؤمنون للمنافقين الذين يتظاهرون بالإيمان أهكذا ناصرتموهم فخسرتم دينكم وآخرتكم إذ خسرتم أعمالكم؟!

ثم يذكّر المولى سبحانه عباده المؤمنين بأن موالاة الكفار تؤدي إلى الردة عن الاسلام، وأن مثل هذه الردة ليست بأكثر من تعريض المؤمنين أنفسهم للاستبدال بقوم آخرين يحبون الله ويحبهم بدلاً من المرتدين بحيث يكونون بدلاً من الموالين للكافرين شديدين عليهم وهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في سبيل مرضاته أي لائم مهما كان قريباً أو بعيداً.

ولاشك أن ذلك من فضل الله الذي يتفضل به على أولئك المؤمنين الأحباء لله ومن الله.. كيف لا وهم يذكرون أن وليهم وناصرهم هو الله في طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ومناصرتهم وموالاتهم للمؤمنين من دون الكافرين، المؤمنين الصادقين الذين يصلون ويزكون ولو أثناء صلاتهم، كيف لا وهم يذكرون أن كل من يتولى الله ويناصر دينه ويطيعه في كل أمره ونهيه ويطيع رسوله عليه وآله وصحبه السلام ويتناصر مع المؤمنين من دون غيرهم هو وإياهم يشكلون حزب الله الذي لا يغلبه غالب، وهم يذكرون أن جماعة من اليهود والمشركين قد سخروا من دينهم مما يفرض عدم الانتصار بهم، وأن سخريتهم كانت للصلاة سواء عند الأذان أو عند الركوع والسجود.

ثم تعود السورة وتخاطب الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يسأل أهل الكتاب:

هل تعيبون علينا إيماننا بالله وقد علمتم أننا على الحق وأن أكثركم قد خرج عن الإيمان فأنتم على الباطل؟ وأن يقول لهم بأن الذين نقموا على المسلمين هم شر مكاناً من الذين لعنهم الله وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت وإن كان الكل من اليهود، واذكر بأنهم يتظاهرون بالدخول في الاسلام صباحاً ثم يعودون عنه مساءً ليفتنوا المسلمين، وأنهم في كثير منهم يعجلون بارتكاب الآثام والمعاصي وقد كان حريّاً بعلمائهم أن ينهوهم عن ذلك ولكنهم لم يفعلوا فلعنوا معهم.

واذكر يا محمد بأن اليهود جدّفوا في حقه تعالى عندما قالوا بأن يده (تعالى) مقبوضة عن العطاء فقل لهم يا محمد ألا غُلت أيديكم ولعنتم لأن يداه مفتوحتان بالعطاء بعلمه وحكمته، وأن ما أنزله الله عليه من نعمة الإسلام أو القرآن يزيدهم حقداً وكفراً، وأن الله قد ألقى بينهم سواء كيهود ونصارى أو كطوائف يهودية البغضاء، وأنهم كلما جمعوا واستعدوا للحرب شتتهم الله وقهرهم وأنهم دائمو السعي ضد الإسلام لإبطاله والإفساد في الأرض بمكرهم وخداعهم . .

وذكّرهم يا محمد بأنهم لو آمنوا واتقوا لعفا الله عن سيئاتهم وأدخلهم الجنة، ذلك أن ما أمروا به من العمل بالتوراة والإنجيل دون تحريف ولا تغيير، ومن الإيمان بالقرآن، يؤدي إلى كثرة الأرزاق عليهم وخاصة أن منهم من آمن فدخل في الإسلام أو تجنب الإساءة للمسلمين كما أن منهم من أساء فكان حريَّاً بهم الدخول في الإسلام ككل وعندها يأتيهم الرزق الكثير.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام فتأمره بتبليغ كل ما أنزله الله إليه بإظهاره علناً بعد أن عصمه الله من الناس، وأنه إن لم يفعل ذلك ويكتم شيئاً فإنه لم يبلغ الرسالة، ثم تدعوه ليقول لأهل الكتاب بأن يديموا العمل بالتوراة والإنجيل وما فيهما من الأمر بالإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام، وإن كان ما أنزل إليه من القرآن يزيد الكثير منهم كفراً على كفرهم. .

ثم تذكّره بأن الذين آمنوا بالإسلام والذين آمنوا بصدق بالتوراة دون تحريف ولا كتمان والصابئين والنصارى المؤمنين بالله واليوم الآخر والصالحين في أعمالهم لاخوف عليهم ولا يحزنون في آخرتهم، وهذا إما قبل النسخ وإما بعده ولكن بشرط أنهم كانوا كذلك ثم أصبحوا مسلمين، ويرجح هذا كونهم عملوا الصالحات.

ولا تأسَ يا محمد على بني إسرائيل الذين أرسلنا إليهم الرسل فنقضوا العهود وكذبوا الرسل وكانوا يكذبون بعض الأنبياء ولا يكتفون بتكذيب البعض الآخر بل يقتلونهم أيضاً، وكانوا قد ظنوا أن الله لطول إمهالهم لن يختبرهم بالشدائد ولكنه تعالى

أصابهم بالقحط فعموا وصموا فكشف عنهم القحط إذ تابوا ولكن كثيراً منهم عاد للعمى والصمم عن الحق وكأنهم يظنون أن الله لا يبصر أعمالهم.

وتكمل السورة الإخبار عن أنماط كفر أهل الكتاب وبالذات النصارى منهم وأنهم كفروا بقولهم إن الله هو المسيح ابن مريم، فكيف يكون ذلك والمسيح نفسه يقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، ويقول لهم بأن من يشرك بالله فقد خسر الجنة وانتهى للنار دون نصير ولا معين، وأنهم كفروا كذلك بقولهم بأن الله ثالث ثلاثة هم الأب والابن وروح القدس مما يجعل كل واحد منها إلهاً والله تعالى يقول لهم بأن الله إله واحد لا شريك له، فعليهم أن يكفوا عن القول بالتثليث وإلا وقع بهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وعليهم أن يعجلوا بالتوبة عن مثل هذا الكفر وبطلب المغفرة من الله ليغفر لهم سابق كفرهم، وليعلموا بأن المسيح بن مريم ما هو إلا رسول من رسل الله السابقين وأن أمه صديقه، وأنهما كانا يأكلان الطعام ويخرجان الفضلات، فكيف يكون أحدهما إلهاً والإله غير محتاج لذلك، فليتوقفوا عن مثل هذا القول وليأخذوا بالبينات الناصعات التي يعرضون عنها عناداً وإصراراً!

وقل لهم يا محمد: كيف يعبدون المسيح من دون الله وهو لا يملك لنفسه ـ فكيف لهم ـ ضراً ولانفعاً؟! وقل لأهل الكتاب من يهود ونصارى لا تغلوا في دينكم وتفرطوا في الإقرار بالحق كما فرّط آباؤكم عندما قالوا ما قالوا في عيسى، فلا تتبعوا قولهم لأنهم ضلوا بذلك عن الحق وأضلوا بذلك كل من تبعهم.

وأخبرهم يا محمد بأن الله قد لعن في الزبور والإنجيل من كفروا من بني إسرائيل بسبب عصيانهم واعتدائهم إذ كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر، وكان كثير منهم يناصرون الكفار من المشركين فاستحقوا غضب الله وعذابه الخالد، ولكنهم لو كانوا بدلاً من ذلك يؤمنون بالله وبالنبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وبالقرآن الذي أنزل إليه لما نصروا أولئك المشركين ضد المؤمنين.

ثم تقول السورة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه سيجد اليهود والمشركين أشد الناس عداوة لدينه وأتباعه، و سيجد النصارى أقربهم مودة لهم وذلك لأن منهم قسيسين ورهبانا، علماً وعبادة، وأنهم لا يتكبرون عن سماع الحق والاستجابة له، وهذا ما حصل من بعض من التقوا بالرسول عليه وآله وصحبه السلام، حتى أنهم كانوا ما إن تتلى عليهم آيات القرآن حتى ترى الدموع تملأ عيونهم تأثراً بالحق فيقرون بالإيمان ويرجون أن يكونوا مع أمة محمد عليه وآله وصحبه السلام الذين يشهدون بالحق لأنفسهم وعلى الناس، ويقولون ما لنا تاركين هذا الإيمان بالله وما أنزله من الحق على

محمد ولا نطمع أن نكون مع أمته؟ وأن هؤلاء القائلين قد كافأهم الله على قولهم الحق هذا بالجنات الخالدات بينما الجحيم بانتظار الآخرين الكافرين منهم.

وبعدها تعود السورة لمخاطبة المؤمنين أن لا يحرموا ما أحل الله لهم من الطيبات في المأكل والملبس والنساء، وأن يحذروا تجاوز الحلال إلى الحرام لأن هذا مما يبغضه الله، وأن يأكلوا الحلال الطيب فقط ويخشوا الله في الإفراط حتى لا يصبح أحدهم أسير شهوات نفسه ولا التفريط حتى لا يفقدها ما يعينها على الطاعات، ولا يتبرروا تحريم الطيبات تلك بحلف الأيمان، لأن الله لا يؤاخذ على اللغو في اليمين وإنما يؤاخذ على اليمين المقصودة، وعندها لابد أن يكفّر عن يمينه إذا حنث فيها إما بإطعام عشرة مساكين غداءً وعشاء من أوسط ما يأكل هو وأهله، وإما كسوتهم بما يستر عورة أحدهم، أو تحرير مسلم من الرق أو الأسر، وإذا لم يجد لديه من ذلك شيئاً فليصم ثلاثة أيام وعندها يكفّر عن يمينه والأفضل أن لا يحلف حتى لا يقع تحت هذه التكاليف.

وبعد ذكر الطيبات جاء بالمقابل ذكر الخبائث من المشروبات، فدعا سبحانه المؤمنين للالتزام بعدة أوامر ونواهٍ أن حرم الخمر إذ سواها بالقمار والأصنام والقداح بأنها كلها رجس ومن عمل الشيطان وأن عليهم اجتنابها، وعلق الفلاح على هذا الاجتناب ثم قرر أن في إتيانها تلبية لإرادة الشيطان لإيقاع العداوة والبغض فيما بينهم أفراداً وجماعات، وللصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتهددهم إن لم ينتهوا عن ذلك، ثم أمرهم بطاعة الرسول عليه وآله وصحبه السلام مع طاعته وبالحذر من المخالفة في كل ما أمر ونهى، وتوعدهم إن عصوا الأمر بالعذاب..

ثم بين المولى سبحانه لهم أن من شرب الخمر وتعامل بغيرها من المحرمات قبل أن تحرم فلا إثم عليه إذا اتقى الوقوع فيها بعد تحريمها وآمن بأنها محرمة وثبت على التحريم والإيمان وأحسن في العمل بالتزام الطاعة في ذلك.

واستطراداً للطعام فقد اختبر الله المسلمين في حلهم وفي إحرامهم في بعض الصيد مما كان من صيد البر أثناء الإحرام فقط فحرّم سبحانه كل صيد تصل إليه الأيدي لصغره أو بالرماح وأمثالها من أدوات لكبره من صيد البر أثناء الإحرام وترك غيره حلاً.. فأمر بصريح الأمر بهذا التحريم وأن عقوبة من يفعل ذلك أن يقدم هدياً لمساكين الحرم ما يماثل ما قتله بحكومة عدلين عارفين سواء كان عامداً أو غير عامد، والإطعام إذا اختاره بدلاً من الهدي المماثل أو الصيام فيصوم يوماً مقابل كل مد كان سيطعمه للمساكين، فيجزئه أي من هذه الثلاثة فعله، وعدد المساكين يزيد وينقص تبعاً لكبر

الهدي أو صغره الذي سيأكلونه ويشبعون منه، وأما ما حصل من صيد قبل أمر التحريم فهو معفو عنه، وأما إذا رجع بعد التحريم للصيد فيلزم بالكفارة ويتعرض لشديد العذاب يوم القيامة إذا استحل ذلك. ثم يبين المولى سبحانه أنه أحل أكل صيد البحر وطعامه للمسافر والمقيم بينما حرم فقط صيد البر أثناء الإحرام ويعود حلالاً بعد الإحرام.

ومع ذكر الحرم والإحرام جاء ذكر الكعبة وأن الله تعالى قد جعلها البيت الحرام، وجعلها محل أمن وأمان لمن يلجأ إليها كما جعل الشهر الحرام ملجأ آخر، والشهر الحرام هو اسم جنس للشهور الثلاثة مجتمعة ولرجب منفرداً، كما شرع سبحانه الهدي والقلائد فلا يروّعوها فتتحقق لهم مصالحهم، سواء عندما كانوا كذلك في الجاهلية على كفرهم أو عندما جاءهم الإسلام مع إيمانهم فإنه تعالى عالم بحالهم لطيف بهم..

ثم ذكّرهم سبحانه بأن الرسول محمد عليه وآله وصحبه السلام ليس مكلفاً ابتداءً إلا بالتبليغ لهم ما يأمرهم به الله من أمثال هذا التحريم لبيته وللشهور المعينة، وليس له أن يحقق لهم الهداية والتوفيق رغماً عنهم، فذلك فقط لاختيارهم بعد أن وضع الهدى بين أيديهم، وهو سبحانه عالم بما يظهرونه من قول وفعل وما يخفونه من إيمان وإخلاص عندما يؤمنون أو كفر ونفاق عندما يولون ويعرضون.. ثم خاطب المولى سبحانه رسوله لكي يقول لأمته بأنه لا يمكن أن يتعادل الخبيث أي الحرام مع الطيب أي الحلال مهما كثر الخبيث وصار موضع إعجاب، وهذا ما يدركه أصحاب العقول المطالبون بمخافة الله في طلب الطيب وتجنب الخبيث لكي يتحقق لهم الفلاح.

وتعود السورة لمخاطبة المؤمنين في مواصلة الإشارة إلى الحرم والإحرام بأمرهم أن لا يسألوا عن أشياء تعنّتاً كإصرار من سأل عن الحج فيما إذا كان كل سنة حتى قال له الرسول عليه وآله وصحبه السلام «لا ولو قلت نعم لوجبت» ولأنها لو وجبت لما أطاقها السائل واستاء من الجواب فوقع في الكفر، فالنهي انصبّ على الشيء الذي لا حاجة بهم للسؤال عنه، لأن ما كانت تمس إليه الحاجة مطلوب السؤال عنه، وأن الله قد عفا وترك بيان أشياء لطفاً بعباده فلا حاجة للتنطع بالسؤال عنها ولا سيما أنه حصل أن أقواماً سابقين قد سألوا عن أشياء مثلها فردوها عندما أنزلت فكفروا..

ووصل هذا الأمر بما كان يجري في الجاهلية من تسمية بعض الإبل بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأن ذلك افتراء من الكفار على الله الذي لا يقر من ذلك شيئاً سواء استمر شيء منه في تصرفات المسلمين في أول عهدهم أو انقضى وانتهى بعد ذلك من مثل ما كانوا يفعلونه من عتق العبد كسائبة فحرمه الإسلام وألزم ولاء العبد لمن أعتق وليس لنفسه كسائبة.

وعندما دُعي هؤلاء الكفار للاحتكام إلى ما أنزل الله من قرآن وما عليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام من سنة رفضوا ذلك ورأوا في ما عليه آباؤهم من عادات وتقاليد كافية مع أن أولئك كانوا على غير هدى. .

ثم تخاطب السورة المؤمنين لتحذرهم من التقصير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجميع من حولهم من المسلمين ثم لا يضرهم ضلال المشركين والمنافقين وأهل الكتاب وذلك لأن الكل عائد إلى حساب الله يوم القيامة حين يجدون أخبار ما عملوا من تقصير أو قيام كامل بالواجب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر موضع العقاب أو القبول.

وتربط السورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بآية الوصية فتخاطب المؤمنين بأنه عندما يشعر أحدهم بقرب موته فيمكنه الوصية بشهادة اثنين عدلين من المسلمين، وإذا كانوا في سفر ولم يجدوا مسلماً للشهادة فيمكن إشهاد اثنين من غير المسلمين، وإذا ارتابوا بالشاهدين فيحبسان بعد الصلاة في المسجد مثلاً حيث يقسمان بالله بأنهما صادقان في الشهادة، وأنه لو كان الموصي قريبهما فلن يبيعا ذمتهما لأحد، وإذا تبينتم أن الشاهدين كاذبان أو متهمان فيؤتى بغيرهما إن وجد شهود وإلا من أصحاب التركة، وبذلك يتحقق أدنى ما تكون عليه الشهادة الحق أو رد الشهادة الكاذبة، فعليكم أن تخافوا الله وتسمعوا ما يقال لكم من أحكام الله وتلتزموا طاعته. .

واحذروا في أعمالكم وشهاداتكم يوم القيامة حين يجمع الله الرسل فيسألوا عن دعوتهم لأقوامهم إلى توحيد الله وماذا كانت إجاباتهم فيقولوا بأنهم لا يعلمون غيب صدورهم كما لا يعلمون حقيقة شهاداتهم لا في وصية ولا غيرها، وأن ذلك علمه إلى الله تعالى علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. .

وهنا يبدأ بالسؤال لعيسى بن مريم عليه السلام، فيذكّره تعالى بنعمته عليه وعلى والدته وأنه تعالى أيّده بجبريل عليه السلام، وجعله يكلم الناس وهو طفل في المهد معجزة له وفي الكهولة في النبوة، وصرف بني إسرائيل عنه إذ همّوا بقتله، وعلّمه تعالى قبل ذلك الكتابة والدراية في الأمور كما علمه التوراة والإنجيل، وجعله يخلق من الطين طيراً بإذنه تعالى، ويبرئ الأعمى والأبرص بإذنه تعالى، ويحيي الموتى بإذنه تعالى.

وكيف أن بني إسرائيل رغم كل تلك البينات والمعجزات قد اتهموه بالسحر القوي، وكيف أنه تعالى ألهم تلاميذه الحواريين وأمرهم بأن يؤمنوا به تعالى وبرسوله عيسى وأنهم آمنوا وأقروا على أنفسهم بالخضوع والتسليم لله رب العالمين ولكنهم طلبوا من عيسى عليه السلام أن يدعو الله لينزل عليهم مائدة من السماء إن كان يطيعه في سؤاله

من باب المعاينة لا الخبر، وأنه دعاهم لمخافة الله في كثرة الأسئلة إذا كانوا مؤمنين به حقاً لأن ما جاءهم به من الآيات فيه الغنى وكفاية، وهو بذلك يستثيرهم لأنهم لا يمكن أن يشكّوا في الله وقدرته واستطاعته على كل شيء، فقالوا بأنهم يريدون أن يأكلوا منها فتطمئن قلوبهم على نبوته إذا استجاب الله له فيتأكدوا من صدق نبوته ويشهدوا للآخرين على ذلك. .

وعندها توجه عيسى عليه السلام إلى ربه بالسؤال أن ينزل عليهم المائدة من السماء فيكون يوم نزولها عيداً لهم ولمن يأتي بعدهم، وفي نفس الوقت تكون دلالة وحجة من الله عليهم فيرزقهم بذلك خير الرزق لأنه الغني الحميد، فأنزلها تعالى عليهم ولكن القوم جحدوا وكفروا فعذبهم الله بذلك مما قيل بالمسخ إلى قردة وخنازير مما لم يعذب به أحداً غيرهم، وإن قيل إن ذلك كان بمناسبة أخرى.

وتذكر السورة بعدها مباشرة نموذجاً من كفرهم عندما زعموا أن عيسى وأمه إلهان فسأله تعالى توبيخاً لهم وإبلاغاً في جوابه فيما إذا كان قد قال للناس أن يتخذوه وأمه إلهين فقال بالتنزيه لله عن ذلك وأنه لم يقل ذلك وأنه تعالى يعلم بأنه لم يقل ذلك لأنه مخلوق مربوب فكيف يفتري بذلك على الخالق الرب علّام الغيوب، وأنه عليه السلام لم يقل لهم إلا ما أمر به من أن يعبدوا الله ربه وربهم، وهو عالم بذلك، وأنه تعالى إن يعذبهم فهم عباده وإن يغفر لهم فهو العزيز الحكيم، فأثنى المولى على عيسى لصدقه، وما له بذلك من خالد الجنان وعظيم الرضوان من مالك السموات والأرض وما فيهن، القادر على كل شيء، المنعم على المطيعين.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي
ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ
وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًاۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْۚ
وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ
وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ
وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا

ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾.

فقد بدأت السورة بمخاطبة المؤمنين لدعوتهم بالتزام خمسة أحكام هي: الوفاء بالعقود، وتحليل بهيمة الأنعام، واستثناء ما ورد في الكتاب والسنة، واستثناء حال الإحرام فيما يصاد، وإباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وتشمل العقود جميع المعاملات التي ألزم بها المؤمن نفسه من بيع وشراء وإجارة ومناكحة وطلاق وأمثالها، كما تشمل العقود مع الله من طاعات كالحج والصوم والاعتكاف والنذور وأشباها؛ فهي كما قال ابن عباس تشمل كل ما أحل وما حرم وما فرض وما حد في جميع الأشياء، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «المؤمنون عند شروطهم» ويقول: «كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مئة شرط» مما يتضح معه أن العقد والشرط الواجب الوفاء بهما هما ما وافق كتاب الله وإلا رُدّ، ولذلك قال أيضاً عليه وآله وصحبه السلام «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ».

وبعد الأمر بالوفاء بالعقود خاطبهم بأنه تعالى قد أحل لهم أكل بهيمة الأنعام من إبل وبقر وغنم وأمثالها من ذوات الأربع ولكن مع استثناء ما يذكره القرآن والسنة من المحرمات ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ و«كل ذي ناب من السباع حرام»، وباستثناء حال الإحرام فهو حرام وأما ما لم يكن صيداً فهو حلال في الإحرام وغيره..

والإحرام يشمل الحج والعمرة لأن من دخل في أي منهما حرم على نفسه النساء والطيب وغيرهما. فنبهت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى أن في ذلك نسخاً للمعروف من أحكام العرب في الجاهلية أوجب التزامه من لا معقب لحكمه.

ثم واصلت السورة تخاطب المؤمنين جميعاً بأن لا يتعدوا حدود الله في أمر من الأمور، فلا يستحلوا شعائر الله مما يشمل جميع ما أمر الله به ونهى عنه سواء في

مناسك الحج أو غيرها مما أجازه الجمهور في إشعار الهدي بوضع علامة على سنامه الأيمن كما فعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ولا يستحلوا الشهر الحرام للقتال والغارة ولا بالتبديل والتأخير كما كانت تفعل الجاهلية، ولا يستحلوا الهدي مما أهدي إلى بيت الله تعالى من ناقة أو بقرة أو شاة أو غيرها من الذبائح والصدقات، ولا القلائد مما كان الناس يقلدونه أمنة لهم، بحيث يصبح من قلّد بدنة محرماً عند نية السوق بالإحرام، وإن بعث الهدي ولم يسقه بنفسه فليس بمحرم، وبحيث لا يصح بيع الهدي ولا هبته بعد أن يُقلد أو يُشعر بخلاف الأضحية التي لا تجب إلا بالذبح إلا إذا أوجبها بالنية والقول، وبحيث لا يجوز إخافة من يقصد البيت الحرام من المسلمين لأن الكفار لايجوز لهم قصده ولا الاقتراب منه، وبحيث أن من دخل في الحج ثم أفسده فعليه أن يكمله في سنته ثم يقضيه في السنة التالية.

ثم أمر بالاصطياد بعد التحلل من الإحرام أمر إباحة على أن لايحملهم بغض قوم أن يتعدوا الحق إلى الباطل والعدل إلى الظلم، لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول أيضاً «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك»، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لأنه كما قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «الدال على الخير كفاعله» لأن في البر رضا الناس وفي التقوى رضا الله، ولا تعاونوا على الإثم الناتج عن المعصية، ولا العدوان الناتج عن ظلم الناس.

ثم تورد السورة قائمة بالمحرمات في المأكولات وهي: الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح لغير الله مما مر ذكره في سورة البقرة، والمنخنقة التي تموت خنقاً، والموقوذة التي ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية وذبح، والمتردية التي تتردى من العلو إلى الأسفل فتموت، والنطيحة التي تنطح من شاة أخرى فتموت دون تذكية، وما أكل السبع وهي التي يفترسها ذو ناب وأظفار من الحيوانات كالأسد والنمر والضبع وغيرها، ولا يستثنى من ذلك للأكل إلا ما ذبح قبل موته وإن كان «ذكاة الجنين ذكاة أمه» كما قال عليه وآله وصحبه السلام، على أن تكون الذكاة بكل ما قطع الأوداج وأسال الدم إلا السنّ والعظم، وعلى أن يقطع فيها الحلقوم والودجين، سواء كان الذابح ذكراً أو أنثى، ومسلماً أو كتابياً، ولا فرق في ذلك بين المستوحش من الحيوانات أو الإنسي منها إلا إذا ندَّ وصعب مسكه فيطعن في فخذه أولاً ثم يذبح إذا قُدر عليه، وعلى أن يُحسن الذبح بأن يحد شفرته ولا يعذب ذبيحته.

ثم أضافت السورة إلى المحرمات: وما ذبح على النصب وهي الأصنام أو الحجارة أمامها، وحُرم أيضاً الاستقسام بالأزلام وهي قداح الميسر وكانت ثلاثة أنواع: نوع ثلاثة

قداح يستخدمها الفرد بنفسه كتب عليها افعل ولا تفعل ومهمل، فما خرج منها التزم به، ونوع آخر سبعة قداح في كل منها كتاب فيه نازلة من نوازل الناس، ففي أحدها العقل من الديات، وفي آخر (منكم)، وفي ثالث (من غيركم)، وفي رابع (ملصق)، وفيها أحكام المياه وغير ذلك، وتحفظ في الكعبة عند هبل، ونوع عشرة قداح، سبعة فيها خطوط وثلاثة إغفال، فكانت للعب واللهو وإن قصد به العقلاء إطعام المساكين، وليس من هذا الباب طلب الفأل وكره الطيرة لأن الفأل حسن الظن بالله والطيرة التوكل على غيره.

ثم تقول السورة بأن من يستقسم بالأقداح يقع في الفسق والخروج عن طاعة الله، وتقول بأن كفار مكة قد يئسوا بعد فتح مكة من أن ترجعوا كفاراً إلى دينهم، ولذلك لايجوز الخوف منهم وإنما من الله فقط، وتقول بأن باستكمال هذه الأحكام قد كمل الدين حتى بكى عمر رضي الله عنه عند نزولها لأنه رأى أن ما بعد الكمال إلا النقص أي موت الرسول عليه وآله وصحبه السلام، ثم تقول بأن الله قد أكمل الشرائع والأحكام وأظهر دين الإسلام كما وعدهم بذلك، ولاسيما ببيان جميع مناسك الحج، وأنه تعالى قد أعلمهم برضاه بالإسلام ديناً لهم، وتقول بأن من دعته ضرورة الجوع إلى أكل ميتة أو غيرها من المحرمات المذكورة في الآية من غير ميل لأكل الحرام وإنما للضرورة فقط فذلك جائز ما دام قد يتعرض كله أو عضو منه للهلاك.

وتذكر بعدها السورة جواب سؤال بعضهم وهما عدي بن حاتم وزيد الخيل الذي سماه الرسول عليه وآله وصحبه السلام زيد الخير عندما سألوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام عما يحل لهم من الصيد بالكلاب والبُزاة مما أدركوا أو لم يدركوا ذكاته، فقالت السورة بأن الحلال هو الطيبات من الذبائح المذكاة، وما صادته لهم الكلاب والبزاة المعلمة المدربة على ذلك بشرط أن يذكوا ما لحقوه قبل الموت وأن يقصد عند الإرسال التذكية والإباحة، لقوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل» أي فكل ما أمسكه لكم لقوله عليه وآله وصحبه السلام أيضاً «وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه» وأما لو شرب من دمه لا شيء في ذلك، وأما لو مات الصيد بين كلب معلم وآخر غير معلم فلا يجوز أكله، وكذلك لو مات في أفواه الكلاب من غير جراح، وأما لو وجدت بعد ثلاثة أيام ما رميته بسهمك فكله بشرط «مالم ينتن»، ويستوي الكلب المعلم من مسلم أو كتابي، وفي ذلك جواز اقتناء الكلاب للصيد، كما يجوز اقتناؤها لحراسة البيوت وغيرها ومرافقة الماشية، والمهم أيضاً في صيد الجوارح أن تسمّي عند الإرسال للصيد، وتدعو الآية في نهايتها إلى تقوى الله من باب التوعد على مخالفة أمره ونهيه بالجزاء يوم القيامة.

وتعود السورة لتضيف إلى ما أحل من الطيبات في الطعام طعام أهل الكتاب من الذبائح بالذات ولو قالوا عند الذبح باسم المسيح أو باسم عزير، سمعناها منهم أو لم نسمعها، وأما غير الذبائح فهو حلال دون شك إلا ما استثنى من الخمور مثلاً، وأما غير أهل الكتاب من المجوس وأمثالهم فلا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم، وأما غير الذبائح فجائز، كما هو جائز استخدام آنيتهم في الشرب والطبخ إلا الذهب والفضة وجلد خنزير.

وأضافت السورة إلى الطيبات في الطعام الطيبات في النكاح فذكرت المؤمنات المحصنات والكتابيات المحصنات الذميات لا المحاربات، وإن قيل بجواز المحاربات لعموم الآية، ثم نبهت السورة إلى أن من يكفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فقد خسر عمله في الدنيا والآخرة وذلك بعد أن شددت على أن يكون الزواج بالمحصنات هو المقصود وليس الزنا ولا المخادنة كما يفعل عشاق الحضارة الغربية ودعاتها هذه الأيام.

وبعدها تنقلنا السورة إلى آية الوضوء فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾.

فالآية تضيف رخصة التيمم إلى الوضوء مما يضيف نعمة إلى نعم الله الكثيرة، فإنه متى همّ المسلم بالقيام لأداء الصلاة فعليه أن يتوضأ، مما فهم منه أن لكل صلاة وضوء كما فعل كثيرون من الصحابة، لامن باب الوجوب وإنما الفضل لأنهم رأوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام يجمع العديد من الصلوات في وضوء واحد، وإن قال: «الوضوء على الوضوء نور»، ومعنى الآية إذا قمتم إلى الصلاة مُحدثين فتوضؤوا، وأما إن كان الحدث جنابة، وعدم الماء، فقد وجب التيمم، وإن وجد الماء فقد وجب الغسل. والغسل الواجب في الوضوء لأربعة أعضاء هي الوجه واليدان، وفيها الغسل، والرأس وفيه المسح، والرجلان والراجح فيهما الغسل، وأما غير هذه الأعضاء فهي من النوافل، ولا بد من النية الملازمة للوضوء، والراجح في مسح الرأس التعميم ذهاباً من نهاية

الجبهة إلى نهاية قفا الرأس وإياباً، ولمرة واحدة، وبشرط الموالاة بين الأعضاء والترتيب كما والت ورتبت الآية، وفي الآية المسح على الخفين ليوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليهن للمسافر بشرط أن يلبس خفيه على وضوء؛ والتيمم جائز بالصعيد الطيب إلا إذا تعذر وجوده فيتوضأ بما يتوفر لمن يقبل على الصلاة..

وأما ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فقد روي أن عبد الله بن مسعود قال: القبلة من اللمس، وكل ما دون الجماع لمس، وقال بذلك غيره، لأنه قد ذكر في أول الآية ما يجب على من جامع ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، وإن قال ابن عباس بأن اللمس هو الجماع من باب الكناية. وقيل فيمن لم يجد الماء ولا التراب أن لا يصلي ولا شيء عليه، في قول مالك، ويصلي ويعيد، في قول الشافعي، ولا يصلي ولا يقضي، في قول أبي حنيفة كمالك رضي الله عنهم جميعاً.

وتعود السورة وتذكر بنعم الله تعالى على عباده والميثاق والعهد اللذين أعطوهما للرسول عليه وآله وصحبه السلام ليلة العقبة وتحت الشجرة فتقول:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

ثم تعطف السورة على إتمام النعمة الأمر بالقيام بحق الله عليهم فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

فقد أتم الله عليكم نعمه فعليكم القيام بحقه فاشهدوا بالحق من غير ميل إلى أقاربكم وظلم أعدائكم، وإياكم أن يمنعكم كفر كافر من العدل إليه، وليحرص على التقيد بالقتل أو الاسترقاق دون استخدام المثلة ولو استخدموها هم ما دام في ذلك خير للإسلام ودعوته في الأرض، وكل ذلك راجع إلى ما يراه الإمام لأن في مقابلة الاعتداء

بمثله يتحقق العدل تنفيذاً لأمره تعالى ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾، وأن في التزام الإيمان وصالح الأعمال المغفرة والأجر العظيم فيما وعدهم به. وأما الذين كفروا من أمثال بني النضير خاصة والكفار جميعاً عامة فهم أصحاب الجحيم.

ثم تعود السورة وتذكّر المؤمنين بنعمة أخرى أنعمها الله عليهم سواء عندما كف يد ذاك الأعرابي عندما استل سيف النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في غزوة ذات الرقاع، وهمّ بقتله، وعصمه الله منه، أو عندما منع الله تعالى رسوله من قوم من اليهود جاءهم يستعينهم في دية فهمّوا بقتله.

ثم تبدأ السورة بذكر اليهود من بني إسرائيل وما أخذ الله منهم من ميثاق ووعدهم من وعد إن آمنوا فتقول:

﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

مبينة نقضهم مواثيق الله تعالى، فبعد أن كف الله أيدي بني النضير عن الرسول عليه وآله وصحبه السلام وقد همّوا بقتله فنقضوا بذلك العهد معه جاء ذكر أولئك النقباء من بني إسرائيل الاثني عشر الذين تكفل كل واحد منهم بسبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله، ولكنهم نقضوا العهد، بينما كان هؤلاء النقباء المسلمون الاثنا عشر ليلة بيعة العقبة الكبرى من بين من بايعوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام من السبعين رجلاً ونيف وسماهم بنفس التسمية اقتداء بموسى عليه السلام.

وتواصل الآية قولها بأن الله تعالى قد قال لأولئك النقباء من بني اسرائيل لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي بما فيهم محمد عليه وآله وصحبه السلام الذي تعرفون وصفه عندكم ووقرتموهم وتصدقتم على المحتاجين ابتغاء مرضاة الله ليكفرن عنكم سيئاتكم ويدخلنكم الجنة، وإذا عاد أحدكم وكفر بعد هذا الميثاق فإنه قد أخطأ الطريق السوي واستحق العقاب العادل.

ولم يطل بهم المقام حتى نقضوا الميثاق فلعنهم الله وطردهم من رحمته وجعل

قلوبهم صلبة لا تعي خيراً ولا تفعله، إذ أعرضوا عن سماع الحق والتزامه وأخذوا يحرفون كلام الله تأويلاً وتبديلاً إذ لم يبقوا على صفة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على حالها ولا على آية الرجم ونسوا عهد الله الذي أخذه الأنبياء عليهم من الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وبيان نعته، وخاطبت الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه ما زال يقف على خياناتهم وكذبهم سواء بنقض العهود أو تحريف الكلام، ولم يستثن منهم أحد إلا القليل ممن لم يخونوا، ولكن المولى تعالى أمر رسوله عليه وآله وصحبه السلام أن يعفو عنهم ويصفح لأن بينه وبينهم عهد وهم أهل ذمة.

ثم تنتقل السورة لذكر النصارى من بني إسرائيل، وما طلب الله تعالى منهم، وما وقعوا فيه من الكفر فتقول:

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا
بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ
﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ
مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾
يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ
بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ
ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا
بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ
وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ
رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ
وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾﴾.

مبينة أن الإنجيل مكتوب فيه العهد والميثاق عليهم بالتوحيد والإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ولكنهم لم يعملوا بما أُمروا به وأخذوا بالهوى والتحريف فوقعوا بالكفر إذ أنكروا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته، ونتيجة لذلك الكفر

وتضارب المعتقدات فيما بينهم وقعت العداوة والبغضاء بينهم ولن تنتهي إلى يوم القيامة حين يخبرهم الله العالم بهم بما يفعلونه..

ثم تخاطبهم السورة هم وكل من له كتاب قبل القرآن بأن رسول الله محمد عليه وآله وصحبه السلام قد جاءهم يكشف عما أخفوه من الكتاب من الإيمان به ومن آية الرجم التي أنكروها في حق الزاني المحصن، ومن قصة أصحاب السبت الذي مسخوا قردة ويترك غير ذلك مكتفياً بذكر ما فيه حجة على نبوته ودلالة على صدقه وشهادة برسالته، وأن فيما جاءهم به من الإسلام والقرآن نوراً وضياءً يجد فيهما الطالب رضوان الله الهدى وطريق السلامة الموصلة إلى الجنة، ويخرج بهما من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان والهدى بعد أن وضع الله تعالى بين يديه هذا البيان والهداية وما عليه إلا أن يختار الهدى ويتجنب الضلال..

ثم تذكّرهم بأن من قال منهم بأن الله هو المسيح ابن مريم فقد كفر بهذا القول لأن أحداً لن يستطيع أن يدفع الهلاك عن المسيح ابن مريم وأمه وكل من في الأرض لو أراد الله تعالى أن يوقعه عليهم لأنه سبحانه وتعالى هو مالك السموات الأرض وما بينهما فلا يمنعه مانع لو أراد ذلك وهو القدير على كل شيء، وها قد أمات الله تعالى أمه فهل دفع الموت عنها..

ثم توبخهم السورة لقولهم مجتمعين، اليهود والنصارى، بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم لذلك لا يخافون تحذير المسلمين لهم من عذاب الله، فتنكر عليهم هذا القول بالسؤال من محمد عليه وآله وصحبه السلام لهم عن سبب عذاب الله لهم عندما أذنبوا، فإن اعترفوا بذلك فقد نفوا الزعم بأنهم أحباء الله، ووضح الدليل على كذبهم، وإن أنكروا فقد كذّبوا بما في كتبهم وأباحوا لأنفسهم المعاصي، ولذلك أكد لهم يا محمد بأنهم ليس بأكثر من بشر من مخلوقات الله يغفر لمن أطاع منهم ويعذب من عصى لأنه سبحانه لا يعجزه شيء من ذلك وهو مالك السموات والأرض وما بينهما وإليه يرجع كل شيء يوم القيامة.. فعليهم أن يكفوا عن مثل هذا الزعم الكاذب..

وأخيراً تذكّرهم السورة بأن رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قد جاء بعد انقطاع الرسل بعد عيسى عليه السلام ليبين لهم حتى لا يقولوا يوم القيامة ما جاءنا من رسل تبشرنا وتنذرنا، حتى روي عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وسعد بن عُبادة وعقبة بن وهب قالوا لليهود: يا معشر يهود، اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أن محمداً رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه بصفته، فقالوا: ما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل بعده من بشير ولا نذير، منكرين الحق ومعاندين في الباطل فنزلت هذه الآية تكذبهم.

ثم تعود السورة للحديث عن اليهود من بني إسرائيل وقصتهم مع نبيهم موسى عليه السلام فيما رآه من عنتهم فتقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا
تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ
يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ
عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ
إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

مما يكشف عن تمرد أسلاف يهود المدينة وغيرها على موسى وعصيانهم له، ومما لا يستكثر على أحفادهم ذلك مع محمد عليه وآله وصحبه السلام. وفي هذه الآيات تذكير للمؤمنين بنعمة الله عليهم وبقصة موسى مع اليهود حتى لايكونوا مثلهم، ذلك أن موسى عليه السلام عندما ذكّرهم بنعم الله عليهم ومنها إنقاذهم من فرعون، وجعل فيهم أنبياء لهدايتهم للحق، وجعل أمرهم إليهم بعد أن كان فرعون يملك أمرهم، وآتاهم من العطايا من المن والسلوى والحجر والغمام وغير ذلك مما لم يعطه لغيرهم، ثم دعاهمُ لدخول الأرض المقدسة من مصر إلى فلسطين التي فرض عليهم دخولها وسكناها، وأن لا ينهزموا أمام عدوهم فيها، فماذا فعلوا؟

لقد اعتذروا لموسى عن تلبية طلبه وعصوا أمره بحجة أن سكان فلسطين قوم جبارون ولا يستطيعون قهرهم وأنهم لن يدخلوها حتى يخرج أولئك الجبابرة منها ويسلموها لهم دون قتال، وأنهم رفضوا الاستجابة للرجلين الصالحين منهم بما لديهما من يقين بجانب الله تعالى وأنه ينصرهم عندما يهاجمونهم دون خوف منهم ومن ضخامة أجسامهم، إذ هم في حقيقتهم جبناء أمامهم بما ألقى الله تعالى من رعب في قلوبهم، فأصروا على الرفض بالرغم من التأكيد لهم بأنهم سيغلبون إن بادروا بالدخول عليهم، وأن ما عليهم إلا أن يتوكلوا على الله تعالى الذي ينصرهم إن كانوا مصدقين به بحق وإخلاص. ولم يكتفوا بالرفض لسماع قولهما

حتى قالوا لموسى بأنهم لن يدخلوها مطلقاً ما دام أولئك الجبابرة فيها، وأنهم مصرون على عنادهم ورفضهم للقتال ويأسهم من النصر.

ومع عنادهم وقعوا بالجهل والكفر لقولهم ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ عندما رأوا كأنه سبحانه يتحرك كالبشر، فأمر سبحانه رسوله بأن لا يحزن عليهم لعصيانهم وتمردهم، مما جعل موسى يطلب من ربه أن يفصل بينه وبينهم وقد أصبح لا يملك إلا نفسه وأخيه هارون المعاون له، وأن يقضي المولى سبحانه بينه وبينهم بحيث لا يحشره وأخاه معهم في النار، وأنه تعالى قد استجاب له فعاقبهم بالتيه لمدة أربعين سنة قضوها يدورون حول أنفسهم في صحراء سيناء حتى مات جيل العصاة منهم، وأنه تعالى قد يسر للباقين منهم بعد التيه دخول فلسطين والقدس.

ثم تأتي السورة على التنبيه على ظلم اليهود ونقضهم المواثيق كظلم ابن آدم لأخيه فتقول:

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ
قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ
يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ
أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ
ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ
أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ
كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ
إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

مبينة أن اليهود هؤلاء إن همّوا بقتلك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم..

فدعت الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يذكّرهم بهذه القصة الصادقة توبيخاً لمن خالف الإسلام وتسلية للرسول عليه وآله وصحبه السلام، فقد قدم قابيل حزمة من السنابل كمزارع، واختارها من أردأ زرعه، وقدم هابيل كبشاً كصاحب غنم من أجود غنمه، فتقبل قربان هذا ولم يتقبل ذاك فحسده وهدده بالقتل. بالإضافة إلى أنه كان آدم

عليه السلام يزوج ذكر هذا البطن بأنثى تلك البطن إذ ولدت حواء أربعين في عشرين بطن، فرفض قابيل زوجته وأصر على زوجة أخيه فكان الحسد الذي ازداد اشتعالاً عندما رفض قربانه وعدم الرضى عن عمله. ولكن هابيل رد عليه بأنه إن قصد قتله فلن يرد عليه وإن كان هو أقوى منه، ولأنه كان يخاف الله بينما لم يكن أخوه كذلك، ولذلك قال له بأنه سيتحمل إثم قتله وإثمه الذي عمله قبل قتله له ولم يقبل قربانه بسببه.

وبالفعل قتل أخاه هابيل بعد أن سوّلت له نفسه ذلك وسهّلته بأن كسر رأسه بحجر وهو نائم كما قال ابن عباس وابن مسعود، ولكنه ندم على قتله وقعد يبكي عليه حتى رآى غراباً يدفن آخر بعد أن قتله في التراب ففعل بأخيه مثله بعد أن كان لا يدري كيف يدفنه، وبسبب هذه الجريمة غلّظ الله الأمر على بني إسرائيل فجعله محرماً مشدداً لطغيانهم وسفكهم الدماء، مع أن من كان قبلهم كان القتل محرماً عليهم، ولأنهم أي بني إسرائيل كانوا مفسدين بكثرة القتل في الأرض، وجعل حكم القاتل في جهنم كأنما قتل جميع الناس لأن من استحل قتل الواحد فقد استحل الجميع لأنه أنكر الشرع، وأن حكم من ترك وأنقذ شخصاً كأنه أنقذ كل الناس لأنه التزم طاعة الله.

وتبعاً لذكر القتل والفساد في الأرض جاءت آية المحاربة التي تقول:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ .

مشيرة إلى أن من يقدم على قتل الآخرين أو إخافتهم ونهب أموالهم فإنه يحارب الله ورسوله، مما يجعل عقوبته شديدة، وهذه الآية جاءت بسبب ما فعله العرنيون الذين ارتدوا وقتلوا وسرقوا أو في حق غيرهم ممن خرج من المسلمين يقطع السبيل ويفسد في الأرض، كما رجح مالك والشافعي وغيرهما، وهي تنطبق أيضاً على من فعل ذلك في المدينة أو ضواحيها بحيث يقام على من يشارك في المحاربة الجزاء بقدر مشاركته:

فمن أخاف الناس وأخذ أموالهم قطعت يده ورجله من خلاف، ومن أخذ المال وقتل قطعت يده ورجله ثم صلب، ومن قتل ولم يأخذ مالاً قتل، ومن لم يأخذ مالاً ولا قتل بل شارك في الإخافة فإنه ينفى فقط، كما قال ابن عباس.

والنفي هو الحبس سواء في مكان الحادث أو في سجن بلد آخر، والمال لا يراعى فيه النصاب عند أخذه من المحاربين كما لا يراعى في المقتول الكفء حتى يقتل قاتله، فكل من أفسد وخوف الناس وسلب أموالهم يوقع عليه حد الحرابة، حتى أن القتل يقع على كل المشاركين فيه مهما كان عددهم، ويطارد من أخافوا الناس وقطعوا الطريق حتى ينهزموا فيتركوا إلا من قتل فإنه يقتل، أو سلب فإن سلبه يعاد لصاحبه ويغرمه إن أتلفه. والمسلم والذمي في ذلك سواء..

والإمام هو القائم على تنفيذ الحد، ودم المحارب هدر لإصراره على المحاربة ولم تنفع فيه المناشدة بالله ليكف عن ذلك، إذ بفعله يفسد على الناس طرق كسبهم وتجارتهم إذ أخافهم فتوقفوا عن السعي في الأرض والتجارة. هذا ولا استثناء لأي محارب من العقوبة المناسبة إلا التائب، وذلك قبل أن يقدر عليه إذ أن حق الله يسقط عنه ولا تسقط حقوق الآخرين والقصاص.

ثم تنبه السورة المؤمنين للتقوى في أعمالهم كلها فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾﴾

مذكرة لهم بأن طلب الرزق يجب أن يكون بما يرضي الله من الوسائل المشروعة، وأن يحرص المؤمن على التقرب إلى الله والجهاد في سبيله وعمل كل ما يرضيه لما في ذلك من النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن يتذكر حال الكفار الذين لشدة عذابهم في النار لو أعطيت لهم الأرض وما فيها ليقدموا ذلك فداء لعذابهم لما قبل الله ذلك منهم وأنهم مهما رغبوا في الخروج من عذاب النار فإنهم يقيمون فيه بشكل ثابت لا يزول ولا يحول.

وتبعاً لدعوة السورة لطلب الرزق الحلال فقد جاءت بالحديث عن السرقة وطلبه بالحرام وعقوبة من يفعل ذلك فقالت:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ

﴿ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

مبينة حد السارق إذا وقف عند السرقة ولم يصل إلى الحرابة، وأن سرقته قد بلغت النصاب وهو ربع دينار ذهباً أو أكثر أو ما قيمته كذلك، أو ثلاثة دراهم من الفضة أو قيمتها، ولكن حد السرقة بالقطع لا ينفذ إلا إذا أخرج المال من حرز، وهو ما تحفظ فيه الأموال عادة، وينفذ ذلك في أي عدد اشتركوا في الإخراج من الحرز بشرط أن يكون نصيب كل منهم من السرقة يعادل النصاب فأكثر، وكان لا يمكن إخراجه إلا بالتعاون فيما بينهم، كالنقب مشاركة ثم إخراج المال. والقبر والمسجد لا يعتبران حرزاً على الأرجح إلا إذا كانت سرقة المسجد ليلاً. .

ويغرم السارق ما سرق سواء كان موسراً أو غير موسر، قطع أو لم يقطع، ولكن لا قطع على من سرق من السارق، ويقطع من كرر السرقة.

فالسارق هو من يأتي مستتراً إلى حرز فيأخذ منه مال غيره مما ليس له فيه حق، وإن أخذ من ظاهر فهو مختلس ومستلب ومنتهب ومحترس، وإن تمنع بما في يده فهو غاصب، وليس في ذلك كله قطع، فالقطع في السرقة لاينفذ إلا إذا اجتمعت شروط في السارق، وفي المسروق، وفي موضع السرقة وصفته:

فالسارق يجب أن تتوفر فيه خمسة أوصاف هي: البلوغ، والعقل، وعدم ملكية المسروق منه. كأن يكون عبده، ولا ولاية له عليه. كعبده أيضاً عند العتق، ولا يكون عبداً.

وأما المسروق فيجب أن تتوفر فيه أربعة أوصاف هي: أن يبلغ النصاب أي ربع دينار ذهباً فصاعداً، ويكون مما يتمول ويتملك ويحل بيعه، فلا يكون خمراً ولا خنزيراً ولا مالاً مغتصباً، وألا يكون للسارق فيه ملك كالشركة، وأن يكون مما تصح سرقته كالعبد الصغير.

وأما موضع السرقة ففيه صفة واحدة هو الحرز لمثله.

وعليه فلا قطع على الأبوين إن سرقا من مال ابنهما، ولا الجائع، ولا ذوي المحارم، ولكن يقطع سارق المصحف، وكل ذلك في دار الإسلام، وأما في دار الحرب فلا قطع.

وأما موضع القطع فهو من رسغ اليد اليمنى أولاً ثم مفصل الرجل اليسرى ثم

رسغ اليسرى فمفصل اليمنى فالتعزير والحبس أو القتل وإن قيل لا قطع إلا في اليد اليمنى فقط أو معها الرجل اليسرى في السرقة الثانية وبعدها الحبس.

ولو أخطأ القاطع فقطع الشمال بدلاً من اليمين فقط، فقد أقيم الحد ولا زيادة، وتعلق يد السارق في عنقه لينزجر ويرتدع غيره ويتحقق النكال من الله للتعدي على مال الآخر، وإذا قتل السارق يقطع أولاً ثم يقتل.

وأما العفو عن السارق فلا مجال فيه إلا بالتوبة النصوح بعد القطع لأنه لا يسقط بالتوبة. وأما لماذا بدأت الآية بالسارق دون السارقة، فلأغلبية الحب للمال في الرجل، وأما بالزانية في آية النور دون الزاني فلأغلبية الحب للشهوة في المرأة.

وبالمناسبة فإن قطع اليد في السرقة لأن هناك يداً أخرى بينما لا يقطع الذكر في الزنا لانفراده، ولأن الزجر يتحقق بظهور اليد ولا يتحقق بخفاء الذكر، ولأن النسل يبطل بقطع الذكر بعكس اليد. والحدود تقام على كل من قارف موجب الحد، ولهذا فرق سبحانه بين المحارب والسارق في الحدود، ذلك لأن له سبحانه ملك السموات والأرض فله سبحانه أن يعذب على التعدي فيها بما يشاء ويغفر لمن يشاء ولا معقب لحكمه.

ثم ذكرت السورة ما يفعله اليهود من التلاعب بالحدود وخاصة حد الرجم وتحريفهم ما في كتابهم إنكاراً لذلك فقالت:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ
وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ
يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن
يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ
قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ
أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ
شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ
ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا
ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا
ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ

بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أولاً أن لا يحزنه فعلهم من السرعة في الكفر ممن كان يزعم أنه مؤمن بلسانه، وقلبه في الحقيقة غير مؤمن، من مثل أبي لبابة الذي أرسله النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني قريظة فخانه حين أشار إليهم أنه الذبح. .

كما لا يحزنه تصرف اليهود الذين ينكرون حكم الرجم عندهم، وقد حصل منهم ذلك عندما زنا اثنان منهم، إذ كانوا يقيمون الحد على الضعيف منهم وينكرونه على القوي والشريف، فيلجأون للنبي عليه وآله وصحبه السلام على أمل أن يجدوا غير الرجم، فقد نشدهم الله الإقرار عن حكم التوراة فأقروا بالرجم وإن أنكره بعضهم فقال عليه وآله وصحبه السلام «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه».

وفي هذه الآية دليل إمضاء حكم المحكّم ولاسيما في الأموال والحقوق وأما في الحدود فإلى الحاكم والإمام، ولكن شهادة الكفار وأهل الذمة مردودة على كل مسلم وكافر وإن قبلت عند تعذر وجود المسلم.

وفي ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾ تأنيس للرسول عليه وآله وصحبه السلام لأن الله تعالى وعده بالنصر عليهم سواء اليهود أو المنافقين إذ كانوا يلجأون لسماع كلام الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليكذبوا عليه لا ليعملوا به، ناهيك عن تحريف الكلام وتأويله بغير معناه، فطمأنه تعالى أن هؤلاء السادرين في غيهم لن يعرفوا طريقاً للهدى ولن ينفعهم التذكير، ولهم الخزي في الدنيا بما يلحقهم من فضائح وما يُفرض عليهم من جزية وذل وفي الآخرة بما يستحقونه من عذاب أليم خالد في نار الجحيم.. وما ذلك إلا لأنهم بالإضافة لكفرهم وإنكارهم الحق يكذبون ويصرون على الكذب على الله ويأكلون الحرام إذ يستحلون أموال غيرهم، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به» والسحت هو المال الحرام حتى وصفه الرسول عليه وآله وصحبه السلام لكثرة شيوعه بأنه «الرشوة في الحكم» وذلك لإبطال حق أو لأخذ ما لايجوز. واستند على ما فعله ابن مسعود في الحبشة عندما رشا بدينارين لدفع الظلم عنه فقيل بأنه

لا بأس أن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة وفي ذلك يكون الإثم على القابض دون الدافع.

وفي الآية دليل ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ التخيير إما الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا أو الإعراض عن ذلك إذا كان الحكم بينهم وأما إذا كان الحكم بين مسلم وذمي فيجب الحكم بالإسلام، وإذا كان هناك فساد فلا خيار، وعلى الحاكم الحكم بالإسلام، وهذا كله إذا لم يكن الحاكم ملتزماً بتشريع معين وأما إذا كان كذلك فلا خيار ولا حكم إلا بهذا التشريع المتبنى والملتزم به وذلك عملاً بقوله تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ﴾ كما يقول أبو حنيفة وغيره..

ثم إن ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ تقوي هذا الرأي بأنه لامجال للرد إلى أحكامهم بل تجري عليهم أحكام المسلمين، وعليه فإن القول بالتخيير منسوخ كما يقول أكثر العلماء، وأن حد الزنا حق من حقوق الله تعالى، ومثله كل الحقوق، ولا مجال للحاكم في الاختيار، وإن كان عليه بالعدل في الحكم فلا يميز بين شريف ووضيع في الحدود والحقوق كلها لأن هذا التمييز كان من حكم الجاهلية وليس من حكم الإسلام في شيء.

وعندما تشير السورة إلى النعي عليهم في تحكيم الرسول عليه وآله وصحبه السلام وعندهم حكم الله في التوراة، وأنه الرجم، فإن ذلك كان قبل النسخ وإن كان الحكم هو نفسه في القرآن، ولكن يبقى حكم القرآن هو حكم القرآن، والقرآن كشريعة قد نسخ كل ما سبقه من الشرائع فأصبح ما فيه ناسخاً لما قبله وإن التقى في شيء من الأحكام مع ما في قبله من الشرائع، فهو كل متكامل لا يبقي على بعض الأحكام وينسخ بعضها وإنما ينسخها كلها..

وكذلك عندما تشير إلى أن التوراة قد أنزل الله فيها هدى ونوراً فإن مقتضى النسخ مع الأمر بالتعريف بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم يفرض أن ذلك الهدى والنور قد حل محلهما ما جاء في القرآن مما يشمل البشرية كلها بدلاً من قوم منها ولا سيما أنه من المفروض عليهم أي على أولئك القوم أن يدخلوا في الاسلام ككل كدين وشريعة معاً، وأن ما حكم به الأنبياء منها كان من الحق الذي لم يحرف مما يجب الحكم به عليهم لوقته ولهم فقط، وأنهم كانوا ملزمين بأن يشهدوا شهادة الحق دون خوف من أحد إلا من الله بأنهم مطالبون بالإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام وبالقرآن الذي جاء به بدلاً من التوراة كلها، ثم تحذرهم السورة بأن لا يفرطوا في هذه الشهادة والعمل بها مهما أعطوا من ثمن مقابل ذلك لأن هذا هو الذي كان مطلوباً منهم وهو الحكم بما فيها أي التوراة من أحكام ومنها حكم الرجم في حق الزاني المحصن،

ولأن الملزم به البشر جميعاً هو الحكم بما أنزل الله، وها هو قد أنزل القرآن بدلاً من التوراة فيجب الحكم به، وأي إنكار لذلك هو من الكفر. .

صحيح أن من الأحكام التي فرضها الله على اليهود في التوراة أن القاتل يقتل، وإن ميزوا هم بين نضيري وقرظي، فلا مجال للتمييز ولكنه التحريف والتأويل أوصلهم إلى ذلك، وكان شرعهم في مجال القتل هو إما القصاص أو العفو ولا مجال للدية التي جاءت في الإسلام، وكذلك كان قد فرض عليهم أن العين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن وأما الجروح فلكل منها قصاصه، ولكن ذلك كله هو شريعتهم وشريعة من قبلنا ليس شرعاً لنا كما قال الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وأما شريعة الإسلام في قصاص هذه الأعضاء فعند العمد ذكر القود بأن العضو بالعضو دون عفو، وفي الخطأ فيها الدية الكاملة إذا كان العضو وحيداً كالذكر واللسان، ونصف الدية إذا كان للعضو مثيل كالعين، وتوزع الدية على الأعضاء إذا كثرت كالأصابع والأسنان، وتراعى في كل واقعة حالة العضو من قوة وضعف وتلف.

وكذلك الحال في الجروح فيقاد من جراح العمد وأما الخطأ فالدية وإن كان الجراح في البدن والشجاج في الرأس، والكل فيه الأرش وهي دية العضو، وشجاج الرأس عديدة وهي:

الحارصة التي تشق الجلد، والباضعة التي تشق اللحم، والمتلاحمة التي لم تبلغ السمحاق، والسمحاق قشرة بين اللحم والعظم، والموضحة التي توضح العظم، والهاشمة التي تهشم العظم، والمنقلة التي تكسر العظم وتنقله من مكانه، والآمّة أو المأمومة التي تبلغ أم الرأس أي الدماغ، والدامغة التي تخرق الدماغ.

وفي كل منها أرش يختلف عن الآخر تبعاً لخطورتها، فالموضحة مثلاً فيها خمس من الإبل بينما الهاشمة فيها عشر، وهكذا. وأما جراح البدن فهي خاضعة لاجتهاد القاضي إلا إذا رأى الإمام حكماً فأمر به فيلتزم لأن القاعدة: أمر الإمام يرفع الخلاف. وكذلك الأمر بالنسبة للضرب فهي لاجتهاد القاضي أيضاً. وأما جراحات النساء فعقلها على الراجح نصف الرجال. وأما ما فيه جمال مستقل عن المنفعة ففيه حكومة كالحاجبين وشعر الرأس مثلاً بالإضافة للمنفعة وما نقص منها.

وختام هذا كله أن من عفا عن الأذى الذي وقع عليه كان له أجره العظيم والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول «ما من مسلم يصاب من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة».

وبعد الحديث عن اليهود وألاعيبهم ونسخ تشريعهم جاء الحديث عن النصارى فتقول السورة:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مبينة أن عيسى عليه السلام قد جاء بالإنجيل بعد توراة موسى بما فيه من هدى ونور أيضاً سواء بما يناسب من أحكامه لبني إسرائيل أو بما يدعوهم به من الإيمان بمحمد ورسالته، وجاء مصدقاً للتوراة وآمراً بالعمل بما ورد فيها من أحكام لأن الإنجيل كله مواعظ والأمر بالحكم بما أنزل فيه يفرض الحكم بما في التوراة التي جاء مكملاً لها وآمراً بتنفيذ أحكامها، وأن من لم يحكم منهم بما فيها فهو فاسق ومتجاوز للحق إلى الباطل، وهذا ما وقع فيه اليهود عندما زعموا أن رسولاً لم يبعث بعد موسى وكتاباً لم ينزل بعد التوراة فكفروا بعيسى وإنجيله كما كفروا بمحمد وقرآنه..

والأمر هذا بالحكم بما أنزل الله وإلا كان العاصي لذلك فاسقاً مما ينطبق على المسلمين، فكل حاكم يؤمن بأحكام الإسلام ولكنه يتذرع بأسباب من عنده لعدم تطبيقها في حكمه هو فاسق ما دام لا ينكرها وإن أنكرها كان كافراً وإن كان فسقه ناتجاً عن تهاونه في تطبيقها فقط.

وتواصل السورة الخطاب بعدها لتكمله وتوصله إلى المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتقول:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

مبينة بأن الله تعالى قد أنزل إلى المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

القرآن بما فيه من الأمر الحق، ويصدق بالكتب السابقة التي أنزلها الله على رسله من قبله بأنها من الله ولكنه ليس فقط مصدقاً بنزولها وإنما أيضاً مهيمناً عليها أي مسيطراً عليها أي ناسخاً لها، ولذلك أمره سبحانه أن يحكم بما أنزله عليه في هذا الكتاب ولا يتبع أهواء الآخرين المبعدة عن ذلك، مما ينسخ التخيير في الحكم الوارد في (الآية ٤٢) السابقة، ولاسيما أن شريعة الإسلام هي التي جعلها الله تعالى وأمر بها كخاتمة الشرائع ومهيمنة عليها، مما لا يرد بالطبع القول بأن شرع من قبلنا شرع لنا.

ثم لابد من القول إذا كانت الشرعة الواردة هنا في الآية هي الشريعة، وهذا هو المعنى الآكد، فإن المنهاج هو الطريق المستمر الدائم الثابت في حياة كل أمة، مما يجعل شريعة الاسلام لا غير هي ليس فقط شريعة الأمة الإسلامية وإنما شريعة البشرية جمعاء ما دامت مخاطبة بها ومطالبة باعتناقها والعمل بها، كما يجعل منهاج الإسلام في تطبيق شريعته في الأرض في نظام الإمامة والخلافة هو الطريق الدائم لهذه الأمة وتشريعها وإسلامها، كما هو الطريق في عمل دعوة هذا الدين قبل إيجاد الخلافة في الأرض وبعد إيجادها.. مما يفرض على المسلمين التنبه إلى ذلك والتزامه والعمل به وله..

كيف لا والمولى سبحانه وتعالى هو الذي قضت إرادته وحكمته بقضائه وقدره أن يجعل البشرية أمماً متعددة ومتتالية، وأن يختمها بخاتمة الأمة الإسلامية كما يختم شرائعها ومناهجها بشريعة الإسلام ومنهاجه، وما ذلك إلا ليختبر البشرية في مدى التزامها بطاعته تعالى بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، وأن ما عليهم إلا أن يسارعوا في الطاعات كلها لأنه سبحانه هو الذي سيعودون إليه ليجدوا عنده يوم القيامة سجلاً بأعمال كل منهم..

ثم تأمره عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام مؤكدة الأمر السابق بأن يحكم بين الناس في دار الإسلام بكل ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن والسنة، ولا يتبع هوى أحد منهم في حكم من الأحكام، وليحذر أن يفتنه أحد كائناً من كان ولو عن حكم واحد من أحكام الله المنزلة إليه، وليعلم بأنهم إن أعرضوا وأبوا حكمه فإن الله تعالى سيصيبهم بما تستحق بعض ذنوبهم من العذاب، من جلاء عن ديارهم وجزية وقتل..

وهذا بالفعل ما حل باليهود حول المدينة وفي بقية أرجاء الجزيرة، وكأن البعض كاف في تدميرهم. وطمأنه أيضاً لكي لا ينزعج إذا لم يستجيبوا لحكمه ويدخلوا في دينه بأن أعلمه بأن الكثير من أولئك اليهود فاسقون خارجون عن الطاعة..

وتساءلت السورة بعدها مستنكرة عليهم وعلى أمثالهم عن سبب رفض حكم الله

فيهم وعليهم: أيريدون حكم الجاهلية الذي كانوا فيه يميزون بين الشريف والحقير، ويقيمون الحدود على الضعفاء دون الأقوياء الأغنياء؟! وهل من حكم أحسن من حكم الله عند قوم يوقنون بالإيمان والرضى بما أمر الرحمن؟!

ثم تعطف السورة على تطبيق شريعة الله في الأرض على الناس جميعاً بتحديد علاقة المسلمين بأهل الكتاب فتقول:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥١) فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا
دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ (٥٢)
وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ
خَٰسِرِينَ (٥٣) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ
وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ
(٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ (٥٦) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ
ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (٥٧)
وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ (٥٨)﴾ ۞

مبينة لمن يكون الولاء والمناصرة والتأييد والدعم، وآمرة المسلمين أن يتجنبوا اتخاذ أحد من اليهود والنصارى ولياً، ومحذرة بالذات أولئك المؤمنين في الظاهر، والذين كانوا يوالون المشركين وينقلون إليهم أسرار المسلمين من أمثال أبي لبابة وأبي ابن سلول من مثل تلك الموالاة لأن المشركين موالون بعضهم لبعض ولا يواليهم إلا من كان منهم، كما كان حال أبي خاصة، وأن مثل هذا الحكم يحرم الموالاة والمساندة لهم ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هـود: ١١٣] ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [آل عمران: ٢٨] و﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١١٨].. وموضحة أن أولئك المنافقين هم فقط الذين يبادرون إلى موالاتهم ومعاونتهم بحجة الخوف أن يصيبهم قحط فلا يبيعون لهم الطعام أو يُهزم المسلمون..

فاطمئن يا محمد وأكد لهم بأن الدائرة ستدور على الكفار لا على المسلمين وستفتح البلاد عليهم، وقل لهم بأنهم إن استمروا في معاضدة الكافرين سينتهي بهم

الأمر إلى الندم والحسرة، وعندها سيقول المؤمنون عنهم بأنهم الذين حاولوا بإكثار الأيمان والحلف أن يثبتوا بأنهم معهم وهم كاذبون في قولهم وخسروا أعمالهم وأنفسهم بموالاتهم اليهود، وهذا ما حصل إذ لم تحصل لهم أية ثمرة من تلك الموالاة بعد أن قتل اليهود وأجلوا..

وتشدد السورة على المؤمنين بأن يحذروا الردة سواء بموالاة الكفار أو الاستجابة لنوازع الشرك القديمة عند بعضهم، وهذا من الإعجاز بذكر خبر الردة التي كانت غيباً في ذلك الوقت، والتي وقعت في عهد الصديق رضي الله عنه، فتحذرهم السورة من الردة عن الإسلام وإلا فإن الله يأتي بقوم بدلاً منهم يحبهم الله ويحبونه..

وقد حصل أن كان لقبائل اليمن من الأشعريين الدور الكاسح في الفتوح وخاصة في زمن عمر رضي الله عنه بعد أن كان لهم دور كبير في زمن الرسول عليه وآله وصحبه السلام، وأنه عليه وآله وصحبه السلام برواية الحاكم في المستدرك قد أشار إليهم عندما نزلت هذه الآية قال «هم قوم هذا» أبي موسى الأشعري.. وتكون من صفتهم الرأفة بالمؤمنين والغلظة على الكافرين والجهاد الذي لا يلين في سبيل الله دون خوف من لوم، كما كان حال المنافقين، وأن ذلك من فضل الله عليهم الذي يحيط بكل من يستحقه من خلقه وفقاً لعلمه سبحانه..

وتواصل السورة التأكيد على المؤمنين بأن وليهم الله تعالى ورسوله والمؤمنين المصلين المزكين حتى أثناء صلاتهم فلا ينزعجوا لمقاطعة أهلهم لهم لإسلامهم، كما حصل مع عبد الله بن سلام بعدما أسلم، وبعد ديارهم، ويكفيهم هذه الأخوة الصادقة التي تربطهم بالمسلمين من حولهم والذين تجد منهم من يتطوع بصدقته كعلي بن أبي طالب وهو راكع في صلاته..

ثم تعطف حصر الولاء ذاك بالتأكيد بأن مثل هذا الولاء لله ورسوله والمؤمنين يشكل منهم حزباً واحداً هو حزب الله الذي لا يغلب، وتنهى المؤمنين عن اتخاذ أي من اليهود والمشركين الذين كانوا يضحكون من المسلمين وقت سجودهم أولياء لأنهم كانوا يعلنون ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ حتى أن الرسول عليه وآله وصحبه السلام منفذاً لهذا الأمر قد قال «إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين» عندما جاءه قوم من اليهود وعرضوا عليه المناصرة يوم أحد..

وتبين للمسلمين جانباً آخر مما كان اليهود يفعلونه في سخريتهم بأنهم كانوا إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، ويأخذون في

الضحك من المسلمين إذا ركعوا وإذا سجدوا، وزعموا بأنهم لم يسمعوا بالأذان في الأمم السابقة، وأنه صياح العير! وما ذلك إلا لعنادهم ونقص عقولهم المصرة على الباطل رغم معرفتهم بالحق..

هذا وقد فرض الأذان في المدينة بعد الهجرة، والراجح أنه والإقامة سنة مؤكدة لا فرض وإن كان يشكل العلامة المميزة بين دار الاسلام ودار الكفر، وأما صيغته فقد ورد بصيغ متعددة كلها جائزة، فهو تكبير وشهادتان والدعوة للصلاة والفلاح وإعادة التكبير والتوحيد مع تكرار ذلك مثنى أو أربع مرات، مع التثويب بـ (الصلاة خير من النوم) في صلاة الصبح بعد الدعوة إلى الفلاح، وأن وقت الأذان بعد دخول وقت الصلاة، ولا مانع من تعدد المؤذنين والمقيمين، ومن الترسل في الأذان..

ويستحب ترديده لمن يسمعه إلا أن يقول بالحوقلة أي لا حول ولا قوة إلا بالله عند الدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح والباقي يرددها مثلها، وأن من يفعل ذلك من قلبه يدخل الجنة كما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وأن للمؤذنين أجراً عظيماً «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»، ويجوز أخذ الأجرة على الأذان بغض النظر من بيت المال أو من سهم النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وتعود السورة لتوبيخ أهل الكتاب لحقدهم على المسلمين ودوام مكرهم ضدهم فتقول:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ
وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد
دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ
وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ
ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا
قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا
بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ليسأل اليهود مستنكراً ما يفعلونه من حقد ضد المسلمين سواء بإنكارهم الأذان أو غيره إذ جحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام، فيستنكر عليهم سخطهم لإيمان الرسول وصحبه بالله وبما أنزل عليهم من القرآن وبما أنزل من قبل من الكتب السابقة كلها وهم يعلمون أن المسلمين على الحق وأنهم هم أنفسهم فاسقون بتركهم مثل هذا الإيمان..

وعادت السورة وأمرت الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يرد عليهم تجديفهم: ما نعرف ديناً شراً من دينكم، بأن الأشر مما تقذفوننا به من سباب لنا ولديننا هو ما حصل من لعنة الله على أولئك الذين غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وخدم الطاغوت، وأن أولئك مكانهم النار وأبعد الناس عن طريق الحق، ولذلك كانوا إذا قال لهم المسلمون: يا إخوة القردة والخنازير، نكّسوا رؤوسهم خزياً.

ثم تذكّر السورة المؤمنين ببعض مكرهم عندما كانوا يتظاهرون بالإيمان في الصبح ويكفرون إذا رجعوا لبيوتهم في المساء، وكأنهم في كتمانهم لذلك كله يخفون على الله تعالى! وتذكّر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما كانوا يفعلونه أيضاً عندما يبادرون لعمل كل مأثم وظلم ومعصية، وكم كان حريّاً بالعلماء منهم من الربانيين والأحبار أن ينهوهم عن ذلك مما فيه توبيخ للعلماء في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما مر سابقاً.

ثم تخبر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين بقول اليهود من أمثال فنحاص بن عازوراء بأن الله تعالى بخيل ويده مقبوضة عنهم في العطاء، فردت مقولتهم عليهم بأن أيديهم غلت في الآخرة بعد الدنيا، وأنهم أهل للعن بقولهم هذا، وإنما يداه سبحانه أي نعمته مبسوطة لأن نعمه لا تعد ولا تحصى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وأنه تعالى يعلم أن حقدهم الذي أعماهم عن الحق سيجعلهم يزدادون كفراً على كفر كلما نزل جديد على رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ويزداد ما بينهم من العداوة والبغضاء، والتشتيت في الأرض، والقهر وتوهين الأمر كلما تجمعوا للحرب ضد الرسول عليه وآله وصحبه السلام، والمسلمين من بعده، وإن كان تجمعهم يوفر لهم القوة والغطرسة التي ليست بأكثرمن وسيلة لمزيد من السعي للفساد في الأرض. وما يجري في فلسطين هذه الأيام لأكبر

دليل، وأنه تعالى لا يحبهم لأنهم مفسدون فكيف ينتصرون على المسلمين لولا تخاذل هؤلاء؟!

ثم تحثهم السورة على الإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وعلى تجنب الشرك والمعاصي وعندها سيجدون رحمة الله تطالهم فيكفّر عنهم ما مضى من سوء أعمالهم ونواياهم ويدخلهم جنات النعيم، وكذلك تحثهم على تنفيذ ما في التوراة والإنجيل من أمر لهم بالإيمان بمحمد وبالإسلام وعندها ستفيض عليهم أرزاق الله من السماء والأرض، كيف لا ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ من أمثال النجاشي وسلمان وعبد الله بن سلام الذين آمنوا وحسن إسلامهم، والذين اقتصدوا في القول في عيسى ومحمد عليهما السلام إلا بما يليق بهما، كما أن منهم من اقتصد في أفعاله فلم يقدم على إيذاء المسلمين كغيرهم، ولكن هؤلاء جميعاً قلة بجانب الكثرة التي ما أسوأ ما يعملونه من تكذيب الرسل وتحريف الكتب وأكل السحت.

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بخطاب آخر يتصل بتبليغ ما أنزل إليه مهما أحاطه اليهود والنصارى من مكر فتقول:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ

ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ
ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ
كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ
دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن
مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ
كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ
فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا
وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا
عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ .

داعية له عليه وآله وصحبه السلام أن يبلغ كل ما أنزل إليه من ربه من كتاب وسنة، وأن لايكتم شيئاً من أمر شريعته، وأن يطمئن أن الله يحميه من كل خطر من المحتمل أن يتعرض له من اليهود والنصارى وغيرهم، وليطمئن لأن هؤلاء الكائدين لن يصلوا إليه، ثم أمرته أن يصارح أولئك من أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء من الحق ما داموا لا ينفذون ما في التوراة والإنجيل وما أمروا به من الله في القرآن من وجوب الإيمان بمحمد ورسالته، وأنهم بكفرهم بذلك يزدادون كفراً على كفر، وأن عليه، عليه وآله وصحبه السلام أن لا يحزن على كفرهم ما دام المأمور به التبليغ وليس الهداية لهم ولا لغيرهم. ثم تخبره عليه وآله وصحبه السلام كما تخبر كل أتباعه إلى يوم الدين بمن لا خوف عليهم ولا يحزنون لا في الدنيا ولا في الآخرة وأنهم أولئك الذين آمنوا بالله ورسوله وكتابه القرآن، ومعهم كل من فعل ذلك من اليهود والنصارى والصابئين بحيث

أنهم جميعاً اشتركوا في الإيمان بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات مما يشمل كل أمر ونهي لله تعالى.

ثم أخبر المولى سبحانه رسوله بأنه قد أخذ من بني إسرائيل العهد على أن لا يعبدوا إلا الله ويلتزموا بكل ما يتصل بذلك، وأنه لا يأسى عليهم لأن الله قد أعذر إليهم وأرسل الرسل فنقضوا العهد حتى أنهم كلما جاءهم رسول يلزمهم من الأعمال والأمور ما يخالف هواهم انقسموا إلى قسمين:

قسم منهم كذب الرسل والقسم الآخر قتلهم، وممن كذبوهم عيسى وأمثاله من الأنبياء، وممن قتلوهم زكريا ويحيى وغيرهما من الأنبياء، وقد ظن هؤلاء الذين أخذ عليهم الميثاق أنه لايقع عليهم من الله ابتلاء واختبار بالشدائد اغتراراً بزعمهم بأنهم أبناء الّله وأحباؤه، كما غرهم طول الإمهال فعموا عن الهدى واتباعه وصموا عن سماع الحق لأنهم لم ينتفعوا بما رأوه وسمعوه، ثم تاب الله عليهم بعد أن تابوا تبعاً لابتلائهم بالقحط، ثم عمي كثير منهم وصم بعد أن تبين الحق لهم بمحمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام وكأنهم يظنون أن الله لا يبصر أعمالهم!

ثم تخبر السورة رسوله عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه بأن الذين قالوا بأن الله هو المسيح بن مريم من النصارى كفار بقولهم هذا وهم اليعقوبية، وأن حجتهم بذلك باطلة لأن المسيح نفسه قد قال لهم أن اعبدوا الله ربي وربكم فكيف يكون هو الله وكيف يسأل نفسه؟ وقال لهم بأن من يشرك بالله فيرى معه خالقاً آخر فقد ضاعت منه الجنة، وانتهى إلى النار الخالدة ولن يجد معيناً ولا نصيراً.

وتواصل السورة بيان الكفر الذي وقعت فيه جماعة أخرى من النصارى وهم النسطورية من قولهم بأن الله ثالث ثلاثة وهم على زعمهم الأب والابن وروح القدس الذين يزعمون أنهم إله واحد، فكيف يكون الثلاثة واحداً؟! وإذا كانوا يتهربون من القول بثلاثة آلهة، وهو معنى مذهبهم، فلن يجديهم ذلك نفعاً لأن العبارة لازمة لهم والتي حقيقتها أن الابن إله والأب إله وروح القدس إله، والله تعالى يرد عليهم بأنه لا إله إلا إله واحد، وأنهم إن لم يكفوا عن مثل هذا القول بالتثليث ليحل بهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة، فعليهم أن يتوبوا عن قولهم هذا ويسألوا الله المغفرة ليجدوه سبحانه بمغفرته ورحمته.

وليعلموا هم والبشرية جمعاء أن المسيح بن مريم ما هو إلا رسول من رسل الله، وأن كل ما ظهر على يديه من الآيات فإنما جاء بها كما جاء بها الرسل، ولو كان إلهاً لكان كل رسول من أولئك إلهاً أيضاً، ثم إنه وأمه الصادقة مع الله في كل شيء من عباد

الله الذين كانوا يأكلون الطعام كسائر المخلوقات فكيف يكون أمثالهم رباً؟! ولو جاز قولهم بأنه كان يأكل بناسوته لا بلاهوته لاختلط اللاهوت بالمحدث، وهذا محال لاستحالة الجمع بين المطلق في ذاته وصفاته وبين المقيد فيهما، وإن في مثل هذه الدلالات والحجج ما يدحض افتراءاتهم فكيف يتركون الحق إلى الباطل؟!

فقل لهم يا محمد كيف تعبدون مالا يملك لنفسه ولا لكم الضر والنفع، لأنه كان جنيناً في بطن أمه بإقرارهم، ومر بحال لم يكن يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر، فكيف يتخذونه إلهاً؟! وليعلموا أن الله تعالى هو السميع العليم والمالك للضر والنفع وبالتالي فهو وحده الإله..

وقل لهم يا محمد بأن يتوقفوا عن الغلو في دينهم، فلا يطعن اليهود بعيسى ولا يصفه النصارى بغير عبد الله ورسوله، وليكفوا عن اتباع الهوى المؤدي بهم إلى النار لأنهم بهذا قد ضلوا وأضلوا كثيراً من الناس وضلوا عن سبق إصرار عن الإيمان بمحمد عليه وآله وصحبه السلام..

وأعلمهم يا محمد بأن الكفار من بني إسرائيل قد لعنهم داود كما لعنهم عيسى في الزبور والإنجيل، بعد أن أصروا على إنكار محمد ورسالته وعصيان أمر رسولهم واعتداءاتهم، فكانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن ارتكاب المنكر حتى ما يكاد ينهاه اليوم لينسى ذلك غداً ويصبح أكيله وشريبه وقعيده..

ثم تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليرى كيف يناصر الكثير منهم الكفار والمشركين وهم ليسوا على دينهم ضد المسلمين، الأمر الذي يوقعهم في سخط الله وعذابه الشديد، وأنهم لو كانوا يؤمنون بالله والنبي والقرآن الذي أنزل إليه لما اتخذوا أولئك الكفار أولياء لأنهم بولايتهم لهم وقعوا في الكفر إذا اعتقدوا معتقداتهم ورضوا عن أفعالهم.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام من جديد مؤكدة له بأن أشد الناس عداءً للمؤمنين هم اليهود والمشركين من كفار قريش وأمثالهم، وأن أقربهم مودة للمؤمنين هم النصارى لأن منهم قسيسين ورهباناً كانوا على الحق مما جاء به عيسى فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم آمنوا به فأثنى الله عليهم بأنهم لا يستكبرون عن الانقياد إلى الحق، وأنهم تفيض أعينهم من الدمع تأثراً بما يسمعونه من الرسول من الحق فيقولون ضارعين إلى الله أنهم آمنوا مع أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين يشهدون بالحق، ويقولون كيف لايؤمنون وهم يطمعون أن يدخلهم الله مع أمة محمد

صلى الله عليه وآله وسلم، وأنهم كافأهم ربهم جزاء ذلك كله بأن يدخلهم جنات المحسنين بينما يدخل الكفار المكذبين بالنقيض عنهم عذاب الجحيم.

وتنقلنا بعدها السورة إلى مخاطبة المؤمنين ودعوتهم لعدم تحريم الطيبات عليهم بالرهبنة والتبتل فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾

مبينة للمؤمنين بأنه لا يجوز لهم أن يحرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم من الطيبات من مأكل أو ملبس أو مشرب بحيث لا يتزوجون النساء ولا يأكلون اللحم ويواصلون الصوم أو أن يتبتلوا كما رغب عثمان بن مظعون فنهاه النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم..

وقال عليه وآله وصحبه السلام لمن أراد أن ينقطع عن الدنيا «إني لم أبعث باليهودية ولا النصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة، والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، ولمقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة» مما يمنع المتزهدين من مغالاتهم والمتصوفين من بطالتهم، فلا تشدد يحرم الحلال ولا ترخص يحل الحرام.

ثم أمرتهم السورة بأن يأكلوا مما رزقهم الله تعالى من الحلال الطيب وأن يخشوا الله بالتزام طاعته لا بمخالفته، وليحذروا أن يعتذروا لذلك بالحلف لأن اليمين لا يتعلق بها تحريم الحلال الذي يعتبر لغواً، والله تعالى لا يؤاخذ على اللغو في الحلف.

والأيمان في نظر الشريعة أربعة أقسام:

قسمان فيهما كفارة، كأن يحلف والله لا أفعل كذا وكذا فيفعل، ويحلف والله لأفعلن كذا وكذا فلا يفعل وهذه هي اليمين المنعقدة، وقسمان لا كفارة فيهما كأن يحلف والله ما فعلت كذا وكذا وقد فعل، وكأن يحلف لقد فعلت كذا وكذا ولم يفعله وهذه هي اليمين الغموس.

وأما يمين اللغو المجمع عليه فهو قول الرجل في حديثه: لا والله، بلى والله غير

قاصد اليمين أو عند اللجاج والغضب والعجلة، وأما إذا قصد وعقد اليمين فيحاسب عليه إذا لم ينفذه، والأخطر منها اليمين الغموس، أي التي تغمس صاحبها في النار والتي لا كفارة لها إلا التوبة، فهي يمين مكر وخديعة وكذب، والجمهور يرى أنها لاتنعقد ولا كفارة فيها وإن رآها الشافعي عكس ذلك وهي التي عرفها الرسول عليه وآله وصحبه السلام بقوله «التي يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها كاذب».

ولابد أن يكون الحلف بالله تعالى أو أسمائه الحسنى كالرحمن والرحيم والسميع والعليم، أو صفاته العلى كعزته وقدرته وعلمه وعظمته. وكذلك لو حلف بالقرآن وحنث فعليه كفارة، وأما الحلف بالآباء والأجداد فمنهي عنه إذ قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»، ومن حلف بصنم أو محرم فليذكر الله أو يتصدق، ومن وصف نفسه في الحلف بالكفر كأن يقول: هو يهودي أو بريء من الإسلام أو مشرك بالله فعليه أن يكفر عن يمينه.

وإن أقسم على شخص أن يفعل فعلاً ما فعليه الكفارة إذا لم يفعل وقصد اليمين وأما إذا قصد السؤال فلا شيء عليه.

واليمين إذا انعقدت تحلها إما الكفارة وإما الاستثناء بإن شاء الله بشرط أن يتصل بمجلس اليمين وإن قيل غير ذلك، والكفارة لا تطلب في جميع الأحوال إلا بعد الحنث في اليمين وإن قيل بجوازها قبله، والمطلوب في الكفارة التخيير بين الإطعام العشرة مساكين من طعام أهله بمقدار غداء وعشاء، أو كسوة العشرة مثل كسوة أهله، ولا تجزئ قيمة الطعام والكسوة كما قال الشافعي وتجزئ كما قال أبو حنيفة، وبشرط أن يكون المساكين مسلمين لامن الذمة. والاختيار الثالث تحرير رقبة من العبودية أو الأسر أو متاعب الدنيا ومشقاتها بشرط أن تكون الرقبة مؤمنة، وليحرص الحالف أن يخرج كفارته قبل أن يقع في العسر، وليذكر حديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «من حلف على يمين فرآى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير» أي أكثر خيراً كما يذكر قوله عليه وآله وصحبه السلام «اليمين على نية المستحلف» أو «يمينك على ما يصدقك عليه صاحبك».. وإذا لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة: الإطعام أو الكسوة أو العتق فعليه بالصوم لمدة ثلاثة أيام سواء متتابعات، وهو الأولى، أو متفرقات.

وتنقلنا السورة بعدها لأمر المؤمنين باجتناب المنكرات الشنيعات وليس مجرد الحلف وكفارته فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٩٢ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٣﴾.

موضحة أن الخمر قد حرمت وذلك في السنة الثالثة بعد وقعة أحد، وبعد أن جرت التهيئة لهذا التحريم بالآيات ﴿وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩] و﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، فجاء التحريم بهذه الصيغة حتى قال بعضهم: ما حرم الله شيئاً أشد من الخمر إذ وضعت على رأس أشد المنكرات من قمار وأصنام وقداح، ووصفت بأنها رجس نجس، وأنها من عمل الشيطان، وأمروا ليس فقط بعدم شربها بل حتى بالاقتراب منها، وعلق الفلاح على ذلك، وربط بينها وبين القمار في عمل الشيطان بإيقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين، وفي الصد عن ذكر الله وطاعته، وفي البعد والانشغال عن الصلاة وهي عماد الدين، وفي التهديد إذا لم ينتهوا عن ذلك، وفي الأمر بطاعة الله الآمر بذلك وطاعة رسوله المبلغ للأمر، وفي التحذير من الإقدام على ذلك..

فهل صدر حكم بهذا القدر من الحيثيات؟! وكيف بعد ذلك يجرؤ مسلم على مجرد التفكير بتناولها؟! ووصفها بأنها رجس حكم بنجاستها في عينها فلا يجوز الانتفاع بها بأي حال من الأحوال لا في بيع ولا شراء ولا في تخليل وإن جاز استخدامها لدفع خطر الغصة عند الضرورة..

وأما ما يلحق من شربها أو تعامل بها قبل التحريم ولو مات على ذلك فلا شيء لأنها كانت مباحة. والخمر ما أسكر كثيره فقليله حرام، وهي كل ما خامر العقل سواء من العنب أو الشعير أو غيرهما أو مهما أطلق عليها من أسماء.

فعلى المؤمنين أن يتقوا شربها، ويؤمنوا بتحريمها، ويستمروا على هذا الاتقاء والإيمان، ويحسنوا فيهما وعندها يكونون ممن يحب الله من المطيعين المحسنين في طاعتهم.

وتنقلنا السورة بالخطاب للمؤمنين إلى تكليف آخر في مجال الطعام والشراب ألا وهو مجال الصيد فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٩٦﴾ .

مشيرة إلى أن الله تعالى قد ابتلى المسلمين في الصيد مع الإحرام كما ابتلى اليهود بعدم الصيد يوم السبت، ولكن الخطاب جاء في هذه الآية لجميع الناس محلهم ومحرمهم، وأن التكليف قد جاء بصيد البر خاصة، وأنه شمل ما تصل إليه الأيدي دون آلة كالفراخ والبيض، وما يحتاج إلى آلة للصيد كالرماح في السابق وإطلاق الرصاص في الحاضر، وخصت السيارة بالذكر لأنها الأكثر تصرفاً في ذلك سواء بصنع الفخاخ والشباك أو باستعمال الأدوات. .

وأما حكم ما يقع في الفخ والشباك فلصاحبها وإذا أثاره شخص آخر فهو شريكه؛ والآية التالية تخاطب عموم المسلمين من ذكور وإناث أن لا يقتلوا الصيد في الإحرام، وأن من يفعل ذلك فعليه الجزاء بمثله ما دام متعمداً، وقد جاء لفظ الصيد هنا شاملاً للبري والبحري حتى جاءت الآية التالية تحرم البري فقط وتبيح البحري بشكل مطلق، ولكن مع استثناء كل ما يعتدي على الإنسان من الحيات والعقارب والفئران والغربان والحدآت حتى سماهن الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالفواسق إذ قال «خمس فواسق يُقتلن في الحل والحرم الحية والغراب الأبقع والفأرة والكلب العقور والحديا» وأما ما لا يعدو على الإنسان من السباع من الهر والثعلب والضبع وما أشبهها فلا يقتله المحرم.

والحرم يشمل حرم مكة وحرم المدينة لقوله عليه وآله وصحبه السلام «اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإني أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ومثله معه لا يختلى خلاها ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها».

والمهم أن يقصد القاتل الصيد مع العلم بالإحرام، و أما المخطئ الذي يقصد شيئاً فيصيب صيداً، والناسي الذي يتعمد الصيد ولا يذكر إحرامه فلا جزاء عليهما وإن قيل إن السنة توجب عليهما الجزاء لا يستثنى منه المخطئ والناسي وهو الأرجح. والجزاء مرتبط بكل قتل.

وأما الجزاء بالمثل فمنوط بأهل الخبرة فيحكم به عدلان من المسلمين، وهو إما من الدواب أو الطير، فمن قتل نعامة مثلاً كانت البدنة جزاءه، ومن قتل حمار الوحش أو بقرة الوحش كان جزاؤه بقرة، وفي الحمام كله قيمته إلا حمام مكة ففي الحمامة منه شاة، وأما في حمام الحل حكومة أي تحكيم الخبراء في ذلك، وأما مالا مثل له كالعصافير والفيلة فقيمة لحمه أو عدله من الطعام، والحكمان لابد أن يكونا اثنين فإذا حكما متفقين لزم الحكم وإن اختلفا لايلزم، ولا يجوز أن يكون الجاني أحد الحكمين، وإذا اشترك جماعة محرمون في قتل صيد فعليهم كلهم كفارة واحدة على الراجح كما روي عن ابن عباس، وكذلك لو قتله محلون في الحرم.

والكفارة بإطعام المساكين تجري عن الصيد نفسه فيقوّم وينظر في ثمنه من الطعام ويقدم للعدد الذي يأكل ما يشتري من الطعام، فلو قتل المحرم ظبياً فعليه كفارة شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام؛ وإن قتل أيلاً فعليه بقرة، وإلا أطعم عشرين مسكيناً، وإلا صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة فعليه بدنة، وإلا فإطعام ثلاثين مسكيناً، وإلا صام ثلاثين يوماً.. وهكذا.. والمهم أن القاتل تلزمه القيمة يوم الإتلاف أو القتل بحيث تقدر في ذلك اليوم وليس بعده على الراجح. وأما الهدي فلابد أن يكون في مكة ولمساكين الحرم..

وتنهي السورة هذه الآيات بتحليل صيد البحر من أسماك وحيتان وغيرهما، وطعامه من مائه وأعشابه وكل ما يقذفه ويطفو عليه. ولكن لا يؤكل السمك الطافي وخاصة إذا كان منتناً، وأما لمجرد موته فيؤكل لحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» عن البحر. وكذلك ما يشترك من الحيوان في حياة البر والبحر فيؤخذ بالأكثر منهما. وطعام البحر هذا حل للمسافر والمقيم إذ أكله أبو عبيدة ومن معه وهم مسافرون، وأكله النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وهو مقيم..

وتكمل السورة هذه الآية التي بدأت بتحليل صيد البحر بتحريم صيد البر أي منعت الاصطياد للمحرم بالذات، وإن جاز أن يأكل مما اصطاده المحل ما دام لم يصطاده ليقدمه له. وإن صاده المحل أو الحلال في الحل فله التصرف فيه بجميع أنواع التصرف، وإذا دل المحرم حِلاً على صيد فقتله الحلال فلا شيء عليه على الراجح، وإذا دل المحرم محرماً آخر فقتله فالجزاء على القاتل، وإذا كانت شجرة نابتة في الحل وفرعها في الحرم وقتل ما عليه من صيد ففيه الجزاء، لأنه أخذ في الحرم.

وتنقلنا السورة بعدها لما للكعبة من حرمة وما يتعلق بها فتقول:

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾
قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ
يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ
أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ
تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

مبينة أن الله تعالى قد جعل الكعبة محرمة إذ قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس»، وجعلها ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ أي صلاحاً وأمناً للناس ومعيشتهم كما يقومون بما شرعه الله من شرائع متصلة بها.

ولكن لما كانت الكعبة موضعاً مخصوصاً ليس من السهل أن يدركه كل مظلوم، ولا يصله كل خائف، فقد جعل سبحانه الشهر الحرام ملجأ آخر. والشهر الحرام يراد به في الآية الشهور الثلاثة المجتمعة (ذو القعدة وذو الحجة ومحرم) وشهر رجب الأصم أو الفرد.

وكانوا إذا حددوا بعيراً للحج إما أشعروه دماً بالجرح في سنامه أو علقوا عليه نعلاً في رقبته وكأنه قلادة فسميت بالهدي والقلائد، وانتقلت من عادات الجاهلية إلى مناسك الحج مما أشار إليه تعالى ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ بأن هذه الأمور من العبادات في الحج وليست من عادات الجاهلية، كيف لا وأن الله تعالى الذي أمر بذلك يملك كل ما في السموات والأرض، ويعلم بكل شيء..

ثم بينت ما يجب أن ينظر فيه المسلم إلى ربه بأن يعلم بأنه شديد العقاب فيخشاه، وأنه غفور رحيم فيرجوه، فلا يقنط أمام ذنوبه مهما كثرت، ولا يتفلت من الطاعات مهما سهلت، وأن عليه أن يعلم علم اليقين بأن ما على الرسول إلا أن يبلغه

أوامر ربه ونواهيه لما فيها من الهداية، و ليس عليه أن يفرض تلك الهداية على أحد، والله وحده العالم بكل ما يبديه الإنسان ويخفيه.

ثم خاطبت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول للناس بأن الاستواء منعدم بين الطعام الخبيث والطعام الطيب، بين الحلال والحرام، بين الرديء والجيد، مهما كثر هذا الخبيث والحرام والرديء، وأن يأمرهم بمخافة الله ما داموا ذوي عقول واعية، وأن لهم في ذلك الفلاح والفوز.

ثم تتوجه السورة إلى المؤمنين بالخطاب فتنهاهم عن الأسئلة بصدد أشياء يزعجهم ويؤذيهم البيان لها، فمثلاً قد سألوا الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن واجب الحج: يا رسول الله أفي كل عام؟ فسكت، فقالوا: أفي كل عام؟ قال «لا، ولو قلت نعم لوجبت» فنزلت الآية، وتكرر السؤال في مناسبة أخرى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم رداً عليهم «والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ما اطقتموها، ولو لم تطيقوها لكفرتم»، كما تكرر السؤال عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فجاءت الآية تنهى عن أمثال هذه الأسئلة وذلك من باب الكراهة ما دامت الأسئلة من باب التنطع والأمر المسئول عنه لم ينزل فيه حكم كلياً.

وأما الأسئلة عن الوقائع الجارية مما تسمى بالنوازل فهذا مندوب إليه وإنما شفاء العي السؤال، ولذلك جاءت الإشارة في بقية الآية بأن السؤال عن غير تلك الأمور المتنطعة، ومما مست الحاجة إليه من فهم تفسير أو بيان حكم فإنه مباح لا شيء فيه، فمثلاً عندما بين سبحانه عدة المطلقة والمتوفى عنها زوجها والحامل لم يبين عدة من ليست بذات حيض ولا حامل، فسألوا عنها فنزل البيان، فالنهي إذاً عن شيء لاحاجة إلى السؤال عنه وهو من أمور الجاهلية التي عفا الله عنها والتي سأل عنها بعض من كانوا قبل الإسلام ولكنهم لما أعطوها وفرضت عليهم كفروا بها بحجة أنها ليست من عند الله، كسؤال قوم صالح عن الناقة، وسؤال أصحاب عيسى المائدة.. وفي هذا تحذير للمسلمين.

وأما قوله تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الذي يبيح السؤال عامة فالجواب عليه أن ما أمر الله به مما تقرر وثبت وجوبه هو مما يجب العمل به، وأما النهي فهو مما لم يتعبد الله به عباده ولم يذكره في كتابه، وشتان بين الأمرين، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته».

وهنا جاءت السورة فوراً بذكر ما كانوا في الجاهلية يفترون على الله من تصنيف

الإبل بين بحيرة، وهي التي كان يمنع حليبها عن الناس ويحجز للطواغيت، وسائبة، وهي التي كانوا يسيبونها لآلهتهم، ووصيلة، وهي التي توصل بين ولادة الإناث حتى العشرة من الغنم، وحام، وهو فحل الإبل الذي يحمي ظهره بعد أن انقضى ضرابه، وأن هذا التصنيف كله كذب على الله، وأن أول من ابتدع ذلك هو جالب الأصنام عمرو بن لحي بن قمئة بن خندف الخزاعي من بلاد الشام إلى الجزيرة فغيّر دين إسماعيل عليه السلام وبحّر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي، وإن كان نص الآية يشمل كل كفار قريش وخزاعة ومشركي العرب الذين أمروا بتحريم تلك الأصناف وزعموا أن في ذلك طاعة لربهم.

وبالمناسبة ورد ذكر حكم الوقف، وكيف أن أبا حنيفة رضي الله عنه ردها مستنداً على هذه الآية وكأنه لم يسمع بحديث الرسول عليه وآله وصحبه السلام: «احبس الأصل وسبِّل الثمرة» جواباً لمن سأله ليتصدق بسهمه في خيبر، ولذلك كثرت الأحباس في بلاد الإسلام وقالوا بأنه لايجوز أن ينتفع الواقف بوقفه لأنه أخرجه لله وقطعه عن ملكه، وأما إن شرط ذلك عند الوقف فيجوز.

وأما سائبة العتق فلا وجود لها في الإسلام، فمن أعتق سائبة كان ولاؤه له، كما قال ابن نافع، واحتجوا بقوله عليه وآله وصحبه السلام «من أعتق سائبة فولاؤه له» وبقوله «إنما الولاء لمن اعتق» وبقوله «لا سائبة في الإسلام».

ثم تنعى السورة في آيتها التالية على أولئك الكفار الذين كانوا يفعلون ذلك بأنهم عندما يدعون للأخذ بما أنزل الله وما يبينه الرسول عليه وآله وصحبه السلام يرفضون ذلك بحجة أن ما وجدوه في تقاليد وعادات آبائهم كاف لهم مع أنهم يعلمون أن آباءهم كانوا يجهلون حقيقة ذلك، وكانوا يخبطون فيها على غير هدى.. وهنا دعت السورة المؤمنين للحذر من تقليد الآباء كما كان يفعل أولئك الكفار، وأن عليهم أن يلتزموا بما أمرهم به الله ورسوله، وأنهم بذلك على الهدى ولن يضرهم ضلال غيرهم من الكفار.

ولكن من ناحية أخرى ليس في هذه الآية الدعوة للقعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يفهم من ظاهرها، وذلك لأن السنة وضحت ذلك فقال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بمناسبة نزول هذه الآية «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»، كما قال عليه وآله وصحبه السلام لمن سأله عن الآية «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك خاصة نفسك

ودع عنك أمر العامة فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم».

ومن أطيب ما ورد من تفسير لهذه الآية قول ابن المبارك إن ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ خطاب لجميع المؤمنين بمعنى عليكم أهل دينكم، وليأمر بعضكم بعضاً، ولينه بعضكم بعضاً، مما يدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يضركم ضلال المشركين المنافقين وأهل الكتاب.. ومن أطيب التفاسير لهذه الآية أيضاً ما روي عن جابر بن زيد بأن معناها: يا أيها الذين آمنوا من أبناء أولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السائبة، عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدين، لا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم. والمهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه لازم متى كان قبوله مرجواً ولو كان في الرد عنف مالم يصل إلى الضرر أو الفتنة، فعندها يجب التوقف عنه ريثما تنقشع الغمة بحيث لا يشترط أن يكون الناهي عدلاً.

وهنا تأتي السورة إلى آية الوصية وشروطها وظروفها وشهودها فتقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ ۞

موضحة للمؤمنين أنه لابد من شهادة اثنين عدلين مسلمين على وصية المسلم الذي قاربته الوفاة، وإذا لم يوجد مسلمان فليكونا كافرين إذا كانوا في سفر قد يصعب فيه وجود المسلمين، كما رأى أبو حنيفة وإن رأى الجمهور عدم جواز شهادة أهل الذمة على المسلمين وتجوز فيما بينهم فقط، فيدفع المقارب للوفاة ماله لاثنين عدلين كما يظن، ومتى مات أوصلا تركته إلى ورثته، فإن ارتابوا في أمرهما وادعوا عليهما الخيانة فلابد من حبسهما من بعد الصلاة لكي يستوثق منهما..

والحبس هنا من باب الاستظهار لا العقوبة لأن هذه لا تكون إلا في واجب وتلك في تهمة، والأفضل أن يكون الحبس بعد صلاة العصر، كما قال أكثر العلماء، لتعظيم هذا الوقت لدى أهل الأديان وللتخويف من اليمين الكاذبة، والتغليظ في الحلف، وهو يكون بالزمان، كما هو بعد الصلاة، والمكان، كأن يكون في المسجد، والحال، كأن يحلف قائماً مستقبل القبلة، واللفظ كأن يحلف بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة.

ويحلّف الشاهدان على المال إذا بلغ القطع، يعني ثلاثة دراهم على قول، أو بلغ نصاب الزكاة، أي عشرين ديناراً على قول آخر، فيقسمان بأنهما عدلان وأنهما يقولان الصدق وأنهما ما كانا ليحلفا لولا أنهما صارا مُدعى عليهما من قبل الورثة بالخيانة في توصيل الوصية، ويقولان في يمينهما بأنهما لا يشتريان بقسمها عوضاً يأخذانه بدلاً مما أوصى به ولا يدفعانه لأحد ولو كان الذي يقسمان له ذا قربى منهما، وأنهما لا يخفيان الحق. فإن علم بأنهما استحقا إثماً بالخيانة، وأخذهما ما ليس لهما، أو باليمين الكاذبة أو بالشهادة الباطلة إذ لم يكن المال محمولاً في حوزتهما، فإن علم ذلك فيؤتى بشاهدين آخرين ممن حضروا الوفاة والإيصاء فيحلفان بالله أن الوصية حق، وأن المال الذي وصّى به كان أكثر مما ذكر الشاهدان الأوليان، وأن فيه كذا وكذا غير ما ذكرا، وأنهما خانا، وأن يمينهما هو الأحق من يمين السابقين، وأنهما لم يتجاوزا الحق في قسمهما، وأنهما يعلمان لو فعلا ذلك لكانا من الظالمين. وتؤكد السورة في الآية التالية بأن هذا الشكل من الشهادة هو أدنى درجة في تقديم الشهادة على وجهها الحق لأن الناس تحذر الخيانة فيشهدون بالحق خوف الفضيحة في رد اليمين على المدّعي.

ثم تواصل السورة الزجر عن إخفاء الحق في الوصية وغيرها فتحذر المؤمنين من يوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمع فيه الرسل فيسألهم تعالى عما أجابتهم أقوامهم عندما دعوها للتوحيد، فيقول الرسل بأنهم لا يعلمون حقيقة صدور أقوامهم وإن علموا شيئاً من ظواهر أقوالهم وأعمالهم، وأن الله وحده هو عالم غيبهم وحقيقة سرائرهم.

وتنتهي السورة فيما يتبقى منها بذكر بعض الجوانب من قصة عيسى بن مريم عليه السلام مع بني إسرائيل، وبالذات مطلبهم بإنزال مائدة عليهم، فتقول:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ

تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا
وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ
قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ
عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ
ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ
قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا
يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى
نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن
تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ
صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ
﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

مبينة شيئاً مما يجري يوم القيامة حين يسأل الله تعالى رسله عن استجابة أقوامهم لدعوة التوحيد، وأنه تعالى يسأل عيسى أيضاً عن قومه بني إسرائيل مبتدئاً السؤال بالتذكير بما أسبغ عليه وعلى أمه من النعم مبرزاً بذلك الكرامات التي خصه بها تعالى هو وأمه، ومؤكداً بذلك الحجة على قومه، وأن من تلك الكرامات ما أيده به من جبريل عليه السلام، ومكّنه من التكلم مع الناس وهو في المهد طفلاً وفي الكهولة وهو نبياً، وعلمه الكتابة والدراية بالإضافة للتوراة والإنجيل، ومكّنه من تشكيل الطين على هيئة الطير بإذنه تعالى، ومكّنه من النفخ في هيئة الطير التي صنعها لتدب فيها الحياة فتكون طيراً يطير بجناحيه بإذنه تعالى، ومكّنه من أن يبرئ الأعمى والأبرص بإذنه تعالى، ومكّنه من أن يخرج الموتى أحياء من قبورهم بإذنه تعالى، وكفّ عنه بني إسرائيل إذ همّوا بقتله بعد أن جاءهم بالدلالات والمعجزات الكثيرة فجحدوها وتآمروا على قتله عندما زعم الكافرون منهم بأن كل تلك المعجزات ما هي إلا سحر قوي من ساحر ماهر..

ثم يمنّ الله تعالى على رسوله عيسى ليس بأن خلصه من الكائدين فقط بل بتوفير

مؤيدين له عندما ألهم الحواريين الذين كانوا يتجمعون حوله بأن يؤمنوا بالّله تعالى رباً وبرسوله عيسى نبياً ورسولاً، وأنهم بادروا إلى ذلك فقالوا آمنا، وأشهدوا الله على أنفسهم بأنهم طائعون خاضعون لأمره ونهيه.

ثم تحدثنا السورة عن موقف هذه النخبة من المؤمنين بعيسى وهم تلاميذه وكيف أنهم طلبوا منه طلباً جاء بصيغة الشك في قدرة الله، والعياذ بالله، عندما سألوا: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وهم العالمون بقدرته تعالى على كل شيء،

فكأنهم سألوا فيما إذا كان ربه يستجيب لدعائه وطلبه وينزل عليهم مائدة من السماء، فنبههم أن يخشوا الله بمثل هذا السؤال إذا كان صادراً عن نقص في الإيمان،

أو كأن سؤالهم كان على شاكلة ما طلبه إبراهيم عليه السلام بأنهم يريدون علم المشاهدة والمعاينة لما هم عالمون متأكدون منه من علم دراية وخبر ونظر، ومثل هذا العلم لا يدخله شبهة ولا ريب،

أو أن من كان مع الحواريين من الناس الآخرين الذين جاءوا للاستشفاء، كما هو الأرجح، هم الذين طلبوا ذلك ولاسيما أن أكثرهم لم يكن له طعام وأنهم أنهكوا من الانتظار والمرض فلم يعد بمقدورهم العودة والجوع والتعب والإنهاك ينهشهم، ويظهر من ردهم على عيسى عندما نهاهم عن مثل هذا السؤال فوضحوا سبب طلبهم المائدة بإنه الجوع وأنه طلب الاطمئنان واليقين بأنه نبي مرسل وأنه قد قبل صومهم وعملهم فتسكن قلوبهم فيشهدون لله بالوحدانية وله بالرسالة والنبوة.

وهنا توجه عيسى عليه السلام بالتضرع إلى الله أن ينزل عليهم المائدة من السماء بحيث تكون لهم من أولهم إلى آخرهم، الموجودين وغير الموجودين، عيداً لما سيلحقهم بها من الرضى والسرور، وتكون في نفس الوقت آية وحجة من الله، وعطاء منه وهو سبحانه خير من يعطي وهو الغني الحميد..

فجاءه الوعد من الله تعالى بأن المائدة ستنزل، ولكن عليهم أن يعلموا بأنهم إذا كفروا وجحدوا بعد نزولها فإنه تعالى سيعذبهم من العذاب ما لايعذبه لأحد من العالمين، وهذا بالفعل ما وقع إذ عادوا بعد المائدة إلى الكفر والجحود فعذبهم سبحانه بعد أن استهتروا بوعيده بأن مسخهم قردة وخنازير. قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا ألا يخونوا ولا يدّخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير».

وتنقلنا السورة مما حصل في الدنيا مع السيد المسيح عليه السلام وقومه إلى ما يحصل يوم القيامة، كما هو راجح في شأن زمن نزول الآية التالية، إذ سأله المولى

سبحانه وهو العالم بخلقه ولكنه الإشهاد والحجة فيما إذا كان قد قال للناس أن يتخذوه هو وأمه إلهين معبودين ويتركوا عبادة الله، فأجاب عليه السلام بما لقنه ربه مبتدئاً بالتسبيح ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ بأنه لا يمكن أن يقول ما ليس بحق له، نافياً بذلك أكاذيب من قال من بني إسرائيل ذلك عنه عليه السلام، ومبدياً خضوعه وذلته أمام سطوته تعالى وعزته.

وفي نفس الوقت لتتمكن الحجة عليهم أضاف عليه السلام بأنه لو قال مثل هذا القول فإنه سبحانه قد علمه لأنه علام الغيوب، وأنه لم يقل لهم ولم يأمرهم إلا بأوامر الله تعالى بأن يعبدوه تعالى ربه وربهم، وأنه تعالى كان العالم المراقب لكل شيء طيلة وجوده وبعد أن توفاه سبحانه ورفعه من بينهم إلى السماء، ثم أنهى عليه السلام ضراعته إلى الله راجياً أن يتجاوز عنهم لأنه سبحانه إن أوقع بهم ما قضى به من العذاب مما يستحقه عصيانهم فإنهم ممن خلق من العباد وإن يغفر لهم خطيئتهم وعصيانهم فإنه الرءوف الرحيم بكل عباده، والعزيز الذي لا يمتنع عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والحكيم الذي يدبر خلقه بما يستحقونه ويلزمهم من التدبير.

وهنا أشار المولى سبحانه بأن في هذا اليوم، يوم القيامة، ينفع الصدق في القول والعمل طيلة مسار حياة صاحبه، ينفعه لأنه بصدقه سيجد ألا مجال للإنكار والتهرب من الإقرار وهو يرى أن أعضاءه تشهد عليه، وعندها سيجد مثل هؤلاء الصادقين في دنياهم جنات الخلود بانتظارهم، وأكثر من ذلك يجدون رضى الله وما فيه من فوز عظيم..

دليل سورة المائدة ـ ٥

– إنها سورة مدنية، وأنزلت في ١٢٠ آية.

– فيها ١٩ فريضة مؤكدة الالتزام بكل منها..

– بدأت بدعوة المؤمنين للوفاء بالعقود في الديون أو الطاعات، وبينت الحلال من الأنعام من إبل وبقر وغنم إلا الصيد في الإحرام بحج أو عمرة، ثم بينت المحرمات من المطعومات من ميتة ودم ولحم خنزير وغيرها مما يؤكد أن ما غير ذلك هو من الحلال الذي سكت عنه الشرع، كما بينت صيد الجوارح الحلال، وذبائح أهل الكتاب الحلال..

– وأوضحت أركان الوضوء للصلاة للمؤمنين، ودعتهم للحرص على التزام طاعة

الله ورسوله كما ورد في عهد ليلة العقبة وتحت الشجرة، وعلى الشهادة بالعدل ولو على أنفسهم.

- وحذرتهم أن يكونوا كبني إسرائيل في نقض المواثيق وتحريف كلمات الله وتغيير أوامره سواء كانوا اليهود أو النصارى، وتذكّر بما فعله اليهود مع موسى عندما رفضوا دخول فلسطين فعوقبوا بالتيه لأربعين سنة، كما تذكّر بحكم الله في القاتل ظلماً بأن ذنبه كقتل جميع الناس كما فعل ولدا آدم عندما قتل أحدهما الآخر..

- ثم تتحدث عن مشكلة الحرابة بين المسلمين، ثم مشكلة السرقة دون حرابة..

- وبعدها تذكر شيئاً من باطل أهل الكتاب، وتواطؤ اليهود منهم مع المشركين ضد المسلمين وإلغاء حكم الرجم للمحصن والتزام ما أمروا به من عقوبات كانت إما القصاص أو العفو ودون الدية كالإسلام، ثم تؤكد أن الإسلام قد جاء مصدقاً للكتب السابقة وناسخاً لها مما يفرض الحكم به وحده بين الناس وأن على بني إسرائيل الإيمان به والاحتكام إليه وحده بعد أن أكدت لهم كتبهم التوراة والإنجيل ذلك وأنه يجب عليهم الكف عن القول بالثنوية والتثليث..

- ثم تميّز بين عداوة اليهود والمشركين للرسول وأتباعه وعداوة النصارى الذين لا يرفضون سماع الحق والاستجابة له بينما أولئك هم الأشد عداوة..

- وتنبه المؤمنين إلى تجنب تحريم الحلال الطيب من المأكل والملبس والنساء ولو بحلف الأيمان لأن الله تعالى لا يؤاخذ بلغو اليمين ويضع كفّارة لليمين المقصودة.. ثم تنبه لتجنب الخبيث من الأكل والشرب من خمر وقمار وأصنام وقداح، وأنه لا يقارن مع الطيب الحلال.. وأن تسمية الإبل بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام كله افتراء على الله تعالى..

- ثم تتحدث عن الوصية بشهادة مسلمين عدلين أو غير مسلمين في السفر إذا لم يوجد المسلم..

- وتشير إلى ما لاقاه عيسى عليه السلام من العنت من بني إسرائيل حتى طلبوا منه مائدة من السماء فأنزلت ولكنهم جحدوا وكفروا فعذبهم تعالى بالمسخ.. وزعموا أن عيسى وأمه إلهان فكذبهم فأثنى المولى عليه لصدقه. .

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ من المحرمات الاستقسام بالأزلام وهي قداح الميسر، وكانت ثلاثة أنواع: نوع ثلاثة قداح: افعل، لا تفعل، مهمل. ونوع سبعة قداح في كل منها نازلة: العقل

على الديات، منكم، من غيركم، ملصق.. ونوع عشرة قداح، سبعة فيها كتابة وثلاثة مهملة.

٢ ـ أكد ابن مسعود أن القبلة من اللمس وأن كل ما دون الجماع هو اللمس لأن أول الآية ذكر ما يجب على من جامع.. فقد جاءت ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ بعد ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ فوضح معنى اللمس هنا، وإن كان للقول الآخر حجته وقوته . .

٣ ـ تأكيد أن جانب الشر في نفس قابيل قد تغلب على جانب الخير فقتل أخاه هابيل «فطوعت له نفسه قتل أخيه..» مما يشير إلى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾..

٤ ـ وجوب الحرص على الوسائل المشروعة في إنجاز كل عمل لأن الوسيلة إلى الحرام حرام ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾..

٥ ـ لا ينفذ حد السرقة إلا إذا اجتمعت عشرة شروط فيها: خمسة في السارق وهي البلوغ، والعقل، وعدم الملكية، وعدم الولاية، والحرية. وأربعة في المسروق وهي: بلوغ النصاب ربع دينار ذهباً فأكثر، ويكون مما يتمول..، وعدم ملكية السارق لشيء منه، ويكون مما تصح سرقته وشرط واحد في موضع السرقة هو الحرز لمثله.

٦ ـ تستنكر على اليهود تلاعبهم بالحدود وخاصة حد الرجم وتحريفهم لكتبهم.. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾.

٧ ـ نزلت آيات ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، كلها بحق أهل الكتاب ولكن العبرة بعموم اللفظ مما يشمل جميع الأمم ومنهم المسلمون وليس بخصوص السبب المشير لأهل الكتاب.

٨ ـ تأكيد أنه يحرم موالاة اليهود والنصارى ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (إنا لا نستعين على أمرنا بالمشركين).

٩ـ عصم الله رسوله من أذى الناس المؤدي للقتل ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ليواصل تبليغ وتطبيق رسالته في الأرض.

١٠ ـ قال اليعقوبية بأن الله (سبحانه) هو المسيح ابن مريم، وقال النسطورية بأن المسيح ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس.

١١ ـ قسمت الشريعة الأيمان إلى أربعة أقسام: اثنان المنعقدة وفيهما كفارة كأن يحلف لا أفعل ويفعل، أو يحلف ليفعلن ولا يفعل، واثنان لا كفارة لهما وهما اللغو والغموس والأول غير المقصود والثانية يمين الخديعة..

١٢ ـ النهي عن الأسئلة التي يؤذي المسلمين بيانها، وجواز الأسئلة عن النوازل والوقائع الجارية (إنما شفاء العي السؤال) ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٣ ـ ضرورة فهم الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ بشكل صحيح، فهي لا تعني القعود عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يوحي ظاهرها لأن الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر..) ولوجود تفسير آخر لابن المبارك وغيره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين..

١٤ ـ طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن تنزل مائدة من السماء عليهم يرجح أنه بلسانهم نيابة عن جميع الناس الذين تجمعوا حوله طلباً للاستشفاء وليس طلبهم بذاتهم.. فنزلت المائدة خبزاً ولحماً ليأكلوا ولا يدخروا ولكنهم خانوا وادخروا فمسخوا قردة وخنازير ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

سورة الأنعام (٦)

التقديم

تبدأ السورة بحمده سبحانه على نفسه والإخبار عن قدرته في خلق السموات والأرض والظلمات والنور، ظلمات الليل ونور النهار، ثم تشير إلى ما وقع فيه الذين كفروا في جعل البدل والشريك له تعالى! ثم تأتي على خلق الإنسان بدءاً من أول البشر آدم، ثم حدد سبحانه بقضائه وقدره لكل إنسان أجلاً يموت فيه، وحدد للبشرية كلها أجلاً آخر تعود يوم القيامة فيه إلى ربها، ولهذا يقع المشركون في الشك بأنه سبحانه ليس إلهاً واحداً!

ثم تأتي على ذكر علمه تعالى المحيط بكل ما في السموات الأرض من جهر وسر، من قول وعمل، ثم يقع المشركون في الإعراض عن كل هذه المعجزات! وتخبر بأنهم لما وقعوا في ذلك كله كانوا في إطار علم الله الذي سيخبرهم بكل ما وقعوا فيه من سخرية يوم يجمعهم للحساب يوم القيامة، ثم تذكر الحجة على أولئك المشركين المكذبين بأنه كان حريّاً بهم أن يتذكروا ويعتبروا بمن سبقوهم من الأمم، وكيف توفرت لها الأسباب للسيطرة في الأرض، وكانت الأرزاق تنهمر عليهم من السماء، والأنهار تجري تحتهم، ولكن ماذا كانت عاقبة كفرهم وجحودهم؟ لقد أهلكهم الله بسبب ذنوبهم وأتى بعدهم بأمم أخرى خلفتهم على ما كانوا فيه.

وجاءت السورة بعدها لمطاليبهم، فمرة يريدون أن ينزل عليهم كتاب مكتوب على الورق ويلمسوه بأيديهم ليتأكدوا من صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن

لن يؤمن الكافرون منهم بل سيتهمون الرسول عليه وآله وصحبه السلام بالسحر، ومرة يريدون أن ينزل عليه ملك، ولكنه سيقضى عليهم لو أنزل الملك وأنكروا المعجزة كما جرت سنة الله في ذلك، ثم إن الملك لا يمكن أن يستأنسوا به إلا أن يحيله الله إلى رجل، ولو حصل ذلك لأنكروا أنه ملك بدافع من عنادهم في الكفر.

فخاطبت السورة هنا الرسول عليه وآله وصحبه السلام بنوع من المؤانسة بأن ما يفعلونه به من سخرية ليس بالغريب على أمثالهم فقد حصل ذلك مع الرسل السابقين، وكانت النتيجة أن حل بأولئك العذاب المناسب لسخريتهم، فقل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المكذبين سيروا في الأرض لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العذاب، واسألهم لمن ما في السموات والأرض؟ فإن سألوك لمن هي فقل لهم إنها لله الذي كتب على نفسه الرحمة بعباده، إذ يمهلهم للإنابة والتوبة، وأنه سبحانه سيجمعهم يوم القيامة الذي لاشك قادم لينال كل جزاءه، ولا شك أن غير المؤمنين هم الذين سيخسرون أنفسهم لما سيحل بهم من عذاب شديد. وقل لهم بأن لله ما ثبت وخلق في الليل والنهار وهو السميع لأصواتهم والعليم بأسرارهم، واستنكر عليهم كيف يتخذ أحدهم ناصراً غير الله تعالى الذي خلق السموات والأرض وهو سبحانه الذي يطعم غيره ولا يطعمه غيره لأنه غير محتاج لأحد والكل محتاج له، وقل لهم بأنك قد أُمرت أن تكون أول من يذعن لأمر الله ويسلم له وألا تكون من المشركين، وقل لهم بأنك تخاف إن عصيت الله ربك ورب الخلق أجمعين أن ينزل بك العذاب العظيم، ذلك العذاب الذي لا يبعد عن أحد يوم القيامة إلا إذا نالته رحمة الله وتحقق له بذلك الفوز العظيم..

واعلم يا محمد وقل للناس كافة بأنه عندما تنزل بك شدة من فقر أو مرض فلن تذهب عنك إلا بعون الله، وإن ينزل بك خير من رخاء أو عافية فالله تعالى هو الرزاق الكريم القادر على كل شيء..

واعلم أيضاً يا محمد وقل للناس كافة إن الله هو صاحب القهر والغلبة وهو الحكيم في أمره والخبير بأعمال خلقه، وقل للمشركين كافة بأن الله أكبر شاهد لك على النبوة والرسالة، كما أن القرآن شاهد لنبوتك وقد أنزله الله تعالى لتنذر به أهل مكة ومن وصله العلم به، ومن بلغ الحلم فأصبح مكلفاً، ثم اسألهم مستنكراً وموبخاً فيما إذا كانوا يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، وأتبع كلامك بالتأكيد لهم بأنك لا تشهد بذلك وإنما تشهد بأن الله واحد لاشريك له وأنك بريء من شركهم..

وقل لهم يا محمد بأن اليهود والنصارى الذين عرفوك في كتبهم كما عرفوا أبناءهم قد أنكروا ذلك عناداً وكفراً فخسروا أنفسهم بما الحقوا بها من عذاب.

وتعقب السورة على ذلك بتقرير أن أظلم الناس هو من يكذب على الله منكراً وحدانيته، ويكذّب بآياته تعالى منكراً معجزاته، وأن مثل هذا الظالم لن ينال الفلاح يوم القيامة حين يحشر المكذبون جميعاً فيسألون عن شركائهم الذين افتروا بأنهم آلهة مع الله، ولكن أنّى لهم ذلك!

فإنهم ما إن يروا الحقائق التي لا يملكون لها إنكاراً حتى يبادروا بالقول مقسمين بأنهم لم يكونوا مشركين، ظانين أن كذبهم ينقذهم من العذاب ويخرجهم من النار مع غير المشركين، ولكنهم ما أسرع ما يكتشفون أن كذبهم على أنفسهم ما كان لينفعهم وهم يُدعّون إلى جهنم دعّاً!

وانظر يا محمد إلى مشركي مكة ومنهم من يستمع لقولك ولكنهم لايستجيبون لك ولا يؤمنون بما تقوله لهم وكأن آذانهم صماء من شدة عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولا يكتفون بذلك بل تجد منهم من يجادلك ويزعم أن ما قلته لهم إن هو إلا أساطير وترهات، وتجد منهم من ينهى عن اتباعك يا محمد ويبتعد هو عنك كما كان الحال مع عمك أبي طالب الذي كان يحميك وينهاهم عنك ولكنه كان هو يبتعد عنك متذرعاً بحجة أن يتهم بالخور والجزع.

وانظر إليهم يا محمد وقد حجز الواحد منهم على الصراط والنار من تحته فيقول متمنياً أن يرد إلى الدنيا لكي يستقيم أمره ولا يكذب بآيات الله ويكون من المؤمنين، ولكن ما أسرع ما ينكشف ادعاؤه وتمنيه وهو يرى النار تغلي من تحته ويرى المشركين أمثاله فيحاول إنكار شركه فتشهد عليه جوارحه بالكفر فتظهر خبايا نفسه، ذلك أنهم في حياتهم الدنيا كانوا يكذبون الرسل وينكرون البعث، وأنهم كانوا يكذبون عندما ادعوا بأنهم لو ردوا إلى الدنيا لما كذبوا ولآمنوا، وأنهم ممن يحرص على الحياة الدنيا بمتاعها ولذائذها لأنهم لا يؤمنون ببعث ولا جزاء بعدها..

وانظر إليهم يا محمد وقد حجزوا عند الحساب ليسمعوا حكم ربهم بهم، وأنهم ما إن يسألوا عما إذا كان ما يرونه هو البعث والحساب أم غير ذلك، حتى يبادروا إلى الاعتراف بصدق ما يرون، ولكن قد فات الفوت وجاء الجزاء ﴿فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾، فيكونون قد خسروا بتكذيبهم البعث والجزاء أنفسهم، إذ ما إن يروا الساعة حتى تسيطر عليهم الحسرة والندامة على تفريطهم في الدنيا بطاعة ربهم والعمل ليوم الآخرة هذا، ولكن أنى تنفعهم الندامة وظهورهم مثقلة بأوزارهم.. فهل نسوا ما كانوا يوعظون به من أن الحياة الدنيا ما هي إلا متاع زائل بينما الآخرة هي الجنة الخالدة لمن عمل لها عملها وهو مؤمن.

وتأتي السورة بعدها لذكر ما يعانيه الرسول عليه وآله وصحبه السلام من الحزن لما يقولونه بأنهم لا يكذبونه هو شخصياً ولكنهم يكذبون بآيات الله التي يبلغها لهم موقعين أنفسهم في الظلم، ثم تواسيه بأن مثل هذا التكذيب قد حصل للرسل من قبله فصبروا على ذلك فما عليه هو أيضاً إلا أن يصبر ولا يبالي بأذاهم لأن وعد الله له بالنصر لابد آت ولا راد له،

ثم تحذره هو عليه وآله وصحبه السلام وأمته من التمادي في الحزن لإعراضهم عن الإيمان لأنه لا يملك أن يجعلهم مؤمنين حتى لو جاءهم بآية من السماء أو الأرض لأن ذلك لله وحده القادر على أن يجعلهم كذلك، فليحذر ذلك حتى لا يقع في حال الجاهلين الذين لا يعلمون أن الاستجابة للهدى لاتتم إلا ممن يتفهم ما يدعى إليه ويقبل عليه، وهذا شأن المؤمنين، وأما هؤلاء الكافرون فهم كالموتى لا يسمعون الحق ويصرون على رفضه وسيبعثون إلى الله غداً ويحشرون إليه وهم على هذه الحال، وانظر إليهم وهم يتذرعون بطلب الآيات أن تنزل عليهم ويرونها وهي نازلة، فعليهم أن يعلموا ويؤمنوا بأن الله قادر على أن ينزل ذلك ولكنهم يعاندون في جهلهم. .

وليعلموا أن كل شيء يحيط به علم الله حتى الدواب في الأرض والطيور في السماء التي خلقها الله وهي مثل البشر في الخلق والرزق والبعث فإنها ستحشر يوم القيامة ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ ليقتص منها كما يقتص منهم فليخشوا ذلك اليوم قبل فوات الأوان! وليذكر أولئك الكافرون الذين لم تعد آذانهم ولا ألسنتهم تنفعهم لعنادهم أن الله تعالى قد وضع بين أيديهم الهداية وألزمهم بتلك الحجة إذ جعل إليهم الاختيار بين الأخذ بها أو تركها، وليذكروا أنه عندما يحل بهم أي شدة أو عندما يبعثون يوم القيامة فإنهم يلجأون إلى الله طالبين أن يكشف عنهم الكرب وينجيهم من العذاب فيحقق ذلك لمن يشاء ولكنهم في طلبهم ينسون ما اقترفوا في دنياهم من الشرك والضلال!

وتعود السورة لتسلّي النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمعاندتهم وتكذيبهم وأذاهم، فتقص عليه بأن الله قد أرسل الرسل إلى الأمم السابقة فكذبوا كما يكذبه هؤلاء فأخذهم الله لتأديبهم بالبأساء في أموالهم والضراء في أبدانهم لكي يعودوا إلى سلامة تفكيرهم ويقبلوا على الدعاء والخضوع ولكن هيهات إذ كان أكثرهم كافرين. .

وكم كان حريّاً بهم أن يتضرعوا إلى الله مع الشدة ولكن إصرارهم على الكفر والمعصية أعمتهم ورأوا في تزيين الشيطان لهم أعمالهم هو الخير فاستمروا عليه وتركوا كل ما يوجه إليهم من تذكير، وعندها استدرجهم الله بما فتح عليهم من الأرزاق والنعم التي بطروا بها، فأخذهم بعذابه فجأة فوقعوا في حيرة واضطراب من سوء ظنهم

وتقديرهم وانتهوا إلى الهلاك على ظلمهم من كفر وعصيان، مما استحق سبحانه الحمد والثناء على عدله في إيقاع هذا الجزاء عليهم.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليبلغهم مايعلمه الله من أحوال شركهم وعنادهم في الكفر فتقول له بأن يسألهم عمن سيعيد إليهم سمعهم وبصرهم وقلوبهم إذا فقدوها غير الله، مقرراً لهم الاعتراف بذلك، ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام ليرى كيف ينوّع الله الآيات إليهم ليروا الحق ولكنهم يعرضون عنه، ثم تدعوه ليسألهم عمن يهلك بعذاب الله عندما يحل بهم ليلاً أو نهاراً غير الكافرين منهم، الظالمين لأنفسهم، وتطلب منه أن يخبرهم بأن الله لا يرسل الرسل إلا للتبشير بالجنة والإنذار من النار، وأن من يستجيب للتبشير فيصلح بعد إيمان هو الذي لايناله خوف ولاحزن يوم القيامة وأما الذي يعرض ويكذب بالآيات فإنه يحل به العذاب جزاء فسقه وعصيانه لربه.

وقل لهم يا محمد بأنك لا تملك مفاتيح خزائن الله لتأتيهم منها بما يريدون، ولاتعلم ما عند الله من غيب، وإنك لست ملكاً فتأتيهم بما لا تستطيع وإنما أنت تتبع في تبلغيهم ما يوحى إليك من الله، وأنه من المستحيل أن يكون الكافر كالمؤمن عند الله لكل ذي عقل وفكر.. وأنذر يا محمد باليوم الآخر أولئك الذين يخافون من عذابه ويعلمون بحق مصيرهم وأنه ليس لهم غير الله شفيع لما في ذلك من إثارة التقوى في نفوسهم.

وإياك يا محمد أن تطرد أولئك الفقراء العبيد المؤمنين الذين يذكرون الله ويدعونه صباحاً مساء من مجلسك استرضاء لأولئك الزعماء الذين يطلبون منك ذلك لينفردوا بك من دونهم، فإن جزاءهم ورزقهم كجزائك ورزقك على الله وحده، فتخل يا محمد عن فكرة طردهم من مجلسك حتى لاتقع في الظلم لأنهم أحق بمجلسك من الآخرين..

واعلم يا محمد أن الله قد فتن هؤلاء الأشراف بأولئك الفقراء فجعلهم يتساءلون عما إذا كان الفقراء قد نالوا شرف الإيمان الذي لم يعط لهم فشكروا الله عليه بينما هم معاندون رافضون الإيمان وشكر النعم.. وعلى المؤمنين أن يحيوك يا محمد بـ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي سلّم الله لكم دينكم وأنفسكم، كما عليهم أن يعلموا أن ربهم الله تعالى قد كتب على نفسه الرحمة لعباده، وبأن من ارتكب منهم سيئة عن جهل منه ثم تاب وأصلح فإن الله تعالى يغفر له خطيئته ويشمله برحمته.. كما عليهم أن يعلموا أن الله تعالى يوضح لهم بهذا الشكل الآيات المفصلة ليظهر لهم الحق ويعرفهم طريقه من طريق المجرمين

ليأخذوا حذرهم من الوقوع بتلك الطريق المحرمة سواء كان عن حسن نية أو سوء نية، ولاسيما أن جهنم مليئة بحسني النوايا، كما يقولون.

وأخبر يا محمد زعماء المشركين بأن الله تعالى قد حرم عبادة الأصنام ونهاك أنت وأتباعك عنها وأن الاستجابة لأهوائهم التي يدعونك لمراعاتها هي على حساب طاعتكم لله تعالى..

وأكد لهم بأنك لن تتبع أهواءهم ولا رغباتهم، وأنك لو فعلت ذلك لضللت عن الحق وسرت على الباطل، وأعلمهم بأنك على بينة وبرهان واضحين من ربك لا على هوى وشطط كما هم عليه، وأن العذاب الذي يستعجلونه استهزاء ليس إليك وإنما هو إلى الله تعالى الحاكم الفاصل والذي أكد لهم ذلك بكل تأكيد، وأنه لو كان ذلك العذاب من عندك لأنزلته عليهم منذ أمد بعيد، وعندها ينقضي الأمر ويحسم بينك وبينهم فيحل بهم ما يستحقونه من العقاب ويكون الجزاء العادل لظلمهم أنفسهم.

وبعد تلك المقارنات بين المؤمنين والكافرين مع التعرض إلى الكثير من الحجج والبراهين على قدرة الله وعظمته جنباً إلى جنب مع عقابه ورحمته، بعدها يبدأ ما يتبقى من السورة في هذا القسم بالإشارة إلى أمور أخرى، فتبدأ بذكر ما لدى الله تعالى من مفاتح الغيب، فهو سبحانه صاحب الأرزاق والعالم بوقت توفرها لخلقه سواء كانت بمجيء الأطفال أو نزول المطر أو حلول وقت الأجل ومكانه أو موعد الساعة، وهو وحده سبحانه العالم بهذه المغيبات كما هو عالم بكل ما في البر من مخلوقات بل حركات وسكنات، وما في البحر من مثله، والعالم بكل ورقة شجر تسقط إلى الأرض وحبة أو بذرة تخفيها الأرض أو تحملها على ظهرها، والعالم بكل شيء من هذه المخلوقات مما لا زالت فيه رطوبة أو حياة أو تلاشت منه ويبس.. والكل في محيط علمه تعالى الذي لا تحده حدود ولا تقف دونه سدود وكأنه مسجل في كتاب بين واضح لكل ذي عين وبصر. ولذلك على كل من يبحث عن هذه العلوم لدى العرافين والكهان وأمثالهم أن يكف عن ذلك لئلا يقع في الكفر والعياذ بالله.

كما على البشر جميعاً أن يعلموا علم اليقين أن الله وحده هو الذي يتوفاهم الوفاة الصغرى بالنوم في الليل، ويعلم بكل ما يعملون في النهار عندما يحييهم من جديد باليقظة ليواصلوا أعمال بقية أعمارهم المحدد عنده تعالى وحده حين يميت كلاً منهم بانتهاء أجله ولو مهما تعددت الظروف والأحوال، لذلك فلا سبب للموت إلا سبب واحد هو انتهاء الأجل، ثم يأتي البعث والنشور بعد حياة برزخية لا يعلم مداها إلا هو

سبحانه، ومع النشر يعود الخلق كلهم إلى الله ليجدوا عنده سبحانه الخبر اليقين بكل ما عملوه طيلة حياتهم الدنيا..

فليذكر الكافر ذلك وليعلم أن القادر على بعثه من النوم قادر على بعثه من الموت.. كيف لا وهو سبحانه المسيطر على عباده، ولكنها حكمته التي اقتضت أن يمنحه قدرة الاختيار بين الخير والشر ووضع الهداية ومعرفتها بين يديه بما أرسل من أنبياء ورسل، وفي نفس الوقت، وضع لكل إنسان ملائكة تحفظ أعماله وتحفظه من الآفات إلا ما قضى عليه وقدر من موت محدد يتولى الموكل إليه منهم القيام به دون تقصير في طاعة الله، ثم يأتي الرد إلى الله للحساب من أسرع الحاسبين.

ويسأل المشركين رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر من ربه عمن ينجيهم من شدائد البر والبحر وهم يتضرعون إليه أثناء ذلك ويزعمون أنهم سيكونون من الطائعين لو أنجاهم فيجيبهم بأمر ربه إن الله هو الذي ينجيهم ولكنهم ماذا يفعلون بعد ذلك؟! إنهم يعودون لشركهم! فيأمره تعالى أن يخبرهم بأنه هو تعالى القادر على تعذيبهم من فوقهم بالرجم مثلاً أو من تحت أرجلهم بالخسف مثلاً أو يفرقهم فرقاً تقتل بعضها بعضاً، فانظر يا محمد كيف نبين لهم الحجج ليتركوا الشرك.. واعلم وأعلمهم بأنك لست بحافظ لأعمالهم لكي تجازيهم عليها عندما يكذّبون بالقرآن وهو الحق، وأن لكل خبر حقيقة وأنهم سوف يرون حقيقة هذا الوعيد يوم الحساب.

واذكر يا محمد أنك إذا رأيت من يطعن بآيات الله فلا تجالسه حتى يغير حديثه، وأنك إذا نسيت وجالسته فقم عنه بمجرد التذكر، وإذا قعد المؤمنون معهم فعليهم أن يذكّروهم ليخافوا من الله ويتركوا ما يخوضون فيه،

ودع أولئك الذين استهزأوا بالدين ولم يعلموا من الحياة الدنيا إلا ظاهرها فخدعوا بها، وذكّر بالقرآن وبلغهم ما فيه وحذرهم من إهلاك نفوسهم بأعمالهم وأن الفدية لن تنفع أحداً منهم يوم القيامة فلا يفكرون بها لالشيء إلا لأنهم ارتهنوا بأعمالهم، وأعمالهم شرك ليس لهم جزاء عليها إلا الشراب الحار يسقونه مع العذاب الأليم،

واسأل أولئك المشركين عمن يدعونه غير الله تعالى مما لا ينفع إن دعوه ولا يضر إن تركوه فيعودوا إلى الضلالة بعد الهدى كمن زين له الشيطان هواه ودعاه إليه فاختار دربه بالرغم من دعوة أصحابه إلى الهدى وكأنه لا يعلم أن الهدى الحق هو هدى الله فعليه أن يستجيب لدعوتهم له إلى إقامة الصلاة وأن يخشى الله وحده الذي يحشرهم إليه للحساب مع كل الخلق، كيف لا وهو سبحانه خالق السموات والأرض بكلمة الحق

﴿كُن﴾، وأن يذكر يوم موت الناس وحياتهم فهذا هو الحق، كما له الحق يوم ينفخ في الصور، وهو سبحانه عالم كل مغيب وحاضر، والحكم الخبير بأعمال وأقوال عباده فليحذروه.

وتدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليتذكر إذ قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر (تارخ) مستنكراً كيف يعبد الأصنام من دون الله، وأن ذلك من الضلال الواضح لكل ذي قلب وعقل سليمين، ثم أراه الله من ملكوت السماء والأرض ما استدل به في مجادلته لقومه بعد أن استيقن من صدق إيمانه بربه، ثم نظر في السماء فرأى كوكباً في ظلمة الليل فقال لقومه يظهر أنه الرب لما له من نور، ولكنه عندما رآه غاب، ورأى القمر والشمس بعده غابا رغم كبرهما بالنسبة للكوكب قال لهم بأنه بالتأكيد يستبعد أن يكون أحدهم الرب المعبود كما يزعمون، مما جعله يعلن لهم بأنه بريء مما يشركون، وأنه يقصد ويوحّد الله بعبادته وطاعته، وأنه مال بذلك إلى الحق وتخلص من الشرك الذي هم عليه..

وهنا بادره قومه بالجدال معه بشأن توحيده لله فاستنكر عليهم الجدال في التوحيد وأكد لهم عدم خوفه من آلهتهم، مهما كثرت إلا إذا كان قد قضى عليه الله بابتلاء ما فهو سبحانه العالم بكل شيء، ثم كرر لهم التأكيد بأنه لايخاف آلهتهم والأولى أن يخافوا هم من الشرك بالله القادر على أن ينزل عليهم العذاب الساحق بسبب ذلك، فهو الأحق منهم بسبب إيمانه بالأمن والاطمئنان وهم الأولى بالخوف بسبب كفرهم وشركهم..

وهكذا غلبهم إبراهيم بالحجة فكان بما لديه من علم وفهم أعلى منهم درجة. ثم تذكر السورة ما منحه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام من جزاء على جداله في الدين وبذل النفس فيه من الذرية بدءاً بإسحق وابنه يعقوب، وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط، واعتبرهم تعالى جميعاً من ذريته، وإن كان بعضهم كيونس ولوط لم يكونا من ولده وإنما ينتمون إليه بصلة،

وقال سبحانه بأنه منح إبراهيم من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم ممن اجتباهم واختارهم ليكونوا هداة مهديين وأنبياء لأقوامهم يهدونهم إلى الطريق القويم، وأن ذلك كله من هدى الله تعالى الذي ينزله على رسله ليبلغوه لخلقه فيكونوا مهتدين ما داموا ملتزمين بهدي الله وإلا فهو الشرك المحبط للأعمال والعياذ بالله، فكانوا مصطفين باصطفاء الله تعالى بما أنزل عليهم من الكتب والحكم في أقوامهم والنبوة فيما يسوقون

إليهم من معجزات حري بهؤلاء الكفار من حولك يا محمد أن يؤمنوا بها ولكنهم إن كفروا بها فهناك المؤمنون بها من المهاجرين والأنصار،

كما أن أولئك الأنبياء توفر لهم من يؤمن بدعوتهم للتوحيد والطاعة، فكانوا هداة لأقوامهم، وصبروا على ما أوذوا به، وعليكم بالتوحيد مثلهم والصبر على طريقتهم، وأما الأخذ بشريعتهم فهذا مما لا يجوز ما دامت شريعة الإسلام قد جاءت مهيمنة على الشرائع السابقة وناسخة لها وفيها الكمال وإتمام الدين والنعمة والغنى عن الأخذ من غيرها، وأنهت الخطاب للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول لأولئك المشركين من حوله بأنه لا يطلب منهم أجراً على تبليغهم القرآن لأنه كتاب الله المنزل لهداية الخلق والمأمور هو عليه وآله وصحبه السلام بتبليغه لهم.

وتقف السورة مع المشركين عامة واليهود خاصة فيما صدر عنهم إذ زعم بعض زعمائهم بأن الله لم ينزل أية رسالة على رسول، منكرين بذلك كل الرسل ومجدفين في حق قدرة الله وعظمته ورحمته بعباده من أنه لم ينزل ما يهديهم إلى مصلحتهم بل تركهم سبحانه يتخبطون في أهوائهم، ولذلك أمرت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يحجهم بالسؤال عمن أنزل كتاب التوراة على موسى والذي أوصلتموه إلى مستوى مجرد ورق لا قيمة له في حياتكم، فتحرفون وتخفون ما تشاءون من أمثال صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع أن ما جاء فيها من العلم والهداية ما لا علم لهم به لا هم ولا آباؤهم، فقل لهم إن الذي أنزل التوراة هو الله، ثم دعهم يلهون في كفرهم ليعرفوا مصير ذلك وقد علموه من قبل!

وقل لهؤلاء المشركين جميعاً بأن هذا القرآن قد نزله الله يصدق الكتب المنزلة من السابق في نفي الشرك وإثبات التوحيد، وليبلّغ لجميع الناس في الأرض، ويؤمن به أتباع محمد عليه وآله وصحبه السلام الذين يحافظون على صلاتهم بشكل يميزهم عن غيرهم، وأن هؤلاء المشركين هم أظلم من كذب على الله لأنهم ينكرون رسله، ويشترك معهم في هذا المستوى من الظلم من زعم أنه قد أوحي إليه كمسيلمة الكذاب، ومن ادعى بأنه يستطيع أن يأت بمثل القرآن كعبد الله بن أبي السرح الذي ارتد وزعم ذلك وإن كان قد رجع إلى الإسلام وصلح إيمانه فيما بعد.

وانظر يا محمد إلى حال هؤلاء الظالمين وملائكة الموت تنزع أرواحهم، وتدعّهم ملائكة العذاب في جهنم دعّاً جزاء افترائهم على الله واستكبارهم عن الإيمان بآياته.. وسيرون أنفسهم وهم يحشرون للحساب يوم القيامة واحداً واحداً منفردين بلا أهل ولا

مال مما كان لديهم في الدنيا، فلا صاحب ولا شفيع ممن كانوا يزعمونهم من شركائهم.

وتعرض السورة بعدها بعض جوانب صنع الله مما يعجز عنه تلك الآلهة المزعومة من مثل أنه تعالى خلق النوى والحب بخاصية الانشقاق في مواسمها تحت مؤثرات معينة كالرطوبة حتى يخرج النبات الحي من النواة الميتة ثم تثمر النبتة الحية نوى وحبوباً ميتة، فكيف لهم أن يتهربوا وهم يرون ذلك من الإقرار بالحق؟!

ومن مثله تعالى الذي أودع الكون هذا النظام وجعل النهار يتلو الليل، وجعل الليل لسكون العباد، وجعل الشمس والقمر بحركتهما موفرين الحساب لمصالح العباد، فهل لهم أن ينكروا هذه القدرة العظيمة من الله الذي لا يعجزه شيء والعليم بما يلزم عباده وجميع مخلوقاته؟!

ومن مثله تعالى يجعل النجوم ترى في الليل بأنوارها ليهتدي بها العباد في الظلمات سواء في البر أو البحر مما يبين كيف أنه تعالى قد جعلها واضحة لكل ذي عينين؟!

ومن مثله تعالى وقد خلق البشر من شخص واحد هو آدم عليه السلام ثم خلق منه زوجه حواء ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساء بحيث يجد كل مخلوق مستقراً في رحم أمه أولاً ثم مستودعاً في بطن الأرض حتى القيامة، وأن في ذلك دلالات على قدرة خالقهم لكل عقل وإدراك؟!

ومن مثله تعالى وهو ينزل المطر من السماء فتخرج الأنواع العديدة من النباتات من الأرض، منها بسنابلها المتراكبة ومنها بعناقيدها الضخمة، بالإضافة لبساتين العنب والزيتون والرمان مما يتشابه أو يختلف بعضه عن بعض، مما يستدعي النظر إلى ثماره ولاسيما عندما يحين نضجها فيجد الناظر المؤمن الآيات المعجزات في ذلك؟!

ثم تذكر السورة أنواعاً من جهالات أولئك المشركين عندما زعموا أن لله شركاء من الجن، سواء من طاعتهم لهم أو من كذبهم بأن إبليس قد اشترك مع الله في الخلق، وأنه قد ترك له خلق الشر، مع أنه تعالى عن ذلك علواً كبيراً قد خلق إبليس كما خلقهم فكيف يكون شريكاً لله!

وها هم أيضاً ينسبون كذباً وبهتاناً إلى الله البنين كعيسى والبنات كالملائكة، وما هم إلا مفترون كذابون! فهو سبحانه الذي خلق السموات والأرض بهذا النظام الكوني البديع، فكيف يتصور عقل عاقل أن يكون بحاجة إلى ولد، لأن من ينسب له الولد هو بحاجة للاستمرار به، وهو سبحانه لا زوجة له، لأن من له زوجة لن يكون إلا مخلوقاً

لا خالقاً، فكيف يتصور ذلك مع الله تعالى وهو الذي خلق كل شيء والعليم بكل شيء إذ يحيط بتدبيره بكل شيء؟!

إنه الله تعالى رب جميع البشر، مهما شطحت عقولهم، وهو سبحانه الخالق الذي لا معبود بحق غيره، الذي خلق كل شيء فأوجب على كل مخلوقاته عبادته، كيف لا وهو سبحانه وتعالى الذي يتولى كل شيء برعايته وحفظه وتدبيره؟!

وأنه سبحانه لو شطحت العقول بالشرك لغيره معه فكيف لها أن تجد الحجة في ذلك وعيون الخلق بل عقول الخلق لا يمكن أن تراه وهي على حالها من الضعف البشري، ولا أن تحيط به وتدركه، بينما هو سبحانه يرى ويدرك كل مخلوقاته، وأكثر من ذلك هو الرفيق بها إذ مهما أساءت إليه تجد رحمته بانتظارها مع الإنابة ونصوح التوبة؟!

وتواصل السورة استثارة عقول أولئك الكفار والمشركين فتقول لهم بأن آيات الله وبراهينه التي تستطيع عقولهم لو كانت نزيهة أن تجد فيها الدلالة الكافية للإيمان بالله، وأن من يتحقق له ذلك فإنه لم يبذل جهداً ضائعاً وإنما مثمراً أعظم الثمار إذ سيكون مردود ذلك الإيمان على نفسه بالخير في الدنيا وفي الآخرة، وبالعكس فإن أصر على إقفال عينيه وعقله فإنه جنى على نفسه ولن يجد أحداً يوم القيامة يحفظه من الهلاك والعذاب الشديدين.

ثم تنبههم السورة إلى أن عرض هذه الأنواع من الآيات من وعد ووعيد ومواعظ وتنبيهات فيها ما تكرره السور الأخرى حتى لا يبقى لأحد منهم عذر أمام نفسه ولا سيما عندما يقولون بأن هذه الحجج قد عرضت عليهم ودرست لهم كما عرضت على غيرهم ممن كان لديهم علم بذلك من قبل.

وتخاطب السورة هنا الرسول عليه وآله وصحبه السلام آمرة له بأن يلتزم ما يوحى إليه من ربه من القرآن والسنة ولا يشغل عقله بما يقول ويفعل أولئك المشركون، ذلك لأنه لايوجد إله ومعبود يستحق الانشغال بعبادته غيره سبحانه، وأن يعلم عليه وآله وصحبه السلام علم اليقين بأن الله قادر على أن يفرض عليهم الوحدانية، ولكنه سبحانه وقد خلق قدرة الاختيار للإنسان أعطاه فسحة الاختيار بين الخير والشر، بين الإيمان والكفر، بين الوحدانية والشرك، وأنك يا محمد لم يجعلك الله حافظاً لهم من الهلاك والعذاب الذي ينتظرهم بعد اختيارهم بكامل إرادتهم ما اختاروه، ولا أنت الوكيل والمدبر لشئونهم.

وتنقلنا السورة بعدها إلى تحريم سب آلهتهم حتى لا يسبوا الله بجهلهم وبتصورهم

أن شركهم هو الصحيح، وسيعرفون الحقيقة عندما يرجعون يوم القيامة إلى الحساب بين يدي الله فيخبرهم بحقيقة الباطل والزيف الذي كانوا عليه. .

وتنبه الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى كذبهم بحلفهم بأغلظ الأيمان بأنهم يؤمنون إذا نزلت عليهم آية، وتخبره بأنهم كاذبون لأنهم ما إن تذهب الآية مهما كان نوعها حتى يعودوا إلى كفرهم، وتطلب من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يخبرهم أن إنزال الآيات أمره إلى الله وحده، وهو سبحانه العالم بصدقهم لو أنزل أي آية عليهم، فاطمئنوا أيها المؤمنون بأنهم لن يؤمنوا، فانظروا إليهم وهم يحاولون الرد على القرآن بالمجيء بمثله فيعملون عقولهم وعيونهم بذلك، فيرفضون الإيمان بالقرآن الآن مع هذه الآيات البينات كما رفضوا الإيمان به من قبل عندما حاولوا الإتيان بمثله وعجزوا، ولهذا انظر كيف أنهم يتخبطون في عتوهم وطغيانهم واستكبارهم! ولا يغرنكم زعمهم بأنهم يؤمنون لو أنزلت عليهم آية، واطمأنوا بأنهم لو أنزل الله إليهم الملائكة فرأوهم عياناً وكلمهم الموتى بعد إحيائهم، وأوجدنا بين أيديهم كل شي طلبوه، فإنهم لن يؤمنوا باستثناء القليل منهم ممن تشير إليهم المشيئة الإلهية في الآية التي تنتهي بالقرار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. .

واطمئن يا محمد بأن الله تعالى قد جعل لكل نبي قبلك عدواً من شيطان الجن وشياطين الإنس، وأن أولئك الأعداء كانوا يتهامسون فيما بينهم للكيد بك، بما يرونه من القول المزخرف الذي يظنون أن به الخداع الكافي لك، ولكن الله تعالى قادر على منعهم من كل ذلك المكر والخداع وإن أعطاهم الفرصة ليمارسوا اختياراتهم فيكونوا مسئولين عنها كما يكون المبتلى بمكائدهم مسئولاً عن موقفه منهم، ولذلك دعهم يا محمد مع افتراءاتهم وأكاذيبهم ولا تبال بذلك.. وهذا كله كان قبل النسخ بالأخذ على أيديهم ومنعهم من أي كيد ضد المسلمين وإمامهم.

وتواصل السورة الخطاب أن دع يا محمد وساوسهم الشريرة لتأخذ طريقها إلى نفوس أولئك الكافرين بالآخرة الذين يرضون بمثل هذه الزخارف والتزيينات، والذين يرتكبون بسببها الكثير من الشرور والسيئات. .

وقل لهم يا محمد هل أطلب غير الله حاكماً لكم وهو الذي أجاب بتلك الآيات وغيرها على كل أسئلتكم، والذي يعلم أهل الكتاب منكم أن كل تلك الآيات منزلة من الله تعالى؟ وحذرهم يا محمد من الاستمرار في الشك، لأن أمر الله قد تم بالتوحيد وتجنب الكذب والتشبيه له تعالى، وأنه تعالى لا راد لقضائه وحكمه. .

وتنبه السورة بعدها الرسول عليه وآله وصحبه السلام إلى محاولاتهم في التضليل

فتحذره من طاعة هذه الكثرة الضالة عن سبيل الله، لأنهم إنما يتبعون الظن في إيمانهم، والظن لا يغني من الحق شيئاً، وتطمئنه بأن الله تعالى يعلم أنهم ضالون مضلون، وأنه هو وأصحابه هادون مهديون.

وتنقلنا السورة بعدها إلى أمر المؤمنين بالاستمرار على طاعة الله مهما حاول المشركون أن يخدعوهم عن ذلك ولا يلتفتوا لتشكيكهم بشأن الأكل مما يقتلون لا مما قتل الله، أي المقارنة بين الذبيحة والميتة، وأن يأكلوا مما يذكرون اسم الله عليه بالتسمية مهما كان نوعه ما داموا مؤمنين بأحكامه وأوامره، وما دام هو سبحانه قد بيّن لهم كل ما حرم عليهم كالميتة وغيرها، ولم يستثن منها شيئاً إلا عند الضرورة الملجئة للموت، فيجوز الأكل دون الادخار، وأن يحذروا من الاستماع لأولئك المشركين الذين يفترون على الله الكذب عندما يتلاعبون بالألفاظ فيقولون بأن ما ذبحه الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم، وما هم في الحقيقة إلا معتدين على الحق.

وإياكم أن ترتكبوا أي نوع من أنواع الإثم سواء كان ظاهراً بما تكسبه الجوارح أو باطناً بما يجول في العقول والخواطر، فكونوا مع الله واستعيذوا به من ألاعيب الشيطان سواء بشأن الأكل والذبح أو غيرهما لأن كل من يرتكب إثماً فإنه سيحاسب عليه، ولذلك إياكم أن تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه بأن ذكر اسم غيره أو تعمد الذابح عدم ذكره تهاوناً واستخفافاً،

وهذا كله مما ورد في هذه السورة المكيّة، وأما ما نزل في المدينة فقد بين أكثر من ذلك فجعلت التسمية عند الذبح سنة ويكفي أن يذكر المسلم التسمية عندما يأكل من ذبيحة أهل الكتاب الذين قد يسمون على ذبائحهم بغير اسم الله.. ولذلك تحذر السورة في الآية المسلمين من وساوس الشياطين للكافرين ليدخلوا في جدال حول التسمية والذبائح ظناً بأنهم يحجون المسلمين بذلك، ولذلك عليهم أن لا يطيعوهم في تحليل الميتة التي يسمونها قتل الله وسكين الله، لأنهم مشركون لا يؤمنون بما أحل الله وحرم وإنما هو الجدل للتشكيك فقط.

وتذكرهم بعد التحذير بأن الكافر الذي هداه الله للإيمان كحمزة لا يمكن أن يكون كالكافر المصر على الضلال كـأبي جهل، فذاك وجد حلاوة النور وهذا زينت له نفسه وزين له الشيطان كفره وضلاله، فشتان بينهما! كما تذكرهم بأن الشيطان قد زين الضلال للكافر عندما تولى مسئولية كل تجمع بشري كالقرية فأغوى المجرمين الكبار منها ليمنعوا الناس عن اتباع الحق كما يفعل هؤلاء العتاة من المشركين في صد الناس عن الإسلام، وهم في الحقيقة إنما يسيئون لأنفسهم بسبب جهلهم المطبق.

وانظر إليهم وإلى هذا النمط الآخر من جهالاتهم وهم يقولون بأنهم لن يؤمنوا حتى يكونوا أنبياء ويؤتوا كما أوتي موسى وعيسى من البينات؟! مع أن عليهم أن يعلموا أن الله تعالى يعلم أين يجعل رسالته، ومن هو أهل لها، وأنهم سيصيبهم ذل وصغار من الله بسبب إجرامهم ومكرهم..

وتأكدوا وأنتم ترون هذا النمط من جهل المشركين أنه كما يعطي الله تعالى لأي كان فرصة الاختيار للهدى فإنه سبحانه وتعالى يعطيها لغيره من البشر ولكنه محض الاختيار للواحد منهم، وتأكدوا أن من اختار الهدى يشعر بسعة في صدره وراحة في نفسه وهو يقبل على الإسلام والخضوع لعبادة الرحيم الرحمن، وأما إن اختار الضلال فإنه يشعر بضيق في صدره وضغط يعتصره حتى يرتفع صدره إلى الأعلى كأنه يكاد ينفلت منه إلى السماء، وهكذا فإنه يسوق إلى نفسه الرجس بسبب كفره.. وشتان بين ما يكون عليه من الشرك والانحراف وبين هذا الصراط المستقيم الذي أنت يا محمد وقومك عليه بعد أن أخذتم بالآيات البينات وكانت لكم دار السلام يوم القيامة، كما كانت لكم الرعاية الربانية بطيب أعمالكم.

وتأتي السورة بعدها لمخاطبة الجن والإنس فتقول للجن يوم الحشر لقد استكثرتم من الاستمتاع بالإنس فيقول الإنس بأن الاستمتاع متبادل إذ هم يغووننا ونحن نستجيب لغوايتهم، ولكل متعته في ذلك، واستمر بنا الحال إلى انتهاء الآجال، فيأمر بهم ربهم إلى النار مثوى لهم جميعاً خالدين فيها إلا ما شاء الله عندما ينقل بعضهم إلى عذاب آخر غير النار، أو باستثناء بعضهم من الخلود في النار سواء ممن كانوا في فتن الدنيا أو ممن ماتوا ولديهم شيء من الإيمان.. ثم بعد هذا الخطاب للجن، يخاطب الإنس فيقول المولى سبحانه بأنه بنفس الطريقة يجري الكلام بين الظالمين عندما يتبرأ بعضهم من بعض مع أنهم أولياء فيما بينهم، مما يدعو الظالم للحذر من الاستمرار في ظلمه وإلا سلط الله عليه من يظلمه..

وتعود السورة بعدها ثانية ولكن لمخاطبة الجن والإنس معاً بأنه قد جاءتكم رسل منكم عرضوا عليكم آيات الله وأنذروكم من الحساب يوم القيامة، فيقرون بصدق ذلك، ويعترفون بأن الحياة الدنيا ما فيها من متع وشهوات قد غرتهم فانساقوا معها وانتهوا إلى ما انتهوا إليه من الكفر...

وهنا تعلل الآية التالية ذلك فتقول بأن ذلك كان لأن الله تعالى لا يهلك أي جماعة بظلمهم وشركهم قبل أن يرسل الرسل إليهم، وعندها تضيع منهم الحجة بأنهم لم يأتهم بشير ولا نذير، وعليه فإن لكل من الجن والإنس مسئوليته عن عمله، فإن أحسن

فله الجنة وإن أساء فله النار ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾ وأن الله تعالى عالم بكل صغيرة وكبيرة تصدر عنهم من أعمال وأقوال.. وأنه تعالى غني عن خلقه وأعمالهم، ورحيم بأوليائه، وهو سبحانه قادر على استئصال أولئك المشركين والمجيء بغيرهم كما جاء بمن قبلهم، وأن ما يتوعدهم به من عذاب الآخرة لابد قادم ولن يمنع من ذلك أحد،

ولذلك قل يا محمد لقومك بأن يعملوا على طريقتهم وأنك أنت ستبقى تعمل على طريقتك، وعندها سترون من تكون له النتيجة والعقبى بالخير أو الشر يوم القيامة، وأنه لن يفوز بالجنة الظالمون المشركون..

وانظروا إلى شكل آخر من أشكال جهالات أولئك المشركين عندما زعموا بأن ما بين أيديهم من الزروع والأنعام لله فيه نصيب ولأصنامهم فيه نصيب، فإذا ذهب ما لشركائهم من الأصنام بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا عنه مما لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على المساكين لم يعوضوا منه شيئاً بحجة أن الله مستغن عنه بينما شركاؤهم فقراء، فيا لغرابة وجهالة عقولهم: يرون أصنامهم فقراء ويتخذونها معبودات بينما يرون أن الله غني عن كل ما يقدمونه ويعبدون غيره!!

وانظروا إليهم وهم كما افتروا على الله بأن جعلوا له سبحانه نصيباً ولأصنامهم نصيباً فإن الكثير منهم قد قاموا بقتل أولادهم وخاصة البنات مخافة السباء والحاجة وعدم النصرة، وقد جرهم ذلك إلى الخروج على دين إسماعيل الذي يحرم قتل الأولاد، وكان الله سبحانه بقضائه وقدره قادراً على منعهم من ذلك ولكنه جل وعز تركهم لاختيارهم الذي حرفهم فاختاروا الافتراء عليه تعالى ليتحملوا مسئولية ذلك وساء ما يفعلون!

وانظروا إليهم وهم يرتكبون جهالة أخرى إذ يحرمون أنواعاً من الإبل كالبحيرة والوصيلة والحام والسائبة بتحريمها على غير آلهتهم سواء من حيث الأكل أو الاستخدام، كما يحرمون شيئاً من الحرث أي الزروع، وكل ذلك افتراء وكذب على الله لأنهم يزعمون أن الله قد أمرهم بذلك.. ولم يكتفوا بهذه الجهالة حتى حبسوا ما في بطون تلك الأنعام، سواء من لبن أو أجنة، على الذكور منهم دون النساء إذا جاء الجنين حياً، وأما لو جاء ميتاً فيشترك في أكله الرجال والنساء، فما أجرأهم على الكذب على الله! فليعلموا أن فعلتهم المنكرة تلك بقتل أولادهم وهذه بتحريم ما رزقهم الله افتراء وكذباً ما هما إلا ضلال وبعد عن الهدى، فليحذروا عقبى ذلك!

وليذكروا أن الله تعالى الذي رزقهم بالأولاد والأنعام هو الذي خلق لهم هذه

البساتين المعروشة وغير المعروشة من النخيل والزروع المختلفة الألوان والزيتون والرمان المتشابه والمختلف الألوان والطعوم والأشكال، وأنه تعالى سمح لهم بالأكل من ذلك كله فليقبلوا عليها دون تردد، وليكفوا عن هذا التحريم لها، وليحرصوا على إخراج زكاة ما يجب إخراج زكاته منها من حنطة وشعير وتمر وزبيب، وليحذروا من التقصير في ذلك حتى لا يقعوا في الحرام، لأن الله تعالى لا يحب المسرفين المرتكبين للحرام في الإنفاق مهما قل، ويبيح الإنفاق في الحلال مهما كثر.

وكما أنعم عليهم بالكثير الكثير من الفواكه والزروع، وأمرهم بالتمتع بأكلها، فقد أنعم سبحانه عليهم بما يمنّ به من الأنعام من الإبل والبقر والغنم، مما جعل منه ما يستخدمونه للحمل والأكل معاً، كالإبل، وما يستخدمونه للأكل والفراش من البقر والغنم سواء من لحومها أو جلودها وأصوافها، وأنه تعالى قد أباح لهم أكل لحومها، ولذلك عليهم تجنب أكاذيب الشيطان وأتباعه الذين يحرمون شيئاً من ذلك ويتبعون ما يأمرهم به الله.

وليعلموا أنه تعالى قد أحل لهم ثمانية أزواج: من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، فليحذروا تحريم شيء من ذلك لامن الذكور ولا الإناث ولا أجنتها، فيفتروا على الله مالم يقله، فيظلموا أنفسهم، والله تعالى يحاسب كل ظالم خرج عن الهدى بظلمه أشد الحساب.

وتخاطب السورة هنا الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليخبرهم بأن الله لم يحرم عليهم إلا الميتة والدم المراق ولحم الخنزير لأن الأولى لم تذك والأخريين نجستان، فلا الميتة ذبحت باسم الله ولا الدم والخنزير إلا نجس لا يجوز أكلها اللهم إلا للمضطر اضطراراً ملجئاً بحيث يعرضه للهلاك من الجوع فيجوز له عندها أن يأكل منها ما يقيم أوده فقط ريثما يصل إلى مكان آخر فيه الطعام، فإن الله تعال يعفو عنه.

هذا بالنسبة لشريعة الإسلام، وأما ما حرم الله تعالى على اليهود فتقول السورة نفياً لافترائهم بأنه تعالى لم يحرم عليهم شيئاً، مؤكدة بأنه حرم عليهم كل ذي ظفر أي كل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب، كما حرم شحوم البقر والغنم إلا شحوم الظهر والأمعاء أو ما خالط العظام، وأن ذلك التحريم جاء عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وعصيانهم الكثير، ثم تأمر السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يقول لهم إذا كذبوه بهذا التحريم بأن ربهم تعالى غفور عظيم وحليم كريم إذ لم يعاقبهم في الدنيا ولكن عذابه شديد ولا راد له من أحد إذا أراد إيقاعه بأحد.

وتلتفت السورة ثانية إلى كفار قريش فتخبر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنهم

سيقولون بأن شركهم وشرك آبائهم، وتحريمهم لأي شيء، قد جاء كله بمشيئة الله، فاعلم يا محمد بأن مثل هذا الكذب على الله قد جرى ممن قبلهم من الكفار الذين حل بهم من العذاب ماحل، فقل لهم فيما إذا كان لديهم من دليل يثبتون به صحة ادعائهم على الله، فاعلم أنهم لا يستندون في زعمهم هذا إلا إلى الظن، والظن لا يغني من الحق شيئاً.. فكيف يفترون على الله بأنه شاء بمعنى أمر أي قضى وقدر الشرك والتحريم عليهم وعلى آبائهم وهو سبحانه لا يأمر إلا بالتوحيد وبتحليل ما يحله وتحريم ما يحرمه؟!

فقل يا محمد لهم بأن حجة الله تعالى هي القاطعة، إذ أنه سبحانه الواحد الذي بلغ أوامره ونواهيه للخلق بواسطة أنبيائه ورسله، وأيدهم بالمعجزات فلم يبق للمكلف عذر، وأما قضاؤه وقدره فذاك من الغيب الذي لا يعلمه إلا هو، ولم يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول... فكيف يفترون على الله الكذب؟!

وقل لهم يا محمد بأنهم إذا عجزوا عن البيّنة كدليل على كذبهم وافترائهم على الله فليأتوا بشهدائهم ليشهدوا لهم بتحريم كذا أو كذا، واعلم يامحمد أن لديهم الجرأة على الشهادة الكاذبة، فاحذر أن تشاركهم أو تقرهم في شهادتهم لو شهدوا، وتتبع أهواءهم في الكذب وهم لا همّ لهم إلا هذه الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة وحسابها.

وبادرهم بالقول بأنك ستخبرهم بما حرم الله عليهم: إنه الشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل الأولاد بحجة الفقر، والاقتراب من الفواحش ما ظهر منها كالسرقة والزنا، وما بطن كالرياء، كما حرم قتل النفس إلا بالحق، والاقتراب من مال اليتيم إلا للمحافظة عليه وتنميته حتى يرشد، والتعامل بالكيل والميزان بدون عدل، والشهادة الباطلة ولو بحجة القربى، وعدم الوفاء بالعهود..

وليعلموا أن هذا هو طريقك القويم الذي أمر الله بالسير فيه وعدم السير في غيره من السبل والطرق لئلا يقعوا في الضلال ويبتعدوا عن الهدى والرشاد.

وتعود السورة إلى الإشارة إلى ما أنزله تعالى على موسى عليه السلام ليبلغه لبني إسرائيل، وأنه كتاب التوراة الذي حرم فيه عليهم ما حرم، وبين من الهدى والرحمة لهم ما بين، ودعاهم لالتزام ذلك ليلقوا ربهم يوم القيامة وهو عنهم راض..

ثم تقول: وبلغهم يا محمد أيضاً أن الله قد أنزل هذا القرآن المبارك وأمرهم بالعمل بما فيه فليحذروا من تحريفه كما فعلوا بكتابهم ليكونوا ممن يرون رحمة الله وتجنب عذابه..

واحذروا يا أهل مكة من القول أن الله قد أنزل التوراة والإنجيل على اليهود

والنصارى، و أنه لم ينزل عليكم شيئاً، وأنكم كنتم لا تعلمون لغاتهم ولا كتبهم، واحذروا أيضاً أن تقولوا لو أنزل علينا مثلهم كتاباً لكنتم أكثر هدى وطاعة لله منهم، فها هو القرآن بين أيديكم قد أنزله الله عليكم، فلا حجة لكم، وإياكم من الكذب وتكذيب القرآن والإعراض عنه لأن الله تعال سيجازي من يفعل ذلك سوء العذاب وشديده.

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول للمشركين ماذا تنتظرون بعد أن أقيمت عليكم الحجة وأنزل عليكم القرآن وأعرضتم عنه، فماذا تنتظرون؟ ملائكة الموت أو ملائكة العذاب يأتونكم بأمر الله أو يظهرون عليكم إذ يمهلكم الله حتى مجيء الساعة؟ فلتعلموا أنه عندما يحصل شيء من ذلك تكون الفرصة للندم والتوبة قد ضاعت عليكم إذ يجب التوبة قبل ذلك مع عمل الصالحات لتكون مقبولة.

وقل لهم يا محمد بأن من يترك دينه بالكلية، أو يؤمن بشيء منه ويكفر بغيره، فإنك بريء منهم، وأنهم غداً سيقفون للحساب بين يدي الله ليخبرهم بالجزاء العادل على أفعالهم، وأن من فعل أي فعل حسن فإن الله سيثيبه بعشرة أمثاله من الحسنات وأما من فعل سيئة واحدة فإن الله سيجزيه بواحدة مثلها، وكل ذلك من رحمته تعالى وفضله وكرمه لأنه سبحانه لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

وقل لهم يا محمد بأن ربك قد أرشدك وهداك بهذا القرآن الذي أنزله إليك وما يرافقه من بيان الطريق المستقيم إلى الدين القائم على التوحيد، كما هي حال ملة إبراهيم الذي لم يكن من المشركين، وقل بأن صلاتك وجميع طاعاتك وما تعمله في حياتك، وما توصي به بعد وفاتك، هي كلها خالصة لله رب العالمين، الذي لا تشرك به شيئاً، وأن هذا هو أمر الله إليك الذي تدعوهم للتقيد به، وأنك ستكون بذلك أول المسلمين، وأنهم سيكونون معك لو التزموا به.

وقل لهم يا محمد مستنكراً طلبهم أن تعبد غير الله، رب كل شيء، وأنك لن تعبد رباً غيره سبحانه، وحذرهم من مثل هذا الطلب، وأخبرهم بأن الإنسان محاسب على كل ما يفعله ولن يحاسب عليه أحد غيره، لأن أي نفس لا تؤخذ بذنب غيرها، ويوم القيامة، يوم الحساب، سيجد كل امرئ الخبر اليقين لدى رب العالمين عندما يخبره بما كان عليه حقيقة، ومدى صحته وبطلانه بالمقارنة مع من يخالفه.. وإن كان من يبتدع أو يقود غيره ببدعة ضالة فإنه يحمل وزر من أضله واتبعه ولكن من غير أن ينقص من وزر المتبع شيئاً.

وتنتهي السورة ببيان للخلق جميعاً بأن الله تعالى الذي سيفصل بين العباد يوم

القيامة ويحاسب كل امرئ بما كسب في ذاته، وما أثر به على الآخرين في اكتسابه، هو سبحانه الذي جعل كل هؤلاء البشر المخاطبين خلفاء لمن كان قبلهم من الأمم السابقة في الأرض، وأنه تعالى هو الذي رفع بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والقوة وغيرها، وجعلهم يمتازون بعضهم على بعض في الدرجات والمقامات، وأن ذلك بهدف ابتلائهم واختبارهم ليعمل كل منهم بما يختاره بناء على ما أودع فيه من قدرة الإدراك والاختيار فيحصّل ما يحصل من ثواب أو عقاب، وينتهي به سعيه إما إلى العقوبة بالعذاب وإما إلى المثوبة بالنعيم.

التفسير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ففي هذه الآيات العشر الأولى من سورة الأنعام يحمد المولى سبحانه ويثني على نفسه مثبتاً الألوهية والربوبية له وحده ومعلماً للمؤمنين كيف يحمدونه سبحانه، ومستنكراً كيف يعدل الكافرون عنه سبحانه وهو الخالق لذلك كله من الأشياء وللظلمات من الشرك بأنواعه والنور بأجزائه من المظاهر، كيف يعدلون عنه في إيمانهم إلى غيره؟!

وها هي قدرته وعظمته وحكمته وعلمه وإرادته تظهر في خلقه وذلك كله بعد أن

جعل في كل من السموات والأرض الآيات الكثيرة كما جعل في ظلمات الكفر والجهل ونور الإيمان والعلم الدلالات الكثيرة، أخذاً بها في القرآن والسنة، فكيف يجعل أولئك الكفار مع هذا كله لله عدلاً وشريكاً، كيف ذلك وقد تقرر خلقه واعترفوا به، وسطعت آياته وأنعامه في ذلك كله، فلم يبق لهم حجة يحتجون بها؟!

وبعد أن احتجت السورة عليهم بخلقه تعالى للجانب الكوني من الوجود جاءت للجانب الحي جانب خلق الإنسان نفسه بالذات لتقول لهؤلاء المشركين المجادلين بأنه تعالى هو الذي خلقهم في أول خلقهم المتمثل بآدم من طين ثم حدد كما قال عليه وآله وصحبه السلام «الناس ولد آدم وآدم من تراب»، حدد الأجل الذي ينتهي كل منهم فيه بالموت والأجل الذي يبعثون فيه جميعاً يوم القيامة للحشر والحساب، ثم يشكّون بعد كل هذه الآيات البينات المعجزات بأنه إله واحد؟!

وكيف يشكّون بذلك وهم المعترفون بأن الله هو المنفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض، وهو العالم بسرهم وجهرهم فلا يخفى عليه شيء كما لا يخفى عليه أي عمل مما يعملون بغض النظر عما يفعلونه مكابرة وعناداً عندما يرفضون الآيات التي يجدها كل ذي عقل واضحة أمام العيان، كانشقاق القمر، والتي يستدل بها على توحيد الله تعالى وأنه سبحانه القادر على كل شيء والذي لا يعجزه شيء والعالم بكل شيء، وبغض النظر عن تكذيبهم للقرآن وبمحمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام،

وما عليك يا محمد إلا أن تصبر على كل هذا الأذى والتكذيب منهم وسوف ترى ما يحل بهم من عذاب في الدنيا من مثل الهزائم التي تحل بهم، وقد حلت بالفعل في بدر والخندق وفتح مكة والطائف وغيرها، ناهيك عما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة.

ثم تشنع السورة عليهم غياب عقولهم للعظة والاعتبار مما حل بمن كان قبلهم من الأمم السابقة التي أهلكها الله بأصناف من العذاب بعد أن تحققت لهم المكانة والقوة في الأرض فاغتروا بها واستكبروا ونسوا ما أنزل عليهم الله من رزقه من السماء وما فجر لهم من إنعامه وأفضاله من أنهار الأرض.. فماذا كانت عاقبتهم في الدنيا؟ لقد أهلكهم الله بسبب ذنوبهم تلك وأتى بأمم أخرى حلت محلهم، فهل يريدون نفس المصير؟!

ثم تخاطب السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام فتنبهه إلى طلبهم بأن ينزل عليه من السماء كتاباً مكتوباً في قرطاس، ويلمسوه بأيديهم من باب المبالغة في التمييز وبحجة أن يذهب عنهم كل ارتياب ويزول كل شك، ولكنهم ماذا يفعلون لو استجيب لمطلبهم؟

تجيب السورة على مطلبهم فتؤكد بأنهم سيعاندون في شكهم وارتيابهم، ويتابعون كفرهم، ويزعمون بأن ما رأوه مجرد سحر مبين سحر أبصارهم.

ثم تواصل السورة التنبيه على الرسول عليه وآله وصحبه السلام لمطالبهم وأنهم يقترحون أن ينزل على الرسول عليه وآله وصحبه السلام ملك، ويروه بالطبع بأعينهم، ولكن النتيجة أنهم لن يطيقوا رؤيته لمحدودية قدرتهم وقدرة الإنسان عن ذلك، وسيحل بهم العذاب والهلاك جرياً على سنة الله في ذلك بأنه متى أنزلت آية بطلب قوم ولم يؤمنوا بها فإنهم يعاقبون فوراً على ذلك بالهلاك ولا يمهلون أبداً، ثم إنهم لن يأنسوا بالملك إذا جاء على شكل رجل لا يعرفونه بل سينكرونه لهذا السبب، كيف لا وهم ينكرون الرسالة على محمد عليه وآله وصحبه السلام وهم يعرفونه خير المعرفة من قبل، وأنه الصادق الأمين، ثم إنهم بمجرد نزوله على هيئة رجل يسارعون إلى التشكيك فيه كما يشككون بمحمد عليه وآله وصحبه السلام، وهنا خاطبت السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام مسلية له لموقفهم هذا بأنه ليس غريباً في عالم أمثالهم من الأمم الكافرة السابقة إذ استهزأت تلك الأمم برسلها فنزل بهم ما أهلكهم من العذاب جزاء استهزائهم بأنبيائهم، فليحذر هؤلاء ذلك!!

وتركز السورة بعدها الخطاب للرسول عليه وآله وصحبه السلام ليستثير فيهم التفكير الجدي والسوي بعالم السموات والأرض ليتدبروا فيؤمنوا.. فتقول:

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾
قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ
مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾
مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ
لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ
ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ
أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ
﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

فتطلب منه عليه وآله وصحبه السلام أن يقول لأولئك المستهزئين المكذبين أن يسافروا في أقطار الأرض وينظروا فيما يرون من معالمها ويستخبروا عن وقائعها ويعرفوا ما حل بالكفرة من شديد العقاب وأليم العذاب.. وتدعوه ليسألهم عمن يملك ما في السموات والأرض، وأنهم إن سألوا عنه فليقل لهم بأنه هو الله تعالى، فإن اعترفوا كعادتهم بذلك فقد قامت الحجة عليهم وليعلموا أنه تعال القادر على خلق السموات والأرض وتدبيرها قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ويبعثهم بعد الموت، ولكنه قد وعد بالرحمة كرماً منه وفضلاً، ولذلك أمهلهم، والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده أن رحمتي تغلب غضبي» أي أنها تسبقه وتزيد عليه، ومن هنا جاء إمهاله تعالى لهم إلى يوم القيامة حين يجمعهم فيه ليحاسبهم فيعرف المشركون أنهم قد خسروا أنفسهم بكفرهم.

وتعود السورة وتؤكد لهم بأن لله وحده كل ما ثبت أو تحرك من مخلوقاته في الليل والنهار، وهو سبحانه السميع لكل ما يصدر عنها من أصوات والعليم بما يخفى لها من أسرار.

ثم تدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليواصل محاجتهم بأن يسألهم فيما إذا كان له أن يتخذ غير الله ناصراً ومعيناً وهو الذي خلق السموات والأرض، والذي إليه رزق العباد كلهم لحاجتهم إليه وليس له سبحانه أي حاجة إلى أحد منهم، ولتقل لهم إجابة على هذا التساؤل بأنك مأمور أن تكون أول من يخضع ويذعن لأمر الله تعالى ونهيه، أنت وأمتك، وألا تكونوا من المشركين.

وارجع يا محمد وأكد لهم أنكم تخافون من أن ينزل عليكم لو عصيتموه عذاب ربكم في ذلك اليوم العظيم، يوم الحساب الذي لا يتخلص من العذاب فيه أحد إلا من شملته رحمة الله، وعندها يكون قد حاز على النجاح والفلاح والفوز العظيم.

وعد يا محمد وأكد لهم بأنه إذا أصابك أي شدة من فقر أو مرض فإنه لا مخلص لك منه إلا الله، وإن أصابتك أي عافية أو رخاء ونعمة فهو سبحانه وحده صاحبها وذلك بقضائه وقدره الذي جعل الأرزاق والأعناق بيده وحده فهو سبحانه القادر على كل شيء ولا راد لقضائه..

كما وأعلمهم بأن الله وحده الغالب المسيطر على جميع عباده، وبحكمته في تدبير أمورهم وبخبرته في أعمالهم يؤكد سبحانه بأنه لا شريك له لا في الخلق لكل الخلق ولا في تدبيرهم ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقل لهؤلاء المشركين في مكة، وكل أرجاء الأرض من بعدهم، متسائلاً عمن هو أكبر شهادة إذا كانوا يسألونك عمن يشهد لك بأنك رسول الله، وأجبهم بأن الله أكبر شهادة لانفراده بالربوبية، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم، فهو سبحانه شهيد بيني وبينكم على أنني قد بلغتكم وصدقت فيما قلته وأدعيته من الرسالة.

وليعلموا أن القرآن شاهد بنبوتك يا محمد لتنذر به أهل مكة ومن وصله من البشر وخاصة ممن بلغ الحلم فصار مكلفاً، وذلك لأنك قد أمرت بالتبليغ فقلت «بلّغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ثم دعته عليه وآله وصحبه السلام السورة ليسألهم موبخاً ومقرعاً فيما إذا كانوا يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، ثم تأمره ليقول لهم بأنه لا يشترك معهم في مثل هذه الشهادة المنكرة، وإنما يقول لهم بأن الإله واحد لا شريك له وأنك بريء مما يشركون معه من آلهة..

وأخبرهم بأن الله يعلم أن اليهود والنصارى يعرفون أن الرسول محمد هو رسول الله كما يعرفون أبناءهم أنهم أبناؤهم لأن نعته وصفته محددة لديهم في كتبهم بكامل الوضوح، وأن أولئك الذين ينكرون ذلك منهم هم من خسروا أنفسهم بإنكارهم الحق وخروجهم عن الإيمان، واسألهم موبخاً عمن هو أظلم من المفتري بالكذب على الله إذ ينكر وحدانيته، أو بالكذب على آياته إذ ينكر القرآن والمعجزات الأخرى.

وأكد لهم بأن من يفعل ذلك هو الظالم الذي لا يرى الفلاح والنجاح في الآخرة والدنيا، ولا سيما عندما يحشرهم الله في ذلك اليوم، يوم الحساب، فيطالب المشركين بأن يأتوا بشركائهم الذين زعموا أنهم آلهة مع الله، فيظهر كذبهم للخلق ويفضحوا على رؤوس الأشهاد فيحل عليهم الخزي والعار..

وأخبرهم يا محمد بأنهم عندما يختبرون بمثل هذا السؤال لن يجدوا إلا الجواب بالحق وقد رأوا الحقائق وارتفعت الدواعي، وأن نفيهم الشرك عن أنفسهم لن ينقذهم من عذاب الله بالخلود في النار، إذ ما أسرع ما يختم على أفواههم فتشهد عليهم أعضاؤهم بشركهم فيتمنوا لو كانوا ممن يتحول إلى التراب كالدواب ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.. ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام لينظر إليهم وهم يكذبون على أنفسهم

بإنكارهم شركهم، وزعمهم بأن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، وكيف ضل عنهم افتراؤهم وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم.

وتواصل السورة دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام للمزيد من محاجتهم ومجادلتهم فتقول:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

منبهة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن من مشركي مكة من يستمع إليه ولكنهم لا يفكرون ولا يتدبرون بما يسمعونه مما يؤدي لعدم إيمانهم وانقيادهم إلى الحق، وكيف لهم ذلك وقد أصموا آذانهم عن التدبر، وأقفلوا عيونهم عن التبصر، وحرموا قلوبهم من التأثر فأصبحوا بينهم وبين الإيمان حواجز كثيفة حتى أنهم إذا قصدوا الجدال معك كما فعل النضر بن الحارث، الذي كان على إطلاع على أساطير العجم، فإنهم يتهمونك بأن ما تقوله لهم ما هو إلا أساطير وأباطيل وترهات!

فانظر إليهم يا محمد وهم لا يكتفون بالبعد عنك وإنما ينهون غيرهم من الاقتراب منك كما كان الحال بشكل ما يشبه ما عليه أبو طالب الذي كان ينهى كفار قريش من إيقاع الأذى بابن أخيه محمد عليه وآله وصحبه السلام ولكنه في نفس الوقت يبتعد عن الإيمان به.

وما حادثة عبد الله بن الزبعري الذي لطخ رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالروث أثناء صلاته، وتلطيخ أبي طالب له بمثله، إلا إشارة إلى ذلك، مما جعل الرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول عنه: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو

منتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه»، وأما الزبعري، فسبحان مقلب القلوب، فقد أسلم وحسن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقبل عذره.

وتنهي السورة ذكر هذه الحالة بأن من يفعل ذلك لا يهلك إلا نفسه دون أن يدري لأنه بكفره يخسر نفسه في نار جهنم.

وتدعو السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام لينظر إلى أولئك الكفار وقد وقفوا فوق الصراط والنار تشتعل من تحتهم، فإنهم سيكونون على أسوأ حال لا يملكون معه إلا التضرع والتمني أن يعادوا إلى الدنيا لكي يتوقفوا عن التكذيب بآيات الله ويكونوا مع المؤمنين، ولكن السورة تكذبهم في قولهم وتقول لهم بأنهم لو ردوا إلى الدنيا فإنهم يعودون إلى التكذيب والكفر وإلى القول بأن الحياة كلها ما هي إلا هذه الحياة الدنيا بمعنى أنه لا يوجد حياة أخرى ولابعث وحساب..

وتدعوه عليه وآله وصحبه السلام السورة ليرى حالهم وقد وقفوا ينتظرون ملائكة الله لإيقاع جزائه عليهم فماذا يكون حالهم وهم يسألون عما يرونه، وفيما إذا كان هو الحق أم لا، فإنهم يقسمون بالله أنه الحق، ولكن أنى لهم الخلاص بهذا الإقرار في غير وقته، فيقال لهم إليكم جزاء كفركم فاحترقوا فيه! وبذلك فإنهم إذا كذبوا بالبعث والجزاء بعد الموت فقد خسروا أنفسهم، فلا يجد الواحد منهم إلا الحسرة والندامة متى وقعت الساعة ودعوا للحساب، الأمر الذي يفرض عليهم وعلى الناس جميعاً أن يتنبهوا لما سيلاقونه من حسرة وندم لتفريطهم في التزام الطاعات وتجنب المنهيات، فيأتون يوم القيامة وقد أثقلتهم أعمالهم من الذنوب..

ثم تحذرهم السورة الانخداع بهذه الحياة الدنيا فتقول لهم بأنها ما هي إلا لعب ولهو لمن يعصي الله ويقضيها في المتع المحرمة والشهوات المحرمة بينما الدار الآخرة أفضل من هذه الدنيا لأنها للمتقين حافلة بما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم والمسرات الخالدات بينما هذه الدنيا فانية زائلة مهما تخللها من مسرات، فهلّا عقل ذلك العاقلون وعمل لما هو الخير والأفضل العاملون؟!

وتتحدث السورة بعدها مع الرسول عليه وآله وصحبه السلام وعنه في موقفه من المكذبين برسالته فتقول:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ
وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى

ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۢ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ .

مخبرة الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن الله تعالى يعلم ما يلم به من حزن وأسى بسبب ما يوجهونه إليه أولئك المشركون من قول، من أمثال قول أبي جهل عندما مر به فقال له: يا محمد، والله ما نكذبك، وإنك عندنا لصادق، و لكن نكذب ما جئت به، ومسلية له عليه وآله وصحبه السلام بأن تكذيبهم هذا لرسالته ليس أمراً جديداً لأنه قد حصل أمثاله مع إخوانه من الرسل السابقين عندما كذبوا فيما أرسلوا به وسمعوا مثل ما يسمع وأشد، ولكنهم ماذا فعلوا؟

وهنا تخبره السورة وتدعوه إلى ما كانوا عليه أمام تكذيبهم أن صبروا على ذلك التكذيب، وعلى ما صاحبه ولحقه من أذى، ولكن لم يطل بهم الصبر حتى جاءهم النصر، مبينة بذلك أن عليك يا محمد بالصبر كما صبروا وعندها سيأتيك النصر، وهذا هو حكم الله وقضاؤه، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ كيف لا وهو سبحانه القائل ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٥١] والقائل ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ﴾ [المجادلة: ٢١].

فكما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ألا يشتد حزنه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون فكذلك أكد له أنه لا يستطيع هداهم مع إصرارهم على الكفر، ولذلك دعته عليه وآله وصحبه السلام السورة إذا كان قد عظم عليه إعراضهم وتوليهم عن الإيمان بهذا الشكل فليأتهم بآية من السماء أو من الأرض إن استطاع، وليحاول بها إقناعهم وإدخالهم في الإيمان، ولكن ليعلم أن مثل هذه المحاولة شيء والهدى شيء آخر، وعليه أن يعلم أن الله لو شاء أن يفرض عليهم الهدى لفعل، وهو سبحانه القادر على ذلك، ولكنه أعطاهم القدرة على الاختيار ليتحملوا مسئولية ذلك، وما عليه كرسول إلا التبليغ المبين ولا يحمّل نفسه أكثر من ذلك حتى لا يقع في عمل الجاهلين،

وليتذكر دائماً أن الذي يستجيب لدعوته هم الذين يلقون آذانهم بكل جدية واستماع، قاصدين معرفة الحق ليتبعوه، وأما الذين لا يريدون الاستماع فيقفلون آذانهم فإنهم كالموتى الذين غداً سيعرفون جزاء عنادهم واستكبارهم عندما يحشرون يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم..

وانظر إليهم يا محمد وهم يطلبون نزول آية عليك من ربك من باب التعنت،

ويرفضون ما ظهر لهم من براهين، مع أنهم قد عجزوا عن أن يأتوا بسورة مثل ما في القرآن وهم أهل الفصاحة والبيان، وكأنهم لا يعلمون بأن الله القادر على كل شيء قادر على إنزال آية عليك!!

ثم تشير السورة إلى بعض آيات الله التي يراها الكفار دائماً بأعينهم فتقول:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

مبينة أن دواب الأرض بجميع أنواعها وأشكالها، وطيور الفضاء بجميع أحجامها وألوانها وأنواعها، ما هي إلا أمم تماماً مثل ما هم البشر أمم، فتجد قطعان الحيوانات وطرود الحشرات وأسراب الطيور تتجمع هنا وهناك بدواعي غريزتي النوع والبقاء اللتين فطرتا عليهما مشكلة تجمعات كأنها أمم مماثلة لما هم عليه البشر الذين امتازوا بخاصية الإدراك العقلي عن الحيوانات والطيور والحشرات التي لا تملك إلا خاصية الإدراك الشعوري، في مجال الإدراك، وبغريزة ثالثة هي غريزة التدين التي لا تختلف في حقيقتها لدى هذه المخلوقات عما لدى البشر، وتبقى لها تسبيحها وعبادتها التي تليق بها مما لا ندركه نحن البشر ولكن نعرف وجودها مما أخبرنا به الله تعالى في القرآن الكريم القائل ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]..

ففي هذه الدواب بأنواعها، والطيور بأصنافها، ما فيها من الآيات البينات لمن كان له عقل يفكر به ويعي، وأما من أقفله وعاند واستكبر فقد حرم من العظة والاعتبار وبقي في إطار هذه الدواب والطيور، وصدق سبحانه القائل في حق مثل هؤلاء الكفار ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].. فلوح الله المحفوظ، بل علمه المحيط بكل شيء يشتمل على أخبار وأحوال هذه الدواب والطيور، فيقتص من كل منها يوم الحساب ثم يقال لها كوني تراباً، يتمنى عندها هؤلاء المشركون لو يتحولون مثلها إلى تراب وهم يرون حقائق الحشر والحساب لهم ولأمثالهم بالمقارنة مع المؤمنين الصالحين.

أما الدواب والحشرات والطيور فإنها ستحشر يوم القيامة، وهذا مما لاشك فيه، فالآية في نهايتها تؤكد ذلك إذ تقول ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ وسورة التكوير في آيتها الخامسة تقول ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ والرسول عليه وآله وصحبه السلام يقول: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء (أي التي لا قرن لها) من

الشاة القرناء» ثم يقال لها كلها (كوني تراباً) فيتمنى الكفار أن يكونوا مثلها وهذا قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

وتواصل السورة الحديث عن أحوال المكذبين بآيات الله وما يلزم لمجادلتهم ومحاجتهم فتقول:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

مبينة أن أولئك المكذبين بآيات الله وبيناته قد عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم فلا يهتدون لما فيه خيرهم ومصلحتهم بينما نجد كل أمة من الدواب والطيور وأمثالها تهتدي لمصالحها، ذلك لأنهم غارقون في ظلمات الكفر ورافضون فتح عقولهم للحق والعدل بما وضعه الله لهم كمخلوقات، كل حسب نوعه وحاجته، من أسباب الهداية والضلال عن خيرها وما ينفعها في الدنيا والآخرة..

وتطلب السورة من الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يسألهم لمن سيلجأون في دعائهم وطلب المعونة لإنقاذهم عندما يحل بهم عذاب الله في الدنيا أو عندما تقوم عليهم القيامة فيبعثون ويحشرون للحساب فيرون ويتحققون مما سينزل بهم من العذاب، وهل سيدعون لخلاصهم غير الله تعالى إذا كانوا صادقين مع أنفسهم ومع الحقائق التي يرونها بأم أعينهم؟!

ثم تدعوه ليؤكد لهم بأنهم لن يدعوا أحداً غير الله وقد اشتد عليهم كرب العذاب وأحاطت بهم الشدائد سواء في الدنيا أو في الآخرة.. وعندها إذا قضى الله تعالى وقدر بمشيئته أن يكشف ما حل بهم من ضر وشدة فإنهم سيجدونه وقد انكشف عنهم وزال، وأنهم في هذا الموقف كله ينسون أولئك الشركاء الذين كانوا يشركونهم مع الله ولايطلبون منهم شيئاً..

وفي ذلك تعبر السورة عن مدى ضآلة الكافر أمام حاجته، وكيف أنه ينسى حتى شركه الذي كان يصر عليه في الرخاء والرفاهية.

وللإحساس بالأسى الذي يسببه هؤلاء المشركون لأنفسهم فقد حض سبحانه على الدعاء حتى من أمثالهم، لما في ترك الدعاء من جفاف القلوب وفقدان الصلة بالله وترك المجال واسعاً لوساوس الشيطان وتزيينه للأعمال السيئة.. فإنهم لو تضرعوا لله بصدق وإخلاص لتخلصوا من شركهم واستجاب الله دعاءهم وكشف ما بهم من شدة وبلاء بينما عندما يقطعون صلتهم بالله حتى في أوقات الشدة فإنهم لن يكونوا إلا موضع عبث الشيطان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] بما يحمله هذا النص من تهديد ووعيد شديدين... أما وقد قست قلوبهم وصلبت بإصرارهم على المعصية، والعياذ بالله، فلا مجال إلا للشيطان ليسهل عليه غوايتهم بالمعاصي وحملهم عليها..

وتواصل السورة ذكر إصرارهم على الاستكبار بأن تركوا ما ذكّروا به فلم يهتموا به، وذكر ما يستدرجهم به تعالى من النعم والخيرات الكثيرة التي يوفرها لهم عند تركهم للتذكير والاعتبار، ثم تؤكد استدراجهم إذ تشير إلى أنهم ما إن يعجبوا بتلك الخيرات ويظنوا أنها دائمة، وأنها دليل رضى الله عنهم، حتى يفاجئهم عذاب الله الذي ينزل بهم بغتة فيقعوا في الحيرة والاضطراب ويهلكوا عن آخرهم جزاء ظلمهم لأنفسهم. ثم تعلّمنا السورة أن نحمده تعالى ونثني عليه عندما نرى مثل هذا الدمار والهلاك يستأصل الكافرين والمشركين.

ويستمر التوجيه الرباني لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في مجادلة المشركين فتقول السورة:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ .

فقل يا محمد لهؤلاء المشركين من سيعيد إليهم سمعهم وأبصارهم إن انتزعت منهم، ومن يفتح عليهم قلوبهم التي طبع الله عليها، هل يجدون غير الله إلهاً آخر عندهم قادر على ذلك؟!

إنهم بالطبع سيعترفون بأنه لا إله غير الله يفعل ذلك، ولكنهم بالرغم من إقرارهم وهم يرون تنوع الآيات في مخاطبتهم من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب وغيرها حتى يعجلوا إلى الإعراض عن ذلك كله وكأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً!

فارجع إليهم يا محمد وقل لهم من سيهلك عندما يحل بهم العذاب من شدة وقحط وغيرهما لو أتاهم ليلاً أو نهاراً غير الكافرين الظالمين الذين جلبوا لأنفسهم هذا العذاب؟!

وأعلمهم بأن الله تعالى لايرسل المرسلين للبشر إلا ليبشروهم بالخير في الدنيا والآخرة وينذروهم من العذاب في الدنيا والآخرة، فمن يستجب للرسول ويؤمن بما يدعوه إليه ويصلح أعماله وأقواله بأن يضبطها بميزان إيمانه فإنه لن يجد ما يخاف منه ولا يحزن عليه عندما يحشر إلى ربه للحساب يوم القيامة، وأما من ذكّر بآيات الله ورفض الاستجابة للرسول فإنه يجر على نفسه بفسقه وعصيانه العذاب الأليم الملائم لأعماله.

وتواصل السورة تبليغها للرسول عليه وآله وصحبه السلام لينقله لمن حوله فتقول:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم
بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم
مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

داعية له عليه وآله وصحبه السلام أن يرد عليهم طلبهم بأن ينزل الله عليه آية من ربه بأن يقول لهم بأن خزائن قدرة الله ليست بيده لينزل ما اقترحوه من آيات، وأنه لا يعلم الغيب ليخبرهم به، وأن يقول لهم بأنه ليس بملك من الملائكة ليشاهد من أمور الله مالا يشاهده البشر، وإنما هو متبع للوحي فيما ينزله عليه بحيث لا يقطع أمراً إلا إذا كان فيه وحي، حتى أنه لو اجتهد كما يقال في شيء يرده الله إلى الأولى منه لو خالف الأولى، إذ لا يجوز الاجتهاد في حق الأنبياء، وإن قال بجوازه بعض العلماء، لأنهم أي الأنبياء في موضع تلقّي عن الله وتبليغ رسالته وليس لذلك مما يجوز عليهم الخطأ، والاجتهاد يجيز عليهم الخطأ كما يجيز الصواب.

فالآية تأمره عليه وآله وصحبه السلام أن يبلغهم بأنه لايتبع في قوله وعمله إلا الوحي، وبذلك يتحقق الهدى والإيمان ورؤية الباطل والعمى عن الحق، وشتان بين الأمرين، فهلّا فكروا بذلك بما لديهم من عقول ليعرفوا الحق فيتبعوه والباطل فيتركوه!!

ثم تدعوه الآية التالية أن ينذر بما ينزل عليه من وحي أولئك الذين أقفلوا عيونهم عن رؤية الحق وأصبحوا يخافون من يوم الحشر للحساب لكثرة ما علقوا به من الأعمال الشريرة، وليعلمهم بأنهم ليس لهم غير الله ناصراً وشافعاً فليعجلوا بالإيمان به والعودة إلى حظيرة التقوى منه.

ثم تأمره عليه وآله وصحبه السلام ألا يستجيب لطلب زعماء قريش وأشرافها فيطرد أولئك الصحابة الفقراء الذين يلتفون حوله داعين الله ومصلين في الليل والنهار ولا يبتغون من ذلك إلا رضى الله، وتعلمه أن أمثال سلمان وصهيب وبلال وخباب وعمار لهم مكانة عظيمة عند الله أكبر من أن يقارن بها أحد من أولئك الزعماء، وتحذره من أن يظن في الاستجابة لطلب أولئك الأشراف خيراً، وتخبره بأنه ليس عليه من جزاء أصحابه الضعفاء هؤلاء ولا كفاية أرزاقهم من شيء، لأن ذلك كله إلى الله وحده، وأنه لا شيء عليهم من جزائه ورزقه عليه وآله وصحبه السلام، تقول بأنه لذلك أقبل عليهم وجالسهم ولم يطردهم استجابة لأولئك الكافرين وذلك حتى لا يقع في الظلم، وحاشا رسول الله عليه وآله وصحبه السلام من ذلك وإنما هو بيان للأحكام ليلتزم غيره بها..

وتعلمه عليه وآله وصحبه السلام بأنه كما فتن الله من كانوا قبله فإنه تعالى فتن هؤلاء فأصبح هؤلاء الأغنياء الأقوياء الأشراف يقولون فيما إذا كان هؤلاء الضعفاء والفقراء قد منّ الله عليهم وتفضل بالإيمان ولم يمنّ عليهم هم، مستفسرين عن سبب ذلك، ليأتيهم جواب رب العالمين: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مؤكداً لهم بأنه تعالى وحده العالم بمن يقر له بالقدرة على كل شيء ويشكره ويثني عليه نعمه وكرمه وفضله، بمعنى أنهم ليسوا بأهل لذلك بسبب كفرهم وشركهم فلا غرابة إذا حرموا ممالم يحرم منه أولئك الفقراء الضعفاء.

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وتوجيهه في شأن المؤمنين والمشركين فتقول:

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ
عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ

أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ليقول للمؤمنين ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي سلمكم الله في دينكم وأنفسكم أنتم يامن أمرني الله بعدم طردهم من مجلسي، وسلام عليكم يا من تكونون على شاكلتهم، وليخبرهم بأن الله قد أوجب على نفسه الرحمة والمغفرة لكل من عمل سوءاً وخطيئة من غير قصد، (وقال مجاهد: فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل) وأن من آثر الدنيا على الآخرة فهو الجاهل، والمهم أن يتوب بعد الخطيئة ويصلح أعماله وأقواله فيعزم ألا يعود لمثلها أبداً . .

ولتخبره عليه وآله وصحبه السلام بأن الله كما فصل في هذه السورة الحجج والأدلة في محاجة المشركين فإنه تعالى يفصلها في كل أمور الدين فيبين كل حق ليتبع وكل باطل لينكر، وبذلك تظهر طريق الحق ومن يتبعونها ويسيرون فيها من طريق المجرمين ومن يسير فيها فلا يصبح لمعتذر عذر وقد هداه الله النجدين والطريقين بأن عرفه بهما وبمن يسير فيهما، وأمره أن يقول للمشركين بأن الله قد نهاه عن عبادة ما يعبدون من الأصنام وبالتالي لا يتبع أهواءهم فيما طلبوه منه من عبادة هذه الأشياء وطرد من أرادوا طردهم، وأنه لو استجاب إليهم لكان ممن يضلون عن الحق ويخرجون عن طريق الرشاد والهدى.

وأمره أن يقول للمشركين أيضاً بأنه عليه وآله وصحبه السلام على بينة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، وإن كذبوا هم بهذه البينة فلن يؤثر عليه ذلك في شيء، وأن يقول عليه وآله وصحبه السلام لهم بأن ما يستعجلونه من العذاب من باب تكذيبهم واستهزائهم لا يملك منه شيء من دون الله، وأن ذلك إلى الله وحده فهو صاحب الحكم والأمر والنهي، فإذا أخبرنا وقص علينا بشيء من ذلك فهو الحق ولا حق سواه لأنه سبحانه الذي يقضي ويحكم ويفصل في كل أمر من أمور خلقه،

وأن يقول عليه وآله وصحبه السلام لهم بأن الأمر لو كان إليه وعنده القرار في ذلك لأنزل عليهم ما يستحقونه من العذاب جزاء سوء أعمالهم واستخفافهم بأمور ربهم، وعندها ينتهي الأمر بهلاكهم، كيف لا والله تعالى أعلم بالظالمين وبالتالي ما يستحقونه من الجزاء العادل في الدنيا والآخرة.

فهلّا حذر من حذر، واعتبر من اعتبر، وأقبل المقصر على أعماله يتلافى التقصير فيها والمسيء يتخلص من إساءته والمحسن ليضاعف في إحسانه!!

فبعد أن يخاطب المولى سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في الآيات الخمسة السابقة بشأن المؤمنين والمجرمين، ليسلم على المؤمنين مهما كان حالهم إذا جاءوا مجلسه ولا يجفوهم لفقرهم مثلاً، وليخبر المشركين بأنه قد نهاه ربه عن عبادة آلهتهم، وأن طلبهم العذاب ينزل بهم هو إلى الله تعالى عالم الغيب والحاكم بالعدل، وأنه لا يملك من ذلك شيئاً إذ هو تعالى العالم بشركهم وما يستحقونه من عذاب.. بعدها يخبره سبحانه بأن العلم والقدرة له وحده سبحانه فيقول:

﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

مبيناً سبحانه له عليه وآله وصحبه السلام بأن مفاتح الغيب عنده وحده مما جعله صلى الله عليه وآله وسلم يقول «مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله...»، ويقول سبحانه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥] ولكنه سبحانه يطلع على الغيب من يشاء من رسله فيقول ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦]، فالله تعالى وحده العالم بكامل تفاصيل ما يتصل بالأجنة، وإن علم الأطباء بعض الأشياء، وهو سبحانه المحيط بعلمه بكل ما يأتي به الغد، وإن عزم الإنسان على عمل شيء أو أشياء، وهو سبحانه العالم بموعد نزول الغيث، وإن خمّن الإنسان برصد الأحوال الجوية باحتمالات سقوط الأمطار هنا أو هناك، وهو سبحانه المطلع على مكان موت أي إنسان، لأنه الآمر بانتهاء الأجل بغض

النظر عن الأحوال والظروف التي قد يحصل فيها، وهو سبحانه وحده العالم بوقت قيام الساعة، وإن أخبرنا رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأماراتها الصغرى والكبرى. .

ولهذا كله لا يجوز أن يجزم أحد من البشر أنه يحيط علماً بذلك وليقل بالاحتمال والظن فقط من باب الحساب والبحث لأن مدعي الغيب يدعى عرافاً، والعراف قال عنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم: «من أتى عرافاً ـ فسأله عن شيء ـ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»، وهو نفس حال المنجمين والكهان، فعلى المسلم الحرص على تجنب سؤالهم عن الغيب، وعلى الإنسان أن يتذكر بأن الله تعالى وحده العالم بما في البر والبحر وما يصيب من خير وشر حسب تقدير البشر لجميع المخلوقات فيها، كيف لا وهو سبحانه العالم بكل ذرة في الأرض، وثمرة على الشجر، وورقة على الأغصان، سواء كانت حية رطبة أو ميتة يابسة.. فليطمئنوا على أرزاقهم لأنها بيد رحيم كريم لا يمنع رزقه عن جميع مخلوقاته. .

كما عليه أن يتذكر بأن الله تعالى وحده الذي ينيم جميع البشر في الليل، فيمسك أرواح من انتهى أجله فلا يصحو في النهار التالي ويرسل أرواح من لم ينته أجله ليصحو ويكد ويعمل في النهار التالي، ويستمر في ذلك حتى ينتهي أجله فتقبض ملائكة الموت روحه بأمره تعالى ليرجع يوم القيامة إلى ربه ليحاسبه على أعماله، وفي هذا الإمهال للمؤمن، ليقبل على ربه بالندم والتوبة على ما فرط وقصر قبل أن يوافيه الأجل، وللكافر ليستدرجه بما يوفر له من رزق وحياة فلعله يتدبر في كل يوم بما يرى ويسمع من دلائل وجود وقدرة الله ولا سيما بهذه الوفاة التي تأتيه كل ليلة واليقظة بعدها مما يدل على البعث والنشر والحشر، وأن الله تعالى القادر على ما يعيشه بالليل والنهار قادر على بعثه وحسابه يوم القيامة.

وليتذكر أنه تعالى هو القاهر بقدرته وحكمته لكل خلقه، فلا يستطيعون الخروج على قضائه وقدره وأنه منحهم من القدرات والخاصيات التي يمارسون بها اختياراتهم ومسئولياتهم عن أعمالهم وأقوالهم مع معتقداتهم، فيجد كل إنسان ملائكة يحفظونه بأمر الله من الآفات في الليل والنهار، ويسجلون عليه أعماله، فيسجلون عليه الخير والشر، ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨] و﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وأنه يستمر تحت هذه الحراسة المشددة ليلاً ونهاراً حتى تتولى ملائكة الموت قبض روحه دون تقصير في طاعة الله، ويبعث بعد الحياة البرزخية في قبره للحساب يوم القيامة ليجد قضاء الله الحق بانتظاره فيتسلم الحكم إما بيمينه وإما بشماله من المولى سبحانه أسرع المحاسبين، إذ يحاسب ويبت بأمر الخلق كلهم كما يحاسب الفرد الواحد منهم.

وليتذكر الإنسان بأن أحداً غير الله لن ينجيه من شدائد البر والبحر إذا أخطأ الطريق أو خاف الهلاك، وأنه حتى عند جحوده لا يجد أحداً يدعوه غير الله لنجاته وهو في حالة الكرب زاعماً أنه سيطيعه إن نجاه منه، ولكنه ما أسرع ما يعود إلى شركه بمجيء الرخاء، فكيف ينسى ضعفه وتهافته أمام شدائد الدنيا الفانية ولا يذكر شدائد الآخرة الباقية؟!

وليذكر بأن الله تعالى وحده القادر على تعذيبه هو وقومه كما هو قادر على إنجائهم من الكرب، سواء بعذاب الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، أو بعذاب الخسف والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين، أو بالتمزق إلى فرق يقاتل بعضها بعضاً بسبب افتراق الحكام على طلب الدنيا، أو بالحرب والقتل في الفتنة فيما بينهم أو ضد غيرهم.. وهذه الحال الأخيرة هي التي يعيشها المسلمون اليوم حتى تجد اليهود إخوة القردة والخنازير ومن خلفهم يتطاولون عليهم ويدنسون مقدساتهم.. فمتى يفيقون من ذلك ويستردون عزتهم وكرامتهم؟!

وتواصل السورة مخاطبة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بشأن مشركي مكة وتكذيبهم لرسالته وما يجب أن يكون عليه موقفه وموقف أتباعه منهم ومن أمثالهم إلى يوم القيامة فتقول:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن

فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

مبينة أن مشركي مكة قد كذبوا بالقرآن أنه رسالة من الله تعالى مع أنه لا شك في ذلك بكل تأكيد، وداعية له عليه وآله وصحبه السلام بأن يقول لهم بأنه ليس بحافظ لأعمالهم حتى يجازيهم عليها وإنما هو منذر قد بلغ رسالته ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾، وبأن عليهم أن يعلموا بأن لكل خبر حقيقة، وأنه سيقع في وقته من غير تقديم ولا تأخير، سواء كان ذلك بما يحل بهم من أمثال يوم بدر في الدنيا أو في الآخرة..

وآمرة له عليه وآله وصحبه السلام بالإعراض عن كل من يكذّب بالإسلام ويسخر منه إعراض المنكر والرافض لذلك، وأنه إذا نسي ذلك وجالسهم فعليه إذا تذكر أن يقوم ولا يجالسهم، مما يدل على تحريم مجالسة أهل الكبائر الفجار وكل من يخوض في آيات الله سواء ادّعى الإيمان أو كان كافراً حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم «من وقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»..

ومذكرة للمؤمنين بأنه ليس عليهم شيء من حساب المشركين كحالهم في مكة غير تذكيرهم وزجرهم عن الخوض في آيات الله، فإن أبوا فحسابهم على الله ما دام لا يوجد الخليفة أو الإمام الذي يحاسبهم على ذلك والذي يفرض العمل لوجوده..

ومنبهة للرسول عليه وآله وصحبه السلام وصحبه بألا يعلق قلبه بالمشركين لأنهم أهل تعنت، وعليه بوعظهم، وهذا بالطبع نسخ لأنه جاء قبل ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وتوضح حالهم بأنهم اتخذوا الدين الذي دعوا إليه هزواً وسخرية واستمروا على الركض وراء متع الحياة الدنيا لأنهم لم يعلموا إلا الظاهر منها، ولذلك لا بد من تذكيرهم بالقرآن وبالحساب يوم الدين وأن كلاً منهم مرهون بأعماله فيهلك نفسه بيده، وأنه لو أراد أن يفتدي نفسه في ذلك اليوم الرهيب بأي فدية فلن تقبل منه ولن يجد له ناصراً ينقذه من عذاب الله جزاء كفره من شراب غال وعذاب أليم..

وداعية له عليه وآله وصحبه السلام أن يقول لأولئك المشركين بأنه لا يمكن أن يعبد هو وأتباعه مالا ينفعهم من الأصنام ولا يضرهم لو تركوا عبادتها، وأن يعودوا إلى الضلال بعد الهدى فيكونوا كمن استغوته الشياطين وزيّنت له هواه ودعته إليه فسار في الدنيا في حيرة واضطراب، رافضاً تلبية دعوة أصحابه المهتدين إلى الهدى، ومتجاهلاً بأن ما أنزله الله في كتابه وسنة نبيه هو الهدى المأمورون بالتزامه والخضوع لمنزله سبحانه، مع إقامة الصلاة والخوف منه تعالى الذي سيتولى الحساب يوم الحشر، كيف

لا وهو سبحانه القادر على ذلك كله لأنه قدر على خلق السموات والأرض بكل تأكيد، ولأنه سبحانه بكلمة كن يكون كلما قضى وقدر، وهو سبحانه يملك كل شيء يوم ينفخ في الصور الملك إسرافيل الموكل بذلك، وأنه جل وعز عالم الغيب والشهادة، أي الواقع والحاضر المشاهد، والحكيم في تدبيره والخبير في خلقه، فأنى لهم الهرب من الحساب والجزاء؟!

وتنقلنا السورة لتذكير الرسول عليه وآله وصحبه السلام بما حصل مع إبراهيم عليه السلام في حجاجه مع قومه وانتصاره عليهم وهبة الله له جزاء ذلك فتقول:

﴿۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)
وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ
كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا
أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي
هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ
هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا
إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ
وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا

لَيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كيف تتخذ أصناماً آلهة تعبدها مهما كانت مكانتك لدى النمرود لمسئوليتك عن خزانته وتترك عبادة الله أنت وقومك، مما يجعلني أعتقد أنكم في ضلال واضح؟! مبينة أنه لم يجاملهم رغم خطورة كلامه لهم..

واذكر كيف أن الله تعال قد أرى إبراهيم من ملكوت السموات ما قصه من الكواكب، ومن ملكوت الأرض والبحار والأشجار والجبال، مما استدل به على قومه وليكون على يقين مما يدعو إليه، وأن مما قاله لهم أن انظروا في هذا الليل البهيم إلى ذاك الكوكب، فإنه ربي إذا ثبت أنه يستحق الألوهية، ولكنه ما أن غاب حتى قال لهم بأنه لا يستحق ذلك لأنه غاب والإله لا يغيب وإلا ذهب ملكه..

ثم قال لهم أن انظروا إلى هذا القمر الساطع بنوره والذي يبدد ظلمة الليل به، فإنه ربي إن ثبت على أنه يستحق الربوبية، ولكنه عاد وأنكر أنه يستحق ذلك لأنه غاب أيضاً، مما جعله يجزم لهم أنه بحاجة لهداية ربه له وإلا كان مثلهم بعيداً عن الحق..

ثم دعاهم للنظر إلى الشمس وقد ملأت الدنيا ضياء، وظهرت بأكبر حجم مما كان عليه القمر، وقال لهم بأنها ربه لعظم ضيائها وكبر حجمها إذا لم تصر إلى ما صار إليه الكوكب والقمر من قبلها من الأفول، ولكنها صارت إليه بالفعل فأعلن لهم بأنه بريء من كل هذه الآلهة التي يشركون بها مع الله تعالى لأنها لا تستحق شيئاً من الألوهية والربوبية، وأنه لذلك فقد توجه بعبادته وتوحيده إلى الله تعالى وحده لأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأنه لن يميل إلى الباطل بل إلى الحق ولن يكون من المشركين بل الموحدين لله رب العالمين.

وهنا تذكر السورة بأن قومه قد حاجوه في توحيد الله، فاستنكر عليهم ذلك مبيناً علة ذلك ليسكتهم بأن الله قد أنزل له الهدى وأمره بكل خير ونهاه عن كل شر، فلذلك فهو لا يخاف إلا منه ولا يخاف من أصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، وإذا كان من ضر قد يلحقه فهو من الله بذنب عمله لأن الله تعالى عالم بكل شيء وبكل ما يصدر منه ومنهم، وأن عليهم أن يتذكروا ذلك فيخشوه وحده..

ثم استنكر عليهم كيف يتصورون أنه يخاف من آلهتهم التي يشركون بها مع الله بينما هم لا يخافون شركهم بالله القادر على إنزال أشد أنواع العذاب بهم، ودعاهم

لإعمال عقولهم والإجابة على سؤال: من منهم أحق بالأمن وعدم الخوف، هل هو الذي آمن بالله القادر على العقاب، والعالم بكل شيء، والذي لم يخلط إيمانه هذا بأي شرك أم هو الذي عكس ذلك؟

وهنا لم يتمالكوا إلا الهزيمة أمام حجة إبراهيم هذه لأن الله تعالى قد منحه من العلم والفهم والإمامة والملك ما رفعه درجات ومراتب عليهم، وأنّى لهم أن يهزموه ومعلمه ربه الحكيم بكل تدبير والعليم بكل مسير بحيث يضع كل شيء موضعه وفي الوقت المناسب له؟!

واذكر يا محمد أن الله قد وهب إبراهيم جزاء احتجاجه في الدين وتضحيته بالنفس في سبيله تعالى، قد وهبه إسحق ولداً ومنه يعقوب حفيداً، فكانا على الهدى، وإن كان قد سبقهم نوح بالهدى، كما وهبه من ذريته داود وابنه سليمان وأما لوط فإنه ابن أخيه إذ قال ابن عباس بأن هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن لم تلحق بعضهم ولادة من جهة أب أو أم، لا سيما أن العرب تجعل العم أباً، فإسماعيل عم يعقوب، وعيسى ابن البنت فأدخل في الذرية، وإلياس من ولد إسماعيل، واليسع هو صاحب إلياس، وجاءا قبل زكريا ويحيى وعيسى..

واذكر أن الله تعالى قد اصطفى بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم وليس كلهم لأن منهم من خرج عن الهدى، وأن ما أنزل الله عليهم هو الهدى الذي يهديه فينزله على من يشاء من عباده المصطفين، وأن أياً منهم لو أشركوا مع التوحيد الذي أمروا به لفسدت عليهم أعمالهم، فما أنزل عليهم من الكتب والحكمة والنبوة جعلتهم من المصطفين.

فاذكر يا محمد بأن من يكفر بتلك الآيات من هؤلاء الكفار الذين يعاصرونك فإن الله غني عنهم وهم الذين يخسرون أنفسهم لأن غيرهم سيؤمن بها، وفي ذلك إشارة إلى الأنصار من أهل المدينة والمهاجرين من أهل مكة، واعلم أن أولئك المصطفين من إبراهيم وذريته هم الذين اتبعوا هدى الله بالتوحيد والطاعة في كل ما أمر وما نهى، وأن عليك يا محمد أن تحتذي بهذا الهدى الذي تلزمون بأساسه من التوحيد ولزوم الطاعة بما خصصتم به من الشريعة والمنهاج لا بما خص به السابقون لأن الإسلام جاء شريعة للناس كافة بينما الشرائع السابقة جاءت خاصة كل منها بقوم معين، وإن كانت الشرائع كلها تلتقي في عقيدة التوحيد والتزام طاعة الله الواحد بما أمر ونهى للناس عامة كما في الإسلام، وللقوم خاصة كما في الشرائع السابقة له.

وينهي المولى سبحانه أمره لرسوله عليه وآله وصحبه السلام بأن يخبر قومه

المتهالكين على الدنيا وأموالها بأنه لا يطلب منهم مقابل دعوته لهم أي أجر، وأن القرآن الذي يدعوهم إليه إيماناً وعملاً هو موعظة للناس كلهم.

وتستعرض السورة للرسول محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أنماطاً من جهالات أهل الكتاب والمشركين تسلية له وتطميناً أن نصر الله له لابد آت فتقول:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ
مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ
قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ
ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ
إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ
فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ
وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ
وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ
ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن
نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن
طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ
أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ
وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ
خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ
ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ

﴿فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

مبتدئة بإنكارهم أنه تعالى لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح، ولذلك لم يعظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته، وسواء كان اليهودي فنحاص أو مالك بن الصيف الذي أنكر إنزال حتى التوراة غضباً لنفسه لأنه حبر سمين والتوراة تذكر (إن الله يبغض الحبر السمين) عندها سأله الرسول عليه وآله وصحبه السلام عن ذلك، والذي لزمته الحجة عندما سألته الآية عمن أنزل الكتاب على موسى، ذاك الكتاب الذي أخفوا منه صفة النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وغيرها من الأحكام، ثم خاطبتهم على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة، وأمرت الرسول عليه وآله وصحبه السلام أن يقول لهم بأن الله هو الذي أنزل التوراة على موسى وأنزل هذا الكتاب القرآن علي، وأن يدعهم يلهون في كذبهم مهددة لهم، ومؤكدة أن القرآن قد أنزله الله مصدقاً بنزول الكتب قبله إذ يوافقها في نفي الشرك وإثبات التوحيد، كما أنزله تعالى لإنذار أهل مكة وجميع الناس.

ومخبرة بأن أتباع محمد صلى الله عليه وآله وسلم هم المؤمنون به بإشارة أنهم يحافظون على صلاتهم مما يدل على أنه لا يعتد بإيمان من يؤمن بالآخرة ولكنه لا يؤمن بالنبي عليه وآله وصحبه السلام ولا بكتابه.

ثم تذكر جهالة أخرى لهم من كذب بعضهم على الله بأنه قد أوحي إليه فزعم أنه نبي كمسيلمة الكذاب وزوجه سجاح والأسود العنسي، ويستوي مع هؤلاء من زعم أن العلوم الإلهية قد اكتسبها بصفاء خاطره من الأكدار وخلوه من الأغيار مما جعله يستغني بها عن أحكام الشرائع الكليات بحجة أنه من الأولياء وأهل الخصوص الذين لا يحتاجون لهذه النصوص فيقولون: استفت قلبك وإن أفتاك المفتون..

فهذا القول كله من الزندقة والكفر لأن به تهدم الأحكام وتثبت النبوات بعد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

كما أنه يستوي مع هؤلاء من يزعم أنه سينزل أو يكتب مثل ما أنزل الوحي كعبد الله بن أبي السرح الذي ارتد ولحق بالمشركين وهو الذي استأمنه عثمان بن عفان رضي الله عنه كأخ له في الرضاعة لدى رسول الله عليه وآله وصحبه السلام، ثم حسن إسلامه بعد فتح مكة، وكان من الفرسان الكرماء في قريش فولاه عثمان مصر سنة خمس وعشرين وفتح شمال أفريقية وبلاد النوبة وغزا الصواري، ولكن ابن أبي حذيفة منعه بعد

الفتنة من دخول الفسطاط، ففر من الفتنة إلى الرملة في فلسطين حيث أقام حتى مات قبل اجتماع الناس على معاوية.

فأصحاب مثل هذه الجهالة هم من الظالمين بشركهم وهم الذين يعانون من شدائد الموت وسكراته وملائكة الموت تقبض أرواحهم، إذ يدعونهم لينقذوا أنفسهم من العذاب إذا كان ذلك في مقدورهم، ولكن هيهات! فعذاب الهوان الفظيع ينتظرهم جزاء افترائهم على الله وتكبرهم عن آياته والإيمان بها وقبولها.

ثم تذكّرهم بيوم الحشر وكيف أنهم سيقفون بين يدي حساب الله تعالى منفردين فلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر من أصحاب الغي ولا نفع من عبادة غير الله، فيكونون فرادى كما خلقهم الله ويتركون خلفهم كل ما أعطاهم الله في الدنيا من الأرزاق والمراكز، وكل ما زعموهم من شفعاء وأنصار.

وهنا تعدد السورة العديد من عجائب صنع الله مما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه فتذكر أولاً أنه الله تعالى الذي يشق الحب والنوى ليخرج منه النبات الأخضر بعد أن كان ميتاً، مما يعني خروج الحي من الميت كما يخرج الصوص من البيضة، وأما خروج الميت من الحي فبالعكس خروج البيضة من الدجاجة والحبوب من النبات، وبالنسبة للإنسان خروج الجنين من النطفة والنطفة من الإنسان، فهذا جانب من قدرة الله فكيف ينكرونها وهي ملموسة محسوسة لديهم ويذهبون إلى عبادة من لا يقدر على شيء من ذلك!!

وتذكر ثانياً بأنه تعالى هو الذي يشق الضياء من ظلمة الفجر، والذي يجعل الليل للسكن والراحة من كدح النهار، والذي يجعل الشمس والقمر لحسابات مصالح العباد، مما يجعل لكل ذي لب الدليل في ذلك على قدرته تعالى ووحدانيته فكيف يذهب العاقل إلى عبادة غيره؟!

وتذكر ثالثاً أن الله تعالى هو الذي جعل النجوم وسائط لمنافع كثيرة منها الاسترشاد في ظلمة البر والبحر بها، مما يشير إلى تفصيل مثل هذه الآيات لمن لديهم العلم بذلك والقادرون على الانتفاع بها دون غيرهم.

وتذكر رابعاً أنه هو الذي خلق البشر من نفس واحدة هو آدم وخلق منه زوجه حواء، وجعل لكل فرد من ذريتهم مستقراً في رحم أمه ومستودعاً في بطن الأرض في قبره حتى يوم البعث، مما يدعو المشركين وأهل الكتاب إلى توحيد الله تعالى ونبذ القول بالأبوة والبنوة، ورؤية ما في مثل هذه الآية من معجزة لمن يعي ويعقل.

وتذكر خامساً أنه هو تعالى الذي ينزل المطر من السماء فيخرج به النبات بأصنافه وألوانه العديدة، والذي يثمر من أزهاره المتنوعة الحب المتراكب كالسنابل وعناقيد

العنب وغيرها، والذي يُخرج من طلع النخل القنوان والعناقيد الضخمة التي قد تقترب حسب نوع النخلة من الأرض حتى ينالها القائم والقاعد، والذي يُخرج من العنب بأنواعه والزيتون والرمان الأنواع المختلفة في الألوان والأشكال والطعوم، ويكفي أن ينظر الرائي إلى ثمره عندما يثمر أولاً وعندما ينضج أخيراً ليرى عظيم عجائب صنع الله مما يزيد المؤمن إيماناً على إيمان.

وفي هذه الإشارة دليل على إسقاط الجوائح في الثمار سواء بسقوطها بسبب الصقيع أو الثلج أو الحر الشديد أو غير ذلك من الآفات، كما فيها دليل على منع بيع الثمرة حتى يبدو صلاحها وعن بيع الثمار حتى تذهب الآفة، حتى قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «أرأيت إن منع الله الثمرة فبم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق؟».

ثم تعود السورة لذكر جهالة أخرى من جهالاتهم وهي زعمهم بأن لله شركاء من الجن، فكيف يقولون ذلك والله تعالى قد خلقهم هم وخلق الجن أنفسهم سواء كان شركهم بالثنوية أم بالطاعة بدلاً من طاعة الله عز وجل.

وها هم المجوس يقولون بأن للعالم صانعين: إله قديم يخلق الخير ويسمونه إله النور، وإله حديث هو الشيطان، ويسمونه إله الظلمة.

وها هم اليهود والنصارى قد قالوا بالعزير أنه ابن الله والمسيح بأنه إبن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فإنهم جميعاً إذ خرقوا ذلك واختلقوه وافتعلوه فقد زاد في إثمهم وكفرهم زيادة على طاعة أحبارهم ورهبانهم من دون الله، فكيف يشركون بالله كل هذا الشرك وهو سبحانه خالق ومبدع السموات والأرض وما فيهن، مما لا يجوز أن يكون له ولد، ثم إن من يكون له ولد يكون له شبيه، والله تعالى لا شبيه له! ثم إن من يكون له ولد تكون له زوجة، والله تعالى لا زوجة له! وهو سبحانه الذي خلق كل شيء فأنى يكون شيء من ذلك لآلهتهم المزعومة؟!

فهذا هو ربكم الحق يا أهل الكتاب بألوهيته وربوبيته، فلا معبود بحق إلا هو، فالتزموا كلكم بعبادته لأنه خلق كل شيء وكل شيء معتمد عليه،

وهو سبحانه لا تدركه الأبصار بطاقاتها البشرية المعتادة وبحدودها التي تليق بالمخلوق لا بالخالق بينما هو سبحانه قادر بقدرته المطلقة التي لا حدود لها أن يدرك الأبصار ويدرك كل شيء، حتى قال مالك بن أنس عن الله بأنه لم يُر في الدنيا، لأنه باق ولا يُرى الباقي بالفاني، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي بالباقي، فمثل هذه المحدودية في الإدراك لا تنفي ولا تؤثر على الإيمان لدى المسلم لأنه إيمان بوجود الله، ووجوده تعالى مدرك من وجود مخلوقاته، وأما ذات الله تعالى

فهي مما لا تدركه العقول المحدودة لأنه خالق ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس محدوداً وفي إطار حدود إدراك العقول ولا رؤية العيون.

وهنا تنبه السورة بأن في ذلك من الآيات والبراهين والدلالات ما يبصر بها الإنسان العاقل ويستدل، وأن ما على الإنسان العاقل هذا إلا أن يعمل بصره وبصيرته في رؤية هذه الآيات المعجزات والاستدلال بها على قدرة الله وعظمته ووحدانيته، وأنه عندما يفعل ذلك يحقق أعظم الخير والنفع لنفسه، وأما من يصر على إقفال بصره وبصيرته، فصار كالأعمى، فإنه يعود على نفسه بأعظم الشر والضرر، وأن عليه أن يعلم بأن الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام لم يؤمر بحفظ الناس من إهلاك أنفسهم عندما يصرون على رفض الحق والهدى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشّمس: ٩-١٠].

كما يجب أن يتذكر هذا الإنسان بأن الله تعالى كما صرف الآيات في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه في هذه السورة فإنه تعالى يصرفها في غيرها حتى يقولوا بما شاءوا فإن الحق بين ولاسيما لكل من له علم بحقيقة هذه الآيات.

وتخاطب بعدها السورة الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه بشأن موقفهم من المشركين فتقول:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ
أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ
وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا
عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا
لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا
فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ
وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن
فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾

داعية له عليه وآله وصحبه السلام ليتبع القرآن الكريم وما يوحيه إليه ربه معه «أوتيت القرآن ومثله معه» من السنة ولايشغل قلبه بأولئك المشركين والكافرين وإنما يشغله بعبادة الله الذي لا إله ولا معبود بحق غيره، ويعرض عن المشركين فلا يقيم لصدهم وأذاهم أي وزن بل يواصل تبليغه لرسالته ما دام في هذه المرحلة ولم تصبح إليه السلطة والقوة المادية التي بها يستطيع أن يحسم هذا الأمر معهم وذلك بإلزامهم على العيش تحت حكم الإسلام، أي ليس له ولا لمن يحمل دعوة رسالته في مثل هذا الدور المكي، دور الدعوة، أن يتجاوز العمل الفكري والكفاح السياسي، وأما في دور السلطة والحكم والدولة، الدور المدني، فعليه أن يضيف لذلك العمل المادي بتطبيق الإسلام في الداخل وحمل دعوته للخارج بالجهاد وما لازمه من صراع فكري وكفاح سياسي.. وهو بالضبط نفس الحال والأعمال والواجبات التي سار عليها الرسول عليه وآله وصحبه السلام في حمل رسالته الإسلامية للعالم..

فيتركز عمله في المرحلة المكية على بناء المجتمع، حتى إذا ما نضج واكتمل وتهيأ الرأي العام للنقلة التطبيقية انتقل من هذه المرحلة الفكرية السياسية إلى المرحلة التطبيقية الجهادية، فلا يقيم وزناً للمشركين وأعمالهم في المرحلة الأولى لأنه سينتصر بعون الله عليهم وينتقل إلى المرحلة الثانية، كيف لا والمولى سبحانه يؤكد بأنه لو شاء بقضائه وقدره أن يمنعهم من الشرك لفعل ولكنه سبحانه أعطاهم فرصة الاختيار بما منحهم من القدرة على ذلك ليخوض معهم حملة الدعوة المعارك الفكرية السياسية أولاً ثم الجهادية ثانياً وأخيراً فيتعرض كل من الطرفين للابتلاء والاختبار للمؤمنين والاستدراج للكافرين حتى توسد الدنيا وسلطانها لمن يستحقها بجدارة واقتدار فينال المؤمن المجاهد أعظم الأجر بالنصر في الدنيا وبنعيم الجنة في الآخرة كما ينال الطرف الآخر خزي الهزيمة في الدنيا وشديد العذاب في الآخرة.

وتكمل الآية تأكيدها للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن الله تعالى لم يجعل إليه في المرحلة المكية القوامة والرعاية لأمور مصالحهم لدينهم ودنياهم.

وفي ذلك إشارة إلى أن ذلك سيكون إليه في المرحلة المدنية التالية، بينما هو في

هذه المرحلة المكية ليس براع لمصالح دينهم ودنياهم وإنما هو مبلغ فقط، وأنه متى جاءت المرحلة المدنية بعدها سيكون له ذلك..

فانتبهوا يا حملة الدعوة الإسلامية إلى أمر الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، ولا تتعجلوا النصر بالقفز إلى الأعمال المادية القتالية قبل أوانها فتخالفوا طريق حمل الدعوة التي رسمها المولى سبحانه لرسوله وأمره التقيد بها ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ في المرحلة المكية و﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] «إنما القوة الرمي، إنما القوة الرمي، إنما القوة الرمي» في المرحلة المدنية.

ثم تنبه السورة الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وأتباعه بأن يتجنبوا في جميع الأحوال والمراحل سب آلهة الكفار حتى لايستثاروا فيسبوا الله تعالى بجهلهم وعنادهم، وهو حكم قائم إلى يوم القيامة ولا سيما عند ضعف المسلمين ومنعة المشركين، وهذا ما يطلق عليه بعض علماء أصول الفقه الإسلامي بسد الذرائع، وما هو في الحقيقة إلا حكم شرعي بدليل صريح يقاس عليه بالقياس الشرعي الصحيح مما لا يصح معه أن يجعل أصلاً من الأصول، فحيثما تحققت العلة في الحكم صار الحاكم أو الفقيه إلى القياس السليم، القياس الشرعي بعلته الشرعية لا القياس العقلي البعيد عن الشرع لعدم وجود علة شرعية يُبنى عليها.

وتنهي السورة الآية بالإشارة لدواعي سبهم واعتدائهم وجهلهم، وأنها بسبب ما فطر الله عليه كل أمة من الأمم من تفضيل ما تعمله على ما يعمله غيرها، وأنه تعالى الحكم الفصل يوم القيامة بمحاسبتهم على ذلك بالعذاب الشديد لاختيارهم الباطل على الحق بينما يجزي أولئك المؤمنين بالنعيم الخالد لاختيارهم الحق على الباطل.

ثم تدعوه صلى الله عليه وآله وسلم وأتباعه لينظروا لأولئك المشركين وهم يحلفون أغلظ الأيمان وأشدها بالله تعالى، إذ كانوا يقسمون بالله عند التشديد وبأصنامهم وغيرها عند التخفيف، فكانوا يقولون عن أصنامهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] وفي نفس الوقت يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم.

فكانوا يشددون الحلف على الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه لو جاءهم بآية كما جاء موسى وعيسى وغيرهما بآيات ليؤمنن معه بالقرآن والإسلام، فسألهم عليه وآله وصحبه السلام عما يريدون، فقالوا بأن يجعل لهم الصفا ذهباً، فأخذ الرسول عليه وآله وصحبه السلام في الدعاء فجاءه جبريل عليه السلام فقال (إن شئت أصبح ـ الصفا ـ ذهباً، ولئن أرسل الله آية ولم يصدقوا عندها ليعذبنهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم) فقال

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم «بل يتوب تائبهم» فنزلت هذه الآية ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وفيها تأكيد للرسول عليه وآله وصحبه السلام ليقول لهم بأن الله قادر على الإتيان بما طلبوه، وله وحده سبحانه أن يفعل ذلك إذا شاء، والمهم أن عليهم أن يعلموا بأنها إذا جاءتهم فقد يؤمنون وقد لا يؤمنون، بمعنى وعندها سينزل بهم العذاب الساحق كما هي سنة الله إذا لم يؤمنوا كما حصل مع الأمم السابقة.

وتكمل السورة لفت نظر الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه إلى حال المشركين وأنهم، والمقصود بعض كبرائهم وعتاتهم ممن استمروا على الكفر، قد أقفلوا عقولهم وعيونهم عن رؤية الحق الواضح في آيات الله تعالى ومعجزاته، وكأنهم لم يسمعوها إلا لأول مرة، وأنهم سادرون في غيهم وطغيانهم، وأنهم لو رأوا الملائكة عياناً، وكلمهم الموتى بأن أحياهم الله لهم، وجمع الله لهم كل ما سألوه من الآيات ليروها بأم أعينهم لما آمنوا، اللهم إلا إذا تدخل قضاء الله وقدره وفرض عليهم الإيمان فإنهم سيؤمنون، وهذا ما لا يحصل لأنه سبحانه قد منح لكل إنسان قدرة الاختيار ليتحمل مسئولية عمله وسعيه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّجم: ٣٩-٤١]، وأن هؤلاء المشركين يجهلون الحق في أكثريتهم ولا يدركون معنى طلب الآيات.

وتنقلنا السورة بعدها لتعزية النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم وتسليته بقوله تعالى له بأنه كما ابتلاه بهؤلاء القوم فكذلك جعل لكل نبي قبله أعداء من شياطين الإنس والجن، فيقوم شياطين الجن بالوسوسة إلى شياطين الإنس بتزيين الباطل لهم ودفعهم للحرص عليه، فيغرونهم بذلك أشد الغرور، ويجعلونهم يتصدون للحق، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ وقوله عليه وآله وصحبه السلام: «ما منكم من أحد إلا قد وكّل به قرينه من الجن» وقوله عليه وآله وصحبه السلام لأبي ذر: «يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن؟» قال: يا رسول الله، هل للإنسان من شياطين؟ قال: «نعم، هم شر من شياطين الجن».

وتنتهي الآية بدعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليدعهم مهدداً لهم إذا استمروا في افتراءاتهم مع أن الله تعالى قادر بالتدخل بقضائه وقدره ومنعهم من ذلك، ولكنه سبحانه أعطاهم مهلة الاختيار مما يجعلهم مع إقفال عقولهم وعيونهم عن الحق والإقبال على إغراء وغواية الشياطين يميلون بقلوبهم إلى مواضع الإغراء والغواية لأنهم لايؤمنون بالآخرة والحساب بالجنة أو النار على أعمالهم في الدنيا، وليفضلوا ذلك كله

على الإيمان واتباع الحق وليواصلوا ارتكاب الكفر والمنكر.. ويوم القيامة سيرون جزاء سوء اختيارهم..

ثم تدعوه صلى الله عليه وآله وسلم السورة ليسأل هؤلاء المشركين فيما إذا كانوا يريدون منه أن يرتضي لهم غير الله حكماً مع أنه هو سبحانه الذي كفاهم مئونة طلب الآيات بما أنزله عليهم من الكتاب المفصل المبين الواضح الصريح، وأن عليهم أن يعلموا أن اليهود والنصارى عامة ومن أسلم منهم كسلمان وصهيب وابن سلام خاصة يعلمون علم اليقين بأن القرآن قد أنزله الله تعالى بكل ما فيه من وعد ووعيد بالحق، وأن عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلم هو وأصحابه بأنهم يعلمون ذلك بدون أدنى شك في ذلك.. كيف لا وقد اكتملت كلمات الله من وعد ووعيد وغيرهما في القرآن، وأنه لامبدل لذلك مهما افترى المفترون وكذّب المكذبون، وأنها اكتملت بالصدق والعدل في كل ما وعد وحكم، فلا راد لقضائه ولا خلف في وعده.

وفي هذا الدليل على وجود الأخذ بدلالة القرآن، لأنه من لدن حكيم لا يخفى عليه شيء من كل الأمور، وهو سبحانه السميع لكل ما يقال والعليم بكل ما يفعل ويعتقد.

ثم واصلت السورة دعوة الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن لايطيع أكثر سكان المعمورة من الكفار لأن دأبهم إضلال المؤمنين وإبعادهم عن الطريق التي تؤدي إلى ثواب الله، وأنهم في كل ما يعتقدون ويقولون ويفعلون لا يتبعون إلا الظن والتخمين، وأين من ذلك اليقين اللازم في الإيمان؟ وأنه عليه وآله وصحبه السلام عليه أن يعلم بأن ربه عالم بكل ضال عن سبيل الحق، وبكل مهتد متبع سبيل الحق، فليطمئن لحكمه العدل، كيف لا و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فهو تعالى لا يحاسب الناس بعلمه وإنما علمه المطلق يحيط بأعمالهم فيحاسبهم على أعمالهم التي يحيط بدقائقها مما لا يوقع أي ظلم عليهم.

وبعلمه سبحانه المطلق بالضلال والهدى، والضالين والمهتدين، يدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام المؤمنين وجميع أتباعه إلى يوم القيامة للأكل مما يحدده سبحانه وتعالى لهم فيقول:

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ

﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

بأن عليك أيها النبي ومن تبعك أن تذكروا اسم الله على الشراب والذبح وكل مطعوم، فتأكلوا منه وتشربوا هنيئاً مريئاً إذا كنتم آخذين بأحكام الله وأوامره، لأن الإيمان بها يتضمن ويقتضي العمل بها والانقياد لها، ثم تسألهم عن المانع لهم من أكل ما سمّوا عليه ربّهم وإن قتلوه بأيديهم، لأن الله تعالى قد فصّل وبيّن لهم الحلال من الحرام، فلم يعد هناك لبس ولا شك في ذلك، ثم استثنت الآية أكل ما اضطروا لأكله من جميع ما حرّم عليهم كالميتة وغيرها، والاضطرار لا يكون إلا عند تعرض الجسم كله أو بعضه للهلاك بسبب ما له علاقة بالأكل والشرب.

ثم تذكّر الآية الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه بأن الكثير من الناس المشركين يُضلون غيرهم تبعاً لأهوائهم ورغباتهم وليس عن علم بأحقية ما يقولونه إذ كانوا يقولون: ما ذبح الله بسكّينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم، مع أنهم لا يعلمون أحقية أمر الذبح والزكاة وأهميتها في إهراق الدم بدلاً من حجزه مع اللحم عندما يموت الحيوان حتف أنفه..

ثم تأمرهم السورة بأن يدعوا ظاهر الإثم مما يعمله الإنسان ببدنه من الحرام، وباطنه مما عقد عليه قلبه من مخالفة أمر الله ونهيه، وذلك لأن الله تعالى سيجازي على اقتراف ذلك بما يناسب كل عمل.

ثم تنهي السورة الإشارة للآكل بالأمر بعدم أكل لحم كل ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها عند الذبح، وأن ذلك معصية وخروج على طاعة الله، وهنا يجري التساؤل عما ترك المسلم التسمية عليه عمداً عند الذبح، وعند إرسال الصيد، فقال أحمد بن حنبل وغيره يجوز الأكل عند السهو لا عند العمد، وقال الشافعي ومالك وغيرهما يجوز الأكل عند السهو والعمد، لأن التسمية سنة، وقال داود وغيره لايجوز الأكل عند السهو والعمد معاً، وقال القاضي أبو الحسن وغيره من المالكية يكره الأكل عند العمد فقط، وقال الطبري: يجوز الأكل عند الترك عمداً إلا إذا كان مستخفاً متهاوناً فإنه فسق لا تؤكل معه الذبيحة، وقال آخرون التسمية على الذبيحة ليست بواجبة، وهذا هو الراجح، لقوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم لمن لا يعرف فيما إذا ذكر اسم الله على الذبيحة أم لا حقيقة: «سمّوا الله عليه وكلوا» ولا سيما أن هذا الحديث ثابت إنه قيل في المدينة بينما سورة الأنعام مكية..

ثم تواصل السورة التنبيه على الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه بأن كل ما يفعله المشركون في الذبائح هو من وسوسة الشياطين الذين يلقون في قلوبهم الجدال بالباطل من مثل: ما ذبح الله فلا تأكلوه، وما ذبحتم أنتم فكلوه، أو لا تأكلوا ما ذكر اسم الله عليه وكلوا الميتة التي قتلتموها أنتم، فلا قيمة للتسمية ولا علاقة لهم بها،

ولذلك تقول الآية بأنكم أيها المؤمنون إن أطعتموهم في تحليل الميتة فإنكم تقعون في الشرك معهم، مما يدل على أن من استحل شيئاً مما حرم الله فقد أشرك، ولا سيما إذا كان طاعة للمشركين في اعتقادهم، وأما لو كان طاعة لهم دون اعتقادهم فهو المعصية وليس الشرك.. فاحذروا ذلك أيها المسلمون!

وتأتي السورة بعدها للتمييز بين المؤمن والكافر في حال كل منهم وأقواله ومآله فتقول:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ
بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ
مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن
نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ
صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ١٢٤ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ
لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ
يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ
جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا
بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ١٢٨ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ
رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ
ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

ربطاً بالميتة وتحريم أكلها فإن السورة تقول بأن الكافر كالميت، ولكنه يصبح حياً عندما يهتدي إلى الإيمان، ويصبح له نور بالتزامه بالإيمان ومتطلباته بحيث يرى طريقه

وهو يتعامل مع الناس ويدعوهم إليه، فتتساءل الآية مقررة أن هذا الكافر الذي آمن واهتدى وأخذ يدعو إلى الله لا يمكن أن يكون مثل ذاك الكافر الذي يصر على البقاء في ظلمة بل ظلمات الكفر والجهالة، وذلك أن هذا الضال قد استجاب لوساوس الشيطان وتزيينه لعبادة الأصنام، وأوهمه أنه أفضل من المسلم.

ثم تلفت السورة نظر المسلمين إلى الكافرين وما هم عليه من أتباع كل جماعة منهم لأكابر مجرميهم ذلك بما لديهم من مكر ودهاء، مما ينطبق عليهم بأنهم شياطين الإنس، إذ يغوون أتباعهم لمواصلة السير معهم على الضلال وأنهم في الحقيقة واقعون في سوء أعمالهم إذ سيجدون العذاب الأليم على مكرهم دون أن يدركوا ذلك لشدة جهلهم وعنتهم،

وفي الآية دليل على تحذير الناس من تقليد رؤسائهم وزعمائهم وأتباعهم بناء على أقوالهم ومزاعمهم دون تمحيص ومقارنة بالحق ونصوصه والعدل ومقاييسه.

ولذلك تعود السورة وتقول انظروا إليهم وإلى نمط آخر من جهل هؤلاء الأكابر، وهم يقولون بأنهم لن يؤمنوا حتى يكونوا أنبياء فيرسل إليهم كما أرسل إلى موسى وعيسى من الآيات، فهم سواء كانوا الوليد بن المغيرة أو أبو جهل أو غيرهم قد ادعوا أحقيتهم بالنبوة فجاء رد المولى سبحانه وتعالى عليهم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ أي بمن هو مأمون عليها وموضع لها، ولذلك على هؤلاء المجرمين العتاة أن يعلموا بأنهم سيحل بهم الذل والهوان والعذاب الشديد بسبب مكرهم وخداعهم لأتباعهم ليتبعوهم على الضلال..

وليعلموا أن أعمالهم هي ليست بأكثر ممن عماه الكبر عن الحق، ورفض فتح عقله وتوسيع صدره لاستقبال الإسلام ليصل للهدى والنور، واستمر على التعالي عن الإيمان، ولن يكون له إلا العذاب في الآخرة واللعنة في الدنيا، مع أن صراط الله المستقيم الذي عليه الرسول عليه وآله وصحبه السلام وأتباعه واضح أمامهم بعد أن تم تفصيل الآيات لكل عقل وتذكر، وأن للمتذكرين الجنة، دار السلامة من الآفات، عندما يبعثون للحساب يوم القيامة، يوم يجدون فضل الله ورحمته تتولاهم جزاء أعمالهم، يوم يحشر المولى سبحانه جميع الخلق للحساب فيحاسب الجن عن إكثارهم من الاستمتاع بالإنس فيردون بأن كلاً منهم قد استمتع بالآخر إذ تلذذ الجن بطاعة الإنس لهم، وتلذذ الإنس بغواية الجن لهم، وأنهم استمروا على ذلك حتى الموت والقبر، وحتى جاءوا للحساب نادمين، وأي ندم ولات ساعة مندم! إذ يقال لهم بأن النار موضع مقامهم حيث يخلدون فيها إلا أن يعذبوا بغير النار بقضاء حكيم في عقوبتهم، وعليم بمقدار

مجازاتهم، وأن هذا التولي والاستمتاع بعضهم ببعض يتكرر بحق بعض الظالمين عندما يتولون بعضهم بعضاً ثم يتبرأ بعضهم من بعض في ذاك اليوم الذي يجري فيه الحساب، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» إذ وما من ظالم إلا ويبلى بأظلم منه في الدنيا، وفي ذاك اليوم الذي يسأل فيه الجن والإنس عما إذا لم تأتهم رسل منهم بلّغوهم آيات الله وأنذروهم بيوم الحساب، فيعترفون بأن ذلك قد حصل ولكن متع الحياة الدنيا وشهواتها قد أغرتهم وخدعتهم بظنهم أنها دائمة لهم، وأنها ستذهب عنهم إن آمنوا، ويقرون بكفرهم بشهادة جوارحهم عليهم بالشرك.

وهنا تعقب السورة على هذا الاعتراف والإقرار من كفرة الإنس والجن بكفرهم قائلة:

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

وهي تخاطب الرسول عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بأن ذاك الجزاء قد وقع لأن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بظلمهم أي بشركهم قبل أن يرسل إليهم الرسل فينكروهم بحيث يكون عذابهم على كفرهم بالكتب والرسل، كما يكون النعيم الخالد على إيمان غيرهم بذلك، فيكون الجزاء من نوع العمل ويكون على درجات متفاوتة في الجنة حسب الأعمال، وعلى دركات مختلفة في النار حسب الكفر وما يصاحبه من أعمال، سواء كانوا جناً أو إنساً، وما ذلك إلا لأن الله تعالى يحاسب كل من خاطب وكلف تبعاً لمستوى طاعته واستجابته لأمره ونهيه، فلا هو سبحانه ليس بلاهٍ ولا منشغل بأحد عن أحد، فالكل ينتظره حسابه، كيف لا وهو سبحانه الغني عن خلقه وعن أعمالهم، والرحيم بأوليائه وأهل طاعته، والقادر على إماتتهم جميعاً والإتيان بخلق آخر أكثر طوعاً منهم تماماً كما أتى بهم ممن كانوا قبلهم،

وليعلموا جميعاً بأن ما توعدهم الله به من العذاب يوم القيامة قادم لا محالة، فليسارع كل منهم للاستعداد له بحسن الإيمان والعمل ليتخلص منه وينال عفو القادر الرحيم.

وقل لهم يا محمد هلموا أيها الناس إلى العمل، وليلتزم كل منكم سبيله ليرى ما ينتظره، وتأكدوا أن الكفار ينتظرهم سوء الحساب وشديد العذاب، وأن المؤمنين تنتظرهم العاقبة المحمودة والجنان المرغوبة، لأن الفلاح عاقبة المؤمنين والخيبة عاقبة الظالمين المشركين.

وتتحدث بعدها السورة عن نمط آخر من شرك المشركين وأثره في حياتهم فتقول:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا
لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ
إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ
قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ
فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ
خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟
وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ
مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟
حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ
كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ
ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ
ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً
أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ

وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

مبينة للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن أولئك المشركين قد تفننوا في شركهم فجعلوا لله تعالى مما خلق لهم من الزروع والأنعام نصيباً ولأصنامهم نصيباً بحيث إذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سدنتها عوضوا منه بما لله، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضيوف والمساكين لم يعوضوا منه شيئاً، وقالوا بأن الله مستغن عنه بينما شركاؤهم فقراء محتاجون له، وكل ذلك من زعمهم وكذبهم، وبذلك فقد أساءوا الحكم.

وكذلك فقد افتروا فرية أخرى استجابة لوساوس الشيطان ولرغباتهم وأهوائهم الشريرة عندما مارسوا عملية قتل أولادهم، سواء بنحر أحدهم إذا جاءوا كلهم غلماناً، كما كاد يفعل عبد المطلب عندما نذر ذبح ولده عبد الله، مما يؤدي إلى هلاكهم وتخليط دينهم الذي ارتضى لهم عندما يأمرونهم بالباطل ويشككونهم في دينهم، دين إسماعيل الذي كانوا يدينونه، والذي كان لا قتل فيه، فعليهم أن يعلموا أن الله تعالى لو شاء بقضائه وقدره أن يمنعهم من ذلك لمنعهم ولما فعلوا منه شيئاً، ولكنه سبحانه ابتلاهم بما أنعم عليهم من قدرة الاختيار، ولذلك دعهم يا محمد لاختيارهم الكاذب وقولهم بأن لله شركاء.

وانظر إليهم وهم يقولون في نمط آخر من جهالاتهم وأكاذيبهم بأن هذا النوع من الأنعام والزروع محجوزة على من يشاءون كما يزعمون من خدام أصنامهم، وهذه أنعام أخرى محرم ركوبها واستخدامها مما سموه بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، كما ذكر سابقاً، وهذه أنعام ثالثة لا يذكر اسم الله عليها وإنما تذبح لآلهتهم، وأن ذلك كله من الافتراء والكذب على الله لأنهم كانوا يقولون: الله أمرنا بهذا..

وانظر إليهم وهم يقولون إن أجنة أنعام معينة حلال للذكور وحرام على الإناث،

في نمط آخر من جهلهم وشركهم، وأن تلك الأجنة لو جاءت ميتة فإن الذكور والإناث يشتركون فيها، وأن الله تعالى سيحاسبهم بالعذاب على كذبهم وافترائهم.

وفي هذه الآية دليل على تعلم الرأي الآخر للرد عليه إذ علم سبحان النبي عليه وآله وصحبه السلام وأصحابه قول من خالفهم ليعرفوا فساده..

وتعقب السورة على ذلك ببيان عاقبة هؤلاء المفترين بأن الخسران سيلحق بمن قتلوا أولادهم خوف الفقر وحرموا على أنفسهم أموالهم لا بسبب الخوف من الفقر كما يقولون فأوقعوا أنفسهم في تناقض الرأي والموقف.

وتواصل التعقيب مستنكرة عليهم شنيع أفعالهم تلك بحجة الفقر مثلاً وكأنهم لا يرون ما ينشئه سبحانه لهم من بساتين مرفوعات الأغصان وغير مرفوعات، ومن نخل وزروع مختلفة الطعوم، ومن زيتون ورمان متشابهاً وغير متشابه، مما يدل على نعمه تعالى وقدرته في الخلق والإبداع، الأمر الذي يُرفض معه الشرك وحجر الأرزاق، وأن ما عليهم أمام هذه الأنواع العديدة من الأرزاق والنعم إلا أن يأكلوا ويتمتعوا بهذه الثمار الطيبة ويخرجوا زكاة ما يجب زكاته منها سواء كانت العشر أو نصف العشر،

العشر في أرض المطر ونصف العشر في أرض الساقية، عملاً بقوله عليه وآله وصحبه السلام «فيما سقت السماء العشر وفيما سقي بنضح أو دالية نصف العشر»، وسواء كان في كل ما تنبت الأرض من طعام أو غيره إلا بعضها كالحطب والحشيش والقصب كما قال الأحناف، أو في بعضها فقط كالحنطة والشعير والتمر والزبيب، كما أجمع العلماء، وهو الراجح. وقال الحنابلة بما قاله الأحناف إذا كان يوسق لقول الرسول عليه وآله وصحبه السلام «ليس فيما دون خمسة أوسق من تمر أو حب صدقة»، وقالت الشافعية تجب الزكاة في كل ما ييبس ويدخر ويقتات للأكل، وقال عمر بن عبد العزيز ما قاله الأحناف ولكن دون استثناء شيء مما تخرج الأرض من قليل أو كثير، ورأى القرطبي بأن الصحيح هو ما رآه القاضي بن العربي في أحكامه، وهو ما رآه أبو حنيفة من أن الزكاة على كل مقتات دون الخضروات لأن الترمذي يروي حديثاً بأنه صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم قال عنها «ليس فيها شيء»، وقالت المالكية بأن الزكاة فيما يدخر مع نفي جميع الفواكه بحجة أنها لا تدخر، فكيف بهم إذا رأوها اليوم ومنذ زمن تدخر! وأن موعد الزكاة على ثلاثة أقوال من العلماء: إما وقت الحصاد، وإما وقت الطيب قبل الحصاد، وإما بعد تمام الخرص، والراجح الصحيح هو وقت الحصاد للنص الصريح في ذلك.

وأما الخَرْص فصفته أن يقوم به الواحد الخبير في ذلك بأن يقدّر ما على النخل

من الرطب، ويقدّر ما ينقص لو صار تمراً، ويحسب ما بقي بعد النقص على أن يحسب نخلة نخلة بهذا الشكل، وكذلك في العنب دالية دالية، وأن يكون بعد الطيب أي النضج، وأن يسقط من خرصه مقداراً ما لقوله عليه وآله وصحبه السلام «إذا خرصتم فخذوا ودعوا الثلث، فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع» وذلك للصلة والفقراء، ويكون من العشر أو قبل أن يعشر، كما يراه الحاكم، وأن يسقط الزكاة كلها إذا لحقت الثمرة جائحة بعد الخرص وقبل الحصاد إلا أن يكون الباقي خمسة أوسق فصاعداً، وأما الزكاة فلا تؤخذ في أقل من خمسة أوسق من تمر أو حب، ولا يجمع بين نوعين من الثمار أو الحب لإخراج الزكاة، ولا تحسب الزكاة إلا فيما حصل في يد المالك بعد الدّرس.

ونعود بعد عرض مجموعة الأحكام من هذه الآية إلى مواصلة التفسير فنجد أن الآية تأمر بعدم الإسراف، وهو عدم الأخذ للزكاة أو غيرها بغير حق ثم إنفاق ذلك في غير الحق، مهما قل أو كثر..

ثم تنقلنا السورة للآية التالية فتعطفها على ما قبلها بأن الله تعالى قد أنعم على البشر، مؤمنهم وكافرهم، من الأنعام، و هي الإبل والبقر والغنم، ما يصلح للحمولة والفرش، أي ما يصلح لحمل الأثقال، كالإبل، وما يصلح للفرش، وهي الجلود والصوف والشعر التي تؤخذ كأكثر شيء من البقر والغنم بنوعيها الضأن والماعز، ناهيك عن أمره تعالى بأن يأكل البشر منها لحومها ويشربوا ألبانها وبذلك يكونوا مع طاعة الرحمن ولا يسمحوا لوسوسة وإغراء الشيطان بالذهاب إلى المحرمات، سواء في المأكل والمشرب أو المفرش والملبس وما يتعلق بها.

ثم حددت الآيتان التاليتان هذه الأنعام الحلال فذكرتها في ثمانية أزواج: زوجان من الضأن، وآخران من الماعز، وآخران من الإبل، وآخرين من البقر، فشملت الذكر والأنثى من كل نوع بعبارة الزوجين، وأكدت أن ذلك كله حلال مما جعل العلماء يرون أن في الآية احتجاج على المشركين في أمر البحيرة وما ذكر معها، وأن ما زعموه من ذلك كله تحريم بدون سند ولا حجة، ثم استنكرت عليهم فعلتهم فسألتهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي هل شاهدتم الله قد حرم هذا؟! وأنهم لما لزمتهم الحجة أخذوا في الافتراء على الله فقالوا: كذا أمر الله، فبين لهم تعالى بأنهم كذبوا إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل.

وأمر المولى سبحانه بعدها رسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بأن يخبر المشركين في مكة بأنه لا يجد فيما أوحى إليه تعالى محرماً إلا تلك الأشياء المذكورة في الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وليس ما يحرمونه هم بشهواتهم، لأنها كلها رجس ونجس أو خروج عن طاعة الله إن ذكي لغير الله مما جعله يعتبر ميتة ولو ذبح.

وقد أضيف لهذه المحرمات غيرها في المدينة كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة والخمر وغير ذلك، مما ورد في القرآن وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، مما ورد في السنة، بالإضافة لغيرها من لحوم الحمر الأهلية وغيرها من المستقذرات والحشرات. وأما التذكية فقد ورد بحثها سابقاً كما ورد بيان حكم المضطر في (البقرة) بشكل أكثر تفصيلاً.

وتتبع السورة بعد بيان المحرمات على المسلمين بيان المحرمات على اليهود عقوبة لهم على بغيهم وظلمهم، سواء بقتل الأنبياء أو الصد عن سبيل الله أو أكل الربا واستحلال أموال الناس بالباطل، وذلك تكذيباً لهم في قولهم بأن الله لم يحرم عليهم شيئاً وإنما حرموا على أنفسهم ما حرّمه يعقوب على نفسه، فجاء هذا التحريم تكليف بلوى وعقوبة في نفس الوقت.

وتذكر الآية بأن ما حرمه الله عليهم هو كل البهائم والطيور ذوات الأظافر مثل الإبل والنعام والإوز والبط، وحرم عليهم شحوم البقر والغنم باستثناء الشحوم الملاصقة للكلى والمحيطة بالكرش والأمعاء والمختلطة بالعظام، وأن هذه المحرمات قد رفعها المولى سبحانه بالإسلام فلا قيمة لاعتقادهم بها لأنه اعتقاد فاسد في دين منسوخ.

وقل يا محمد لهؤلاء المشركين إن كذبوك فيما بينته لهم بأن رحمة الله واسعة بحلمه عنهم فلم يعاقبهم في الدنيا ولكن عذابه شديد في الآخرة بحيث لا يستطيع أحد أن يدفعه عنهم.. فليحذروا التكذيب وليسارعوا هم وأمثالهم لدخول الإسلام قبل فوات الأوان.

وانظر إليهم يا محمد وهم بشركهم يقولون بأن الله لو شاء ما أشركوا لا هم ولا آباؤهم، ولا حرموا شيئاً، فإن هؤلاء من كفار قريش الذي حرّموا البحيرة وغيرها يزعمون بأن الله لو شاء لأرسل إلى آبائهم رسولاً فنهاهم عن الشرك وعن تحريم ما أحل لهم فينتهوا فاتبعوهم على ذلك فرد الله عليهم ذلك بأنه لا علم عندهم ولا دليل على زعمهم، وأن كل ما يدّعونه هو ظن لاتقف به حجة لهم.

ولذلك قل لهم يا محمد بأن الحجة القاطعة لكل عذر هي لله وحده إذ يبين لهم أنه سبحانه الواحد، وأنه أرسل الرسل والأنبياء، فبين التوحيد، وأيد الرسل بالمعجزات، وألزم كل مكلف بأمره ونهيه، وأما قضاؤه وقدره فغيب لا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وأنه سبحانه قادر على أن يقضي عليهم بالهداية كلهم ولكنه منحهم قدرة الاختيار ومكّنهم من ممارستهم لذلك فعليهم أن يتحملوا مسئولية اختيارهم الشرك ولا يحمّلوها لآبائهم الذين كانوا على شركهم مثلهم..

وقل لهم يا محمد ليأتوا بشهدائهم على أن الله حرم ما حرموا، وأنهم إن شهد بعضهم لبعض فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبي، وليس معهم شيء من ذلك.

ثم جاءت السورة بأمر الله تعالى لرسوله عليه وآله وصحبه السلام ليبين لهم ما حرم ربهم عليهم، ويخبرهم بما أنزله على موسى، ويأمرهم بما يجب أن يتبعوا، ويكفوا عن مزاعمهم الكذابة، فتقول:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا
تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا
بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ
وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ
دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ
رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ
أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ
فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ
جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠) قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا
قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

وهي تقترب من نهايتها أن قل لهم يا محمد تقدموا واقرأوا حقاً يقيناً، كما أوحى إلي ربي، لا ظناً ولا كذباً كما زعمتم، ما حرمه عليكم ربكم أيها المشركون، بل أيها الخلق أجمعون، بدلالة قوله تعالى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

إنها تجنب الشرك بالله تعالى، والإحسان إلى الوالدين ببرهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما إلا في الشرك بالله، وعدم قتل الأبناء بحجة الفقر فإن الله تعالى رازقكم وإياهم، وعدم الاقتراب من الفواحش جميعها الظاهر منها للعيان والخفي منها، وعدم قتل النفس البشرية إلا بالحق، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة» وبدلالة نصوص أخرى تحرم غير هؤلاء الثلاثة من المسلمين وغير المسلمين، وأن هذه المحرمات هي مما وصاكم وأمركم به ربكم لتفهموها وتفعلوها وتلتزموا بها، وبالإضافة إليها:

عدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه واستثماره بحفظ أصوله وتثمير فروعه وذلك حتى يبلغ أشده وقوته في بدنه ومعرفته وتجربته بالبلوغ والرشد معاً مهما بلغ عمره، وإيفاء الكيل والميزان بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء،

واعلموا أن الله تعالى لا يكلف أحداً من البشر إلا جهد طاقته في إيفاء الكيل والميزان إذ المهم المحاولة في الحرص على عدم التفاوت ما بين الكيلين والكفتين بحيث لا يطفف عند العطاء ويرجح عند الأخذ، بدلالة قوله تعالى الآخر ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١-٣]، واعلموا أن من المحرمات عدم العدل في جميع الأحكام من الحكام، والشهادات من الشهود، ولو كان المحكوم عليه أو المشهود ضده من الأقارب، كما مر في سورة (النساء)، ومنها عدم الوفاء بكل ما عهده الله إلى عباده من العقود بين الناس إلى العقود مع الله إلى العقود مع الذات، وأن في ذلك من الوعظ اللازم العمل به.

واتبعت السورة هذه القائمة من المحرمات الملزمات بآية عظيمة يأمر فيها المولى سبحانه الخلق أجمعين باتباع طريقه الذي تكشف عنه الأحاديث الصحيحة وأعمال الصحابة القويمة لأنه الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه والذي سلكه رسوله المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم سواء في تبليغ الدعوة في عهدها المكي أو في تطبيق

الشريعة في دولة حملت الدعوة بالبيان والعمل، بالقول والجهاد في الداخل والخارج، بحيث من يسير عليه يكون على جادة النجاة ومن يخرج عنه إلى تلك الطرق الأخرى الكثيرة والتي يملأها الاعوجاج والانحراف فإنها تفضي به إلى النار في الآخرة، والفشل والخيبة في الدنيا، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام لمن سأله: فما تعهد إلينا؟

«قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد»، وبدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «تفرقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين»، وبدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «يكون من أمتي قوم يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون كما كفرت اليهود والنصارى» وهم أهل الضلال والبدع والإيمان ببعض القرآن والكفر ببعضه، وقد نهت السورة عن مجالستهم وبيّنت أن من جالسهم حكمه حكمهم فقالت: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ الآية إلا إذا انتهى عند ذلك بدلالة قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ ما داموا يصّرون على القدح في آيات الله.

وعطفت السورة بعدها المتقدم وهو إنزال التوراة على موسى عليه السلام على المتأخر وهو إنزال القرآن وما فيه من المحرمات على محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فكأنها قالت:

قل يا محمد تعالوا أتلُ ما حكم ربكم عليكم ثم أتل ما آتينا موسى تماماً على كل من أحسن الإيمان والعمل وتفصيلاً وبياناً لكل شيء يسأل عنه وهدى ورحمة في الدنيا والآخرة لما في بيان ذلك من حجة للإيمان بالبعث والحساب ولا سيما أن هذا القرآن الذي أنزله تعالى بخيراته الكثيرة مطلوب منهم اتباعه والسير عليه دون تحريف ولا تبديل كما جرى مع التوراة، وأن بذلك يرجى لهم حصول الرحمة، وإياكم أن تقولوا يا أهل مكة بأن التوراة والإنجيل قد أنزلا على اليهود والنصارى، وأنه لم ينزل عليكم كتاب بعد أن نزل هذا القرآن عليكم خاصة وعلى البشرية عامة.

كما احذروا القول بأنكم كنتم غافلين عن تلاوة وفهم كتبهم ولغاتهم، لأنه ها هو قد زال العذر لكم بمجيء محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبين لكم كل شيء مما فيه هدى ورحمة لمن اتبعه، وسوء العذاب لمن كذب به وأعرض عن كتابه القرآن الذي جاء به من ربه..

وماذا تنتظرون بعد أن أقيمت عليكم الحجة ونزل هذا الكتاب فلم تؤمنوا؟! هل

تنتظرون ملائكة الموت تقبض أرواحكم أو أمر الله فيكم بالقتل أو غيره من العذاب أو مجيء آية من آيات الله كطلوع الشمس من مغربها وعندها تكون قد فاتت عليكم فرصة الانتفاع بالإيمان، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» ولأن من تاب في مثل هذه الحال لن تقبل توبته، كما لا تقبل توبة من حضره الموت، بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر».. وتنتهي الآية بالتهديد والوعيد ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي بكم العذاب.

ثم تأتي السورة لتأمر الرسول عليه وآله وصحبه السلام بأن اليهود والنصارى الذين مزقوا دينهم وقسموه إلى عقائد مختلفة فتركوه في حقيقته وخرجوا منه ليس عليه في عقابهم من شيء وإنما عليه إنذارهم فقط وأن أمرهم إلى الله تعالى فلا يحزن لعدم استجابتهم لأن الله تعالى سيخبرهم يوم الحساب بحقيقة أعمالهم وكفرهم،

وأعلمهم يا محمد بأن من فعل حسنة فإنه سيجزى من رحمة الله وفضله بعشر أمثالها من الحسنات، وأما من يقترف سيئة فإنه سيجزى من فضل الله ورحمته بمثلها فقط، وليطمئنوا بأن انتقاصاً من ثواب أعمالهم لن يحصل، وهذا الجزاء أقل مما على الجهاد في سبيل الله حيث يصل الجزاء إلى سبع مئة مِثل بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام «وأما حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها، وأما حسنة بسبع مئة فالنفقة في سبيل الله».

وتواصل السورة الأمر للمصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ليقول للناس كافة وللمشركين وأهل الكتاب بخاصة بأن الله تعالى قد هداه إلى الدين المستقيم، وهو دين إبراهيم عليه السلام، الدين الذي لا عوج فيه وليس كما انتهى إليه دينكم يا أهل الكتاب من التمزيق والترك، وليقول لهم بأن صلاته وحجه بل كل أعمال البر والطاعات التي يأمر بها دينه، ومعها كل ما يعمله في حياته وما يوصي به بعد مماته، كلها ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد أفرده بالتقرب بها إليه، وأنه قد أمر ليكون بذلك أول المسلمين.

وقد استدل الشافعي رضي الله عنه بهذه الآية برواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض، حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين..» الحديث وإن كان العلماء لم يختلفوا بأن الافتتاح بهذا النص أو غيره ليس بفرض وإنما سنة نافلة..

ثم تأمره عليه وآله وصحبه السلام السورة ليقول لهم مستفهماً وموبخاً فيما إذا كانوا يريدون منه غير الله رباً ومالكاً وهو رب ومالك كل شيء، وليعلمهم بأنه لن ينفعه ابتغاء رب غير الله لأنهم على ذلك لأنه لن تكسب أي نفس إلا عليها وهي التي تتحمل نتيجة كل معصية وخطيئة..

وفي هذا النص دليل على عدم جواز بيع الفضولي كما رأى الإمام الشافعي، وأما إذا أجازه المالك فهو جاء كما رأى الإمام مالك والإمام أبو حنيفة، وهو دليل على جواز الوكالة. وأما ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فتعني بأن أحداً لن يحمل ثقل غيره، فمن أذنب فذنبه هو وحده محاسب عليه اللهم إلا إذا شاركه غيره فيه ولو من باب السكوت عنه وعدم نهيه عن المنكر بدلالة قوله عليه وآله وصحبه السلام لمن سأله: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»، وقال عليه وآله وصحبه السلام «الساكت عن الحق شيطان أخرس» وبدلالة قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل: ٢٥] فمن كان إماماً في الضلالة، سواء حاكماً أو عالماً، ودعا إليها، واتبع عليها، فإنه يحمل وزر من أضلّه من غير أن ينقص من وزر الضال المُضل شيء.

وتنتهي السورة بالمنّ على البشر بأن الله تعالى قد جعلهم خلفاً لمن كان قبلهم من الأمم السابقة، فحري بهم أن يردوا الفضل بالاعتراف للمتفضل فيؤمنوا به ويلتزموا محبته وطاعته ولا سيما وقد رفع بعضهم فوق بعض في الخلق والرزق والقوة والبسطة والفضل والعلم إلى درجات وذلك بقصد ابتلائهم واختبارهم ليظهر منهم أمام أعينهم ما يكون غايته الثواب والعقاب فلا يملك أحدهم إلا الإقرار بما أحسنه أو أساءه، فالموسر قد ابتلاه تعالى بالغنى وطلب منه الشكر، والمعسر قد ابتلاه بالفقر وطلب منه الصبر، وقال لهم ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ ثم خوفهم بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ورجاهم بقوله ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ لمن أطاعه، وأن من إمهاله لهم لا إهماله أن جعل الجزاء الأوفى يوم القيامة وإن أنذرهم بأنه آت لا ريب فيه إذ قال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ وإن حذر من العقاب في دار الدنيا لكل من واقع الخطيئة وارتكب المعصية. فليحذر عقاب المولى سبحانه كل من كان له عقل مدرك متبصر، وليرجو رحمته سبحانه كل من ألقى السمع متبصراً مؤمناً مقبلاً عاملاً مجاهداً.

دليل سورة الأنعام ـ ٦

ـ إنها سورة مكية بنى عليها المتكلمون أصول الدين، وقد أنزلت في ١٦٥ آية.

ـ تبدأ السورة بالحديث عن قدرته سبحانه في خلق السموات والأرض والظلمات والنور.. وما وقع فيه المشركون من الشرك منكرين المعجزات وغير معتبرين بالأمم السابقة.. ومهددة لهم بالهلاك مع إنكار المعجزات التي يطلبونها عندما تأتيهم.. ومذكّرة لهم بأن ما يقضيه تعالى من خير أو شر، من رخاء وعافية أو فقر ومرض، يجب أن يكون موضع رضى وتسليم..

ـ ثم تحذر من إنكار وحدانية الله تعالى لأنه الظلم الذي لا مغفرة له، كما أن تكذيب الرسل وإنكار البعث تنتهي إلى عذاب النار مهما حل بصاحبها من الحسرة والندامة يوم الحساب، ولذلك تدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ألا يحزن لتكذيبهم له وقد اقفلوا عقولهم عن الإيمان وظنوا أن الله تعالى لا يحيط علمه بهم وبأفعالهم فتواسيه عليه وآله وصحبه السلام بأن هذا ما حصل من الأمم السابقة مع رسلهم..

ـ ثم تدعوه عليه وآله وصحبه السلام ليحرص على مجالسة الفقراء المؤمنين ولا يبالي بطلب الزعماء المشركين لطردهم لينفردوا به، ويستمعوا له.. كما يتجنب مجالسة من يطعن بآيات الله تعالى..

ـ وبعد المقارنات بين المؤمنين والكافرين تشير السورة إلى العديد من الأمور الأخرى، فتؤكد بأن علم الغيب إلى الله تعالى وحده، وأنه الرزاق وحده، وأن بيده الحياة والموت وحده، وأنه تعالى القادر على إيقاع العذاب بهم..

ـ فتذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وكيف غلبهم بحجته.. وما كافأه تعالى من النبوة في ذريته جزاء صدقة وإخلاصه.

ـ وتذكر إنكار اليهود إنزال الكتب فتدعو الرسول عليه وآله وصحبه السلام ليحجّهم بكتاب التوراة.. كما تدعوه ليبلّغ جميع الناس بصدق نزول الكتب..

ـ ثم تورد أدلة على صنع الله المعجز من مثل إخراج النبات الحي من النواة الميتة.. ومثل تتابع الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر، وخلق البشر من شخص واحد، وإنزال المطر من السماء لتدب الحياة في الأرض..

ـ ثم تذكر بعض جهالات المشركين من مثل زعم شراكة الجن مع الله في الخلق والتدبير.. فتنعى عليهم تفكيرهم السقيم.. وتؤكد للرسول عليه وآله وصحبه السلام بأنه المبلغ للهدى لهم وليس الحافظ من الهلاك جزاء كفرهم وعنادهم.. كما تأمره بعدم سب آلهتهم حتى لا يسبوا الله بجهلهم.. ولعدم الظن بهم الصدق والإيمان لو نزلت عليهم آية.. وبعدم الاهتمام بمكائدهم ضده ودعوتهم المستمرة للإيمان والتخلي عن الكذب على الله بالتلاعب بالألفاظ من مثل أن ما ذبحه الله بسكينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم..

ـ ثم تحذر من ظاهر الإثم مما تقترفه الجوارح أو باطنه مما يجول في العقول والخواطر سواء بالنسبة للذبح ووجوب ان يكون باسم الله في مكة ثم جعلت سنة في المدينة.. أو بالنسبة لغيره من وساوس الشياطين.

ـ ثم تذكر نمطاً آخر من جهالات المشركين وذلك بربط إيمانهم بجعلهم أنبياء وأصحاب بينات كموسى وعيسى عليهما السلام مع علمهم بأن ذلك لله تعالى وحده..

ـ ثم تخاطب الإنس والجن في استمتاعهم بغواية بعضهم البعض دون أن يلتزموا بما جاءهم من رسل الله إليهم إذ هو سبحانه لا يعذب قوماً إلا بتكذيبهم للرسل اليهم وتعنتهم في ذلك.

ـ ثم تذكر جهالة أخرى من زعمهم بأن لله نصيباً في زروعهم وأنعامهم ولأصنامهم نصيباً.. ويقتلون بناتهم خوفاً من الحاجة والسبي مع تحريم ذلك عليهم..

ـ ثم تذكر جهالة أخرى من تحريمهم أنواعاً من الإبل كالبحيرة والوصيلة والسائبة والحام على غير آلهتهم.. وينسون أن الأنعام والزروع أرزاق من الله تعالى سواء كانت الأنعام بأزواجها الثمانية من ضأن وماعز وبقر وإبل أو فواكه..

ـ وهنا تورد ما حرم على المسلمين أكله من اللحوم وما حرم على اليهود مهما زعموا بنفيها..

ـ ثم تستنكر ما يسندونه لمشيئة الله من أفعالهم وأن ذلك من الظن الكاذب المردود..

ـ ثم تذكر ما حرمه تعالى عليهم من الشرك، والعقوق، وقتل الأولاد، وارتكاب الفواحش من سرقة وزنا ورياء، وقتل النفس ظلماً، والتعدي على مال اليتيم، وعدم العدل في الكيل والميزان، والشهادة الباطلة، ونقض العهود..

ـ وتأمر بني إسرائيل بالإيمان بالقرآن والعمل به، كما تأمر أهل مكة بعدم الزعم بأن الله تعالى لم ينزل عليهم شيئاً والقرآن بين أيديهم يكذب زعمهم.. ثم تأمرهم بأن يذكروا بأنهم بانتظار ملائكة الموت وبعدها العذاب بعد ضياع فرصة الندم والتوبة إذا أصروا على ما كانوا عليه من العناد في الإنكار والكفر.. وأما إذا تخلصوا من ذلك وآمنوا بالله ورسوله فسيكون لهم أعظم الأجر والثواب..

ـ وتنتهي السورة بتذكير البشر كلهم بحساب كل فرد منهم يوم القيامة وفق أعماله بغض النظر عن التفاوت فيما بينهم في الرزق وغيره لأن ذلك كله للإبتلاء والاختبار وتحصيل للثواب أو الوقوع تحت العقاب.

فتبرز الأمور التالية :

١ ـ التأكيد من الآية ٣٨ بأن دواب الأرض والطيور كلها هي أمم كالبشر، وكلها تعبد الله تعالى كل بطريقته ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

٢ ـ من الآية ٥٠ لا يجوز الاجتهاد في حق الرسول لأن ذلك مما يجيز عليه الخطأ وهذا مما لا يجوز وهو المبلغ عن ربه وإن قال العلماء القائلون بذلك بأن جواز ذلك ممكن لأن الوحي لا يقره على الخطأ لو حصل.

٣ ـ التأكيد من الآية ٥٢ بالحرص على الفقراء المؤمنين مهما تظاهر الأغنياء بالتقرب من الإسلام وبغض النظر عن طلب النصرة ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾..

٤ ـ ومن الآية ٦٩ حصر الدعوة في مكة بالتذكير والزجر والتحذير من عذاب الله تعالى ما دام لا يوجد خليفة أو إمام للمسلمين كما حصل في المدينة يتولى حساب المشركين بإنزال العقاب المناسب.. وفي ذلك دليل ضمني لوجوب العمل لإقامة الخلافة وتنصيب الخليفة..

٥ ـ ومن الآية ١٠٣ يؤكد المولى سبحانه بأن الأبصار لا تدركه بطاقاتها المحدودة بينما هو سبحانه يدركها بقدراته غير المحدودة، وهذا في الدنيا كما قال مالك ابن أنس إذ لا يُرى الباقي بالفاني، وأما في الآخرة فيرى الباقي بالباقي بعد أن يرزق بقدرات باقية..

٦ ـ ومن الآيتين ١٠٦ و١٠٧ بيان لمرحلة الدعوة المكية وما فيها من حصر العمل بالفكر بعيداً عن المادة، بحيث تنتقل إلى المرحلة في المدينة بإضافة العمل المادي الجهادي للفكري السياسي.

٧ ـ ومن الآية ١٠٨ تحريم سب آلهتهم لكيلا يسبوا الله تعالى بجهالتهم.. مما يؤكد حرمة الوسيلة المؤدية إلى الحرام قطعاً..

٨ ـ ومن الآية ١٢٣ نهي عن تقليد الرؤساء والزعماء في أقوالهم وأفعالهم دون تمحيص وتثبت بأنهم على الحق لا على الضلال.

٩ ـ ومن الآيات ١٣٦ ـ ١٥٠ دليل على تعلم الرأي الآخر للرد عليه لأن الله تعالى علّم رسوله وأصحابه أقوال المشركين بشأن الأنعام ولحومها وأجنتها ليردوا عليهم فسادها.

❑❑❑

الفهرس

نبذة من سيرة الكاتب **٥**

تمهيد **٧**

تَقْدِيم **١١**

الإستعاذة **٢٨**

البسملة **٢٩**

سورة الفاتحة (١) **٣١**

التقديم ٣١

التفسير ٣٢

دليل سورة الفاتحة ٣٥

سورة البقرة (٢) **٣٦**

التقديم ٣٦

التفسير ٥٣

دليل سورة البقرة ١٣٢

سورة آل عمران (٣) **١٣٦**

التقديم ١٣٦

التفسير ١٤٩

دليل سورة آل عمران ١٨٦

سورة النساء (٤) **١٩٠**

التقديم ١٩٠

التفسير ٢٠١

دليل سورة النساء ٢٦٤

سورة المائدة (٥) **٢٦٧**
التقديم ٢٦٧
التفسير ٢٧٩
دليل سورة المائدة ٣١٩
سورة الأنعام (٦) **٣٢٢**
التقديم ٣٢٢
التفسير ٣٤٠
دليل سورة الأنعام ٣٨٣